عالم الفكر
العدد 1 المجلد 37 يوليو - سبتمبر 2008

اللغة العربية في إيران منذ الإسلام حتى اليوم: لماذا لم تنتقل من النخبة إلى الشعب؟

د. فكتور الكَك (*)

جاء حين من الدهر غدت فيه اللغة العربية لغة عالمية: فقد انتشرت بانتشار الإسلام في أصقاع متنوعة ومتباعدة، وإذا بيان العرب ينداح مشرقا من تخوم الصين إلى الجنوب الغربي من أوروبا، باسطا جناحيه فوق الشرق الأوسط ومصر وشمال أفريقيا، إلا أن الذي أرسى قواعد انتشارها الكوني كانت الحضارة التي احتملتها لغة الضاد، فارتادت الإنسانية بها آفاقا لا تزال تنعم بها حتى اليوم.

هذه الحضارة أطلق مسيرتها العرب بنشر لغة القرآن، جنبا إلى جنب مع انتشار الإسلام، فتلقفتها الصفوة من الشعوب التي دخلت فيه أفواجا، ناقلة إلى بيانها الطافح بالحيوية تراثها المتقادم، مفجرة، عبرها، طاقاتها الكامنة أو المترهلة بمرور الزمان.

وقد انمازت الأمة الإيرانية، من بين سائر الأمم، بالإسهام الكبير في حضارة العرب والإسلام، وبالتبريز في العربية وتقعيدها وجمعها، فحدا ذلك ابن خلدون على القول إن أكثر حملة العلم في الإسلام كانوا من العجم [1].

ومع ذلك، وعلى الرغم من واقع انتشار العربية، الذي سنعرض له في إيران الكبرى أيامئذ، لماذا لم تتحول العربية في أراضي الشاهنشاهية الساسانية إلى لغة تعبير شعبية كما حصل في

(*) مدير مركز اللغة الفارسية وآدابها - وأستاذ الحضارة العربية الإسلامية والأدب العربي - الجامعة اللبنانية - بيروت.

بلاد ما بين النهرين وسوريا وفلسطين وساحل لبنان؟ حتى إذا ما أخذ القرن الثالث للهجرة يتصرّم اشتد عود اللغة الفارسية الدّرية وظهرت بوادر الشعر فيها، لينطلق هادرا مع رودكي، من بعد (المتوفى ٣٢٩هـ/ ١٠٢٠م)، إن في تتبع مسار العربية عبر القرون ودراسة الأسباب والنتائج، دروسا وعبرا تنير طريقنا في سعينا المطلوب إلى استعادة لغتنا دورها العالمي.

تلازم الإسلام والعربية

رافق انتشار الإسلام في إيران شيوع اللغة العربية لغة دين وحكم ونخب، ومع أن العربية لم تتحول إلى لغة يومية، لكنها اكتسبت هالة من القداسة لأنها لغة الدين الجديد، بما أوحي به إلى الرسول قرآنا منجما، وتكرر توكيد ذلك مرارا:

﴿إنا أنزلناه قرآنا عربيا﴾ (٢).

﴿وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا﴾ (٣).

﴿وهذا لسان عربي مبين﴾ (٤).

بذلك، أُحكمت بين الدين الجديد ولغة القرآن رابطة لا تنفصم، فأدى الأمر إلى نتائج معرقة في الأهمية والعمق، من ذلك أن ترجمة القرآن بلغات أخرى كانت تبدو غير ممكنة، فمعانيه الرفيعة ومغازيه العميقة ما كانت لتنقل إلى لغة من دون تعرضها إلى تبديل أو تحوير أو نقص ما، وهو أمر يؤدي إلى تشويه كلام الله وإخراجه عن جوهره ومقاصده، من هنا حتم هذا الارتباط غير المنفصم العرى على كل مسلم تعلم اللغة العربية، أيا كانت لغته الأم، توسلا إلى فهم دينه بفهم القرآن عقيدة وشريعة ونهج حياة، ولاسيما أن ذلك عزز بالحديث النبوي القائل: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».

وإذا أضفنا إلى ذلك ما رافقه من سيطرة سياسية طبيعية للحكام من العرب، وشغف المغلوب في تقليد الغالب، وإن يكن دونه حضارة، وفاقً قاعدة ابن خلدون الاجتماعية، أدركنا تلقي الإيرانيين لغة العرب على أنها لغة مقدسة وشريفة في آن، وعادات العرب وتقاليدهم ونهج حياتهم على أنها شؤون مثالية، فغدت قدوة لهم ومثالا ينسجون عليه.

العربية تلتحم بالثقافة الإيرانية

في هذا السياق الحيوي التحمت ثقافة العرب بحياة الإيرانيين، والثقافة - مهما تعددت مفاهيمها - تختصر في أنها منهج حياة، وكانت اللغة العربية المتجسدة في القرآن والشعر العربي العمود الفقري لهذه الثقافة.

خلال تلك المرحلة هبطت اللغة الفهلوية الساسانية من مستوى رسميتها إلى مستوى اللغات واللهجات الإيرانية الأخرى، التي كانت متداولة في أرجاء الشاهنشاهية الساسانية، فامتزجت مفرداتها بمفردات العربية الوافدة، وتراجعت معاقل صفائها إلى بيوت النار الزرادشتية لغة طقوس ورسوم.

ومع ترسخ السلطة العربية في أطر الحياة وشؤونها في إيران، وطموح أهل البلاد إلى المشاركة في السلطة والحياة العامة، وهجرة بطون وأفخاذ من القبائل العربية إلى إيران واستقرارها هناك، وامتزاجها بالإيرانيين في الجوار والزواج والتعاطي اليومي، ازداد نفوذ العربية في ألسنة الإيرانيين ولهجماتهم، حتى إذا انقضى القرن الثالث للهجرة، أو كاد، كانت اللغة الفارسية الدرية قد اشتد أسرها، معيدة إلى إيران لغتها القومية، وإن متوكئة على العربية في سبيل النهوض.

وخلال تلك الحقب من التطور كانت الدولة العباسية قد استحكم سلطانها، واشتد اختلاط العرب بالإيرانيين، لاسيما في العراق قاعدة الخلافة، ونشأ جيل مولد من الشعبين، نبّه منه شعراء بالعربية مجلّون طوروا الشعر العربي، وأسلسوا صياغته، وخرجوا به عن التقليد إلى التجديد في الموضوعات والأساليب والتعابير وما إلى ذلك.

في كنف هذا الإرث الشعري العريق المتجدد، نشأ شعراء الفارسية الأولون، كان هؤلاء من ذوي اللسانين العربي والفارسي، تفتحت قرائحهم على العطاء الشعري بالعربية، بعد آن ثقفوا علوم العربية الموصلة وعلوم الدين، وحفظوا من الشعر العربي قصائده ومقطوعاته وتفقهوا في أساليب بيانه.

فبعد مرور نيف وقرنين على قيام الخلافة، وهنت السلطة المركزية وازداد استقلال حكام الأطراف، رافق هذا المد الاستقلالي في السياسة والحكم عودة التبلور في الهوية، وبروز الحس القومي من جديد، فشجع الصفاريون في الجنوب الشرقي من إيران، ثم السامانيون في تلك الأطراف وخراسان وآسيا الوسطى (لاسيما في عاصمتهم بخارى) شعراء البلاطات على اعتماد اللغة الفارسية الدرية - أي لغة البلاط، دَرْبار - لغة تعبير شعري، وهكذا بدأ شيئا فشيئا عهد من الاستقلال الأدبي في إيران مواز للاستقلال السياسي النسبي.

انحاز الشعراء الإيرانيون، الذين كانوا قد قرضوا الشعر بالعربية، إلى صياغته بالفارسية، وراضوا طباعهم في التعبير بهذه اللغة، بعد العربية، وهكذا برز جيل من شعراء اللسانين معا، من أمثال شهيد البلخي والرُّودكي وأبي الطيب المُصعَبي وحنظلة الباذغيسي وسواهم، فانطلقت قافلة الشعر الفارسي ولاتزال، مضاهية شعر العرب غزارة وحيوية وغنى [4].

لقد غدت الأمة الإيرانية بعد الإسلام أمة شعر تُدِلّ على الدنيا بتراث لها فريد، وما كانت كذلك من قبل، بل كان لُب تراثها في العهد الساساني يدور في فلك الأدبيات الدينية، ومع أن قسما من ذاك التراث ضاع أو ضُيع، لكن ما تبقى منه لا ينبئ بأن مكانة الشعر كانت فيه سامقة، والإنتاج فيه كان غزيرا ومميزا، فقد نشأ شعراء الفارسية الأولون، كما ذكرنا، في

كنف الشعر العربي، فاتخذوه مثالا يحتذى في المضمون والشكل، في فنونه وأغراضه ومطالبه Themes، وأساليب بيانه وتبيينه، وعروضه، وكان الشعر العربي، منذ العهد الجاهلي، قد بلغ مكانة سامقة، واستحكم مضمونا وقالبا، وغدا النموذج الذي اتخذه شعراء العربية، من عرب وغير عرب، في ما بعد، ولا سيما الإيرانيين منهم، فكأنهم حين جعلوه مثالا أعلى في شعرهم بالفارسية قد استردوا بذلك بعض بضاعتهم وإسهامهم في الإبداع فيه.

دمغة العربية ومثاليتها

كانت الدراسة في آلاف الكتاتيب التي انتشرت في دار الإسلام، لاسيما في إيران، تقوم على تعلم القراءة وقواعد العربية في صرفها ونحوها، بالسليقة والمعاينة أولا، ثم على نهج سيبويه ابن بيضاء شيراز، ثم يعمد العلماء إلى تحفيظ تلامذتهم قصائد الشعر الجاهلي ومعلقاته، ولا سيما مطولات امرئ القيس ولبيد والأعشى وسواهم، وصولا إلى جرير والفرزدق والأخطل، فإلى بشار وأبي نواس، ومهيار الديلمي وأبي تمام والبحتري والمتنبي، متدارسين مذاهبهم في البلاغة، وما ذلك إلا سبيل إلى فهم القرآن وما انطوى عليه من عقيدة وشريعة، لذلك سميت هذه العلوم وسواها العلوم الموصلة، ولما لم تكن العربية لغة الإيرانيين الأم فقد بذلوا في سبيل تعلمها لفهم دينهم الجديد ما لم يبذله العرب، فأدى الأمر بهم، في ما بعد، إلى التفوق، بعد أن انتشرت العجمة في الألسن باختلاط الأعراق واللغات، يقول دولتشاه السمرقندي ما ترجمته بالعربية في هذا الموضوع «إن الفصاحة والبلاغة من خصائص العرب، وإن شعراء الفارسية يحذون حذو شعراء العرب في هذا الصدد، ولا سيما في أوزان الشعر لأن العرب هم أساتيذ هذا الفن غير منازعين»[٦].

إلا أن ديوان المتنبي في القرن الرابع للهجرة وما بعده و«قفا نبكِ» معلقة امرئ القيس، قبل ذلك، شكلا دُرتي البرامج الدراسية أيامئذ. جاء في تاريخ البيهقي ما يعني بالعربية «قال الأمير مسعود لعبدالغفار: ينبغي أن يؤخذ من الأدب بطرف، فعلمني قصيدتين من ديوان المتنبي وقفا نبكِ»[٧].

وإلى جانب دراسة القرآن والحديث النبوي وما دار في فلكهما والشعر العربي، كان الطلاب يأخذون بآثار من النثر ولو نذرة يسيرة إلى جانب الشعر، في مراحل لاحقة. يقول نظامي العروضي السمرقندي ما مؤداه بالعربية متوجها إلى عدة كتّاب الفارسية من العلوم والمعارف ما معناه بالعربية: «يجب اعتياد مطالعة كلام رب العزة وأخبار المصطفى وآثار الصحابة وأمثال العرب وكلمات العجم ودراسة كتب السلف ومناظرة الخلف كمثل ترسل الصاحب والصابي... وقدامة بن جعفر ومقامات البديع والحريري... ومن دواوين العرب ديوان المتنبي»[٨].

أما رشيد الدين الوطواط فيفصّل الأمر صراحة، إذ يقول في صدد كلامه عن تأثير المتنبي في الشعر الفارسي ما ترجمته بالعربية: «في اقتباس المعارف (المعاني) الدقيقة ومتانة (السبك)، جميع الشعراء الإسلاميين عيال على المتنبي، وقد طارت شهرة ديوانه بين العرب والعجم (فترى) صدور الفضلاء يُعِزون ديوانه»[٩]، ثم إن رشيد الدين كذلك، إذا أراد التدليل على مكانة عُنصري وفرّخي في الشعر الفارسي عمد إلى تشبيههما بالمتنبي، ذاهبا في «حدائق السحر» إلى أن فرّخي بالنسبة إلى الإيرانيين هو في منزلة المتنبي بالنسبة إلى العرب[١٠].

هذه الشهادات التي يدلي بها نقاد الشعر الفارسي ومؤلفو كتب البلاغة الفارسية تنهض دليلا على الأثر الدامغ الذي خلفه الشعر العربي في الشعر الفارسي، في المضمون والفنون والشكل، كما سنرى تباعا، ولا سيما في مرحلة نشوء الشعر الفارسي ثم في مرحلة توطد أركانه.

كما أن هناك وجها آخر للاعتراف بهذا الأثر، يكشف عن النظرة المثالية التي تعبر عن انبهار شعراء الفارسية بشعراء العربية، وعظماء العرب من غير الشعراء، وهذا أمر طبيعي، فالعربية - من جهة - غدت في وجدان المسلم الواعي، لغة مثالية تنزل فيها كلام الخالق، وشعراء العرب كانوا أساتذة شعراء الفارسية، فكان من طبيعة الأمر أن يفخر التلامذة بأساتذتهم ويعتزوا بهم ويصبوا إلى مكانتهم.

ها هو رُودكي (المتوفى ٣٢٩هـ/ ٩٤٠م) موطد أركان الشعر الفارسي على غرار امرئ القيس عند العرب، يشبه نفسه بجرير وحسان بن ثابت وأبي تمام وصريع الغواني مسلم بن الوليد وسحبان وائل سيد الفصاحة والخطابة، يقول في مدح أبي جعفر أحمد بن محمد بن خلف بن الليث حاكم سجستان في قصيدته الشهيرة «مادر مي» أي «أم الخمرة» مبينا تقصيره في مدح الحاكم مهما يفرغ عليه من الصفات:

شـعـر سـزاوار مـيـر كـفـت ندانم
سـخـت شكوهم كـه عـجـز من بنمـايد
ورچه جـريرم بشـعـر وطائي وحـسـان
ورچه صـريعم بافـصـاحت سـحـبـان[١١]

وترجمته بالعربية كما يلي:

لست أُحـسـن قـول شـعـر يليق بالأمـيـر
وإن أكن في الشعـر «بمنزلة» الطائي وحـسـان
أنا في خـوف شـديد من أن يبين عـجـزي
مع أني صريع الغواني «ترفدني» فصاحة سحبان

ورد هذا المنحى في شعر رودكي مكررا، وصار من بعده سُنّة أخذ بها معظم الشعراء، ولا سيما في معرض المديح أو الفخر بالنفس والتفوق في الشعر، مثل فرُّخي وعنصري،

وخصوصا منوچهري سيد شعراء الوصف والخمرة في الأدب الفارسي، وقد بالغ كثيرا في تشبيه نفسه بشعراء العرب وأساتذته في الشعر، وتشبيهه ممدوحيه بعظماء العرب، حتى بلغ حد التفريط، ففدت أقسام من قصائده مسردا لأسماء شعراء العرب، وكُتّابهم ومشاهيرهم وتحولت، احيانا، أُحجيات في ذكر ألقابهم أو كناهم... وتوخيا للإيجاز، نقتطع من قصيدته الشهيرة في وصف الشمعة التي يختمها بمدح الشاعر عنصري ببضعة أبيات فقط تدليلا على ما نقول:

كـو جـريـر وكـو فـرزدق كـو زهيـر وكـو لبيـد
رؤبـهء عـجّـاج وديك الجنّ وسـيـف ذو يَزَن؟
كـو حُطيئـه كـو أُميّـه كـو نُصيب وكـو كُميت
اخطل وبشـار بُرد، آن شـاعـر أهل يمن؟
وان دو امـرؤ القـيس وآن دو طرفـه ونابغـه
وان دو حسان وسه أعشى وان سه حماد وسه زن؟ [١٢]

أما بعض قصائد منوچهري الأخرى فتغدو مسردا لمطالع القصائد العربية المعروفة، فتتبين من خلالها سعة إطلاعه على تراث العرب الشعري المعروف منه والمغمور الذي لا يلم به سوى واسعي الاطلاع من الباحثين، كمثل قوله:

انكه كـفـت أذنتنا، انكه كـفـت الداهبين
انكه كفت السيف أصدق انكه كفت ابلى الهوي [١٣]

وكثيرا ما جاوز شعراء الفرس ذكر أسماء الشعراء العرب وتشبيههم أنفسهم بالمشهورين منهم، وذكر مطالع القصائد المعروفة، إلى ذكر أبرز خاصة في شعر شاعر عربي أو ناثر بالعربية أو خطاط، نظير قول منوچهري في قصائد متعددة، مثلا:

- **سخت نكو حكمتي چون حكم بومعاذ** [١٤].
- **سديكر مخلص اخطل چهارم مقطع أعشى** [١٥].

وترجمتهما تباعا:

- **أنت معرق في جودة الحكم على غرار حكم أبي معاذ (أي بشار بن برد).**
- **الثالث مخلص الأخطل والرابع مقطع الأعشى.**

إضافة إلى ذلك، ما أكثر ما ذكر شعراء الفارسية صراحة أو من طرف خفي أسماء المؤلفات العربية الشهيرة في النحو والصرف والأدب واللغة والتاريخ، مثل كتاب «الكامل» للمبرد (متوفى ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م) [١٦]، وشرح ابن جني (متوفى ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م)، والمنصف في شرح تصريف المازني [١٧] (متوفى ٢٤٩هـ/ ٨٦٣م)، والكتاب لسيبويه ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام [١٨] (متوفى ١٣٦٠م).

كما درج رهط من شعراء الفارسية على المبالغة في استخدام المفردات والتعابير العربية في حشو قصائدهم ومقطوعاتهم، أو في قوافيها، وأحيانا في الاثنتين معا. وهي على وزن واحد بحيث تغدو رديفا، أي بحيث تصبح القافية كلمة كاملة. وفي بعض المواضيع أكثر من ذلك. وهذا بيّن في عصور الشعر الفارسي المختلفة.

فهذا بُرهاني والد الشعر المعروف مُعِزّي يأخذ بذلك ويبالغ في قصيدته الشهيرة لدى المشتغلين بالأدب الفارسي القديم ذات المطلع الآتي:

سلام على دار أم الكواعبُ
بُتان سيه چشم عنبر ذوائب [١٨]

وهذا الابن المرموق يسير على سنة والده ومعاصريه، أي الشاعر مُعِزّي، مبالغا في استخدام المفردات والتعابير العربية، حتى أنك لتجد نفسك أمام قصيدة عربية اللغة لا يشوبها سوى بضع كلمات فارسية، متحديا في شدة الأسر والتشطير في مقاطع الوزن العروضي شعراء العرب العظام، يقول في قصيدة طويلة هذا مطلعها:

إي ساربان منزل مكُن، جز در ديار يار من
تا يكزمان زاري كنم بر ربْع واطلال ودِمَن [٢٠].

ثمة، كذلك، شعراء آخرون ركبوا هذا المركب الخشن مبالغين حتى ابتعدوا عن لغة الناس المملوءة بالألفاظ العربية، إلا أنها مأنوسة، وخير مثال على ذلك قصيدة «لامعي جرجاني» التي ننقل هنا بعض أبياتها تلافيا للإطالة:

همت اين ديار يار، شايد فرود ارم جمل
پُرسم رباب ودعد راحال از رسوم واز طلَل!
جويم رفيقي را اثر، كو داردازليلي خبر
داند كزين منزل قمر، كي رفت كي آمد زحل؟
بي اب مانده منبعش، بي بار مانده مرتعش
در قاعهاي بلقعش خيل شياطين را زَجَل!
رُخسار وزلفش را عرب، در شعر خوانده روزوشب
رنگينش رخ شيرينش لب، سنگينش دل سيمين كَفَل
برد از دلم صبر وخرد، چون بانك را برناقه زد
كاريم پيش آورد بد، لما تولّى وارتحل [٢١].

أسباب الأثر العربي

لا بد من الإشارة في هذا الصدد إلى أن التأثير الشديد الذي أحدثه الشعر العربي في الشعر الفارسي أيامئذ، ثم في ما بعد، نسبيا، والمبالغة في استعمال المفردات والتعابير العربية على هذا

النحو الذي مثلنا عليه، والذي لم يكن ليمت بصلة إلى اللغة الفارسية التي كانت شائعة في إيران حينذاك، يعود إلى عوامل مختلفة، منها:

أولا: نظام التعليم الذي كان معمولا به في إيران.

ثانيا: بلوغ مستوى اللغة العربية بين النخبة الإيرانية في إيران الكبرى يومذاك، وصولا إلى خراسان الكبرى وأسيا الوسطى، منتهى الرفعة والتفوق خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة بحكم التطوُّر الطبيعي.

ثالثا: تشجيعُ البلاطات والحضرات المستقلة وشبه المستقلة عن السلطة المركزية في بغداد الكتاب والشعراء، والمنافسة في ما بينها لاستقطابهم: بلاطات آل بويه في عراق العجم وفارس، وابن العميد والصاحب بن عباد في الري وأصفهان، وشمس المعالي قابوس بن وُشْمكير الزياري في طبرستان وجرجان، والسلطان محمود الغزنوي في غزنة وما يعرف اليوم بأفغانستان وصولا إلى الهند، وسوى ذلك من مباءات اللغة العربية في أراضي الشاهنشاهية الساسانية السالفة المتكثرة دولا ودويلات، وقد كان لتنقل الأدباء والشعراء بين هذه البلاطات وأسفارهم أثر في ترويج اللغة العربية والشعر العربي في تلك الأصقاع النائية، حتى في الحضرات التي كانت تستقبل شعراء العربية والفارسية في آن، مثل بلاط الغزنويين.

رابعا: كونُ الأكثرية من شعراء الفارسية حتى عهود متأخرة من الشعراء ذوي اللسانين، يقرضون الشعر بالعربية الفارسية في آن، أو يكثرون في اتجاه ويقلون في اتجاه آخر، بحسب البيئة التي وجدوا فيها، إلا أن تأثير الشعر العربي في الشعر الفارسي ظل غالبا، فلم يسهّل هذا الأمر نقل لطائف الشعر الفارسي ومناحيه الفنية المميزة إلى الشعر العربي، مع أن أعلامه كان أكثرهم من الإيرانيين، لأن عمود الشعر العربي في المضمون والشكل غلب عليهم والتصق في لا وعيهم باللغة العربية، ويكفي أن نعود إلى «يتيمة الدهر» للثعالبي النيسابوري لنتبين العدد الضخم من شعراء العربية الإيرانيين في القرن الرابع، ودونك على ذلك بعض الأسماء: أمراء آل بويه، الصاحب بن عباد، بديع الزمان الهمذاني، شمس المعالي قابوس بن وُشْكمير، أبوالفتح البُستي وسواهم، ويقال مثل ذلك في كتاب النثر والأدباء.

خامسا: تأسيس النظاميات، فمع أن السلاجقة اعتمدوا منذ القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد) اللغة الفارسية لغة سياسية وبلاط وأدب، وتلتهم في ذلك سائر الفصائل التركية، لا سيما بعد تشرذمها، فقد حافظت العربية على مكانتها لغة للقرآن والدين والفقه، وكان لتأسيس النظاميات - وهي معاهد تعليم عال - في المدن المهمة أثر في الحفاظ على العربية.

لذلك، أي لهذه الأسباب مجتمعة، لاسيما نظام التدريس الكلاسيكي الذي لم يتبدل كثيرا، والذي أصبح مؤسسة مركزية في النظاميات، استمر استعمال المفردات العربية في

ازدياد خلال القرنين السادس والسابع للهجرة (الثاني عشر والثالث عشر للميلاد) وما بعد ذلك.

ومعلوم أن اللغة تحتمل معها أساليب البيان والمعاني والفنون الشعرية، وذلك كله بيّن في شعر سعدي، سيد الحلاوة الفارسية، شعرا ونثرا، ومجمع بحري الفصاحة والبلاغة حافظ الشيرازي العربي والفارسي، وإن رجحت كفة الفارسية عنده على العربية، كذلك مثل حافظ الشيرازي العظيم الذي لم ينظم بالعربية نظما خالصا شأن سعدي، إلا أن ديوانه حافل بالأشعار الملمعة والأبيات العربية، ويحسبك أن يكون الشطر الأول الذي يوازي بيتا من أول غزلية أثبتت في ديوانه هو بالعربية:

ألا يا أيها الساقي أدِر كأسا وناولها

....

ولكم جاءت قوافيه عربية مقرونة بعلامات الجمع بالفارسية أو ما شاكل ذلك.

لن أقف عند سعدي وأثر الشعر العربي فيه لأن بعض الدراسات والأبحاث تناولت جوانب من ذلك، وإن قليلة حتى الآن، قام بها إيرانيون وعرب، فقد نشرت مؤسسة البابطين أربعة كتب في هذه المناسبة خُصّ باثنين منها وبجزء من الثالث، أضف إلى ذلك أن مجلة «الدراسات الأدبية»، في مركز اللغة الفارسية وآدابها في الجامعة اللبنانية، خصت سعدي بالعدد الأول منها كاملا في ثلاثمائة وأربع وستين صفحة.

أعود إلى حافظ صنو سعدي في السحر الشعري الحلال، لأقول في تأثره بالشعر العربي والبيان العربي، ولا سيما الحضارية جذوره في القرآن، ما به دلالة على تأثره المميز، فقد اعتصر هذا العبقري تراث الغزل في الشعرين العربي والفارسي، وغزل العشقين المجازي والحقيقي، خمرة لكلامه الأثيري، فإذا هو في غزلياته الشهيرة التي صاغها عقد لآلئ نادرة في جيد الإبداع، يذكرك بجميع الشعراء الغَزِلين، ولا يذكرك بأحد في آن!

ومن الكلمات القصار، أيضا، التي أقولها في حافظ، والتي تبرز أناقة تأثره بالشعر العربي وعمقه المنزه عن التفاصيل: لقد بلغ شغف حافظ بالشعر العربي واللغة العربية وبالقرآن مبلغا جعله يطلق المرمى الشعري الرمزي لغزلياته أو يختم تطوافه في عالم الفناء والبقاء، بصدر بيت أو عجز بيت، لكأنما الإشارة الأولى لانطلاق نقرة السيمفونية الغزلية لا يطلقها إلى فضاء العرفان الأكبر سوى شعر عربي يعود ليتنزل وحيا على سائر الأبيات - وهو حافظ القرآن - الحافظ تعريفا - شأن الأحرف الرموز في مطالع سور القرآن حبيب روحه. حسبنا هذا ولتغب عنا التفاصيل!

بعد هذه الظواهر - العوامل لتأثير الشعر العربي في الشعر الفارسي، نختار عينات وميادين من فنون الشعر وأغراضه تجلى فيها هذا التأثير، إذ إن التوسع في الأمر يستلزم أطاريح مطولة.

تميُّز العربية

إضافة إلى التأثير اللغوي العربي في مجال الأدب الفارسي، شعره ونثره، لا بد من الإشارة إلى خاصية في العربية نفسها - علاوة على العوامل السياسية والدينية وطلب المكانة الاجتماعية والإفادة المادية وسواها - جعلتها مؤهلة للدور العالمي الذي اضطلعت به، هي خصوصية الاشتقاق، ولنترك الكلام، في هذا السياق، لسوانا، كي يشهد لنا من ليس من أهل العربية، ولا سيما إذا كان علما من أعلام الاستشراق، مثل البروفسور إدوارد جرانفيل براون Edward Granville Browne، حيث يقول:

«والعربية في الحقيقة من أصلح اللغات لتأدية الأغراض العلمية، فهي غنية بالأصول وبالمشتقات الناتجة عن هذه الأصول، والمشتقات فيها كثيرة، وهي تتفق مع الأصل في اتصالها به من حيث المعنى، وإن تحور معناها قليلا بحسب اشتقاقها أو صياغتها».

ثم إن براون يضرب على ذلك أمثلة لكلمات مشتقة من جذور غَفَر وكمل وسقى، يقول:

«ولكي نبرهن على ذلك يحسن بنا أن نسوق المثلين الآتيين، أما أولهما فمستمد من الاصطلاحات الطبيعية القديمة، وأما الثاني فقياس عليه ليمثل لنا فكرة حديثة. للفعل العربي صيغ تبلغ الاثني عشرة صيغة، كل منها تمتاز بمعنى خاص متصل بمعنى الفعل الأصلي، فإذا أخذنا صيغة «الاستفعال» من «غفر» أمكننا أن نشتق كلمة «استغفار»، بمعنى طلب الغفران، وكلمة «مستغفر» بمعنى طالب الغفران، وكذلك يمكننا أن نشتق من كلمة «كمل» كلمتي «استكمال» و«مستكمل»، وهكذا في بقية الأفعال، فلما ظن أطباء العرب أن مرض الاستسقاء ناتج من كثرة الشرب، أسموه بهذه التسمية التي اشتقوها من كلمة «سقى» وأسموا المريض به «مستسقي»، فلما بدت الحاجة في العصور الحديثة إلى مرادف لكلمة «أرينتالست Orientalist» لجأوا في العربية إلى مادة «شرق» أو من يجد المتعة في دراسته»، وهذان المثلان فيهما الكفاية للتدليل على مقدار اليسر الذي يصادفه الكاتب العربي إذا شاء التعبير عن أفكار جديدة أو مستحدثة، فما عليه إلا أن يلجأ إلى أنواع الصيغ والمشتقات، وأن يختار منها ما يناسب التعبير عن فكره، وسيكون في كل الأحيان موفقا في حسن الأداء ورعاية الدقة، حتى لو لم تكن الكلمة التي اختارها قد استعملها أحد من قبله»[٣٣].

عالمية العربية وانحسارها ونفوذها

أدت الأسباب المذكورة، مجتمعة، إلى انتشار عالمي للغة العربية، فاعتمدها الأدباء والشعراء والفلاسفة والأطباء وسائر المبدعين في العلوم الوضعية لغة تعبير، لا فارق في ذلك بين عربي وإيراني وتركي وسندي ورومي، والأسماء في هذه الحقول كثيرة ومعروفة، ولأعلام إيران بينها حصة الأسد.

إلا أن القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد) شهد بوادر تأليف بسواها، ولا سيما بالفارسية، نهض بها أعلام مثل ابن سينا والإمام أبي حامد الغزالي وسواهما. أما مؤلفات أخيه أحمد الغزالي في مسائل التصوف، فقد جاءت جميعها بالفارسية، إضافة إلى مؤلفات أخرى قام بها سواهم في مجالات المعرفة المختلفة.

ثم إن وصول السلاجقة الأتراك إلى الحكم، وانبساط رقعة السلطنة الغزنوية حتى الهند قلصا من انتشار العربية ونفوذها، وأديا، إضافة إلى عوامل أخرى، إلى حصر التأليف بالعربية في شؤون الدين والفقه وما إليهما، وعلى الرغم من الدور الذي اضطلعت به المدارس النظامية، لكن الفارسية حلت محل العربية لغة للبلاطات وللدبلوماسية في إيران وآسيا الوسطى والهند.

وهكذا، وبعد أن اجتاحت اللغة العربية المشرق، بدأت رقعة امتدادها تنحسر، فقد شهد القرن الخامس للهجرة قمة العطاء في الشعر الفارسي، إذ بلغ غايته في الإحكام في آثار عنصري وفرخي ومنوچهري وعبدالواسع جبلي وسواهم، حتى إن الذين اعتمدوا العربية في مؤلفاتهم العلمية مثل عمر الخيام أو في جل مؤلفاتهم مثل ابن سينا، قرضوا الشعر بالفارسية، فقد أُثر عن هذا العبقري حتى الآن اثنتا عشرة رباعية وغزليتان ومقطوعة بالفارسية جمعها المستشرق إته ونشرها سنة ١٨٧٥ مع ترجمة بالألمانية لها بعنوان «ابن سينا، شاعرا غنائيا بالفارسية»[٣]. أما شأن عمر الخيام في رباعياته فلا حاجة بنا للتوسع فيه لأن رباعياته الفارسية ترجمت مرارا بالعربية وطارت شهرتها في الآفاق في مختلف لغات العالم.

لقد قابل انحسار اللغة العربية نفوذ لها عجيب في اللغة الفارسية وآدابها، كما رأينا، تمثل في سيل من الألفاظ والتعابير المتعلقة بالدين والفقه، كذلك بشؤون الحياة اليومية العادية، وفي الاتجاه نفسه في لغة العلوم الوضعية، وهكذا اجتاحت العربية الفارسية، وكذلك اللغات التركية واللغة الأردية، وتحول حضورها المباشر في الحياة والثقافة إلى حضور غير مباشر لايزال قائما حتى اليوم.

لغة الصفوة لا الشعوب

الذي تجدر ملاحظته في هذا الصدد أن اللغة العربية لم تتحول في يوم من الأيام - في إيران والمناطق الشرقية من أراضي الخلافة العباسية وصولا إلى آسيا الوسطى - إلى لغة محكية تتكلم بها الشعوب الإيرانية والتركية وسواها، رغم سيطرتها لغة ثقافية عالمية، فقد احتفظت الشعوب الإيرانية بلهجاتها المحلية الكثيرة، إضافة إلى الفارسية الدرية التي ارتفعت إلى مستوى لغة الشعر والأدب بشكل عام، وهذا مخالف لما جرى في العراق وبلاد الشام. ويعود ذلك إلى أسباب شتى، منها أن الرقعة الواسعة للشاهنشاهية الإيرانية وصعوبة الاتصال بين أقطارها جعلت منها جزائر لغوية

مستقلة يتكلم سكانها بلهجات إيرانية مختلفة، وإن تفرعت في الأصل من اللغات الإيرانية الآرية المشتركة، فلم تكن وسائل الاتصال والإعلام المتوافرة في أيامنا ممكنة أيامئذ لتقرب بين الناس، ولايزال هذا الوضع قائما حتى اليوم، على الرغم من سيطرة اللغة الفارسية منذ أكثر من اثني عشر قرنا. وقد كان بعض هذا الوضع قائما قبل الإسلام في أرجاء الإمبراطورية الساسانية بسبب امتداد رقعتها الجغرافية ونظام الطبقات الذي كان سائدا فيها، لذلك لم تمُد اللغة الفهلوية أو الفارسية الوسطى سوى الطبقات العليا في المجتمع.

هذا المحيط اللغوي الشبيه بالفسيفساء أدى إلى أمر غريب، فعلى الرغم من هجرة قبائل عربية كثيرة إلى أنحاء إيران المختلفة وآسيا الوسطى ووادي السند، وتأثيرها اللغوي في اللهجات المحلية، لكن العربية لم تستطع أن تسود الطبقات الشعبية، بل استوعبت هذه الطبقات العرب الوافدين بالحياة اليومية والمساكنة والمصاهرة، فنسيت الأجيال المولدة منها لغتها شيئا فشيئا، وذابت في المحيط الإيراني الضخم، ولايزال بعضها يحتفظ بأسماء عشائرها الأصلية حتى اليوم، مثل شيباني وبني عامر وغيرهما، حتى أن الأجيال اللاحقة منها نشأت على اللغة الأدبية القائمة، شأن رابعة القُزداري ابنة أمير بلخ العربي التي قرضت الشعر بالفارسية.

لا يتسع المقام لضرب أمثلة على ذلك، يكفينا دلالة على ما نذهب إليه أن كتاب «مرزبان نامه» الشهير أُلف باللغة الطبرية، ونقل بعد ذلك إلى الفارسية، ومن ثم إلى العربية، كما تكفينا مؤونة الإطالة الإشارة إلى ما جاء في كتاب المقدسي (أبي عبدالله محمد بن أحمد) الموسوم «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، الذي أكمله سنة ٣٧٥هـ/ ٩٥٥م، فهو كنز لغوي، إضافة إلى تبريزه في الناحية الجغرافية [٢٤].

يذكر المقدسي أن أسمى درجات العربية في عهده، أي في أواخر القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) كان في فارس، أي في أرض غير عربية اللغة، لأن أهل ذلك الصقع كانوا يبذلون جهدا كبيرا في تعلمها، فهم - وفق تعبيره - يتكلفونها تكلفا، ويتعلمونها تلقفا [٢٥].

يقابل ذلك ما نعرفه من طغيان العجمة واللغة المولدة على مدن العراق العربي، ولا سيما البصرة والكوفة وبغداد، فقد كان طلاب العلم والشعراء يؤمون البادية في أول الأمر لتلقف البيان السليم عن أهلها، فتغيرت الحال وساد اللحن والفساد ألسنة الخاصة والعامة وتسرب إلى شعر الفحول، حتى أن الفارسية سادت في مدن العراق [٢٦]، ذكر البلاذري أن جالية أصفهانية يرجع عهدها إلى صدر الإسلام كانت موجودة في البصرة، زد على ذلك وجود فرقة من الرماة في هذه المدينة قوامها ألفا رجل، استقدمها عبيدالله بن زياد من بُخارى، واتخذ من البصرة لها مقرا، أضف إلى ذلك الأعداد الكبيرة من الفرس الذين وفدوا عليها قبل هذين العهدين، لقربها من البلاد الإيرانية [٢٧].

وما يقال في البصرة يقال عن الكوفة، بل إن اختلاط اللغات في الكوفة كان أشد، إذ إنها كانت على مقربة من الحيرة، قاعدة اللخميين قبل الإسلام، حيث نشأ بهرام جور الملك الساساني، وكان بها مرازبة ودهاقين من الفرس وأسرة عدي بن زيد العبادي من تميم، وقد كتب لكسرى أبرويز وسفر بينه وبين قيصر الروم، كما كانت معقلا للثقافة الآرامية، فامتزجت العربية فيها بالفارسية والآرامية، وعلى غرار جند البصرة كان للكوفة أساورتها، أي قادتها المنتجبين، وهم فرق من عسكر الساسانيين الذين انضموا إلى الجيش العربي الفاتح، كان هؤلاء يقاتلون تحت راية رستم في القادسية، فعقدوا أمانا مع سعد بن أبي وقاص، واختاروا الكوفة لهم مقرا، وكان عددهم أربعة آلاف، وقد نقل زياد بن أبيه جماعة منهم إلى سوريا عرفوا بالفرس، بأمر من معاوية، وجماعة أخرى إلى البصرة انتظمت في صفوف الأساورة[٢٨].

وهكذا شكل هؤلاء الأساورة مع أسرى الحرب الكثر من الفرس وذرياتهم وضخامة عدد التجار والصناع والمهاجرين إلى البصرة - وهي مرفأ مهم منذ ما قبل الإسلام - معظم سكان الكوفة، فغدت الفارسية لغة التفاهم السائدة فيها، وقد ذكر الجاحظ ذلك، وضرب الأمثلة على الألفاظ الفارسية الدخيلة التي حلت محل العربية، وكذلك ياقوت في معجم البلدان، وقد امتد هذا الوجود الفارسي إلى مدن الثغور في شبه الجزيرة العربية، ولا سيما إلى الحجاز، وبنوع خاص إلى المدينة (يثرب) وجوارها، كما ذكر الجاحظ أيضا[٢٩].

أمام هذه الوقائع والأوضاع ندرك أسباب انتشار العربية الواسع كلغة للأدب والثقافة والعلوم في بلدان الخلافة الشرقية، وأسباب عدم تحولها إلى لغة محكية لدى الشعوب المختلفة، في إيران وامتدادها الجغرافي إلى الشرق والشمال.

مواقف مثالية

إزاء ذلك، لا بد لنا من أن نعتصم بالعلم والموضوعية كي نأخذ العبر من ماضينا فنخطط لمستقبلنا، وأن نجافي المواقف الحماسية الطوباوية التي وقفها بعض الباحثين، غير مراعين التعقيدات الاجتماعية ومعطيات الماضي التي تختلف عما نحن عليه، فالسيطرة اللغوية للإمبراطوريات كانت تصيب الطبقات العليا من رعاياها، وقلولا من الطبقات الدنيا الملحقة بتلك، وقلما تغير وجه الكون دفعة واحدة أو بسحر ساحر، تقول الدكتورة عائشة عبدالرحمن في هذا الصدد: «فمنذ استقر الإسلام في الأقطار التي فتحها، انتصرت العربية على اللغات الأجنبية المفروضة على شعوب المنطقة، ثم أخذت تواجه اللغات الوطنية لهذه الشعوب...»[٣٠]، إلى أن تقول: «وكان من المتصور أن تجمع هذه الشعوب بين العربية لغة دين، وبين لغاتها القومية التي صانتها طويلا ضد الغزو، لغة حياة، لكن لم يمض جيل أو جيلان حتى كانت العربية اللسان المشترك لشعوب أمة واحدة، هجرت إليها ألسنتها القومية دون أن يجبرها أحد على ذلك، كما

لم يكرهها مكره على أن تتخلى عن عقائدها وأديانها لتعتنق الإسلام، بل تُركت لغة العرب تخوض معركتها مع لغات الشعوب الداخلة في الإسلام»[31]، وقد كررت ذلك في مكان ثالث قائلة عن العربية وانتشارها: «وكانت لغة الحياة لجماهير الشعوب التي لا يصلها باللغة العليا غير القرآن الكريم» ثم في رابع حيث قررت: «... فالأمم التي أسلمت وتعربت كان لها ميراث فكري وعلمي احتاجت إليه الدولة، وفرضه تطور النظم الإدارية والسياسية في الحكم، مع سيادة العربية واستقرارها لسانا للشعوب التي هجرت ألسنتها الأولى إلى لغة القرآن»[32].

الآرية تواجه السامية

هنا نعود إلى طرح السؤال المهم الذي طرحناه في مقدمة بحثنا وهو: لماذا لم تتحول العربية، على امتداد رقعة الشاهنشاهية الساسانية الشاسعة، إلى لغة تعبير شعبية؟ ولماذا لم تهجر شعوبها ألسنتها القومية على عكس ما ذهبت إليه صاحبة كتاب «لغتنا والحياة»؟

لقد أجبنا عن بعض جوانب هذا السؤال خلال بحثنا، في سياق موضوعات أخرى مرتبطة بالموضوع الأساسي، ونشير هنا ابتداء إلى أن الذي حصل فعليا وعمليا هو عكس ما ذهبت إليه الدكتورة بنت الشاطئ، فمئات القبائل العربية التي استقرت في إيران الكبرى وأثرت لغتها العربية في لغات الشعوب المغلوبة، ولهجاتها في لهجاتها، ذابت في محيطها بمرور الزمان وتبنت، في واقع الحال، لغات الأقوام ولهجاتهم، لا اللغة الفارسية وحدها التي غدت، كالعربية، شيئا فشيئا لغة الصفوة المثقفة والشعر والنثر الفني.

ويكفي أن نعود إلى كتاب المقدسي «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» لنتبين فسيفساء اللغات في بعض مناطق إيران، فهو يذكر اللغات التي كانت لسان الناس في عهده، أي في القرن الرابع للهجرة، وتعددها، و سنقتصر على ذكر بعضها مثل: نيسابور وطوس ونسا، وهي متقاربة، أما بسُت فيصفها بالحسنة، وكذلك بلخ، والتي لسجستان في الجنوب الشرقي، ففيها تحامل وخصومة، والتي لهراة يصفها بالوحش، ويذكر بعض الفروق بين سرخس وأبيورد وجرجستان (الشار) وجوزجان ومرو ومرو الرود وبخارى التي يصف لغتها بكثرة الحشو، لكنها لغة البلاط، أي الدرية، لأن بخارى كانت عاصمة الصفاريين والسامانيين، فإذا وصل إلى طخارستان وباميان وصفهما بأنهما مغلقتان لا تفهمان، إلى آخر اللائحة.

أما انتشار اللغة العربية إلى جانب اللغات الإيرانية فقد لاحظ المقدسي حدوثه في خوزستان، فقال إن أهلها يخلطون بين الفارسية والعربية، لأنهم يحسنون اللغتين وينتقلون من الواحدة إلى الأخرى بيسر[33]، ولا نستغرب ذلك، فقد اختلط الإيرانيون والعرب في هذه المقاطعة منذ القدم، ولايزالون.

وما ذكره المقدسي يطابق واقع الحال الذي وصفته المصادر التاريخية الأخرى، ولا سيما المكتوبة بالفارسية، وهو واقع كان قائما في سائر البلدان، مثل بلدان آسيا الوسطى، حيث انحسر انتشار اللغة العربية حتى بين الصفوة. جاء في تاريخ بخارى المؤلف في أوائل القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) في ترجمته بالفارسية التي قام بها القُباوي أنه عمد إلى نقله عن العربية «لأن أكثر الناس لا يرغب في قراءة الكتب العربية»[٣٤].

ثم إن لنا دليلا ساطعا آخر على أن اللغة العربية لم تنتشر في تلك البقاع إلا بين الصفوة المثقفة والحاكمة (من غير شمول). في مديح المتنبي عضد الدولة البويهي، فعندما قصد شاعرنا ذلك الأمير المقتدر العالم الذي تلقب بشاهنشاه وقطع بلاد فارس ليصل إلى شيراز قاعدته، لم يسمع خلال رحلته من يتكلم بالعربية، فقال قوله الشهير في وصف «شعب بوّان»:

مغاني الشعب طيبا في المغاني
بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها
غريب الوجه واليد واللسان[٣٥].

أما التعليل الذي نراه لكل ذلك فهو الآتي: شاعت اللغة العربية حيث كان استقرار لهجرات عربية سابقة للإسلام، خاصة حيث كانت اللغات السامية أخواتها ألسنة الأقوام، فتعربت شعوبها بيسر، ففي سوريا والعراق، مثلا، كانت السريانية واللهجات المتفرعة من الآرامية سائدة في أوساط الكلدان والسريان، والصابئة الذين كانوا ولايزالون يتكلمون لغتهم السامية المعروفة بالمندائية، وكذلك كانت السريانية لغة الحرانيين الذين تسموا بالصابئين تقية، ولغة الموارنة في جبل لبنان، ولا ننسينّ شيوع السريانية في الحيرة ومحيطها، وسواها من النواحي.

إن العربية واجهت في إيران لغات إيرانية آرية، إضافة إلى الفارسية الدرية، وهي لغات تختلف في بنائها وصيغها اختلافا جوهريا عن اللغة العربية واللغات السامية، كما أن خصائص شعوبها تختلف عن خصائص الشعوب السامية. فلم يكن ثمة تجانس لغوي وما يستتبعه من نسق متقارب في التفكير بين العربية الوافدة واللغات المتداولة هناك منذ القدم.

لذلك وجدت الأُسر الإيرانية الحاكمة شبه المستقلة، والمستقلة، من الطبيعي أن تشجع الشعراء على مدحها بالفارسية الدرية وتعزيزها. فنبغ الرودكي رصيف امرئ القيس عندنا. ثم قام الفردوسي بحركته القومية اللغوية فنظم الشاهنامه مُدِلا بتاريخ إيران على جميع الأقوام، ولا سيما العرب، وقد كان هذا دأب الصفاريين والسامانيين ثم الغزنويين وحتى السلاجقة. يذكر صاحب «تاريخ سيستان» من ذلك العهد (بالفارسية) أن يعقوب بن الليث الصفار بعد فتوحاته في خرسان واستيلائه على هراة وبوشنغ، وحصوله على منشور (السلطة) سجستان

وكابل وكرمان وفارس من محمد بن طاهر وسحقه الخوارج، تقدم الشعراء يمدحونه بالعربية، فقال لكاتبه ولهم «لمَ يدحونني بلغة لا أفهمها؟»[٣٦].

ولم نشهد في الأوساط السامية حركات شبيهة بها أو تيارات من هذا القبيل؛ لتقارب اللغات وأنماط التفكير بين شعوبها، ويوافق تعليلي ملاحظة المؤرخ الكبير فيليب حتّي بالنسبة إلى وضع العرب في الأندلس والإسلام والحضارة بالتالي، يقول حتّي:

«واستهدفت الأندلس بعد منتصف القرن الثالث عشر لعمليتين، أولاهما تنصير إسبانيا، والثانية توحيدها، وكان تنصيرها يختلف عن استرجاعها وتوحيدها، فالقسم الوحيد من شبه جزيرة إيبريه الذي تأصلت فيه جذور الإسلام كان ذاك الذي زهت فيه الحضارة السامية القرطجنية من قبل، ومثل ذلك ينطبق على صقلية، وهي حقيقة على شيء من الأهمية، فقد كان الخط الفاصل بين الإسلام والنصرانية بوجه عام يطابق الحدود القديمة الفاصلة بين المدنية الفينيقية والمدنية الغربية».

ينتهي كلام حتّي وجرجي وجبور هنا، بالنسبة إلى هذا المطلب، لكنهم في الفقرة نفسها يسوقون الكلام عن المسلمين المدجنين في الأندلس، الذين يشبه وضعهم، على مر الزمان ونشوء أجيال جديدة، وضع العرب الذين انتقلوا إلى إيران وآسيا الوسطى وسواهما وذابوا فيها، يقول المؤرخون الثلاثة:

«ولم ينته القرن الثالث عشر حتى كان كثيرون من المسلمين قد انضووا تحت لواء النصرانية، إما عنوة وإما صلحا، لكنهم ظلوا متمسكين بشرائعهم ودينهم، وقد أطلق على أمثال هؤلاء من المسلمين اسم المدجنين Mudejars (مدخار بالإسبانية)، وكان كثير منهم نسوا العربية واكتسبوا لغة الرومانس الإسبانية، وأخذوا ينخرطون في سلك الجماعة المسيحية ويذوبون فيها»[٣٧].

العربية تستمر في إيران

بعد هذه الجولة السريعة فوق تضاريس انتشار العربية في إيران، وما تاخمها شرقا وشمالا، لا بد لنا من القول إن تأليف الصفوة المثقفة في تلك الديار باللغة العربية ظل مستمرا بعد القرون الوسطى، وإن بوتيرة هادئة، ولا سيما في شؤون الدين والفلسفة، وذلك بيّن في مؤلفات العامليين وصدر الدين الشيرازي وسواهم في العهد الصفوي وما بعده.

أما في العصر الحديث، فاستمر الأمر على هذا المنوال في الشؤون الدينية بوتيرة أهدأ، لكن مجال الشعر عاد إلى الانفتاح أمام العربية من جديد، فنبّه في القرن العشرين شعراء إيرانيون كثر باللغة العربية، عاش بعضهم في البلدان العربية، ولا سيما في العراق، مثل عباس الخليلي، الذي استمر في العطاء حتى أواخر الستينيات من القرن المنصرم، شعرا رقيقا

يذكرك بالعباس بن الأحنف. وما يذكر في هذا الصدد هو أن موهبته الشعرية انتقلت إلى ابنته سيمين بهبهاني، التي تعتبر من شاعرات إيران البارزات في القرن العشرين، لكنها - خلاف والدها - شعرت باللغة الفارسية.

رأسمال غير مستثمر

أما في عهد الجمهورية الإسلامية الإيرانية، فقد عُزِّزت مكانة العربية في إيران في المبدأ والتطبيق، لقد اتخذت السلطة موقفا رسميا في هذا الشأن، فأفردت للغة العربية مادة في دستورها الجديد في المادة السادسة عشرة جاء فيها:

«بما أن لغة القرآن والعلوم والمعارف الإسلامية هي العربية، وأن الأدب الفارسي ممتزج معها بشكل كامل، لذا يجب تدريس هذه اللغة بعد المرحلة الابتدائية حتى نهاية المرحلة الثانوية».

وقد طبقت هذه المادة بالفعل، فعمم تدريس اللغة في المدارس، وألفت في هذا المجال كتب خاصة موجهة لتدريس التلاميذ، إضافة إلى كتب قديمة كانت مستعملة في ما قبل، وإذا عرفنا أن عدد التلاميذ في المرحلة الثانوية في إيران يتجاوز الستة عشر مليونا، قدرنا الأهمية التي تنطوي عليها هذه المادة الدستورية، ومدى انتشار اللغة العربية في إيران الجمهورية في جيل الشباب إلى جانب سيادتها في الحوزات الدينية في مختلف المدن والنواحي الإيرانية.

الجدير بالذكر أيضا أن أقساما للغة العربية وآدابها تقوم في الجامعات الإيرانية الكبرى منذ ما قبل الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وقد عززت في عهدها، وهي من حيث البرامج والمناهج ومستويات التدريس في مرحلتي الإجازة والدراسات العليا تشابه رصيفاتها في جامعات الدول العربية، وإذا كان الجيل القديم - على رغم تبحره في علوم اللغة والعلوم الموصلة، بشكل عام، إضافة إلى اطلاعه الواسع على الآداب وما إليها - يرطن لكنة فارسية، فقلما تقع في جيلنا على من لا يتكلم العربية مثل أهلها، مع تنويع في اللهجات وفاق البلاد التي يكون تردد إليها أو نشأ فيها أو أكمل فيها دراساته العليا [٣٨].

من جهة أخرى، نُشرت في إيران عبر العصور مخطوطات كثيرة عربية اللغة، حققها أساتذة إيرانيون وأفاد منها العرب والدارسون، لكن الذي يسترعي النظر - منذ قيام الجمهورية الإسلامية الإيرانية - هو العدد الكبير من المخطوطات العربية التي تنشر في إيران، سواء منها ما ينشر لأول مرة، أو ما يعاد نشره بالعودة إلى نُسخ لم تكن في متناول المستشرقين أو البحاثة العرب، في مختلف علوم الدين واللغة وفي الآداب والفلسفة، ويحقق المخطوطات تحقيقا علميا أساتذة إيرانيون، وأحيانا باحثون من العرب في إطار من التعاون الخير [٣٩].

هذا الذي أشرنا إليه وأمور أخرى لم نتناولها يدل على أن اللغة العربية وما تحتمله من حضارة ترتفع في إيران في محيط غير غريب عنها، بل هي تشكل حجر الزاوية في ثقافة الأمة الإيرانية منذ انتشار الإسلام في ربوعها حتى اليوم، ورغم سيطرة الإنجليزية في بقاع العالم، وإقبال الناس عليها في إيران، كما في سواها، ورواج لغات حضارية عريقة فيها، كالفرنسية والألمانية، فإن العربية إلى جانب الفارسية تبقى في أسّ البناء اللغوي والحضاري للشخصية الإيرانية.

إذا تملينا هذه الشؤون بروية، تبدّى لأهل العربية رأس المال اللغوي - الحضاري الضخم والعريق الذي تحصل لهم في إيران، والذي لم يستثمروه حتى الآن، وهو رأسمال ينسحب، عبر إيران، إلى بلدان أخرى كانت جزءا من إيران الكبرى أيام امتدادها الإمبراطوري، أفغانستان وباكستان وأقسام من الهند وآسيا الوسطى في جمهورياتها الخمس، اليوم، بلوغا إلى القوقاس.

الإنقاذ الموعود

انطلاقا من هذه المعطيات أدعو الدول العربية إلى إنشاء منظمة خاصة، لا صبغة حكومية لها، تُعنى بتنمية تدريس اللغة العربية في الدول الإسلامية غير الناطقة بالعربية وتدريس بعض العلوم والمعارف الإسلامية بها، وكذلك بين الشعوب الأفريقية والآسيوية التي تربطنا بها علاقات جوار أو روابط خاصة. هذا إضافة إلى الجهد الذي يجب أن نبذله منذ الآن في إطار المنظمة المذكورة لنشر لغتنا في بلدان العالم، ولا سيما تلك التي تربط العرب بها، علاقات حسنة مثل فرنسا، حيث يعيش بضعة ملايين من العرب، ومثل إسبانيا وإيطاليا، اللتين كان للثقافة العربية فيهما جذور عريقة طوال قرون متمادية. ثم انطلاقا من هذه القواعد نوسع دائرة انتشار العربية في العالم.

عالم الفكر
العدد 1 المجلد 37 يوليو - سبتمبر 2008

في نقد العلاقة بين مجتمع المعرفة وخطاب الإصلاح

د. جمال الزرن (*)

١ - مقدمة

تتناول هذه الدراسة مسألة فكرية ذات أبعاد سياسية، يمكن تلخيصها في ماهية العلاقة بين مجتمع المعرفة ومشاريع الإصلاح. إنها مقاربة نقدية لربط السياسة (الإصلاح) بالإعلام، وتفكيك مجتمع المعرفة من زاوية جديدة اسمها علوم الإعلام والاتصال، وذلك من خلال إظهار حالات التقاطع الفكري والأيديولوجي بين كل من مشروع الإصلاح وقضية مجتمع المعرفة.

وهذا البحث هو محاولة تأصيلية لمجتمع المعلومات، وذلك من خلال بحث حضور المرجعيات الفكرية والثقافية في الجدل القائم حول ظاهرة الإصلاح السياسي في العالم العربي، وكيف تزامنت مع بروز مفردة مجتمع المعرفة. ويعتبر موضوع مجتمع المعرفة مسألة ذات صلة أيضا بالوسائطية، فوسيط اليوم يحدد ثقافة الغد. فمجتمع المعرفة الذي يؤسس له بوصفه مجموعة من الوسائط سيحدد ثقافة مجتمع المستقبل وسياسته. وتهتم هذه الدراسة بنقض بعض المسلمات الفكرية التي التصقت بكل من الإصلاح ومجتمع المعرفة، ومتابعة فرضية أن خطاب المنتج عن مجتمع المعرفة ومشاريع الإصلاح يبدو أنه خطاب لمفهوم يتمحور في غالبه حول جملة من الوسائل التقنية/التقنوية الحديثة لا أكثر (إنترنت، هاتف جوال، اتصالات فضائية...)، في حين أن مجتمع المعرفة هو من أكثر المصطلحات الفكرية إثارة للجدل والاختلاف لما له من تأثير مباشر في إدارة الشأن العام.

(*) أستاذ مساعد بمعهد الصحافة وعلوم الإخبار بجامعة منوبة - تونس، يدرّس حاليا الإعلام والصحافة بجامعة البحرين بكلية الآداب - قسم الإعلام.

سنعتمد في هذا البحث على عينة تحليلية تتمثل في كل من المبادرة الفرنسية - الألمانية لإصلاح الشرق الأوسط، ثم مبادرة الدول الثماني ومشروعها لإصلاح الشرق الأوسط الكبير ٢٠٠٤، ثم أيضا «قانون إصلاح الاستخبارات الأمريكية والحيلولة دون وقوع الإرهاب»، الذي صادق عليه الكونجرس ووقعه الرئيس الأمريكي جورج بوش نهاية سنة ٢٠٠٤. فستكون هذه الوكالة الجهاز التنفيذي الخفي لتطبيق كل تلك البرامج الإصلاحية. إن كل هذه المشاريع والتقارير هي لنا بمنزلة المرجع في تتبع كيف يُجمع الكل على مجتمع المعرفة بوصفه شعارا، وكيف لا يتفق الكل أيضا على المرجعيات والمضامين المكونة له. غير أن حمى المشاريع قد طالت كذلك المنطقة العربية، فقمة تونس ٢٠٠٤ قالت كلمتها في وثيقة سميت بوثيقة تونس للإصلاح، وفي الإسكندرية اجتمع عدد من المثقفين ومنظمات المجتمع المدني في الوطن العربي في مؤتمر وأصدر وثيقة الإصلاح العربي، وذلك في شهر مارس ٢٠٠٤[1]، ونتساءل: ما قيمة المشاريع العربية للإصلاح المضاد أمام مشاريع الإصلاح الغربية الأم، وما هي مرجعيتها وقراءتها للواقع العربي ولمجتمع المعرفة؟

٢ - الإصلاح وأيديولوجيا مجتمع المعرفة

إذا كان الخطاب الموجه عن مجتمع المعرفة قد تحول عبر الآلة الاتصالية إلى حقل اشتغال للأيديولوجيا، فإن مفهوم الإصلاح في المنطقة العربية وضرورة قيامه قد تحول هو الآخر أيضا، ومنذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر والحرب على العراق ومع إطلاق مشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير للدول الثماني، إلى أيديولوجيا. فلم تحظ وثيقة معاصرة، كمشروع سياسي وثقافي واقتصادي، بكل تلك الدعاية والالتفاف الإعلامي مثل ما حظيت به كل من وثيقة تقرير التنمية العربية (٢٠٠٣)، ومشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير (٢٠٠٤)، كلتا الوثيقتين متلازمتان، فلا قيمة لتقرير التنمية العربية إذا لم يتبع بوثيقة إصلاح الشرق الأوسط الكبير[2]، ومن جهة أخرى، على هدي أي بيانات وحقائق ومرجعية يمكن أن يطلق مشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير؟ وكيف يمكن لمشروع الإصلاح أن يتأصل سياسيا بتلك السرعة والسهولة من دون ذلك التشخيص «الرائع» في تقرير التنمية العربية (٢٠٠٢ و ٢٠٠٣) عن حالة العرب اقتصاديا وثقافيا ومعرفيا؟ هاتان الوثيقتان أفرزتا أسئلة عن القبول والرفض والتلقي أكثر من الأسئلة في التفاعل الفكري الإيجابي. وقد عبّر عن ذلك المفكر محمد عابد الجابري في كتابه «في نقد الحاجة إلى الإصلاح»، معتبرا أن مفهوم الإصلاح مكبّل بالشبهات، فكتب: «كون الإصلاح الذي تريد الإدارة الأمريكية إقامته في الشرق الأوسط أو قيامه فيه - لا فرق - قد بدأ بالإفساد. ليس فقط إفساد ما كان موجودا من إصلاح قائم أو منتظر، بل أيضا بإرباك وطمس الطريق إلى الإصلاح الحقيقي»[3]. في الحقيقة جاءت فكرة قبول

الإصلاح في شكل استفهام وتعجب من رفضه : من يستطيع أن يقف ضد مبدأ الإصلاح، ونبل شعاره وأهدافه، ومشاريعه التنموية الواعدة التي تشق الساحة السياسية العربية؟ من يستطيع أن يرفض الإصلاح؛ والمواطن العربي مقهور والمال العام مهدور والإرادة العربية مسلوبة؟ من يستطيع أن يعترض على أن يتحول المجتمع الذي ينتمي إليه إلى مجتمع معرفة؟ من يرفض أن يتحول بلده إلى بلد آمن وسلام يدعو إلى التسامح، أو يتجرأ أن يرفض مقاومة الإرهاب والقتل والخطف والتفجير، مهما كانت نواياه وعقائده؟

مثل هذه الأسئلة تمكن صياغتها في شكل أسئلة في الرفض وبأسلوب استفزازي لسؤال القبول، لتأتى صياغتها على النحو الآتي: من يقبل الإصلاح الوافد عليه قهرا، وفلسطين والعراق ومزارع شبعا والجولان أراض عربية محتلة؟ من يستطيع أن يقبل باسم حرية وسائل الإعلام وتحرير سوقها، التي نادى بها مشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير، أن يتحول المجتمع العربي إلى مجمعات إعلامية استهلاكية واقعة تحت قبضة الشركات الاحتكارية الأمريكية التي تملك وحدها ٤٠٪ من مصادر الإعلام العالمي؟ من يقبل كل تلك الغوغاء حول الإنترنت ومجتمع المعلومات والمعرفة، و٦٠ مليون عربي يعانون الأمية، وثلثهم يعيش على دولارين في اليوم؟ من يقبل أن يتحول تدريس الإسلام في مناهج التعليم بالمدارس العربية إلى تراث وتاريخ وثقافة، عاشه العرب كما عاشه الإسبان في الأندلس، والأتراك في عهد الدولة العثمانية؟ ومن يستطيع أن يعترض على المقاومة في فلسطين ويصفها بالإرهاب؟ فحتى الملك فاروق صديق الإنجليز أرسل سنة ١٩٤٨ جيشه إلى الجبهة على أمل تحرير فلسطين.

لا يمكن التفاعل مع هذه الأسئلة - بشقيها - من خلال الاجتهاد أو عناء البحث عن إجابة، بل يمكن اعتماد تلك الأسئلة مدخلا لمراجعة بعض المفاهيم والتصورات المتعلقة بقضايا الإصلاح ومجتمع المعرفة، التي جاء أغلبها في سياق مؤثرات ميدياتيكية أكثر منها معرفية. إن دلالات طرح مثل هذه الأسئلة هي تحويل موضوع الإعلام ومجتمع المعرفة ومشاريع الإصلاح إلى موضوع إشكالي ظاهر فكريا وثقافيا أكثر مما هو ظاهر سياسيا ودعائيا وفك رموز المصطلحات والأحداث المتجاذبة والمستهلكة فيه. أفردنا مثل تلك الأسئلة ونقيضها للقول إن التساؤل بمثل هذه المقاربة، وفي كلتا الحالتين، لا يمكن لا علميا ولا منهجيا أن يعتبر مدخلا سليما في التفكير المنهجي في هذا الكم الهائل من مشاريع الإصلاح والإصلاح المضاد التي يعيشها العالم العربي. فللكل دلائل سهلة وجاهزة لرفض الإصلاح وتقبله، كما أن البراهين العملية والفكرية تكاد تفيض لمن يريد الرفض أو القبول الأعمى لتلك المشاريع، فيسهل عليه أن يتحول إلى معارض لدود أو غيور متحمس لكل حرف من حروف مصطلح الإصلاح ومجتمع المعرفة. في واقع الأمر إن الإصلاح في الشرق الأوسط قد أخذ شوطا كبيرا ليس فقط في التنظير والتعريف بل في الممارسة والتطبيق وأصبحت له أدبياته[4]، ومؤسساته ورجاله

وفضاءاته، وباتت نتائجه في بعض الدول العربية خفية، وفي العراق أكثر من عينية[٥]. فقد أصبح هذا البلد الأرضية الخصبة والقاعدة الخلفية لتنفيذ برنامج إصلاح الشرق الأوسط بكل تفاصيله[٦]، ومن جهة أخرى ورغم كل هذا السجال فلم نعثر في الأدبيات العربية على خطة أو مشروع للإصلاح يملك مرجعية وتماسكا استراتيجيًا ومعرفيا، مشبع بخطاب مقنع في حجم كل من تقريري التنمية العربية ومشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير.

ميزة تقريري التنمية البشرية ٢٠٠٢ و٢٠٠٣ أنهما اعتمدا في صياغة مشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير لمجموعة الدول الثماني، فهما ليسا دعاية إعلامية في شكل حملة علاقات عامة أمريكية، بل وثيقة مركزية لبرنامج سياسي واقتصادي محكم تديره أجهزة متخصصة بالاعتماد على إمكانات ليست بالهينة، ذات مرجعية فكرية ستكون له في المستقبل تأثيرات سياسية وثقافية واجتماعية في العالم العربي. وقد نص مشروع الإصلاح في إحدى فقراته: «يمثل تقريرا التنمية البشرية العربية ٢٠٠٢ و ٢٠٠٣ نداءات مقنعة وملحة للتحرك في الشرق الأوسط الكبير». ويضيف مشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير: «يمكن لمجموعة الثماني أن تتفق على أولويات مشتركة للإصلاح تعالج النواقص التي حددها تقريرا الأمم المتحدة حول التنمية البشرية العربية عبر: تشجيع الديموقراطية والحكم الصالح، بناء مجتمع معرفي وتوسيع الفرص الاقتصادية». ومن جهة أخرى اعتمدت الوثيقة الألمانية - الفرنسية، التي يقف وراءها الاتحاد الأوروبي، في مشروعها الخاص بإصلاح الشرق الأوسط وبذات القيمة والاهتمام على تقرير التنمية العربية ٢٠٠٣ فقد ذكرت أن «وثيقة الإصلاح الألمانية الفرنسية تزكي تقارير برنامج الأمم المتحدة للتنمية التي تتضمن تشخيصا جيدا، وتشكل في حد ذاتها برنامج إصلاحات».

أما مشروع إصلاح أجهزة المخابرات الأمريكية فقد اعتمد على ما جاء في تقرير التنمية العربية، كمقدمة لمراجعة السياسة الخارجة الأمريكية، وأخيرا وليس آخرا فإن كل القضايا المتصلة بالتنمية البشرية في العراق: إعلام، مرأة، تعليم، مجتمع مدني، تجارة، تتعامل معها قوات التحالف والحكومة العراقية بالاعتماد على ما توصل إليه تقرير التنمية العربية ٢٠٠٣، وما اقترحه مشروع إصلاح الشرق الأوسط، ليتحول العراق إلى ورشة عمل لا تهدأ لتنفيذ كل ما جاء به هذا المشروع من إصلاحات سياسية واقتصادية واجتماعية، ساعد على ذلك غياب مؤسسات الدولة التي تهاوت بعد سقوط بغداد[٧]، وقد جاء في مشروع إصلاح الشرق الأوسط: «إن بلدان مجموعة الثماني، أيدت بدورها، هذه الجهود بمبادراتها الخاصة للإصلاح في منطقة الشرق الأوسط، وتبين الشراكة الأوروبية المتوسطية، ومبادرة الشراكة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط، وجهود إعادة الإعمار المتعددة الأطراف في أفغانستان والعراق التزام مجموعة الثماني بالإصلاح في المنطقة».

تؤكد كل هذه المؤشرات أن العراق يعتبر القاعدة الخلفية للإصلاح في الشرق الأوسط، الذي لا يسوق - إعلاميا - لنجاحاته أو خيباته كما يسوق للإصلاح في بقية الدول العربية، وهذا يعود إلى عدم مشروعية الحرب على العراق لدى الرأي العام العربي، وإمكان رفضه للإصلاح إذا ما كان النموذج العراقي هو الذي يجب الاهتداء به. يبدو أن الهدف الرئيسي للإصلاح في العراق هو تحقيق نتائج عملية ميدانية بحكم تحكم الولايات المتحدة في مقاليد الحكم بشكل غير مباشر، خاصة أمام غياب عنصر الاستقرار، وهو فرصة لا تعوض، يمكن بعدها أن تسوق النتائج السياسية للمشروع الأمريكي في العراق لنفسها وبنفسها، كما كانت الحال مع النجاح النسبي للانتخابات العراقية التي صورت إعلاميا على أنها انتصار للمفهوم الأمريكي في تصدير الديموقراطية ومعها صحة فكرة الحرب الوقائية ضد الإرهاب.

إذن فقضية الإصلاح ومجتمع المعرفة وتقرير التنمية العربية ليست قضايا محلية لإحدى محافظات المغرب العربي أو مصر أو الخليج، إنما هي في الواقع قضية فكرية ذات أبعاد استراتيجية معقدة ومتشابكة، تريد تشكيل الخارطة الجيوسياسية وعلاقة المنطقة العربية بالعالم الغربي بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١، كما أن ملف مجتمع المعرفة ليس فقط بتلك القضية الفكرية المجردة أو بحديث خاص في منتديات وملتقيات، بل هو مجموعة مركبة ومعقدة من المفاهيم والرؤى الاستراتيجية في كيف يتعامل عديد الأطراف الدولية مع المجتمع العربي الإسلامي من زوايا جديدة : الإعلام، التعليم، المرأة. فمجتمع المعرفة هو عبارة عن أحد أحدث مخرجات السياسة الخارجية الأمريكية وأنجعها في إطار استهدافها تحريك المجتمعات العربية في العمق. فهو المدخل السليم الذي لا يمكن لأي طرف أن يعترض عليه، ولا يستطيع أي طرف في الوقت نفسه أن يقبل به كما هو. فهو تنمية ولكنها بشرية، بها بشائر مجتمع مدني وصحافة حرة وإعلام متعدد وامرأة تنتخب وبرلمانات تشرع وشباب يشتغل. لا مكان للغة السلاح ولا القروض المباشرة أو الهبات التي تحول وجهتها، بل إن الحديث السليم اليوم هو في كيف يمكن الأخذ بتخلف تلك الدول العربية لتصبح ضمن سياق مجتمع المعرفة، وضمن الخطة العالمية لمكافحة الإرهاب[٨]. أما الإصلاح فهو - بشكل ظاهر أو خفي - تهديد ووعيد وفرض بالقوة وتدخل في الشؤون الداخلية وسيادة الدول. الإشكال هو أن تقرير التنمية العربية، الذي أكد ضرورة إقامة مجتمع معرفة وشخص تخلف العرب عن كل المؤشرات التنمية وأكد قاعدة الإصلاح، بإمكانه أن يتحول - وهنا يكمن الخلاف والجدل - إلى مدخل سليم للعرب قبل الغرب في النهضة والتطور من أجل بناء الإنسان العربي.

٣ - حدود المفهوم وإشكالية التلقي

في البدء، وعند حديثنا عن مجتمع المعرفة، لا بد من تجاوز السؤال الذي يريد حصر المفهوم في مدى قبول تكنولوجيات الاتصال الحديثة أم رفضها، وهو سؤال قد يدفع إلى الوقوع فكريا في سؤال آخر عقيم: «مع أم ضد مجتمع المعرفة»؟ إن الضرورة المنهجية والفكرية تدفعنا إلى أهمية التعامل مع مجتمع المعرفة، من خلال إظهار الأبعاد الاجتماعية والثقافية التي يختزلها. وتمكن ترجمة حدود هذا السؤال في سياق أغلب الدول العربية، مثلا في الاستثمار في قطاعات الإنترنت كأحد مكونات مجتمع المعرفة والدعاية له، على أمل الخروج من أزمة المديونية والبطالة، وذلك من دون عناء البحث عن مضمون ثقافي ووظيفة تنموية واضحة لشبكة الإنترنت، هكذا يُقدَّم التقني على الاجتماعي، والإجرائي على الاستراتيجي باسم مجتمع المعرفة[٩]. ويمكن الاستدلال بما دعا إليه المفكر المغربي مهدي المنجرة من ضرورة عقلنة خطاب الإنترنت؛ انطلاقا من النموذج المغربي بقوله «ليس للإنترنت أن تقدم للمغرب إلا بالقدر الذي يقدمه المغرب للإنترنت»[١٠]، إن أثر هذا التسابق يبدو أكثر حضورا في الخطاب المعلن منه في مجال الممارسة، لنصوغ على هدي المقولة ذاتها ما يلي: ليس لمجتمع المعرفة أن يقدم للعرب إلا بالقدر الذي يقدمه العرب لمجتمع المعرفة.

هل نقد المجتمع أم نقد المعرفة هو المدخل السليم لمجتمع المعرفة على ضوء مشاريع الإصلاح في العالم العربي؟ سؤال مراوغ وخادع في قراءته الخطية الأولى، ولكنه سؤال ماكر يريد أن يحشر ويطرح كل الظواهر وكل العناصر المشكلة لماهية مجتمع المعرفة على محك النقد. السبب المعرفي المشروع هو أن الخطاب المنتج عن مجتمع المعرفة جاء في أغلبه يعرف به ويسوق له، كأنه ظاهرة أو مفهوم إيجابي بالقوة، وأن القراءة النقدية تكاد تكون غائبة في أغلب الأدبيات ذات الصلة. وقد يصبح اليوم نقد مجتمع المعرفة - كمفهوم ورؤية - خروجا عن السرب، بحكم تلك القدسية وذلك الالتفاف الأكاديمي والنخبوي والسياسي على إفراد هذا المصطلح عذرية فكرية أزلية. ينتشر هذا الخطاب ويسري عبر توفير نوع من الغشاء، وهو غشاء يلف كل مكونات مجتمع المعرفة من أي إمكان للمساس أو الهتك المعرفي والنظري. تحول عرض الدولة وأي دولة عربية جزءا من العرض المفاهيمي لمصطلح «مجتمع المعرفة». فما هو مجتمع المعرفة؟

ليس الغرض من الخوض في المفهوم التأسيس لبراديجم مجتمع المعرفة وخلفياته التاريخية، فهذا مبحث آخر لكن سنأخذ من المفهوم ما يساعدنا على تفكيك خطاب مجتمع المعرفة وعلاقته بالإصلاح، خاصة بعد أن أشرنا إلى أن مجتمع المعرفة ظهر في الخطاب العربي من ضلع تقارير التنمية العربية، التي أفرزت بدورها مشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير. وهو

ما يحيلنا إلى بيان أن مجتمع المعرفة في الغرب يعتبر - تاريخيا - امتدادا لتطور علمي وتكنولوجي لتكنولوجيات الاتصال والمعارف المصاحبة لها، في حين نجد أن نشأة مجتمع المعرفة في الخطاب العربي جاءت أسيرة الخطاب السياسي الداخلي المتأثر بالضغوطات الخارجية المطالبة بالإصلاح. وهنا يكمن الفرق التاريخي بين الغرب والمنطقة العربية في تعريف مجتمع المعرفة، وهو ما يدفعنا إلى الإفصاح أنه لا وجود لمجتمع معرفة كوني أو إنساني، بل إن البيئة الثقافية والاجتماعية لهذا المجتمع أو ذاك هي التي تحدد طبيعة مجتمع المعرفة وخصائصه. من خلال متابعة الخطاب المنتج عن مجتمع المعرفة، كقضية فكرية يصعب العثور على مراجعة للمفهوم، وإن توافرت بحوث عن هذا المصطلح فهي على شاكلة «مجتمع المعرفة والتجارة الإلكترونية»، و«مجتمع المعرفة وثورة المعلومات»، و«مجتمع المعرفة والفجوة الرقمية».

غير أن غموض المفهوم بالإضافة إلى تدخل الخطاب الرسمي يعودان أيضا إلى تداخل المرجعيات والخلفيات الفكرية التي تتآكل وتتفاعل بشكل يبدو في بعض الأحيان يأخذ منحى التناقض والصراع. فالعلوم الاجتماعية تتعامل مع مجتمع المعرفة انطلاقا من علاقة تكنولوجيات الاتصال الحديثة ونظم المعلومات وتأثيراتها الاجتماعية في الفرد والأسرة والمجتمع والرأي العام وقوى الضغط المجتمعية. الفلاسفة[11] يجردون مجتمع المعرفة من زاوية قراءتهم لما بعد الحداثة، وكيفية تشكل فكر معرفي افتراضي وشبكات بشرية جديدة[12]. وأهل القانون والعلوم السياسية يرون في التقاء تكنولوجيات الاتصال الحديثة بالقرار والسيادة نوعا من امتداد السلطة وتشكلها من جديد. أما أخصائيو الاقتصاد فيعتبرون أن تكنولوجيات الاتصال الحديثة، التي تعتبر العصب الحيوي لمجتمع المعرفة، دلالة على ميلاد اقتصاد لا مادي طالما نظروا إليه. وبالنسبة إلى المهندسين والتكنوقراط فهم الأكثر غيرة على مجتمع المعرفة، فهو حقلهم بامتياز، بل أحد الحقول المؤسسة والمشرعة لوجودهم كجسد يبدع التقنية التي تفكر[13]، فمجتمع المعرفة هو تأكيد لسلطة تكنولوجيات الاتصال على سلطة المثقف التقليدي، الذي لن يملك المعرفة إن لم يتملك التقنية، وهي ما يمكن أن نطلق عليها بالنظرية التقنوية لمجتمع المعرفة. من كل تلك الاتجاهات يمكن أن نستخلص أهم فكرة ألا وهي : إن المعرفة في صيغتها الحديثة، وبالاعتماد على تكنولوجيات الاتصال، لم تعد هرمية عمودية، بل أصبحت شبكية أفقية.

هكذا يبدو التقاء مجتمع المعرفة بتكنولوجيات المعلومات من أكثر الحقول غليانا فكريا وتشعبا معرفيا يصعب تملكه وحصره لنتساءل: ما هو نصيب علوم الإعلام والاتصال كأحد الحقول المعرفية من كل هذا السجال الفكري. يصعب القول بوجود قراءة خاصة لعلوم الإعلام والاتصال[14] ولماهية مجتمع المعرفة، بل إن التفاعل يحدث طبقا لخلفية كل باحث، إذ نلتقي بالخلفية الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية أو غيرها من الأبعاد والأنساق ذات الصلة

بالعلوم الإنسانية[15]. في هذا السياق يرى برنار مياج الفرنسي المختص في علوم الإعلام والاتصال أن حضور أخصائي علوم الإعلام والاتصال في الجدل القائم حول مجتمع المعرفة كان فاترا، إن لم يكن غائبا، وخصوصا في قمة مجتمع المعرفة التي عقدت في جينيف ٢٠٠٣، ثم تونس ٢٠٠٥، وهو ما يوحي بإفساح أكثر في المجال للخبراء والتكنوقراط أكثر من الباحث والمثقف[16]. أمام كل هذا وذاك لا يمكن أن نغفل دور المدرسة النقدية التي تسعى إلى تجاوز الحصر الفكري، وتحاول تتبع ونقد أي مدرسة تريد التأسيس لمجتمع المعرفة، بالاعتماد فقط على تكنولوجيات الاتصال، وهو ما قد يؤدي إلى الانفراد به فكريا وغلقه في بوتقة العلوم الفيزيائية أو الاجتماعية أو السياسية، وتجاهل عنصر التعدد والاندماج الذي يمثله مجتمع المعرفة[17]. عربيا يبدو كل هذا التداخل ظاهرا أكثر في الخطاب منه في الفكر، فالنزعة البراجماتية في علاقة مجتمع المعرفة بتكنولوجيات الاتصال هي الطاغية. وهذه الرؤية تجعل البعض لا يحمّل نفسه عناء السؤال والبحث عن ماهية الحاجة إلى مجتمع المعرفة لتتضارب في بعض الأحيان النتائج مع الغايات، لتتحول الإنترنت إلى فضاء للإقصاء والإرهاب أكثر منه فضاء للتواصل، ويصبح التعليم الإلكتروني آلة لتخريج بطالة عوض الحد منها.

رغم هذا الاختلاف وذلك التجاهل يمكن حسم المفهوم من خلال ذكر ما عليه من إجماع، ولعل أكثر العناصر التي حولها إجماع هي أن لا وجود لمجتمع معرفة من دون تكنولوجيات الاتصال الحديثة. بل إن تقنيات الاتصال هي علامة ميلاد مصطلح ومفهوم مجتمع المعرفة مدفوعا بعنصر تحرير الأسواق (العولمة). المقصود إذن بمجتمع المعرفة، وبعد أن أكدنا قيمة تكنولوجيات الاتصال الحديثة، هو ذلك المجتمع الذي يقوم على أساس نشر المعرفة وإنتاجها، وخاصة توظيفها بكفاءة في جميع مجالات النشاط المجتمعي، من اقتصاد ومجتمع مدني وسياسة، مرورا بالحياة الخاصة للفرد، ووصولا إلى إقامة التنمية الإنسانية على مبدأ حرية الرأي والتعبير عبر وسائل إعلام حرة ومستقلة وانتظام الناس في أحزاب ونقابات. كما يركز مجتمع المعرفة على النشر الكامل للتعليم النوعي، وتوطين العلم، وبناء قدرة ذاتية في البحث والتطوير التكنولوجي في جميع النشاطات الإنسانية[18]. إذن، إن أي رؤية استراتيجية لإقامة مجتمع المعرفة في العالم العربي يجب أن تأخذ بعين الاعتبار إطلاق الحريات وتعدد حريات الرأي والتعبير والتنظيم والإعلام، وهي الحريات الضرورية القادرة على توفير المناخ الاجتماعي المناسب للبحث العلمي وتطوير التقنية وحرية التعبير الفني الجمالي[19].

من أجل تفعيل كل هذه العناصر المشكِّلة لمجتمع المعرفة يبدو أن إفراد السؤال المركب مكانه الصحيح في مسار الفكر العربي كفيل ببيان طريق تبلور مجتمع معرفة عربي. أول الأسئلة هو: إذا ما سلمنا بأن مجتمع المعرفة هو مصطلح ومفهوم إشكالي سجالي قابل للنقد، فإن هذا يعني أن المجتمع في مرتبته السياسية قد أصبح بدوره مفهوما إشكاليا قابلا للنقد. في صيغة

أخرى، إذا كان المجتمع قابلا - بالفعل - للنقد فلم لا ينقد مجتمع المعرفة الذي هو جزء منه؟ والسؤال الثاني من «المصطلح/المفهوم» يتصل بالمعرفة ذاتها. فإذا كانت المعرفة في الفكر العربي موضوعا محل خلاف، فإن مجتمع المعرفة لا يمكن أن يكون - بالقوة - إلا موضوعا خلافيا. فلماذا توجد رغبة في عدم نقد مجتمع المعرفة والتماهي بلا حدود في نقد مكونات المجتمع ومكونات المعرفة، كظاهرتين منعزلتين؟ فكأن بتقارير التنمية العربية ومبادرات الإصلاح المختلفة قد نقدت المجتمع العربي وتخلفه، ونقدت تخلف المعرفة العربية، أما صياغة مشروع مجتمع معرفة بديل فهذا ما لا يمكن الإقرار به. فلم نعثر طيلة قراءتنا لكل مشاريع الإصلاح والإصلاح المضاد على مكونات جادة لمجتمع بديل، وهو ما يحول كلا من مجتمع المعرفة والإصلاح إلى مشاريع تتناقلها الميديا والخطب أكثر من أن تؤسس لها العقول والمختبرات. لذلك وعلى هدي ما تقدم نعتقد أن مجتمع المعرفة والمعلومات في العالم العربي في حاجة إلى مقاربة نقدية، بل قل في حاجة إلى مراجعة ورؤية فكرية ذات مرجعية تأسيسية خاصة عندما نلتقي بمشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير. هذا المشروع يصح أكثر أن نطلق عليه اسم مشروع «مجتمع المعرفة» أكثر من كونه مشروعا للإصلاح. إن أكبر فضل لمشروع إصلاح الشرق الأوسط وتقرير التنمية العربية هو دفعهما لمصطلح مجتمع المعرفة إلى الشيوع وتحوله إلى عنصر يثير حفيظة السياسي واهتمامه، نقد المثقف واشتغاله، وحتى اهتمام المواطن العربي واستغرابه فيصبح الإشكال ليس في مضمونه وإنما في تلقيه، إذ يبدو أن التلقي هو أحد العناصر المحددة للمفهوم والمضمون.

أثار صدور تقرير التنمية العربية ردود فعل نقدية سياسية، هي عبارة عن ضجة للاستهلاك الإعلامي، عطلت إمكانات بروز حركة نقدية فكرية أو ثقافية جادة. ويعود هذا إلى الطابع الحمائي والدفاعي «البيولوجي» الذي تعيشه الأمة العربية منذ الحملات الاستعمارية في القرن التاسع عشر[٢٠]، المطلع على تقرير التنمية العربية زمن صدوره لا يمكن إلا أن يصاب بالبؤس والإحباط أمام ذلك الكم الهائل من الأرقام والنسب والمقارنات المفجعة والمتدنية، ويصل الأمر بالمتشائم أمام تلك الحقائق والدلائل إلى حد التساؤل الذاتي عن المستقبل الذي ينتظره وينتظر أبناءه. وعند البعض الآخر أثار تقرير التنمية العربية نوعا من العلاج النفسي وذلك من خلال حالة من النشوة والنرجسية، خصوصا لدى بعض المعارضات والمثقفين العرب. وقد سبق للبعض من هؤلاء أن نبه في كتاباته أو مقالاته الصحافية أو خطبه السياسية إلى بعض أو إلى كل ما جاء في تقرير التنمية العربية، مؤكدا أنه كان من بين السباقين والأوائل الذين حذروا ونبهوا بأن العرب متخلفين قياسا إلى الغرب، وأنهم سائرون نحو الهاوية. جمع آخر ثارت ثائرته عن هذا التقرير الملغوم وذلك المشروع الاستعماري ودخل في أسهل المصطلحات كتابة، وهي : الاستعمار الجديد والإمبريالية الثقافية وفرض النموذج

الغربي على الأمة العربية ذات التاريخ الحضاري الهائل من دون الأخذ بعين الاعتبار الخصوصيات المحلية، وأن الإصلاح إن كان له أن يحدث فيجب أن يأتي من الداخل وليس تدخلا خارجيا في شؤون العرب. مثل هذا الخطاب متداخل المرجعيات والخلفيات السياسية يلتقي حوله اليساري والإسلامي، ويتماهي معه خطاب السلط العربية مع بعض معارضاتها. الكل تجمعهم حيرة واحدة هي كيف يمكن أمام كل تلك الحقائق أن يحقق العرب القفزة التاريخية الكبرى نحو مجتمع المعرفة والأمية موغلة فيهم والفقر ينهش أكثر من نصفهم. هل يوجد بصيص أمل؟ مثل هذا السؤال الساذج والملح والضروري لا يمكن لأي مواطن غيور إلا أن يطرحه وهو يطلع على صفحات تقرير التنمية أو مشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير.

نعود إلى مجتمع المعرفة لنقول إن هذا المصطلح جاء في الغرب متلازما مع عدة تحولات لعل أهمها اندماج تقنيات الاتصال مع صناعة المعلومات، وهي مرحلة ما بعد المجتمع الصناعي، وهي مرحلة أدت إلى اندماج شركات دولية عملاقة مستفيدة من سوق محررة وعولمة شرسة تأكدت مع تأسيس منظمة التجارة العالمية. كما أن مجتمع المعرفة هو تطور طبيعي لتحولات يعيشها المجتمع الغربي، تتمثل في الخروج من مجتمع صناعي والدخول التدريجي في مجتمع المعرفة، وهو مجتمع الذكاء والاقتصاد اللامادي، الذي أصبح يطلق عليه سوسيولوجيا بالمجتمع الرقمي، يصوغ الغرب خطابا كونيا عن مجتمع المعرفة بحكم الحركة التسويقية المعولمة للشركات المتعددة الجنسية العاملة في حقل الاتصالات، في حين نجد أن خطاب مجتمع المعرفة في دول الجنوب عاد إلى مقولة عدم التكافؤ بين الشمال والجنوب وقضية الفجوة الرقمية، وهي امتداد للإشكالية التي كانت محل سجال طيلة الثمانينيات وبإشراف اليونيسكو، حول عدم تكافؤ التدفق الإعلامي بين الشمال والجنوب، التي تحولت اليوم إلى شعار نضالي جديد ترفعه الدول ويدافع عنه خاصة المجتمع المدني: «محاربة الفجوة الرقمية».

٤ - المبادرة الأوروبية للإصلاح

تفاعلا مع كل هذا التجاذب الفكري والسياسي الداخلي والخارجي ظهرت مجموعة من المبادرات حينا ومن المشاريع أو المقترحات أحيانا أخرى، وهي كلها تتموضع حول قضايا الإصلاح السياسي وتحرير الإعلام وبناء مجتمع معرفي ومدني، تلك المشاريع هي برامج في هيئة قوى ضغط سياسية وإعلامية ومالية ذات تأثيرات استراتيجية فائقة الدقة والوضوح. هذه القوى السياسية والاقتصادية هي جهتان: الأولى هي كل من فرنسا وألمانيا ومن ورائهما أوروبا المتعثرة بدستورها. أما الثانية فهي الولايات المتحدة الأمريكية المنتصرة - نسبيا - في حربين، واحدة بشرعية أممية أوروبية (أفغانستان)، وأخرى بشرعية غائبة أو منقوصة (العراق).

يحتوي نص المبادرة الفرنسية - الألمانية للإصلاح في الشرق الأوسط على عدة أهداف ومجموعة من مبادئ العمل، وأربعة اقتراحات لتفعيل بنود هذه المبادرة. في باب الأهداف يتعلق **الهدف الأول** بحال منطقة الشرق الأوسط كمصدر قلق مشترك تتقاسمه الدولتان مع شركائهما في المنطقة العربية والشركاء الأطلسيين ومستقبلها وتؤكد الوثيقة: «نحن على استعداد لدعم بلدان الشرق الأوسط وتشجيعها في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. إن كل مبادرة في شأن الشرق الأوسط ينبغي أن تلبي حاجات المنطقة وتطلعاتها، ونجاحها يتوقف بالدرجة الأولى على هذه البلدان. إن تطلعات المواطنين - وهم في أغلبيتهم من الشباب - كبيرة، إذ إن نصف سكان المنطقة هم دون الثامنة عشرة. ويقضي التحدي الحقيقي بتعديل الوضع القائم على أساس شراكة صادقة وتعاون ورؤية مشتركة. إن الحكومات مثلها مثل المجتمع المدني شريكة في هذه المهمة»[٢].

أما **الهدف الثاني** الذي جاء تحت شعار الاتحاد الأوروبي الذي تمثل كل من ألمانيا وفرنسا محوره، فإن الدولتين تدعوان الاتحاد الأوروبي إلى أن يستجيب لهذه الأهداف، «إذ إن لأوروبا مصلحة كبيرة في التطور الإيجابي للمنطقة. فإلى جانب التحديات الأساسية للأمن، هناك الروابط الجغرافية والثقافية والاقتصادية والبشرية بين أوروبا والمنطقة، التي تدفع بوضوح في هذا الاتجاه. ويمثل الالتزام الحالي للاتحاد الأوروبي تجاه دول البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى والأوسط أولوية مركزية في إطار العمل الأوروبي». والهدف الثالث جاء تفاعلا مع ما اقترحته الولايات المتحدة من أفكار في شأن الشرق الأوسط الكبير وسبل مواكبة تحديثه، وإحلال الديموقراطية فيه. ويؤكد المشروع الفرنسي الألماني أنه: «علينا أن نستقبل بإيجابية إمكان عملنا معاً، وتنسيق جهودنا، وينبغي على الاتحاد الأوروبي أن يتطلع إلى شراكة عبر الأطلسي مع الشرق الأوسط. كما ينبغي عليه أن يحدد مقاربة مميزة تكمل مقاربة الولايات المتحدة الأمريكية، بالاستناد إلى مؤسساته الخاصة وأدواته».

ويكمن الفرق بين المشروع الألماني - الفرنسي والأمريكي على مستوى آليات تفعيل الإصلاح، ففي حين تؤكد الوثيقة الأمريكية دور الدبلوماسية العامة والمخابرات والجمعيات الأهلية والمنظمات الأمريكية، فإن الوثيقة الأوروبية ترى أن «قوة الدفع ينبغي أن تأتي من المنطقة. إن كل الدول والمجتمعات المعنية عبرت عن حذر جماعي قوي في وجه أي محاولة لفرض نموذج من الخارج». لذلك فإن الوثيقة الفرنسية - الألمانية للإصلاح تدعو إلى التعامل مع كل البلدان للاستجابة لمطالبها قدر الإمكان وفي أقرب مرحلة ممكنة، وذلك عبر مشاركتها في صياغة وثيقة الإصلاح: «فمن الضروري التحرك عبر الحوار وتحفيز الحكومات، وأيضا مع المجتمعات المدنية بالالتصاق قدر الإمكان بحقائق كل بلد». وتتلخص آليات العمل في هذه الوثيقة في تفعيل دور المنظمات الدولية الأوروبية والتابعة لمنظمة الأمم المتحدة، ويمكن

تلخيص مبادئ العمل للمبادرة الفرنسية - الألمانية في النقاط التالية: «ضرورة الأخذ في عين الاعتبار المشاعر الوطنية وهوية كل بلد. إن المقاربة الألمانية - الفرنسية تستند إلى الاستراتيجية الأمنية الأوروبية التي أقرها الاتحاد الأوروبي في ديسمبر ٢٠٠٣، وهذا سيشمل الأوجه السياسية والأمنية والاقتصادية والاجتماعية، بما في ذلك تشكيل مجتمع مدني. كما تعتمد الوثيقة الألمانية - الفرنسية، وتزكى تقارير برنامج الأمم المتحدة للتنمية التي تتضمن تشخيصا جيدا، وتشكل بحد ذاتها برنامج إصلاحات».

ما يمكن أن نلاحظه من خلال قراءتنا للمبادرة الفرنسية - الألمانية هو تركيزها على الدور الأوروبي في الإصلاح، وذلك حتى لا تنفرد أمريكا بهذا الملف مما يحيلنا إلى عدم وجود تعارض على مستوى المبدأ، بل إحالة أوروبية على أهمية المنظمات الرسمية الأوروبية والأممية في الإصلاح في حين ترى أمريكا ضرورة إيجاد مؤسسات أهلية مستقلة محلية أو دولية مدعومة لتفعيل مشروع الإصلاح داخل دول منطقة الشرق الأوسط الكبير. من جهة أخرى تركز الوثيقة الفرنسية - الألمانية على أهمية أن ينبع الإصلاح من الداخل، وليس كما هي الحال في التصور الأمريكي القائم على إمكان التدخل كشكل وقائي وبأساليب جديدة (دبلوماسية، أمنية، مخابراتية). أما في ما يتعلق بمجتمع المعرفة فإن الوثيقة تتبنى تشخيص تقرير التنمية العربية وتعتبره مشروعا في حد ذاته. كما أن هذه الوثيقة لم تغفل ضرورة تحرير وسائل الإعلام من هيمنة الضغوط المباشرة وغير المباشرة للسلطات في منطقة الشرق الأوسط. وفي النهاية فإن كلا من ألمانيا وفرنسا هما دولتان عضوتان في مجموعة الثماني، وأن مشروع إصلاح الشرق الأوسط هو مشروع لهذه المجموعة ملزم لكل الدول الأعضاء، وما مقترحها الخاص بالإصلاح إلا تأكيد على ضرورة إيجاد نوع من التباين النسبي بينها وبين أمريكا. ولفهم هذا التباين يمكن العودة إلى الخلاف الأوروبي - الأمريكي حول مبررات غزو العراق سنة ٢٠٠٣، واعتراض فرنسا وألمانيا على شن الحرب بـ «مبرر الحرب الوقائية»، الذي يحمل في طياته إعادة تشكيل خارطة الشرق الأوسط أمريكيا، وهي أحد أهداف الإصلاح الأمريكي غير المعلنة. ولم تتعرض هذه الوثيقة إلى ملف مجتمع المعرفة بالأهمية نفسها التي أفردها مشروع إصلاح الشرق الأوسط، ويحيلنا هذا إلى أن مصطلح مجتمع المعرفة وجملة مفاهيمه هو صناعة أمريكية، زكته أوروبا والدول الثماني ليأخذ تأشيرة وصفة دولية.

٥ - الشرق الأوسط الكبير وتدويل الإعلام العربي

يحتوى مشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير على ثلاثة أبواب، هي تشجيع الديموقراطية والحكم الصالح، وبناء مجتمع معرفي، وتوسيع الفرص الاقتصادية. كما يحتوى على ديباجة مهمة هي عبارة عن مقدمة مقتبسة من تقريري التنمية العربية ٢٠٠٢ و٢٠٠٣. في البداية يمكن إبداء

الملاحظة التالية، وهي أن أحد أهم وجوه مشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير يتمثل في الباب الخاص بالاقتصاد وبتوسيع الفرص الاستثمارية، فهو من الأبواب التي لم تواجهه ردود فعل رافضة ولم يلق حظه من النقاش والجدل، وربما يعود هذا إلى قبول الدول العربية غير المشروط بالإصلاحات الاقتصادية، لأنها ستدر عليها هبات مالية وامتيازات مادية مباشرة. أما أكثر الفقرات التي أفرزت جدلا فهي الخاصة بالإصلاح السياسي، الذي أثار إشكالية الخصوصيات المحلية، في حين لا تثار قضية الخصوصية عندما يتعرض النقد لباب الإصلاحات الاقتصادية. وقد ركز التقرير أكثر على قضية إدارة المؤسسات المالية وتحسين الخدمات، ولم يتحدث عن صناعات ثقيلة أو تطوير للبنية الاقتصادية للدول العربية، لتصبح دولا مصنعة للسيارات أو الأسلحة والطائرات وتكنولوجيا الاتصالات المتطورة، وإنما فقط تشجيع المؤسسات الاقتصادية الصغرى لتقوم بدور الوسيط للشركات الغربية الاحتكارية متعددة الجنسية.

إن تخلف الدول العربية الاقتصادي يجمع عليه خبراء العالم، فهي من أكثر الدول فقرا، فالمعارضات العربية التي صعدت في السبعينيات في تونس ومصر والمغرب، وفي أغلب الدول العربية، قد أعربت عن أن الأزمة التي عصفت بالعرب منذ فشل مشاريع التحديث القطرية لدولة ما بعد الاستقلال ليست اقتصادية. فالأزمة هي في المقام الأول سياسية، تتجسد أساسا في الحكم الصالح والديموقراطية ومشاركة الشعب. فبرزت أغلب الأحزاب العربية منادية بالديموقراطية، وكانت الديموقراطية هي أفضل التسميات لحركات المعارضة والاحتجاج منذ السبعينيات. إن مشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير، عبر تركيزه على البعد السياسي وغض الطرف عن البعد الاقتصادي للإصلاح، قد قطع الطريق أمام الأنظمة التي مازالت - عبر خطابها - تريد تأطير أزمة مجتمعاتها بأنها اقتصادية لا أكثر، أزمة تختزل في قلة الإمكانات، وعلى الجماهير أن تعمل ولا تضيع الوقت في المهاترات الكلامية عن الديموقراطية والأفكار الخارجية التي تريد زعزعة الاستقرار والأمن، وأن المؤهل الوحيد سياسيا لحماية الوطن وصيانة الدستور هو الملك أو القائد أو الزعيم أو الحزب الذي جاء بالاستقلال. فمع مشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير عاد طرح الموضوع السياسي كأولية مدعوما بفكرة تأسيس مجتمع المعرفة. فلم يقنع حديث المجتمع المدني ولا نقد المعارضات في الداخل السلطات العربية الحاكمة بصحة مقولة أولوية السياسي، حتى جاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر والحرب على الإرهاب وأفغانستان والعراق لتدخل كل مشكلات العالم العربي الموروثة منذ الاستقلال إلى حظيرة التدويل. السبب المباشر في تدويل الشأن العربي يتمثل في أن الأنظمة العربية أصبحت ليست فقط خطرا على شعوبها بل على شعوب العالم والإنسانية قاطبة، ثم أنها باتت عاجزة عن التقدم بشكل مستقل لإدارة شؤونها العامة. مما يستدعي

تدخلا عاجلا لكل الأطراف الدولية التي لها مصلحة أمنية أو سياسية أو اقتصادية في المنطقة العربية.

بعد إفراد البيانات الخاصة بالتنمية البشرية يتعرض مشروع إصلاح الشرق الأوسط للدول الثماني إلى المعطيات الإحصائية المعرفية التي لا يمكن فصلها عما سبق من بيانات ومعطيات تنموية متدنية، فيشير إلى أن ١,٦ ٪ فقط من السكان بإمكانهم استخدام الإنترنت، وهو رقم اقل مما هو عليه في أي منطقة أخرى في العالم، بما في ذلك بلدان أفريقيا وجنوب الصحراء الكبرى. أما النساء فلا يشغلن سوى ٣,٥٪ فقط من المقاعد البرلمانية في البلدان العربية، بالمقارنة، على سبيل المثال، مع ٨,٤ ٪ في أفريقيا وجنوب الصحراء الكبرى. أما في ما يتصل بالشباب فتعتمد الوثيقة من جديد على تقرير التنمية العربية لتؤكد أن ٥١٪ من الشبان العرب الأكبر سنا عبروا عن رغبتهم في الهجرة إلى بلدان أخرى، خصوصا البلدان الأوروبية، وتعكس هذه الإحصائيات أن المنطقة تقف عند مفترق طرق، مما سيمثل تهديدا مباشرا لاستقرار المنطقة، وللمصالح المشتركة لأعضاء مجموعة الدول الثماني. ويمثل تقريرا التنمية البشرية العربية، وفق مشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير «نداءات مقنعة وملحة للتحرك في الشرق الأوسط الكبير». وهي نداءات لا يرددها الغرب وأمريكا بل أكاديميون وأصحاب القطاع الخاص في أرجاء المنطقة. إن التغيرات الديموغرافية المشار إليها أعلاه، وتحرير أفغانستان والعراق من نظامين قمعيين، ونشوء نبضات ديموقراطية في أرجاء المنطقة، ستتيح لمجموعة الثماني فرصة تاريخية. إذ ينبغي للمجموعة أن تصوغ شراكة بعيدة المدى مع قادة الإصلاح في الشرق الأوسط، وتطلق ردا منسقا لتشجيع الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي في المنطقة[22].

أما في ما يتعلق بمبادرة وسائل الإعلام المستقلة، التي تمثل حجر الأساس في مشروع الإصلاح وقاعدة مجتمع المعرفة، فيشير تقرير التنمية البشرية ٢٠٠٣ إلى أن هناك أقل من ٥٣ صحيفة لكل ١٠٠٠ مواطن عربي، بالمقارنة مع ٢٨٥ صحيفة لكل ألف شخص في البلدان المتطورة، وأن الصحف العربية المتداولة إلى أن تكون ذات نوعية رديئة[23]، ومعظم برامج التلفزيون في المنطقة تعود ملكيتها إلى الدولة أو تخضع لسيطرتها. إذ تفتقر البرامج إلى التقارير ذات الطابع التحليلي والتحقيقي الاستقصائي[24]. ويقود هذا النقص إلى غياب اهتمام الجمهور وتفاعله مع وسائل الإعلام المطبوعة، ويحد من المعلومات المتوافرة للجمهور. ولمعالجة ذلك، يمكن لمجموعة الثماني أن تساهم في:

- رعاية زيارات متبادلة للصحافيين في وسائل الإعلام المطبوعة والإذاعية[25].
- رعاية برامج تدريب لصحافيين مستقلين[26].

- تقديم «زمالات» دراسية لطلاب كي يداوموا في مدارس للصحافة في المنطقة أو خارج البلاد، وتمويل برامج لإيفاد صحافيين أو أساتذة صحافة لتنظيم ندوات تدريب بشأن قضايا مثل تغطية الانتخابات أو قضاء فصل دراسي في التدريس في مدارس بالمنطقة[٢٧].

- أما عن الجهود المتعلقة بالشفافية ومكافحة الفساد فقد حدد البنك الدولي الفساد باعتباره العقبة الكبرى في وجه التنمية، وقد أصبح متأصلا في الكثير من بلدان الشرق الأوسط الكبير، مما يستوجب ضرورة التشجيع على تبني «مبادئ الشفافية ومكافحة الفساد» الخاصة بمجموعة الثماني، عبر إطلاق واحد أو أكثر من البرامج التجريبية لمجموعة الثماني حول الشفافية في المنطقة. هذا بالإضافة إلى العمل العلني لمبادرة منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، التي يناقش من خلالها رؤساء حكومات ومانحون ومنظمات غير حكومية استراتيجيات وطنية لمكافحة الفساد وتعزيز خضوع الحكومات للمساءلة.

جاء في مشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير: «أنه أخذا بعين الاعتبار أن القوة الدافعة للإصلاح الحقيقي يجب أن تأتي من الداخل، وبما أن أفضل وسيلة لتشجيع الإصلاح تكون ببعث منظمات تمثيلية، فعلى مجموعة الدول الثماني أن تشجع على تطوير المنظمات الفاعلة للمجتمع المدني في المنطقة، وذلك عبر تشجيع حكومات المنطقة على السماح لهذه المنظمات، ومن ضمنها المنظمات غير الحكومية الخاصة بحقوق الإنسان ووسائل الإعلام، على أن تعمل بحرية ومن دون مضايقة»[٢٨]. من جهة أخرى تدعو الوثيقة إلى اعتماد التمويل المباشر للمنظمات المهتمة بالديموقراطية وحقوق الإنسان ووسائل الإعلام والنساء وغيرها من المنظمات غير الحكومية في المنطقة. هذا بالإضافة إلى دعم القدرة التقنية للمنظمات غير الحكومية في المنطقة بزيادة التمويل والتدريب لها، وكذلك في كيفية وضع برامج ذات تأثير في الحكومة وتطوير استراتيجيات خاصة بوسائل الإعلام والناس العاديين لكسب التأييد. كما يمكن لهذه البرامج أن تتضمن تبادل الزيارات وإنشاء شبكات إقليمية[٢٩]. ويصبح هذا ممكنا عبر تمويل منظمات غير حكومية، تجمع بين خبراء قانونيين أو خبراء إعلاميين من المنطقة لصياغة تقويمات سنوية للجهود المبذولة من أجل الإصلاح القضائي أو حرية وسائل الإعلام في المنطقة، كما يمكن في هذا الإطار الاقتداء بنموذج «تقرير التنمية البشرية العربية»[٣٠].

يبدأ الفصل الخاص ببناء مجتمع معرفي - مجتمع المعرفة - بما جاء في تقرير التنمية البشرية العربية، ٢٠٠٢، الذي أكد أن المعرفة: «تمثل الطريق إلى التنمية والانعتاق، خصوصا في عالم يتسم بعولمة مكثفة». لقد أخفقت منطقة الشرق الأوسط الكبير، التي كانت في وقت مضى مهد الاكتشاف العلمي والمعرفة إلى حد بعيد في مواكبة العالم الحالي ذي التوجه المعرفي، وتشكل الفجوة المعرفية التي تعانيها المنطقة ونزيف الأدمغة المتواصل تحديا لآفاق

التنمية فيها. ولا يمثل ما تنتجه البلدان العربية من الكتب سوى ١.١ ٪ من الإجمالي العالمي، وتشكل الكتب الدينية أكثر من ١٥٪ منها. ويهاجر حوالي ربع كل خريجي الجامعات، وتستورد التكنولوجيا إلى حد كبير. ويبلغ عدد الكتب المترجمة إلى اللغة اليونانية (التي لا ينطق بها سوى ١١ مليون شخص) خمسة أضعاف ما يترجم إلى اللغة العربية. وبالاستناد على الجهود التي تبذل بالفعل في المنطقة، يمكن لمجموعة الثماني أن تقدم مساعدات لمعالجة تحديات التعليم في المنطقة، ومساعدة الطلاب على اكتساب المهارات الضرورية للنجاح في السوق المعولمة، وذلك عبر مجموعة من المبادرات مثل مبادرة التعليم الأساسي، الذي يعاني نقصا وتراجعا في التمويل الحكومي، بسبب تزايد الإقبال على التعليم تماشيا مع الضغوط السكانية. كما يعاني تعليم البنات عوائق تعود في الأصل إلى اعتبارات ثقافية.

وعلى خلفية ما تقدم يمكن لمجموعة الثماني السعي إلى مبادرة للتعليم الأولي في منطقة الشرق الأوسط، تشمل محو الأمية عبر تشكيل فرق مختصة، وتحديث الكتب المدرسية، وتأسيس مدارس للاكتشاف ثم إصلاح التعليم، وأخيرا مبادرة التعليم عبر الإنترنت. أما المبادرة الثانية فهي «محو الأمية»، إذ أطلقت الأمم المتحدة في ٢٠٠٣ «برنامج عقد مكافحة الأمية» تحت شعار «محو الأمية كحرية»، ولمبادرة مجموعة الثماني لمكافحة الأمية أن تتكامل مع برنامج الأمم المتحدة، من خلال التركيز على إنتاج جيل متحرر من الأمية في الشرق الأوسط خلال العقد المقبل، مع السعي إلى خفض نسبة الأمية في المنطقة إلى النصف بحلول ٢٠١٠. ستركز مبادرة مجموعة الثماني مثل برنامج الأمم المتحدة على النساء والبنات. يتطلب كل هذا فرقا لمحو الأمية كما يمكن لمجموعة الثماني أن تسعى إلى تحسين مستوى القراءة والكتابة لدى الفتيات، عبر إنشاء أو توسيع معاهد تدريب المعلمين، مع التركيز على النساء وعلى معلمات المدارس والمختصات بالتعليم القيام في هذه المعاهد بتدريب النساء، على مهنة التعليم. كما يركز المشروع على الكتب التعليمية، فتقرير التنمية البشرية العربية لاحظ نقصا كبيرا في ترجمة الكتب الأساسية في الفلسفة والأدب وعلم الاجتماع وعلوم الطبيعية. كما تلاحظ «الحالة المؤسفة للمكتبات» في الجامعات، ويمكن لكل من دول مجموعة الثماني تمويل برنامج لترجمة مؤلفاتها «الكلاسيكية» في هذه الحقول. أما مبادرة مدارس الاكتشاف فقد بدأ الأردن تنفيذ مبادرته لإنشاء «مدارس الاكتشاف»، حيث يتم استعمال التكنولوجيات المتقدمة ومناهج التعليم الحديثة[٣].

وبعد عرض أهم مكونات مشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير، خصوصا العناصر المكونة لمجتمع المعرفة، نرى أن مجتمع المعرفة طبقا لمشروع الإصلاح يمر عبر التعليم ومحاربة الأمية وربط التعليم بتكنولوجيات الاتصال الحديثة، مثل الإنترنت. وأن هذا المشروع يؤكد أن مجتمع المعرفة هو المجتمع العربي المنشود. إنه ذلك المجتمع الذي تتوافر فيه بشكل متواز الحرية،

خصوصا حرية وسائل الإعلام ثم سياسة تعليمية متطورة تأخذ بعين الاعتبار تكنولوجيات الاتصال الحديثة. لا نجد صدى لتشخيص متواز في الخطاب الرسمي العربي في تحديده لمجتمع المعرفة، بل إن مثل هذا الخطاب يحبذ استعمال تقنية المعلومات لحصر المعرفة في بعدها التقني والعلمي الشمولي، من دون السعي إلى تنزيلها في قضايا ذات علاقة بحرية التعبير واستقلالية وسائل الإعلام والحكم الصالح، وفاعلية مؤسسات المجتمع المدني، ثم التعليم الحديث العصري الذي يعتمد على تكنولوجيات الاتصال الحديثة.

٦- قانون إصلاح أجهزة الاستخبارات

ظهرت أصداء تقرير التنمية العربية وإصلاح الشرق الأوسط الكبير أيضا في تقرير نشرته وزارة الخارجية الأمريكية، سمي بقانون «إصلاح الاستخبارات الأمريكية والحيلولة دون وقوع الإرهاب» الذي وقعه الرئيس جورج بوش[٣٢]. وقد وضع التقرير برنامجا تجريبيا لتقديم منح دراسية لمدارس ترعاها الولايات المتحدة في دول إسلامية. كما يتضمن تعليمات بإنشاء وزارة الخارجية «لصندوق فرص الشباب الدولي» من خلال منظمة دولية لتحسين التعليم الحكومي في الدول التي يشكل المسلمون أغلبية سكانها. وهدف هذا الصندوق هو: «تحسين التعليم الحكومي في الدول الإسلامية، والتواصل مع عناصر من الشباب المسلم في سن مبكرة لتسهيل جذبهم للفكر الأمريكي، وتقديمهم العون الاستخباراتي اللازم للولايات المتحدة إذا لزم الأمر في ما بعد». ولأول مرة في تاريخ العلاقات الدولية تؤسس دولة أجنبية علنا قانونا للتعاون مع إعلاميين محليين في إنشاء وسائل إعلام محلية في الدول العربية والإسلامية. وكان سبق للولايات المتحدة - عبر وكالة المخابرات المركزية الأمريكية - تقديم تمويل سري لصحف ومجلات عربية في أواخر الأربعينيات والخمسينيات والستينيات من القرن الماضي.

يدعو قانون إصلاح أجهزة الاستخبارات الأمريكية إلى الربط بين الديبلوماسية العامة ومشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير، تحت رعاية أجهزة المخابرات والمنظمات التي تتعامل معها. وليلوغ كل هذا يرى المشروع أنه بالإمكان الربط بين المخابرات والعلاقات العامة كمنهج وأسلوب جديد في الديبلوماسية[٣٣]، من خلال تمويل وإنشاء الصحف والمحطات التلفزيونية في الدول العربية وتدريب صحافيين. تعتزم إذن الحكومة الأمريكية - في سياق استراتيجيتها لإعادة صياغة المنطقة العربية سياسيا وثقافيا - إنشاء وسائل إعلام وثقافة وتمويلها، وتشمل صحفا ومحطات إذاعية وقنوات تلفزيونية ومدارس في الدول العربية والإسلامية، بما يضمن تغلغل أجهزة الاستخبارات الأمريكية في صفوف الشباب في هذه الدول. وقد بدأت الإدارة الأمريكية تطبيق بنود كل هذا التقرير في العراق وفي غيره من الدول العربية والإسلامية، من

خلال إنشاء العديد من المنظمات والمؤسسات الإعلامية التي تمولها بشكل مباشر، وتشرف عليها، أو التي تدعمها بشكل غير مباشر[٢٤].

يتوجه تمويل الولايات المتحدة المباشر إلى ما تنشئه من شبكات إخبارية باللغة العربية، مثل قناة «الحرة»، وهي محطة تلفزيونية فضائية باللغة العربية شاملة، و«راديو سوا»، الموجه نحو الشباب العربي، ٨٢ مليون دولار للسنة المالية ٢٠٠٤، وقد بدأت «الحرة» البث في فبراير ٢٠٠٤، وانطلق «راديو سوا» في ٢٠٠٢، كما تمول الولايات المتحدة الشبكة الإذاعية الجديدة للحكومة العراقية، من خلال عقد قيمته ٩٦ مليون دولار مع مؤسسة هاريس الأمريكية. وقدمت الإدارة الأمريكية دعما مباشرا أو غير مباشر لعديد أقسام الإعلام في الجامعات العربية. كما خصصت أمريكا مبلغ ١.٧ مليون دولار لـ «مبادرة وزارة الخارجية للشراكة في الشرق الأوسط»، كما أطلقت الولايات المتحدة «المبادرة من أجل إعلام تعددي في البلدان الناطقة بالعربية» التي تقدم للصحافيين مساعدات ومعونات فنية لإصلاح التشريع الإعلامي في الجزائر والبحرين ولبنان والمغرب وتونس. وتضع «مبادرة الشراكة في الشرق الأوسط» استراتيجية طويلة المدى لدعم الإعلام المستقل في العالم العربي. ولبيان أهمية الاهتمام الأمريكي بملف الإعلام العربي يمكن دائما العودة إلى النموذج العراقي، وكيف منحت الهيئة العراقية للاتصالات والإعلام تراخيص لكل من راديو سوا الذي يرأسه جيمس لامبرت وتشرف عليه إذاعة مجلس المحافظين، وكذلك محطة تلفزيون IBB الفضائية، وهي وكالة حكومية ١٠٠ ٪، وتمويلها المالي من حكومة الولايات المتحدة الأمريكية. كما يوجد في العراق أيضا راديو قوات الائتلاف - القوات المتعددة الجنسية في العراق - الذي يشرف عليه الميجور جيرالد. أر. سكوت والتابعة للقوات المتعددة الجنسية في العراق وهي تتمتع بتمويل من البنتاجون.

كل هذه المعطيات حولت قضية الإعلام العربي، ومعه مجتمع المعرفة، إلى قضية دولية (البعد الدولي)، وبات الإعلام العربي ملفا في مسالك التدويل، وذلك لالتقاء عديد الأطراف في توجيهه ورعايته وتصحيحه طبقا لما نص عليه مشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير. نلتقي طيلة تتبعنا لتحولات الإعلام العربي بدعم الدول الثماني الغنية والاتحاد الأوروبي واختراق المخابرات الأمريكية وضغط الجمعيات والمنظمات الأمريكية المستقلة وشبه المستقلة ومنظمة الأمم المتحدة لنتساءل: من بقي لا يعنيه شأن المشهد الإعلامي في المنطقة العربية[٢٥]. إن علاقة الإعلام العربي بالإدارة الأمريكية وبالإعلام الأمريكي ليست نقية، وفي أكثر من مناسبة وجهت الإدارة الأمريكية انتقادات للإعلام العربي وكيفية تغطيته للحرب الأخيرة على العراق وبثه أفكارا معادية لأمريكا. جاء ذلك في أكثر من مناسبة على لسان كل من كولن باول ودونالد رامسفيلد. إن ملف الإعلام العربي هو الآن وقبل أي وقت

مضى تحت المجهر؛ لأنه أداة الإصلاح ويدفع به إلى الخروج جزئيا من سيطرة الحكومات العربية التي تمادت في توظيفها للإعلام لتأبيد الاستبداد السياسي ليتحول إلى ملف دولي عالمي شبيه بقضية الشرق الأوسط أو غيرها من القضايا الدولية الشائكة التي تستدعي تدخلا دوليا.

كما يحتوي «قانون إصلاح الاستخبارات والحيلولة دون وقوع الإرهاب» على مجموعة من التوصيات والتعليمات إلى وزارة الخارجية بتشجيع الصحافة المستقلة في الدول الإسلامية، تتخذ منحى أكثر تفهما للسياسات الأمريكية، وإيجاد صحافيين محترفين لهم القدرة على فهم المؤسسات الأمريكية كجزء من استراتيجية الدبلوماسية العامة الشاملة الخاصة بالعالمين العربي والإسلامي. ويخول القانون مؤسسة «الصندوق القومي للديموقراطية» تمويل مجموعات من القطاع الخاص لإقامة شبكة وسائل إعلام حرة؛ لمساعدة المشتركين على تبادل المعلومات الخاصة في المجتمعات التي تمر بمرحلة انتقالية وتطويرها، في إشارة واضحة إلى العراق الذي تحتله الولايات المتحدة. فقد كشفت الولايات المتحدة منذ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، تمويلها لعقد مؤتمرات خاصة بالديموقراطية في الدول العربية، حيث جرى في شهر ديسمبر ٢٠٠٤ عقد خمسة مؤتمرات دفعة واحدة في البحرين والأردن وتونس ومصر والمغرب وكانت الجهات الفاعلة وراء تنظيم هذه المؤتمرات هي «مركز الإسلام والديموقراطية» الأمريكي في واشنطن، الذي يتلقى تمويلا حكوميا أمريكيا، و«المعهد العربي لحقوق الإنسان»[٣٦]. ويخول القانون الولايات المتحدة إنفاق «المبالغ التي قد تكون ضرورية من الأموال الفيدرالية» في العامين الماليين ٢٠٠٥ و٢٠٠٦ لـ «مبادرة الشراكة للشرق الأوسط» للمساعدة في تعزيز حكم القانون والديموقراطية وأنشطة رجال الأعمال في العالم الإسلامي. وتقوم بعض السفارات الأمريكية في دول عربية بدفع تكاليف دراسة بعض الصحافيين العرب اللغة الإنجليزية في بعض المعاهد المتخصصة[٣٧].

ويفرض القانون أيضا على وزارة الخارجية الأمريكية ومجلس أمناء الإذاعات الدولية، الذي يدير إذاعة صوت أمريكا وراديو سوا وقناة الحرة الناطقة باللغة العربية، رفع تقارير في فترات منتظمة إلى الرئيس الأمريكي عن جهود التواصل مع المسلمين وتأثير العمل الإعلامي في أوساطهم[٣٨]. وينص قانون إصلاح الاستخبارات - أيضا - على إجراء تقييم سنوي لأنشطة الدبلوماسية العامة الأمريكية واستراتيجيتها. ويشجع وزارة الخارجية على تحسين الأنظمة التي تتبعها في التوظيف والتدريب في مجال الدبلوماسية العامة، خصوصا تجاه الدول ذات الأغلبية المسلمة. إذ يفرض القانون الجديد توظيف أشخاص يملكون مهارات ملائمة في اللغات والعلاقات العامة لتعزيز قدراتها في مجال الدبلوماسية العامة»، معتبرا أن

«العرب الأمريكيين» تربة خصبة لذلك، إلى أن يأتي صف آخر من الشباب في العالم الإسلامي»[39]، كما يوصي القانون بأن يؤدي السفراء الأمريكيون دورا أكبر في الدبلوماسية العامة، ويأمر بأخذ الخبرة في الدبلوماسية العامة بعين الاعتبار عند النظر في طلب موظف ما. في أغلب الكتابات التي تناولت مشاريع الإصلاح تجاهلت آليات تنفيذه ووقفت عند شعار الإصلاح والحكم الصالح ومجتمع المعرفة لا أكثر. القبول أو الرفض الفكري للإصلاح يلقى ويشكل مستتر تجاوبا عمليا ومؤسساتيا مع مشروع إصلاح الشرق الأوسط الذي ترعاه وزارة الخارجية والمخابرات الأمريكية، وقد يصل في بعض الأحيان إلى الدعوة الصريحة والعلنية إلى التدخل في قضايا الشأن العام في أكثر من دولة عربية، أو حتى تلك التي تلعن أمريكا بوصفها الشيطان الأكبر.

٧- مشاريع الإصلاح المضادة

سنتوقف عند مبادرتين: واحدة عربية رسمية، والأخرى اقترحها المجتمع المدني العربي. **المشروع الأول** سمي بوثيقة تونس للإصلاح في العالم العربي، التي صدرت عن قمة الدول العربية المنعقدة في تونس سنة ٢٠٠٤، والتي تعتبر ردا رسميا عربيا على مشروع إصلاح الشرق الأوسط للدول الثماني. أما **المشروع الثاني** فهو وثيقة الإسكندرية التي جاء بها مؤتمر«قضايا الإصلاح العربي : الرؤية والتنفيذ»، والتي تعتبر الرد غير الرسمي، الذي تمثله منظمات المجتمع المدني في الوطن العربي[40].

أ- وثيقة «تونس» للإصلاح

جاءت وثيقة تونس للإصلاح بعد صدور كل من تقرير التنمية العربية ٢٠٠٣، ومسودة مشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير ٢٠٠٤. هذا بالإضافة إلى سيل من الضغوط الأمريكية في شكل مجموعة من الرحلات المكوكية للدبلوماسية العامة الأمريكية[41]. جاء في الوثيقة أنه عملا بعهد الوفاق والتضامن الصادر عن الدورة العادية السادسة عشرة لمجلس جامعة الدول العربية على مستوى القمة، وتأكيدا للجهود التي تبذلها دولنا في سبيل التحديث والإصلاح، من أجل تحقيق النهضة الشاملة وتعزيز قدرتها على التفاعل مع التحولات التي يشهدها العالم، وانطلاقا من الإرادة التي تحدونا إلى مزيد من التقدم في الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي في بلداننا، ومن خصوصياتنا الثقافية والدينية، ومراعاة لوتيرة التغيرات التي يشهدها كل مجتمع، وإدراكا لضرورة بناء مستقبل أفضل لشعوبنا في إطار يعزز مقومات هويتنا العربية ووحدة شعوبنا، ويكرس مشاركة قواها الحية ومنظمات المجتمع المدني، في مسار التحديث والإصلاح المتفتح على العالم والمتفاعل معه، وإذ نعتبر أن معالجة القضايا القائمة بالاحتكام إلى الشرعية

الدولية من شأنها أن تحد من مشاعر الإحباط وتسهم في القضاء على أسباب العنف.

نؤكد ما يلي:

١ . تكثيف جهود الإصلاح في بلداننا في إطار استراتيجية عربية لتطوير وتحديث مجتمعاتنا في كل المجالات، بما يتفق مع قيمها وتقاليدها ومفاهيمها الثقافية والدينية والحضارية، وظروف كل دولة وإمكاناتها وقدرة مجتمعها على استيعاب الإصلاحات.

٢ . تعميق أسس الديموقراطية وتوسيع نطاق المشاركة السياسية، في إطار علوية القانون وتكريس المساواة وحرية الفكر والرأي والعقيدة ودعم دور منظمات المجتمع المدني في بلورة وتنفيذ برامج الإصلاح الشامل، بما يعزز مقومات المواطنة ويثبت ركائز دولة القانون والمؤسسات.

٣ . اعتماد مقاربة مشتركة تكرس اندماج اقتصاديات البلدان العربية على أسس راسخة وثابتة، من خلال تنمية الاستثمارات والعلاقات الاقتصادية البينية وتدعيم انخراطها في اقتصاد السوق وتفعيل دور القطاع الخاص فيها، بما يكفل تعامل البلدان العربية مع بقية دول العالم كفضاء اقتصادي موحد ومجموعة متماسكة ومتفتحة على المحيط الخارجي، قادرة على إقامة تعاون وثيق مع الهيئات والتجمعات والفضاءات والمؤسسات الدولية والإقليمية، تكريسا للشراكة الحقيقية المتكافئة والمتضامنة على أساس الثقة المتبادلة والمصلحة المشتركة.

٤ . بلورة استراتيجية متكاملة وشاملة لتحديث البنية الاجتماعية لدولنا من خلال مواصلة تطوير مناهج التعليم والتدريب في البلدان العربية، لمواكبة التطورات العلمية والتكنولوجية في العالم وفق نظرة متكاملة الأبعاد، تأخذ بعين الاعتبار القيم والهوية والمقومات الأساسية للأمة العربية، بما يساهم في تضييق الفجوة التي تفصلها عن الدول المتقدمة في مجالات تكنولوجيات الاتصال والمعلومات والعلوم والبحث العلمي.

٥ . مواصلة النهوض بدور المرأة في المجتمع العربي وتدعيم حقوقها؛ تعزيزا لمساهمتها في دفع عملية التنمية الشاملة، من خلال مشاركتها الفعلية في مختلف الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

٦ . سعينا إلى إقامة شراكة حقيقية بين دول منطقتنا والمجموعات والأطراف الدولية الفاعلة، استنادا إلى الأسس والمبادئ التالية:

أ . مزيد من التنسيق والتعاون مع المجموعة الدولية في مجال مكافحة التطرف والإرهاب من خلال مقاربة شاملة تقوم على معالجة الأسباب العميقة لهذه الظاهرة، والعمل على إزالة عوامل الإحباط والإقصاء والتهميش الناجمة أساسا عن اتساع الهوة بين الدول المتقدمة والدول النامية.

ب . اضطلاع المجموعة الدولية بدورها وفقا لمبادئ الشرعية الدولية تجاه القضايا المصيرية التي تعيق التنمية في المنطقة العربية وفي مقدمتها القضية الفلسطينية والاحتلال الإسرائيلي للأراضي السورية واللبنانية من أجل إحلال سلام عادل وشامل ودائم يساهم في توفير المناخ الملائم لتحقيق الأمن والاستقرار والازدهار لكل شعوب المنطقة.

ج . نزع ومنع انتشار أسلحة الدمار الشامل في كل منطقة الشرق الأوسط، وحث دول المنطقة على الانضمام إلى كل الاتفاقيات ذات الصلة؛ حتى يتسنى تسخير كل الطاقات العربية واستثمارها في خدمة التنمية المستدامة.

د . الاستفادة مما يمكن أن تقدمه المجموعة الدولية والهيئات والمنظمات من خبرات وتجارب في تنفيذ برامج الإصلاح.

٧ . تكليف هيئة استشارية تتولى إعداد خطة عمل لتجسيم المبادئ والأهداف المنبثقة عن هذا البيان، تضم ممثلين عن كل الدول وخبراء وأكاديميين، وعرض نتائج أعمالها على الدورة العادية المقبلة لمجلس وزراء الخارجية.

ما يمكن أن نلاحظه انطلاقا مما ذكر في هذه الوثيقة هو التجاهل المطلق لتقرير التنمية العربية ولمبادرة الدول الثماني حول الإصلاح في الشرق الأوسط الكبير. لذلك نتساءل لماذا هذه المبادرة إن لم تكن تفاعلا مع ما جاء من مشاريع دولية للإصلاح؟ كما نتساءل على هدي أي توصيف وتشخيص للواقع العربي اعتمدت هذه الوثيقة؟ أين هي الأرقام الشبيهة بالأرقام التي جاء بها مشروع إصلاح الشرق الأوسط؟ لماذا اختزل مجتمع المعرفة في الجملة التالية من الوثيقة: «تضييق الفجوة التي تفصلها عن الدول المتقدمة في مجالات تكنولوجيات الاتصال والمعلومات والعلوم والبحث العلمي»، و«تشكيل هيئة استشارية لتفعيل الإصلاحات»، في حين تصرف الدول الثماني على مشروع الإصلاح مليارات الدولارات، وتؤسس عشرات المنظمات والمؤسسات لتفعيل أهداف الإصلاح؟ أين الحديث عن تطوير الإعلام العربي شكلا ومضمونا؟ ولماذا وقع تجاهله قياسا إلى التركيز المفرط الذي جاء في مشروع إصلاح الدول الثماني، ولماذا تجاهلت الدول العربية من جديد الإصلاح في قمة الجزائر في مارس ٢٠٠٥؟ غير أن أكثر الأفكار إثارة هي ما جاء في البند الأول من البيان الختامي: «وقدرة مجتمعها على استيعاب الإصلاحات»، كأن المجتمعات العربية غير ناضجة ومتخلفة ولا توجد بها نخب ولا كوادر وطاقات يمكن أن تستوعب أي محاولة للإصلاح.

ب - المجتمع المدني والإصلاح : وثيقة الإسكندرية

نظمت كل من المنظمة العربية لحقوق الإنسان ومنتدى الإصلاح العربي، بمشاركة مفوضية الأمم المتحدة السامية لحقوق الإنسان وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، ندوة إقليمية بمكتبة الإسكندرية في مارس ٢٠٠٤ لبحث سبل تعزيز مؤسسات المجتمع المدني

وتفعيل دورها في الإصلاح تحت عنوان «قضايا الإصلاح العربي... الرؤية والتنفيذ»[42]. في ختام أعماله أصدر المؤتمر وثيقة أكد فيها أن الإصلاح يجب أن ينبع من داخل المجتمعات العربية، ويأخذ في عين الاعتبار أحوال كل قطر عربي على حدة، من دون إغفال القواسم المشتركة بين الدول العربية[43].

مثل هذا النداء لا يختلف عما جاء في الوثيقة الألمانية - الفرنسية، من ضرورة أن ينبع الإصلاح من الداخل. كما أشارت الوثيقة إلى ضرورة حل القضية الفلسطينية والمحافظة على وحدة العراق وإدانة الإرهاب وتنقية المنطقة من أسلحة الدمار الشامل، وهو ما توقفت عنده وثيقة تونس للإصلاح. وتحتوى الوثيقة على مشروع الإصلاحات السياسية والمتمثلة في احترام الدساتير والفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية فصلا واضحا صريحا، وتجديد أشكال الحكم بما يضمن تداول السلطة بالطرق السلمية دوريا، طبقا لظروف كل بلد. فالدولة الحديثة دولة مؤسسات ونصوص وليست نيات حسنة. كذلك إقامة انتخابات دورية حرة تصون الممارسة الديموقراطية، وتضمن عدم احتكار السلطة، وتضع سقفا زمنيا لتولي الحكم، وإلغاء مبدأ الحبس أو الاعتقال بسبب الرأي في كل الأقطار العربية، وإصلاح المؤسسات والهياكل السياسية، وإطلاق حريات تشكيل الأحزاب السياسية في إطار الدستور والقانون. كما نادت وثيقة الإسكندرية بأهمية تحرير الصحافة ووسائل الإعلام من التأثيرات والهيمنة الحكومية، ذلك لأن هذا التحرير دعامة قوية من دعائم النظام الديموقراطي، والتجسيد الواضح لحرية التعبير، والدعامة القوية للشفافية. كما دعت الوثيقة إلى إطلاق حرية تشكيل مؤسسات المجتمع المدني، وذلك بتعديل القوانين المقيدة لحرية تكوين الجمعيات والنقابات والاتحادات التطوعية، وتشجيع قياسات الرأي العام وتحريرها من العوائق بوصفها إحدى وسائل الديموقراطية الأساسية.

في باب **الإصلاح الاجتماعي**، الذي حل بعد الإصلاح الاقتصادي، اهتمت وثيقة الإسكندرية بتطوير نمط العلاقات الأسرية بما يخدم بناء الفرد المتميز المستقل القادر على ممارسة حرياته وخياراته بمسؤولية. ولكن ما يشد الانتباه هو حضور القضايا المتعلقة بالإعلام في الفصل الخاص بالإصلاح الاجتماعي، وكنا ننتظر أن نعثر عليها في باب الإصلاح السياسي والثقافي، كما هو الشأن في برنامج الإصلاح لدول الثماني؛ إذ تؤكد وثيقة الإسكندرية أن «يقوم الإعلام بدور أساسي في بناء الثقافة العامة للمواطن، الأمر الذي يستلزم تأكيد دوره في إعادة بناء القيم المساندة للتطوير والتحديث، كقيم المساواة والتسامح والقبول بالآخر وحق الاختلاف جنبا إلى جنب مع قيم الدقة والإتقان والالتزام وغيرها من القيم الإيجابية التي تساعد المجتمع العربي في التحول إلي مجتمع جديد فعال». في ذات السياق ذاته أدرجت إشكالية مجتمع المعرفة في باب الإصلاح الاجتماعي ونتساءل عن حكمة مثل هذا التصنيف؛

لأن مجتمع المعرفة والإعلام قضايا سياسية وثقافية أكثر من كونها قضية اجتماعية. في هذا الباب جاء بالوثيقة: «توجيه المجتمعات العربية نحو اكتساب ونشر وإنتاج المعرفة. وفي هذا الإطار من الضروري التركيز على عدة توجهات تتكامل وتترابط في ما بينها: لتحقيق مجتمع المعرفة وهي: تأكيد التنمية الإنسانية وأولوية تطوير التعليم، تحقيق التطوير التكنولوجي وتوفير بنيته الأساسية، تطوير استراتيجيات البحث العلمي ودعم العمل الحر، والمبادرة الخلاقة في مجالات الابتكار والإبداع، وتوفير المناخ المساند لمجتمع المعرفة، سياسيا وثقافيا واقتصاديا. وضمانا لتحقيق ذلك توصي وثيقة مؤتمر الإسكندرية بضرورة وضع معايير عربية لمخرجات التعليم في جميع مراحله بما يتوافق والمعايير العالمية، وإنشاء هيئات للجودة والاعتماد والرقابة على التعليم في كل دولة عربية، مستقلة عن الوزارات المعنية».

أما في باب **الإصلاح الثقافي** فقد نص البيان على أن المشاركين في المؤتمر منشغلون بالمشكلات والتحديات الثقافية القومية والقطرية، وذلك من منظور يؤكد مجموعة من الأوليات الثقافية التي لا يمكن إغفالها. وفي مقدمة الإصلاح الثقافي دعا مؤتمر الإسكندرية إلى ضرورة ترسيخ العمل على أسس التفكير العقلاني والعلمي بتشجيع مؤسسات البحث العلمي وتوفير التمويل اللازم لها، وإطلاق حريات المجتمع المدني وتنميتها عبر القضاء على منابع التطرف الديني، التي لا تزال رواسبها موجودة في المناهج الدراسية وخطب المساجد ووسائل الإعلام الرسمي وغير الرسمي. كما أكدت الوثيقة تشجيع الاستمرار في تجديد الخطاب الديني سعيا إلى تجسيد الطابع الحضاري التنويري للدين، بما يقتضيه ذلك من إطلاق الحريات الفكرية، وفتح أبواب الاجتهاد على مصاريعها في قضايا المجتمع للعلماء والباحثين. انطلاقا من أن التنمية الثقافية هي أساس أي تنمية، والخطوة الأولى لأي إصلاح جذري لا يمكن نجاحها إلا بإشاعة ثقافة الديموقراطية في مناهج التعليم والإعلام. من جهة أخرى التأكيد على تجديد الخطاب الثقافي وتخليصه من الرواسب المعوقة لتقبل الاختلاف والحوار مع الآخرين، وذلك بتجديد ما يتصل بهذا الخطاب من أنواع خطابات الإعلام والسياسة والطوائف الاجتماعية. هذا بالإضافة إلى العمل على إلغاء أشكال الرقابة على النشاط الفكري والثقافي بما يدعم حرية الفكر ويحرك عملية الإبداع، بعيدا عن وصاية أي جهة أو فئة باسم الدين أو التقاليد أو الخصوصية أو السياسة. كما توجد دعوة إلى الحفاظ على اللغة العربية وتحديث آليات تكيفها مع التقنيات الرقمية الجديدة في عصر المعلومات، وتأكيد العلم بوصفه مكونا أساسيا من مكونات الثقافة، وبوصفه مسارا راسخا للنظرة المستقبلية التي تؤسس في الوعي الثقافي العام ضرورة مجتمع المعرفة، الذي هو السبيل المثلى للتقدم في كل مجال.

ولم تتعرض وثيقة الإسكندرية إلى بيان بعض الأرقام أو الإحصائيات التي على هديها يمكن اقتراح مجموعة من قواعد الإصلاح السياسي والثقافي والاقتصادي، هذا بالإضافة إلى آليات

تطبيق كل تلك التوصيات. فقد اشتركت وثيقة الإسكندرية مع وثيقة تونس، على الرغم من صدورها عن منظمات تمثل المجتمع المدني، في غياب التشخيص العلمي للواقع العربي، الذي يمثل المدخل السليم لأي مبادرة لمشروع للإصلاح. هذا بالإضافة إلى الغياب شبه الكلي لآليات وأجهزة وإمكانات مادية وبشرية لتفعيل ذلك المشروع، حتى لا يبقى حبرا على ورق. ويمكن القول إن وثيقة الإصلاح الصادرة عن مؤتمر الإسكندرية هي وثيقة مجتمع مدني رسمي أكثر من كونه مستقلا، قريبة من مؤسسات السلطات العربية أكثر من كونها ناقدة تعبر عن قوة دفع اجتماعي في تناقض أو تعارض مع ما هو سائد. هذا بالإضافة إلى الغياب الكلي لأجهزة مؤسساتية مستقلة وموازنة مالية لتفعيل بنود ذلك الإصلاح.

٨- نقد مجتمع المعرفة وخطاب الإصلاح

على هدي ما أثير في هاتين الوثيقتين («تونس» و«الإسكندرية») نتساءل: لماذا غُيِّب تقرير التنمية العربية الذي هو من صياغة منظمة تابعة للأمم المتحدة المنضوية تحتها كل الدول العربية؟ لم نعثر على أي أثر أو أي إشارة عابرة عن كل تلك الحقائق المخيفة عن حال العرب، التي أصبح يستشهد بها الرأي العام والنخب المتعطشة للإصلاح. مثل ذلك السؤال يحيلنا بدوره على سؤال آخر محرج وهو: على أي أسس علمية وواقعية اجتمع هؤلاء المعنيون بالإصلاح إذا لم يكن لديهم تشخيص معرفي لحال العرب؟ قد يكون الواقع العربي سليما وليس بكل تلك السوداوية التي جاء بها تقريرا التنمية العربية لسنة ٢٠٠٢ و٢٠٠٣؟ فإن كان الأمر كذلك فمن الضروري على من صاغ المشروع الرسمي والمدني العربي عن الإصلاح أن يقدم الدلائل والبراهين على سلامة الواقع العربي؛ لأن الحديث عن الإصلاح ليس بالعملية الهينة، فهو تشخيص واقتراحات وآليات عمل. فهو ليس حديثا في المنتديات أو مجرد تفاعل بين مثقفين على واجهة وسائل الإعلام يوشك أن يجهض ويفسد رسميا - وبأسلوب غير مباشر - جوهر وموضوع الإصلاح لدى الرأي العام العربي. نريد أن نقول إن رفض التشخيص الذي جاء به تقرير التنمية العربية عن الوضع العربي يستوجب رفض الإصلاح من جوهره، فكلتا الوثيقتين متلازمتان. أما إذا ما وجد مشروع مضاد في الإصلاح فيجب أن يكون له تشخيص مضاد أيضا. كما أن القبول بمبدأ الإصلاح يعني القبول الضمني بصحة ما جاء من تشخيص لعلل الواقع العربي في تقرير التنمية العربية، الذي كان شعاره «بناء مجتمع معرفي». فهل نرفض تقرير التنمية العربية لأنه فقط أمريكي الشبهة؟ أم نرفض الإصلاح لأنه يبدو أمريكي المرجعية؟ يبدو وانطلاقا من وثيقة تونس ووثيقة الإسكندرية أن أمام كل من يريد التعامل مع قضية الإصلاح في العالم العربي اليوم خيارين: إما قبول الكل وإما رفض الكل وإما تقديم بديل راديكالي مقنع؟ إن مثل هذه الخطاب يكشف عن إشكال عربي معرفي في التعامل مع الإصلاح، وإشكال آخر في تلقي

تقرير التنمية العربية على المستوى الرسمي، ولدى المجتمع المدني في حقل الاشتغال السياسي والثقافي والاجتماعي. إذن على هدي ما ذكر هل يمكن أن نقدم نقدا لمفهوم ومصطلح مجتمع المعرفة في إطار السياق الفكري والثقافي العام لمشاريع الإصلاح؟

الجواب الأول يكون حتما بنعم، فلا كهانة معرفية ولا وجود لمانع من نقد فكرة مجتمع المعرفة. الجواب الثاني يكون بلا، فكيف يمكن لأي مثقف أو مفكر عربي أن يقول لا لمجتمع المعرفة، وإن قال لا فإنه سيجد نفسه خارج السرب. إن مفهوم مجتمع المعرفة ودلالته لا يحظيان فقط بقبول جماهيري، بل إن قيادات أغلب الأنظمة العربية لا تدخر جهدا في إدراج هذا الملف ضمن أول اهتماماتها السياسية والاقتصادية والتعليمية، لما لهذا المصطلح من أثر مستقبلي في أغلب مشاريع التنمية المتعطلة. هذا الاهتمام تحول عبر الخطاب الاتصالي وليس فقط الإعلامي إلى سوفت وير، بل قل إلى برنامج تشغيل أغلب دواليب أجهزة الدول العربية. مسيرة الانخراط في مجتمع المعرفة، كشعار لدى الدول العربية، لا يمكن أن تشوبها شائبة فكرية أو ثقافية. فمجتمع المعرفة عند الدول العربية هو علامة العبور مباشرة من التخلف إلى المعرفة، من دون أي محاولة تاريخية كبرى للتغيير. هكذا يسوق الخطاب الرسمي العربي إعلاميا لمجتمع المعرفة. ونخشى عبر مجتمع المعرفة أن يتم القفز على عملية الإصلاح السياسي، كما تم بعد الاستقلال القفز على مبدأ المشاركة السياسية باسم بناء التنمية وباسم بناء مؤسسات الدولة السياسية والاقتصادية. فعلى مستوى التجريد الفكري فإن مجتمع المعرفة ليس غاية في حد ذاته، وإنما هو مجموعة من المفاهيم والمضامين الفكرية والقيم الحضارية، مجسدة في آليات عمل مجموعة من المؤسسات، منها ما هو حكومي تابع للدولة، ومنها ما هو مستقل يديرها المجتمع المدني، مثل الجمعيات والمعارضات والنخب المثقفة. ويبقى مجتمع المعرفة حتى لدى الدول الغربية المتقدمة مدخلا لتفعيل التنمية وإدخال إصلاحات هيكلية في إدارتها للشأن العام، فمجتمع المعرفة ليس حكرا على الدول النامية.

إن أغلب الدول العربية تعتبر - وحتى بعد حصولها على الاستقلال - دولا متخلفة حضاريا، وهي حقيقة أكدها عبر الأرقام تقريرا التنمية العربية، التي مهما كانت نسبية الخطأ فيهما تبقى صادقة وغير قابلة للاهتزاز. لكن بالتوازي مع ذلك التقييم يطغى خطاب يريد أن يؤكد ويكرر، بلا كلل، أن هذه الدولة العربية أو تلك قد دخلت عصر مجتمع المعرفة بعد أن وضعت استراتيجية للجامعة الافتراضية، أي التعليم الإلكتروني (E-learning)، وأخرى ستصل قريبا إلى أن تتحول حكومتها إلى حكومة إلكترونية (E-government). في سياق آخر نسمع أن السوق العربية - إن أريد لها أن تتحقق - ستتحقق عبر التجارة الإلكترونية. المفارقة هي أنه في بعض هذه الدول لا يتوافر حتى حق التظاهر. يمنع قانونيا في عديد الدول العربية تحرير عريضة مطلبية، التي تعتبر في الغرب من آليات حرية التعبير في القرن التاسع عشر. كما أنه

في بعض هذه الدول لا يمكن لأي مواطن أن يؤسس مطبعة - وهي مجموعة من الآلات لطبع الورق مضى على اكتشافها أكثر من خمسة قرون - إلا بتصريح من وزارات الإعلام، حيث أفرد لها فصل خاص في أغلب التشريعات الإعلامية بالدول العربية[٤٤]. هكذا يخشى هذا الخطاب السلطوي أي محاولة لنقد مجتمع المعرفة، لأنه إذا ما هممنا بنقد مجتمع المعرفة فيجب أن نكون قد بدأنا أو انتهينا من نقد المجتمع وطريقة تفاعلنا معه وتسييره منذ بدء مشاريع التحديث المختلفة في المنطقة العربية.

مشاريع التحديث ستحيلنا على نقد المعرفة العربية في مفهومها الشمولي، التي قدمت عديد القراءات الجادة للتاريخ والتراث والواقع العربي وآليات تجاوزه، وذلك من خلال عدد من المفكرين وعدد من المدارس، هي بين التأصيل والنقل[٤٥]. إن ذلك الإنتاج الفكري مازال - رغم جديته وأهميته المعرفية وبغض النظر عن الحكم القيمي - مغيبا في تفاعله مع الواقع، لأن ما يمارس في الواقع العربي ما هو إلا حصيلة تدخل قراءة من هو في سدة الحكم. فكل ما ينتج معرفيا ويمكن أن ينعكس على المجتمع العربي آدابا وسلوكيات وبرامج صحية وتعليمية وسياسة داخلية وخارجية عن ماهية المجتمع في أي دولة عربية هو حصيلة رؤية ومصدر واحد هو السلطة الحاكمة ومؤسساتها. تلك هي المعرفة العربية اليوم: معرفة رسمية في تماهٍ مطلق مع السلطة. إن هذه المعرفة مازالت - بالإضافة إلى ترسيخها لعديد التصورات - لا تتيح الفرصة لإمكان نقدها. فهل يمكن نقدها من زاوية اتصالية إعلامية كمدخل لنقد المعرفة ومعها المجتمع العربي المنشود ؟ وهل يمكن فقط عبر تحديد المفهوم تجاوز هذا التجاذب الفكري؟

ونعود من جديد إلى إشكالية النقد لنقول إن أحقية نقد المجتمع العربي عامة ومجتمع المعرفة خاصة تبدو كأنها - على الأقل في المستوى المبدئي - ليست من صلاحيات المثقف العربي أو المعارضات، إن نقد مجتمع المعرفة عربيا هو من صلاحيات الآخر وليس من صلاحيات النخب العربية. فقد اختص وانفرد تقرير التنمية العربية ٢٠٠٢ - بشكل حصري - في نقد العرب وعلاقتهم بالمعرفة، وهو ما قد يعطل - أو قل عطل - أي محاولة جديدة وجريئة لنقد المجتمع على شكل يخالف منهجيا أو يختلف مبدئيا مع ما جاء في كل تلك المشاريع ومشاريع الإصلاح المضادة. بمثل هذه الخلفية يصبح في المستقبل من الصعب العثور على وثيقة عربية تعالج إشكاليات التنمية عامة ومجتمع المعرفة خاصة، قادرة على منافسة الصرامة والشفافية اللتين تميزت بهما تقارير التنمية العربية ومشاريع الإصلاح الغربية. لقد أخذ تقرير التنمية من الدعاية والإعلام والإشهار ما لم يأخذه أي تقرير عربي آخر، قد يفوقه في العلمية والاستقلالية والنوايا الحسنة. ويكفي العودة إلى أرشيف كثير من الأحزاب العربية الليبرالية أو الاشتراكية، التي لا نكاد نسمع عن برامجها، لنجد مطالب وحقائق تفوق ما جاء في تقرير التنمية وبرنامج إصلاح الشرق الأوسط الكبير. ولربما يعود كل هذا الجدل إلى كون

ذلك التقرير جاء من جهات تعبر عن نفسها كجهات مستقلة، لكن الأكيد أن التقارير المستقلة تحفل بها مؤسسات المجتمع المدني في الوطن العربي، لكننا لا نسمع عنها، وربما لأن هذه الوثيقة كانت الأرضية التي على أساسها اعتمدت خطة الإصلاح في الشرق الأوسط الكبير. إن المسألة إذن سياسية، وإن قبول الدول العربية لمشروع الإصلاح مغلفا بفكرة مجتمع المعرفة وفرّ هبات ومعونات مالية واقتصادية قيمة، فهذه الدول واقعة تحت مطرقة اقتصاد معولم وسندان أزمة داخلية خانقة.

٩ - مجتمع المعرفة و«المدرسة التقنوية»

يبدو الخطاب العربي عن مجتمع المعرفة، أو كما يحلو للبعض تسميته مجتمع المعلومات، يريد تبليغ فكرة مفادها أن مجتمع المعرفة هو عبارة عن طفرة ذاتية لنمو سليم تشهده المجتمعات العربية. تعتبر الدول العربية - على مستوى التسويق - من أكثر الدول إنتاجا واستهلاكا لمصطلح مجتمع المعرفة والمعلومات، وهذا حتى قبل تقريري التنمية البشرية لسنة ٢٠٠٢ و٢٠٠٣، إنها حالة من التبني الأعمى والمطلق لمجتمع المعرفة، حيث نلتقي بهذا الخطاب في الجامعات وفي المنتديات السياسية، وفي المجتمع المدني، وفي مخرجات وسائل الإعلام الرسمية. فحتى عندما يتصل الحديث ببعض القضايا الاجتماعية والسياسية لا يكاد أي مسؤول، مهما كانت ثقافته ومهما كانت خلفية الموضوع المطروح للنقاش، إلا ويستشهد بأن العصر هو عصر العولمة وعصر تكنولوجيا المعلومات ومجتمع المعرفة، مصطلحات هي عبارة عن وصفة سحرية يستهلكها الجميع متى شاءوا وأينما شاءوا، خطاب يريد - وبشكل متسارع - أن يكسب مشروعية داخلية وخارجية لمجتمع المعرفة، وذلك من خلال مؤشرات تتمثل أحيانا في أعداد الكمبيوتر ونسبة امتلاكها، قياسا إلى عدد السكان وعدد المستفيدين من شبكة الإنترنت، وكم دولارا صرف عبر التجارة الإلكترونية، وكيف يمكن أن نؤمن دروسا عن بعد من خلال الجامعة الافتراضية، وكيف أن عصر الأستاذ والكتاب والصحيفة قد ولى.

يطلق على هذه الرؤية في تمثل مجتمع المعرفة بـ «أيديولوجيا الاتصال»، وذلك لانغلاقها الفكري والدوغمائي، كما تسمى عند بعض المهتمين بمجتمع المعرفة بالمدرسة التقنوية، وهي نظرية تريد أن تقدم التقني - في مجتمع المعرفة - على الثقافي والإنساني باسم حتمية التقنية والعولمة. هذا الخطاب انتقدته فعاليات المجتمع المدني التي شاركت في قمتي مجتمع المعرفة (سويسرا وتونس)، وهي بذلك ترفض مثل هذا التصور لمجتمع المعرفة، لتنتمي إلى تيار أشمل يعرف بتيار مقاومة العولمة والتنميط الثقافي للإنسان[٤٦]. يبدو أن مفردة مجتمع المعرفة تحولت إلى حقل الحقول المعرفية التابعة للسلطة الحاكمة، التي تعتبر بشكل مباشر أو غير مباشر الجهاز المسؤول عن رعاية هذا الخطاب وتشجيعه، ويصبح تصور مجتمع المعرفة

الرسمي سطحيا كلما وقع إحياء التقني فيه وهمش عمقه الثقافي والإنساني. نقول هذا من دون التجاهل أو التنكر لمجهود أي نظام عربي في سعيه إلى الرقي بمجتمع المعرفة والمعلومات، فهو من مشمولاته ومسؤولياته باعتبار أن الدولة جهاز لإدارة مصالح المجتمع وتحقيق رفاهيته. رعاية السلطة لهذا الملف وانفرادها به وعزلها بقية مكونات المجتمع عن إمكانات التفاعل الحر والجماعي السليم من أجل مجتمع معرفي وحداثي يؤذن بردة معرفية عن مجتمع المعرفة ذاته. إن التعامل ضمن رؤية نقدية فكرية وتاريخانية يحيلنا إلى عديد الاستنتاجات المهمة في كيف تعاملت الأنظمة العربية مع مجتمع المعرفة وكيف حصر في مسلمات المدرسة التقنوية وقضايا تكنولوجيات الاتصالات، وأخيرا وليس آخرا في قضايا الممارسة السياسية (الديموقراطية) في بعدها الدعائي والبراغماتي. إن إثارة كل هذه العناصر مجتمعة تكاد تكون مهمة مستحيلة، لكننا سنثير بعض العناصر التي لها صلة مباشرة بإشكالية مجتمع المعرفة وفروعه التاريخية والسياسية والثقافية. لكن المهمة التي نلقيها على أنفسنا هي في المقام الأول مهمة نبش المفهوم وإثارة السؤال وبيان حدود المصطلح من أجل مقاربة أكثر علمية لأي إمكان تأصيل عملي وعلمي لماهية مجتمع المعرفة. إننا نريد أن نكون كما تقول المقولة الفلسفية الشهيرة: التشاؤم مبرر على المستوى النظري والتفاؤل واجب على المستوى العملي، فالممارسة حجة في الواقع وليست حجة في النظرية أو في الفكر، أي أن ننتقد ونجرد الظاهرة محل الدراسة نظريا وفي الوقت نفسه نرحب بكل إضافة عملية. لذلك وجب تزكية كل خطوة كبيرة كانت أو صغيرة على درب مجتمع المعرفة كان مصدرها الدولة أو جهة مستقلة أو حكومية.

لأن قضية مجتمع المعرفة ليست قضية سلطة أو معارضة أو قضية تشغل بال الدول الثماني الغنية فإن فتح هذا الملف يمكن أن يتحول اليوم إلى أحد أهم المداخل في نقد المجتمع والسلطة والمثقف معا[47] كما إنه بإمكان أن يتحول سؤال مجتمع المعرفة إلى ملف سجالي اجتماعي وإلى نوع من أنواع المحاكمة النقدية والفكرية للمجتمع العربي - سلطة ومعارضة ونخب - في تعامله مع قضايا المعرفة التي يريد البعض أن يختزلها في شعار جهاز كمبيوتر لكل مواطن، وكفى المجتمع والمثقف والسلطة شر القتال الفكري. إذا ما كانت الخلفية غير المصرح بها هي طي ملف المعرفة العربية عبر استدراج المصطلح وضغطه كما تضغط أقراص الليزر نخشى أن ينقلب السحر على الساحر كما انقلب استعمال الإنترنت وتحول إلى أداة أقرب منها إلى الإرهاب والتطرف من التسامح والتثاقف والتواصل. إن الاعتراض والرفض غير المعلن عن تحويل أي فرصة للحديث عن مجتمع المعرفة كمدخل لنقد المجتمع والمعرفة معا تهدد مستقبلا بتحويل العرب إلى أمة أكثر تخلفا معرفيا. إن ملف مجتمع المعرفة يقع في مفترق تاريخي بين فشل المشروع التحديثي لدولة ما بعد الاستقلال ونهايته وميلاد عصر العولمة ومجتمع المعلومات. كما أن ملف مجتمع المعرفة يقع أيضا في مفترق آخر هو بين

تأصيل المجتمع المدني والقفز عليه عبر مجتمع المعلومات حتى قبل رشد ونضج المجتمع المدني في صيغته المستقلة عن أجهزة الدولة.

إن الحديث عن المجتمع المدني الذي يعتبر مجتمع المعرفة امتدادا له بوصفه جزءا من الفضاء العام أصبح في الوطن العربي شيئا فشيئا يغيب عن الساحة وعن التداول الإعلامي، وكأن المجتمع المدني أصبح حصيلة ثقافية يمارسه ويعيشه الناس، وأن المرور إلى مجتمع المعرفة حالة ثقافية بصدد التشكل بالتوازي مع تشكل مجتمع ما بعد الحداثة العربية. إن المجتمع المدني جاء كنقيض للمجتمع الديني الكنيسي في الغرب فهل يمكن القول بوجود مجتمع مدني في دول عربية ثيوقراطية أو قبلية. يبدو أن المجتمع المدني يستعمل عربيا بنسق مكثف يدعمه إعلام رسمي وذلك لتشريعه كبديل عن المعارضات التقليدية. إن قبر المعارضة التي هي المشرع العقلاني لمن يحكم ديموقراطيا وإحياء مصطلح المجتمع المدني بلا مضمون فكري هو قفز على مجتمع المعرفة. نعود إلى مجتمع المعرفة في الغرب، فهو يعتبر أحد التجليات الثقافية لمجتمع ما بعد الحداثة. أما عربيا فمجتمع المعرفة سيحيلنا إلى الأكاديمية العربية وكيف ستتحول أو قل هي بصدد التحول إلى أكاديمية افتراضية عبر التعليم عن بعد أي التعليم الإلكتروني، ويسوق الآن لمثل هذا الشعار في حين لا يمكن تجاهل أن الجامعات العربية هي من أكثر الجامعات تخلفا على المستوى الدولي. تغيب بها أبسط الحقوق الأكاديمية، فرؤساء الأقسام منصبون وغالبا لا يمتون بأي صلة للتخصص، والعمداء كذلك، والحريات الأكاديمية التي على أساسها أسست الجامعة تكاد تكون غائبة كليا. هذا بالإضافة إلى نقص الاعتمادات وغياب التقاليد البحثية[58]. أما البرامج الدراسية فهي متهرئة كالمؤسسة الجامعية. وبات الأكاديمي يساهم فقط في محو أمية من يأتيه من المدارس الابتدائية والثانوية عبر التلقين لا أكثر، أما البرامج فهي حبر على ورق، ويتعجب المرء أنه في عديد الجامعات العربية مازالت عديد العلوم الإنسانية محرمة وممنوعة. على مستوى الحكومة الإلكترونية إلى يومنا هذا لا يستطيع المواطن العربي أن يشتكي موظفا يشتغل في الدولة، فكأن الموظف مقدس مثله مثل الحاكم، فهو شخص لا يخطئ، فكأن نقد الموظف في الدولة هو نقد للحاكم. وهكذا لا يسمح بنقد تصرفات من يشتغلون في الدولة، إذ لا فصل بين الدولة والحاكم، لذلك لا يمكن أن نشتكي الموظف العام الذي يخدم الدولة. أردنا بهذا المثال القول إن الإدارة والحكومة الإلكترونية التي هي جزء من المفهوم العام لمجتمع المعرفة هي من خصائص الحكومات الديموقراطية وهي نمو سليم لماهية إدارة الشأن العام.

والخطاب الذي نسمعه يوميا من أن الفواتير ستلغى، وأنه بإمكان المواطن العربي أن يقوم بكل تلك العمليات الإدارية إلكترونيا مثل دفع معلوم الماء والكهرباء من دون عناء التنقل يظهر النزعة في استباق التخلف المعرفي فقط على مستوى الهيكل والشكل. كما يمكن لأي مواطن

أن يدفع الضرائب عن بعد، لكن يبدو أن عديد الدول العربية لا توجد بها ضرائب على الدخل، وأن بقية الدول التي بها ضريبة على الدخل تخصم شهريا ومسبقا من المرتبات، أي لا يقوم المواطن كما هو الشأن في الدول الديموقراطية أين توجد ثقة بين المواطن والدولة بدفع ضرائبه سنويا وذاتيا. إن فرضية ترك المواطن العربي دفع الضرائب بنفسه باستعمال شبكة الإنترنت بوصفها العمود الفقري للحكومة الإلكترونية العربية هي فرضية صعبة التحقق، فهو لن يدفعها بحكم أنه يعرف سلفا أنها لن تصرف في المصلحة العامة. هذا بالإضافة إلى أنه لا يمكن له المشاركة عبر الانتخاب في تحديد الأولويات الوطنية لصرف تلك الضرائب.

أما التجارة الإلكترونية والتسوق عبر الإنترنت فهي موضة لا حدود لها، ويمكن هنا القول كيف يمكن التأسيس لتجارة إلكترونية في حين أنه يوجد ٦٠ مليون عربي يعيش الواحد منهم بدولارين في اليوم، وان الفارق بين الأسعار وعلاقتها بمتوسط دخل الفرد في تقهقر مستمر. إذن فتحرر الفرد ليس في التسوق عبر التجارة الإلكترونية وإنما في توفير حرية التعبير والدخل المحترم لكي يستطيع المواطن العربي أن يساهم فعليا في التجارة الإلكترونية كاقتصاد ومعرفة وثقافة. فالرفع في الدخل الفردي يتطلب نسبة نمو مرتفعة للاقتصاد الوطني التي حسب تقرير التنمية العربية عليها على الأقل أن تتضاعف، وهذا متوقف على مدى مساهمة الإعلام في التنمية الاقتصادية والاجتماعية الشاملة، وليس بتزكية السياسات القائمة، وبغض النظر عن مدى صحة أو خطأ توجهاتها. ويراد من التجارة الإلكترونية تسهيل اتفاقيات الشراكة الأوروبية والأمريكية التي تتسابق الدول العربية - سرا - على توقيعها حتى إذا ما استقرت إحدى الشركات المتعددة الجنسيات وفتحت فرعا لها في اي دولة عربية أمكن لها أن تتواصل عبر البريد الإلكتروني وتكنولوجيات الاتصال الحديثة مع عملائها ومراكزها في أنحاء العالم المختلفة. إنها تلبية لحاجة الآخر ويصعب القول إن الإنترنت والتجارة الإلكترونية جاءت استجابة لحاجة وطنية محلية في المقام الأول، أو أنها ضرورة اجتماعية ملحة وليدة دراسة علمية شاركت فيها كل مؤسسات الدولة والمجتمع[49].

١٠ - الإصلاح ومحاربة الإرهاب

في البدء لا يمكن أن نتجاهل أن عديد الدول العربية، ومنذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر والحرب على العراق وإصدار تقرير التنمية العربية سنة ٢٠٠٢ وإطلاق مشروع إصلاح الشرق الأوسط ٢٠٠٤ قد تململت في أماكنها وهي واقفة تراقب ما يحدث، محدثة أصواتا هادئة حينا مزعجة في أغلب الأحيان. جاء صدى تلك الأصوات في شكل حمى استباقية للملمة الموضوع وأصبح الشعار هو عدم ترك أي فرصة لأي طرف من إدخال تلك الدول في خانة الدول التي لا تتوافر فيها مقاييس التنمية البشرية الجديدة التي أقرها تقرير التنمية البشرية لسنة ٢٠٠٢، برزت

بوادر هذا التململ في شكل إجراءات سريعة وشكلية عاجلة للترفيع في النسب التي يرى البعض أنها ضرورية وقابلة للتحقق بسرعة (المرأة، التعليم) والتخفيض في النسب المئوية السيئة (البطالة، الحريات) عبر التلاعب بالإحصائيات والأرقام وإحداث تغيرات شكلية مصحوبة بدعاية إعلامية في شكل نصر أو معجزة حققتها تلك الدولة. فكان أن همَّ عديد الدول العربية بتعيين امرأة هنا على رأس جامعة وأخرى هناك على رأس وزارة يسندها وكلاء ومساعدون متمرسون بالتسيير للقول إن موضوع تشريك المرأة أصبح في عداد القضايا الكلاسيكية. فمن خلال هذه الإجراءات لن يسمح أحد لنفسه ولن يسمح له أن يقول إن تلك الدولة العربية لا توجد فيها مقاييس التنمية البشرية الحديثة أو أنها لا تقوم بإصلاح نظامها السياسي والاجتماعي[٥٠].

في دول عربية أخرى كان إلغاء وزارة الإعلام وإعطاؤها اسما جديدا أو هيكلا مختلفا علامة من علامات تحرير الإعلام، وأنه بمثل هذا التغيير لن يجرؤ أحد على نعت ذلك البلد بأنه غير تحرري[٥١]، دول عربية أخرى فسحت الباب عريضا أمام ملكية القطاع الخاص لوسائل الإعلام السمعية البصرية -وهي من الإصلاحات الضرورية التي دعا إليها مشروع الإصلاح - عبر مجموعة من التراخيص لإنشاء مؤسسات إعلامية خاصة. وكانت تلك التراخيص في شكل هدية لمستثمرين مقربين من الدولة أو الحزب الحاكم أو الأسرة وذلك عبر إفراد امتيازات خاصة وضمن حدود متفق عليها سلفا للاستثمار في ما يمكن أن نطلق عليه اليوم بإعلام المسابقات والترفيه والتسلية. مثل هذا الإجراء سيسكت - وفق رأيهم - كل الأصوات القائلة بعدم تحررية الإعلام، وذلك بسبب التعلة القديمة عن ملكية الدولة واحتكارها لكل المؤسسات الإعلامية. فهذا أمر أصبح أيضا في عداد الماضي. فإفراد مثل تلك الامتيازات لا يعكس خلفية نزيهة واستراتيجيا واضحة في كيف يمكن أن يكون الإعلام والاتصال ضمن المنظومة السياسية العامة للمجتمع، وكيف يمكن التأسيس لإعلام حر تشارك فيه كل فعاليات المجتمع المدني.

بعض الدول همت تداعيا مع الفصل الخاص بالحكم الصالح والإصلاح السياسي في مشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير بالقيام بانتخابات «حرة ونزيهة» وبنسب مئوية معروفة سلفا. هكذا وبمثل هذه الانتخابات لن يذكر مستقبلا اسم تلك الدولة في تقارير الهيئات الحقوقية العالمية، ولن يذكر اسمها أيضا في تلك التقارير المشؤومة التي ستتناقلها وسائل الإعلام ومواقع الإنترنت فتسري لدى الرأي العام كما تسري النار في الهشيم[٥٢]. دول عربية أخرى فتحت أسواقها وبشكل كلي ومطلق وبشكل سري في بعض الأحيان لإمبراطوريات الشركات الغربية ضمن اتفاقيات شراكة مع الاتحاد الأوروبي أو أمريكا، وتحول اقتصادها الهش إلى اقتصاد بالوكالة يوفر الأرباح للشركات الغربية والأمريكية الكبرى بيد عاملة

رخيصة ومن دون أي ضريبة، وذلك على حساب الاقتصاد المحلي والنسيج الاجتماعي والثقافي لدولها[53]. كل هذه الاتفاقيات وقعت من دون مراجعة المجتمع المدني ولا إعداد مؤسسات الدولة المحلية، هذه الاتفاقيات هي لدى الخبراء ثاني أهم اتفاقيات وقعها العرب بعد توقيعهم لاتفاقيات الاستقلال، يحدث كل هذا ويستمر الحديث عن مجتمع المعرفة. بمثل كل هذه المتغيرات والإصلاحات بدت الدول العربية كأنها دخلت مجتمع المعرفة وكسبت مقاييس التنمية البشرية الجديدة من تعليم المرأة والانتخابات وحرية ملكية وسائل الإعلام ومقاومة للإرهاب، ولم يبق الشيء الكثير للدخول في حظيرة الدول المتقدمة، وكل هذا يحدث باسم مجتمع المعرفة ويسوّق له اتصاليا عبر وسائل الإعلام الحكومية والخاصة.

قد تكون مثل هذه المبادرات حسنة النية حينا، وتحت الضغط أحيانا، لكن وجب التوقف عند أهم محدد لإطلاق مشروع الإصلاح، ألا وهو محاربة الإرهاب بعد أحداث ٢٠٠١/٠٩/١١، وهنا يتضح إجماع كل الدول العربية واتفاقها على إطلاق حملات لمقاومة الإرهاب وتزكية هذا الملف بمجموعة من القوانين والتشريعات الجديدة لمكافحة الإرهاب التي كانت في أغلبها على حساب الحريات العامة[54]. لقد دخلت الدول العربية مجتمع المعرفة من نافذة محاربة الإرهاب، وتركت الباب الحقيقي لمجتمع المعرفة الذي هو الحرية والإصلاح نصف مغلق نصف مفتوح. إن الساهرين على مشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير ليسوا بالأشخاص أو المؤسسات الغبية بل يستهدفون، وذلك انطلاقا مما هو مدون في وثيقة مشروع إصلاح الشرق الأوسط ضرب وتجفيف كل منابع الإرهاب والحد من الهجرة غير المنظمة. فهم يرون أن الصديق هو من كان له جار آمن وأن الصديق الذي يمكن أن يتعاون معه الغرب يجب أن تتوافر فيه جملة من الشروط الضرورية الدنيا حتى لا تتحول مشاكله الداخلية إلى مشاكل تصدّر إلى الداخل الأمريكي أو داخل الدول الأوروبية. حال العرب ومشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير هي حال ذلك الجمل الأجرب الذي وجب إفراده عن القطيع حتى لا يتحول مرضه إلى عدوى، لذلك وجب أن يعالج كحالة منفردة لتصلح حاله، وما يكاد يشفى حتى يمكنه أن يعود إلى القطيع يأكل ويرعى. ويعرف القائمون على هذا البرنامج كذلك أن المسيرة طويلة لذلك وضعوا جملة من الآليات مجسدة في مؤسسات محلية ودولية فاعلة وأجهزة ذكية تصل إلى توظيف المخابرات والدبلوماسية، فلا مجال لرد الفعل العاطفي، كما لا مجال للتشنج ولا للمشاريع المضادة التي تبقى حبرا على ورق.

إن قضية الإصلاح في العالم العربي هي أقرب إلى تشكيل جديد للمنطقة من كونها هيمنة، فالهيمنة المباشرة أو غير المباشرة قائمة منذ زمن بعيد وردود الفعل والمقاومة تبدو أكثر ضعفا وتقهقرا[55]، فقد قارن عدد من المختصين مشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير بمشروع مارشال لإعادة إعمار ما أفسدته الحرب العالمية الثانية. مثل ذلك المشروع أنجب من العدم

أكبر قوتين مصنعتين هما ألمانيا واليابان ووصل بتلك الدولتين إلى مرتبة الدول المهابة، بعد أن كانت رمادا وركاما بسبب الحرب، ولم تنسلخ كل من اليابان ولا ألمانيا لا ثقافيا ولا حضاريا. تحولت إذن تلك الدول إلى دول متقدمة ومن دون صدام لأنها أخذت من المنهج الليبرالي نموذجا عاما للحياة وانسجمت معه في حين مازالت الثقافة السياسية العربية تتأرجح بين القبول والرفض والتردد لأي نموذج فكري وسياسي تعتمده في صياغة حياة شعوبها.

نبقى مع الغرب لنتساءل: ألم يحول الاتحاد الأوروبي - الذي بدأ بدولتين (ألمانيا وفرنسا) خاضتا أكبر حروب القرن التاسع عشر والقرن العشرين- عبر مشاريعه التنموية كلا من إسبانيا والبرتغال واليونان، وفي ظرف وجيز، إلى دول متقدمة وديمقراطية حديثة لها سيادتها وثقافتها وتقاليدها الخاصة؟ ألم تكن إسبانيا في منتصف السبعينات دولة دكتاتورية تحت حكم فرانكو واليونان يحكمها الجنرالات، فتحولت هذه الدول إلى دول مصنعة للسيارات ومدرسة في الديموقراطية، وأصبحت هذه الدول في تقرير التنمية العربية نموذجا تقارن به بالدول العربية. تاريخيا كان لبعض الدول العربية أن سبقت إسبانيا واليونان إلى الاستقلال إضافة إلى تفوق البعض منها في الإمكانات المادية والثروات الطبيعية ولكن تلك الدول العربية لا تأثير لها في الخارطة السياسية أو الاقتصادية أو المعرفية في العالم، ويعود سبب ذلك إلى أنها أهملت ومنذ استقلالها عنصر التنمية البشرية وقيمة المعرفة التي لا تفهم في غياب الحريات السياسية وليس بحصر مجتمع المعرفة في شعار المدرسة التقنوية: حاسوب لكل شخص. بمثل ذلك العمل الأوروبي المشترك القائم على تقديس قيمة المعرفة أصبحت أوروبا أكثر أمنا من دكتاتورية الجنرالات في اليونان وحكم فرنكو في إسبانيا وأصبحت أوروبا أكثر قوة ومناعة وقابلة للتحقق ككيان موحد.

١١ - خاتمة في تبيئة الإصلاح ومجتمع المعرفة

لا يمكن اليوم بلوغ الإصلاح بعيدا عن مبدأ وقاعدة تبيئة مجتمع المعرفة للواقع الحضاري والثقافي للمجتمع العربي المكون من عنصري الإسلام والعروبة والعكس صحيح. لذلك فإن التعامل مع إصلاح الشرق الأوسط ليس سؤالا في القبول أو الرفض وإنما إشكالا في التلقي والتفاعل وإذا ما حسمت إشكالية التلقي السليم والمنهجي تطرح مسألة ماذا نقبل وماذا نرفض من الإصلاح؟ ومن مجتمع المعرفة بعدها يتم المرور إلى التنفيذ طبقا للخصوصيات المحلية. تكون ترجمة التلقي السليم لمبدأ الإصلاح الذي لا يمكن أن يرفضه أي عاقل بالسعي الفكري والمنهجي إلى تنزيله في سياقه التاريخي والثقافي وذلك من خلال قراءة التراث الإصلاحي في الممارسة السياسية العربية. وفي هذا السياق يمكن أن نشير إلى ما كتبه محمد عابد الجابري: «وعبارة نقد الحاجة إلى الإصلاح تعني، أولا وقبل كل شيء، النظر إلى الإصلاح

لا من حيث هو دعوة آتية من الخارج، ولا من حيث هو شعار بادرت إلى رفعه قوى داخلية، بل من حيث هو حاجة»[٢٦]. إن الدول العربية تطبق وتمارس بشكل مباشر أو غير مباشر بعض بنود مشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير من دون دراسة ومعرفة حاجة مجتمعاتها وأولوياتها الوطنية. ألم تعدل عديد الدول العربية من برامجها التعليمية الأساسية والجامعية أخذا بتوصيات تقرير التنمية العربية ٢٠٠٣ ومشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير ٢٠٠٤ وشروط البنك العالمي أو السوق الأوروبية المشتركة؟ لماذا هذا الرفض الواضح والانتهازي؟ ولماذا تلك المشاريع المضادة والتي هي نسخ معربة لمشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير الأم؟ فقد أكدت وثيقة الدول الثمانية للإصلاح: «هذا وقد استجاب بعض الزعماء بالفعل لهذه النداءات واتخذوا خطوات في اتجاه الإصلاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وأيدت بلدان مجموعة الثمانية، بدورها، هذه الجهود بمبادراتها الخاصة للإصلاح في منطقة الشرق الأوسط».

إنه القبول الضمني غير المعلن والرفض المؤدلج -أيديولوجيا- عبر وسائل الإعلام تحت شعار الخصوصية المحلية والمرجعية الثقافية، وخاصة ما جاء في وثيقة تونس من «إمكانياتها وقدرة مجتمعها على استيعاب الإصلاحات» وكان كل هؤلاء المتعلمين وتلك النخب والقوى المجتمعية التي تطفح بها المنطقة العربية مازالت غير مهيأة لاستيعاب الإصلاح. سيكون لمشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير طيلة مشواره ضحايا من المتحمسين له من جهة ومستفيدون من الرافضين له من جهة أخرى. أما إعلاميا واتصاليا فسيساهم مشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير في تغيير المشهد الإعلامي والاتصالي بما ينسجم ومصالح الدول الغربية في المقام الأول، وسيكون العرب آخر مستفيد. فالمصلحة الغربية ذات شقين، الأول سياسي ويتمثل في تجفيف منابع الخطاب الإرهابي المتطرف الذي يسوق له الإعلام العربي، وخاصة في ما يتعلق بفلسطين والعراق، وكيف يمكن استدراجه نحو التسويق لمبادئ الفكر الغربي على أساس أجندة السياسة الخارجية الأمريكية والغربية، التي لم تستطع منفردة حسم إشكالية ثنائية الفصل أو الربط بين الإسلام والإرهاب. والشق الثاني اقتصادي يتمثل في أن الفضاء الاتصالي والإعلامي العربي هو سوق بكر أنهكتها مؤسسات القطاع العام وأنه آن الأوان أن تحل الاستثمارات الغربية المنطقة العربية وبشكل مكثف للاستثمار أولا اقتصاديا في مجتمع المعرفة.

إذن كيف يمكن الدخول إلى فضاء مجتمع المعرفة أمام هذا المشهد الجديد الذي ينتظر الإعلام العربي، خاصة إذا ما فصلنا الإعلام عن الاتصال فصلا هيكليا ومنهجيا قد تكون له تبعات فكرية وسياسية واجتماعية في كيف نؤسس لمجتمع حداثي متعدد ومتحرر. فكيف يمكن مواجهة كل هذه التحديات بوزارات للإعلام وبهيكلية للاتصال مستقلة عن الإعلام لا دخل للمجتمع المدني في رقابتها وتحديد أدائها. لماذا لا تدخر الدول العربية أي جهد في

الدعاية إلى ضرورة بلوغ مجتمع المعلومات والمعرفة في حين أن قنوات هذه المعرفة من وسائل إعلام وتكنولوجيات الاتصال الحديثة ووسائطها مازالت بشكل مباشر أو غير مباشر تحت سيطرتها المطلقة.

إن الإفراط في استعمال مصطلح مجتمع المعرفة والمعلومات من زاوية تقنوية والإصلاح من زاوية سياسوية يوشك أن يدفن ملف الإعلام على حساب الاتصال ويهمش فكرة التغيير فيحل محلها الإصلاح. وذلك عبر تقديم شرعية الاتصال الإلكتروني على حساب الإعلام في أبعاده الثقافية والتنموية والإصلاح السياسي الملفق على حساب التغيير الجذري. فكما قدمت شرعية التلفزيون ونجاعته على حساب الصحيفة جاء التلفزيون دولة ما بعد الاستقلال نسخة من الصحيفة العربية الرسمية التي كانت تخضع لمفهوم وتوجه سلطوي. لكن تقديم الاتصال على الإعلام اليوم مدفوعا بشعار مجتمع المعرفة والاتصالات والمعلومات لا يستدعي السمات التحررية الغائبة في الموروث الإعلامي العربي لتكون رافدا للاتصال وهو ما قد يطبع الاتصال في هيئته الجديدة بالموروث السلطوي للإعلام. هكذا يمرر الاتصال مستمدا من شبكة الاتصالات كمصطلح جديد وشفاف لتأبيد المفهوم السلطوي للإعلام بثياب اتصالية وتحت شعار مجتمع المعرفة الذي نصت عليه مشاريع الإصلاح.

فالإعلام اليوم في الخطاب الرسمي يعتبر تقنية أحيلت إلى التحكم وثقافة في عداد التراث وأن الدعاية والتشبث به هي حركة رجعية أمام ثورة الاتصالات والمعلومات. فيمثل هذا الخطاب تقبر كل هنات الإعلام العربي وتجاوزاته وتسويقه طيلة عقود من الزمن للاستبداد السياسي. غير أن الاتصال لا يمكن له أن يحيا نظريا وعمليا بعيدا عن المنظومة الإعلامية التي تملك رصيدا تاريخيا فكريا وأخلاقيا فهو قاعدة الانطلاق لأي محاولة لتأسيس مجتمع المعرفة. كما أن الإعلام اليوم لا يمكن له أن يتواصل ويؤدي وظائفه إن لم يتأقلم مع المعطيات الاتصالية الجديدة الفكرية منها والتقنية والثقافية. وهي مسألة داخلية علائقية بين الإعلام والاتصال يمكنها أن تنمو بحرية وبشكل سوي إذا ما كان تدخل الجهات الفاعلة في هذا المشهد الجديد يكون بوصفها المراقب والداعم أكثر من المحتكر الرقيب. لذلك يمكن أن يكون مجتمع المعرفة من بين أفضل المداخل لتجسيم الإصلاح ومواكبة التحول الديموقراطي الذي تعيشه الدول العربية ويمكنه أيضا أن يساهم في تحرير الإعلام العربي. كما أن الإصلاح السياسي لا مستقبل ولا انطلاقة له إذا لم يكن مدفوعا بإعلام تحرري مستقل عن التحكم المباشر للسلطة التقليدية. إن الإعلام عندما يدمج في الاتصال يتقاطع ضرورة مع مجتمع المعرفة وعندما يكون بعيدا عن التوظيف السلطوي يمكنه أن يكون شاهد عيان على دخول المجتمعات العربية إلى مجتمع المعرفة والمعلومات فنشهد الإصلاح. إن إعلاما سلطويا متخلفا غير متحرر من هيمنة الدولة لن ينتج إلا مجتمع معرفة تراقبه السلطة وتطوعه لأغراضها والمتمثلة في البقاء على دفة الحكم. كما نقول للمناهضين والمتحمسين للإصلاح ليس كل ما يأتي من الغرب، أو من أمريكا سيئا أو جيدا، خذوا مما يأتيكم من العدو والصديق فقط بما يخدم مستقبل وطنكم وشعوبكم: فكروا إصلاحيا وتصرفوا أيضا محليا إذا ما كان الهدف بلوغ مجتمع المعرفة.[٥٧]

عالم الفكر
العدد 1 المجلد 37 يوليو - سبتمبر 2008

المعقولية التاريخية ونقد الحكاية عند ابن خلدون (*)

د. عبدالحق منصف (**)

١ - في المعقولية والعقل التاريخي

نستهدف في هذا المقال تحليل مفهوم العقل التاريخي عند ابن خلدون من خلال التساؤلات التالية: كيف تَمَثَّلَ العقل ذاته في علاقته بما يسمى داخل الثقافة الإسلامية: التاريخ؟ كيف حدد هذا العقل مجال اشتغاله وهو يفكر في ما يحدث من ظواهر ووقائع في حياة البشر؟ ما هي الشروط العامة التي وضعها لعزل ما هو تاريخي في ذاته وجعله قابلا للفهم (Intelligible)؟

ونحن إذ نطرح هذه الأسئلة، لا نقصد العقل بالمعنى الحصري فقط، أي العقل كقدرة ذهنية على التفكير والتمثل، بل نسحبه أيضا على الكيفية التي تَحَدَّدُ بها الخبرة البشرية، في جانبها المعرفي والاجتماعي، نمط وجودها التاريخي أو السياسي أو التقني أو الفني الجمالي أو المعرفي أو الأخلاقي...إلخ. فحينما يحدد العقل مجالات تفكيره في موضوع ما، وكذا معايير هذا التفكير، فهو يحدد في الوقت ذاته مجالا من مجالات المعقولية. ونقصد بـ «المعقولية» (La rationalité) مجموع المبادئ والشروط التي تُوضَعُ، داخل الثقافة الاجتماعية، لأجل جعل فكرة ما أو فعل أو حدث شيئا قابلا للفهم والتعقل والإدراك. ففي الثقافات الكلاسيكية، كالإغريقية والإسلامية، كان العقل لدى النخبة المفكرة هو من يتولى هذه المهمة؛ لكن في المجتمعات المعاصرة، أصبحت المعايير توضع من طرف الجماعات داخل

(*) شكل هذا المقال أرضية للعرض الذي تقدم به الباحث في الندوة التي نظمتها شعبة التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية (جامعة مولاي إسماعيل بمكناس - المغرب)، تحت عنوان: ابن خلدون: الفكر والتاريخ، يوم الخميس ١٥ دجنبر ٢٠٠٥، وذلك احتفاء بالذكرى الستمائة لوفاة ابن خلدون.

(**) جامعة مولاي إسماعيل، مكناس.

سياقات سياسية وسوسيو - ثقافية محددة عبر آليات الحوار والحجاج والتفاوض السائدة داخل المؤسسات الاجتماعية المختلفة.

ما معنى قابلية التعقل هنا؟ إنها تعني أن الفكرة أو الفعل أو الحدث أو الحكاية...إلخ، تقبل أن تندرج داخل نظام للمعرفة وليس فقط داخل نظام للتمثل .(Lareprésentation)، فقد ينصب التمثل على أمور خيالية، وقد تكون وهمية؛ لكن المعرفة (Le Savoir) نسق عقلي واجتماعي من الأفكار والخبرات التقنية التي تشكل مرجعا ثابتا نسبيا للأحكام والمواقف والتبادلات اليومية والاجتماعية. وبعبارة أخرى، ترتبط المعقولية بما يكون جزءا من نظام العقل، أو لنقل من نظام العالَم (الأحداث، الأفعال، الأفكار...) الذي يقيمه العقل في لحظة تاريخية معينة. غير أننا نعيش هذا العالَم بكيفيات مختلفة ومتعددة: أخلاقيا، سياسيا، تقنيا وعلميا، دينيا، جماليا...إلخ. من هنا وجود أنماط متعددة للمعقولية، كل نمط يرتبط بمبادئ وشروط تحدد ما ينبغي معرفته أو اعتقاده أو فعله أو حتى حدوثه، وكذا ما يمكن (أو يستحيل) معرفته أو فعله أو اعتقاده... والعقل البشري هو الذي يحدد هذه المبادئ والشروط وفق السياق السوسيو - تاريخي الذي يوجد فيه. وحينما يتحدد نمط معقولية معينة، تتحدد معه كيفية معينة لاشتغال العقل. وهنا نتحدث عن عقل سياسي يحدد مبادئ المعقولية السياسية، أو عقل أخلاقي أو عقل علمي وتقني أو عقل فني أو عقل تاريخي...إلخ.

ومن جهة أخرى، يرتبط مفهوم المعقولية بما يكون مشروعا داخل نظام المعرفة السائد بمختلف مكوناته التاريخية والأدبية والعلمية والفلسفية والجمالية...، وشرعيا أيضا داخل الثقافة الاجتماعية. فانطلاقا من شروط المعقولية، يتحدد ما يمكن التفكير فيه (Pensable) وما لا يمكن التفكير فيه (Impensable)، ما هو مفكر فيه فعليا (Pensé)، وما هو غير مفكر فيه (المسكوت عنه أو المقصي والمستبعد .(Impensé) داخل هذا السياق، ترتبط المعقولية بمفاهيم الشرعية (Légalité) والمشروعية (Légitimité). فداخل كل نمط للمعقولية (معقولية الفكر أو الفعل)، تتكون مبادئ تجعل ما هو مفكر فيه أمرا مقبولا بشكل يتوافق ومؤسسات المعرفة أو المؤسسات الاجتماعية عامة. هنا بالذات، يصبح كل ما هو معقول شرعيا ومشروعا من الناحية الاجتماعية.

وهكذا، ترتبط المعقولية بعنصرين أساسيين، هما:

أ- العقل (نظام المعرفة وما يتضمنه من مبادئ للمعرفة والفكر ومعايير الحقيقة ومناهج البحث...).

ب - المنظومة القانونية والسياسية والأخلاقية التي تحدد ما هو شرعي ومشروع داخل المجتمع).

ويمكننا في هذا السياق أن نسوق أمثلة عن ذلك. فنظام المعرفة الحالي لا يتحدد فقط بمبادئ تهم نسق التفكير ومنهجياته وأدواته، بل أيضا بالمنظومة القانونية والسياسية العامة السائدة. فالمعرفة حق، وهي من حقوق الإنسان حاليا. وعلى أنظمة التعليم والتمدرس والتكوين أن تتولى تعميم هذا الحق وضمان تحققه التاريخي. بموجب هذا الحق تتحدد مجالات ما يمكن معرفته وما يتم معرفته فعلا... إلخ. أما في الثقافات الكلاسيكية، كالثقافة الإسلامية التي تهمنا هنا، فكانت منظومة المعارف تتحدد وفق مجالاتها المرجعية: علوم النظر (العلوم العقلية والفلسفية)، وعلوم الخبر (العلوم النقلية أو الشرعية). والتاريخ، كما سنرى، هو بؤرة علوم الخبر إضافة إلى علم الحديث. لكن التكوين المعرفي الأساسي للعالِم في مجال النظر كما الخبر، تكوين ديني يلعب فيه الفقه وعلم الكلام (الثيولوجيا) والتفسير والحديث وغيرها، دورا أساسيا. لذلك، كان ما هو مفكر فيه لا تتدخل في تحديده معايير معرفية خالصة فقط، بل أيضا مبادئ ذات طبيعة فقهية قانونية. من هنا كان ما يتم التفكير فيه يدخل ضمن نظام الشرعية والمشروعية، لا ضمن نسق الفكر وحده، والمعقولية التاريخية داخل الثقافة الإسلامية خضعت لهذا المنطق.

٢ - ابن خلدون والمعقولية التاريخية

كيف تتحدد معقولية ما هو تاريخي داخل الثقافة الإسلامية الكلاسيكية؟ لنشر أولا إلى أن عبارة «ما هو تاريخي» هنا تعني:

أ - ما يحدث تاريخيا.

ب - وما يقيمه العقل من معارف وتقييمات بخصوص ما يحدث، أي: انتظام الوقائع الفعلية (L'Histoire) والتاريخ الذي يتخذ هذه الوقائع موضوعا له (L'historiographie). في ضوء ذلك، يمكننا إعادة صياغة السؤال السابق على الشكل التالي: كيف تتحدد معقولية التاريخ الفعلي (الأحداث والوقائع) والتاريخ النظري الذي ينصب على هذه الأحداث؟

لنشر ثانيا إلى أن العقل، وهو يبني تصوراته ومعارفه حول ما يحدث، يقيم ذاته كعقل تاريخي. وهو في ذلك، لا يقيم معارف وتمثلات حول ما يحدث من وقائع تهم البشر داخل حياتهم الاجتماعية والفكرية والدينية... بل يؤسس لذاته أيضا نسقا ضمنيا من المبادئ النظرية والمعايير المنهجية التي تحدد عمله كعقل يأخذ وجهة التاريخ. وعليه، كيف يحدد العقل التاريخي ذاته، مع ابن خلدون داخل الثقافة الإسلامية، وهو يفكر في ما يحدث على مستوى الزمان والمجتمع؟

لم يكن ابن خلدون مجرد مؤرخ في نظر العديد من المهتمين حاليا، بل هو مؤصل للفكر التاريخي داخل منظور أراده أن يكون عقليا. فقد نقل الفكر التاريخي في الثقافة الإسلامية، وفق ما نستنتجه من دراستي كل من عبدالله العروي وعلي أومليل، من تأصيل مفهوم الخبر

في ذاته على أساس سلطة مرجعية هي الراوي (سيقول العروي: الحافظ والمحدث) واجترار الخبر بأسانيد تؤسس ذهنية التقليد والجماعة (Traditionnisme)، إلى مستوى هيكلة الخبر داخل أطر مفاهيمية تتميز نسبيا بالجدة والأصالة. وبتعبير آخر، نقل الفكر التاريخي إلى مستوى مَفْهَمَة (Conceptualisation) المقاربة التاريخية بالانفتاح على معطيات نظريته في العمران البشري. ومن جهة ثانية، لم يبدع ابن خلدون المادة التاريخية ولم يجدد فيها؛ فهي توجد كأرشيف في مختلف المدونات والموسوعات الأدبية والسياسية والفقهية والصوفية...إلخ. لقد قامت الثقافة الإسلامية الكلاسيكية، وبنسبة كبيرة، على قارة للخبر في مقابل علوم النظر. داخل هذه القارة، جدد ابن خلدون في الموضوع التاريخي، وهو بفعله ذاك، أعاد التاريخ البشري إلى طبائع العمران، أي إلى قوانين المجتمع البشري (أومليل) بدل الاكتفاء باجترار منهجية المحدث والحافظ، نقصد بذلك طريقة الرواية والإسناد. مع ابن خلدون، ستتغير معايير صدقية الخطاب التاريخي، وسيبني العقل التاريخي لذاته معقولية أخرى مخالفة لنظام المعرفة الذي فكر في إطاره المحدث عامة[1].

ويمكننا، مع ابن خلدون، أن نبحث عن محددات المعقولية التاريخية على مستويين:

أ- مستوى منهج البحث التاريخي، ونسميه المعقولية المنهجية. بموجب هذه المعقولية، يحدد العقل التاريخي مبادئه التي تخص طريقته في البحث ومعايير السلوك المعرفي لدى المؤرخ.

ب - مستوى النظرية، أي المفاهيم والمقولات أو المسلمات النظرية الموجهة إلى البحث التاريخي، ونسميها المعقولية النظرية (La rationalité épistémique). بموجبها يحدد العقل التاريخي لذاته مبادئه النظرية ومسلماته ومقولاته التي يدرك بواسطتها ما هو تاريخي: الزمان، المكان، الوجود، الحدوث، الحتمية التاريخية، الغائية، الفعل، المؤسسات...إلخ.

٢ - ١ - المعقولية المنهجية عند ابن خلدون

يتحدد التاريخ في ظاهره (كما يعترف ابن خلدون ذاته)، أي كما تقبله الثقافة الاجتماعية والعالمة قبل ابن خلدون، كفن للإخبار عن الأيام والأنساب والقرون الخالية، إخبار تنمو فيه الأقوال وتتناسل، وتتوالد فيه الخطابات لكي يغذي بعضها البعض الآخر، إلى درجة أصبحت فيها الكتابة التاريخية بمنزلة بلاغة يتداخل فيها خطاب سارد الأحداث التاريخية بالأمثال والمأثورات والعبر والتقييمات الأخلاقية... كلها مدعومة بمخيال واسع حول كل ما هو عجيب وغريب في الحياة البشرية. أصبح التاريخ داخل الثقافة الإسلامية القائمة على الحكي بلاغة للحكي والتسلية والتخييل والفرجة الاجتماعية والموعظة داخل الأندية الاحتفالية والعلمية على حد سواء [2].

أما التاريخ في باطنه، كما يريده ابن خلدون، أي من حيث حقيقته المعرفية، فهو نظر (فكر عقلي) وتحقيق (بحث عن الحقيقة) وتعليل البحث عن علل وأسباب تفسر ما يحدث داخل الحياة

البشرية (العلة مبدأ يضعه العقل لفهم ما يوجد). في ضوء ذلك، يستنتج ابن خلدون أن التاريخ علم عقلي. إنه من علوم الخبر، لكنه يستند إلى خلفية نظرية عقلية (نظرية العمران البشري). يبحث التاريخ في كيفيات وقوع الأحداث (Les modalités)، أي في الأنماط الثقافية العامة للحياة البشرية (ابن خلدون ركز على نمط معين هو السائد في شمال أفريقيا والشرق الإسلامي).

ويعترف ابن خلدون أن المؤرخين السابقين قد بذلوا مجهودا كبيرا في جمع المادة التاريخية وتدوينها، وأن الخبر أصبح قاعدة التاريخ والتدوين التاريخي. وقد وجه ابن خلدون - كما هو معلوم - انتقادات لطريقة التدوين التاريخي نذكر أهمها بإيجاز:

- عدم ملاحظة أسباب الوقائع؛
- السذاجة وقبول الأحاديث حتى لو كانت غير مقبولة عقلا؛
- غياب التحقيق التاريخي.
- الجهل بطبائع العمران البشري، أي غياب ثقافة موسوعية حول الحياة البشرية.
- اتباع آثار السابقين من دون نقد أو تمحيص.

أما الخلاصات التي توصل إليها، فهي إجمالا:

١- لابد من نقد التقليد وأساليبه (الاكتفاء بالرواية دون تمحيص ونقد).

٢- ينبغي ألا تقوم العلاقة بين أجيال المؤرخين على التبعية والثقة العمياء.

٣- لا تقوم سلطة العلم التاريخي على ذاتية المؤرخ، بل على أساس معرفي هو النقد ومبادئ العلم.

٤ - لا بد من إقامة مرجع عقلي كوني (صالح للجميع) يكون معيارا لممارسة البحث التاريخي. فالاعتماد على شخص المؤرخ كسلطة مرجعية يُعَرِّضُ هذا البحث لكل مفاسد الطبيعة البشرية: وهي نوعان:

٤ -١- مفاسد ترتبط بسيكولوجيا الطبيعة البشرية (كالكذب والتدخل القصدي لتزييف الأخبار، والتشيع للآراء والمذاهب، والتصنع في رواية الخبر، والتقرب من الحكام واختلاق الأخبار لمصلحتهم...).

٤ - ٢- مفاسد ترتبط بالتكوين المنهجي للمؤرخ ذاته (كالذهول أو الغفلة عن المقاصد الأصلية للفعل البشري في سياقه الاجتماعي والتاريخي، وتوهم الصدق وامتلاك الحقيقة، والجهل بطبائع العمران البشري وقوانينه...).

٥ - لابد من تسلح المؤرخ بأفق نظري أوسع يحدد مجال ما هو تاريخي هو نظرية العمران البشري؛ وهي نظرية عامة تهتم بطبائع الأحوال العامة للحياة البشرية (الأنماط العمرانية من عمران بدوي وعمران حضري، الأحوال السياسية، الأحوال الاقتصادية، الأحوال الفكرية والثقافية، الأحوال الدينية...).

ما هي محددات هذه المرجعية النظرية؟ وما هي مسلماتها الفلسفية؟ كيف تُوَجِّهُ البحث التاريخي نحو إقامة نظرية متماسكة حول ما هو تاريخي فعلا ؟

٢-٢ - المعقولية النظرية

تستند المرجعية النظرية حول العمران البشري إلى مرجعيتين تتكاملان هما:

- **المرجعية السياسية**: نظرية الدولة والسلطة ودورها في حياة البشر (يسميها ابن خلدون نظرية المُلك).

- **المرجعية الأنثروبولوجية**: نظرية الحضارة والمجتمع وأحواله العمرانية (البداوة، التحضر في علاقته بالصنائع البشرية، تحولات الحضارة، سيكولوجيا البشر وعلاقتها بالمجال الجغرافي...إلخ) [٣].

والواقع أن ما يريده ابن خلدون، من وراء هاتين النظريتين، هو أن تُقدِّمَ نظريته حول العمران فلسفة حول الحضارة والتاريخ البشريين تكون بمنزلة «أسّ» (Fondement) يسمح بفهم تاريخية الحياة البشرية بمختلف أحوالها («فالتاريخ هو ذكر الأحوال الخاصة بعصر أو جيل. فأما ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار، فهو أس للمؤرخ تنبني عليه أكثر مقاصده وتتبين به أخباره») [٤]. نظرية العمران إذن هي التي تحدد الإطار العام للمعقولية النظرية للبحث التاريخي. ما هو أساس الصِّدْقية العلمية (Le fondement de la validité scientifique) داخل مجال الكتابة التاريخية؟ وما هي المسلمات الأساسية التي تقوم عليها هذه المعقولية النظرية؟

أ- أساس الصدقية العلمية عند ابن خلدون هو إخضاع الأخبار التاريخية لمعيار الإمكان العقلي والاستحالة العقلية. فما يمنح الخبر مصداقيته أو مشروعيته العقلية (ما يجعله مشروعا داخل العقل) هو سلطة العقل التاريخي ذاته ومعاييره التي يضعها (الإمكان العقلي والاستحالة العقلية)، وليس هو سلطة الخبر (شخص المؤرخ)؛ يقول ابن خلدون: «وأما الإخبار عن الواقعات، فلابد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة. فلذلك، وجب أن يُنظَرَ في إمكان وقوعه. وصار ذلك أهم من التعديل ومقدمًا عليه (...)، وإذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران، وتمييز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه» [٥]. فلا ينبغي الاكتفاء بتعديل الرواة وإثبات صحة السند. كما كان الأمر لدى العديد من المؤرخين والمحدثين، ولابد من العودة إلى معيار العقل. ويقتضي العقل مراعاة مطابقة الخبر لمقتضيات الحدث كما تعطيها نظرية العمران البشري وأحواله العامة. فـ «المعرفة بطبائع العمران هي أحسن الوجوه وأوثقها في تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها» [٦].

ب- أما بخصوص المسلمات التي بنى عليها ابن خلدون المعقولية النظرية للتاريخ، فهي بمنزلة أوليات يشتغل بموجبها العقل التاريخي. فالتاريخ يهتم بالتحولات والصيرورات التي تحدث على مستوى الزمان. لكن ما تسمح به نظرية العمران، هو البحث في تاريخية (L'historicité) العمران البشري، أي في ما يجعله ممكنا تاريخيا. أهم مسلماتها في ذلك الأوليات التالية:

- **الأولية الأولى**: وحده الإنسان له تاريخ، لأن له ثقافة. فالإنسان يتميز عن الحيوان بخواص هي:

أ - العلوم والصنائع.

ب - نظام الملك أو الدولة والسلطة السياسية.

ج - السعي إلى المعاش وخلق أنظمة للاقتصاد والتبادل.

د- التمدن والتعمير (العمران) وإقامة مؤسسات اجتماعية كالأسرة والقبيلة والمجتمع [٧].

بناء على ذلك، يمكن القول إنه لا تاريخ للمجال الحيواني ولا للكائنات الخالدة المقدسة. وحده المجال البشري، كمجال سياسي واجتماعي، له تاريخ ينبغي البحث فيه في ضوء نظرية العمران البشري.

- **الأولية الثانية**: ضرورة الاجتماع الإنساني. فالإنسان مدني بالطبع، أي أنه توصل إلى إقامة العمران نتيجة تطور طبيعته (حاجاته إلى الغذاء والأمن والدفاع عن الذات لأجل الاستمرار في الحياة والحاجة إلى التناسل لبقاء النوع...). كل ذلك جعله يقيم لذاته تنظيمات اجتماعية كالأسرة والقرية والمدينة والدولة. فالاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: الإنسان مدني بالطبع، أي لابد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم، وهو معنى العمران» [٨].

- **الأولية الثالثة**: ضرورة الدولة لكل اجتماع بشري. يقوم المجتمع على أساس التنظيمات الاجتماعية بمختلف أنواعها، ويمكنه تأمين العديد من حاجات الإنسان؛ لكن هناك حاجات أخرى لا تؤمنها سوى الدولة كالحاجة إلى العدالة والقضاء والسلم.... «ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر وتم عمران العالم بهم، فلابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم» [٩].

- **الأولية الرابعة**: كل عمران بشري وليد بيئة جغرافية محددة، ولا يمكن دراسة نظام الحياة البشرية خارج هذه البيئة. فالجغرافيا جزء أساسي من نظرية العمران (لهذا خصص ابن خلدون بابا مطولا لجغرافية المعمور آنذاك، مبرزا علاقة مختلف بيئاتها الطبيعية والمناخية بالحياة البشرية وطباعها وعاداتها وصنائعها...).

على أساس هذه الأوليات تتحدد معقولية التاريخ البشري. فهي التي تسمح للبحث التاريخي بأن يقيم ذاته على أساس مقاربات متنوعة ومتداخلة. هنا نفهم تمييز ابن خلدون بين

ظواهر العمران البشري والحالات الاستثنائية بكل المقاييس التي تعرفها الحياة البشرية، كالوحي والمدركين للغيب وأصحاب الرؤيا والكهانة والمتنبئين...إلخ (وذلك كان موضوع المقدمة السادسة من كتاب «المقدمة»).

٣ - أصالة ابن خلدون

يمكن اكتشاف أصالة ابن خلدون بمقارنته بمن سبقه أو لحقه داخل الحقل الثقافي الإسلامي الكلاسيكي كالطبري (تاريخ الرسل والملوك) والمسعودي (مروج الذهب) ومسكويه (تجارب الأمم) والبيروني (الآثار الباقية عن القرون الخالية) أو الكافيجي (المختصر في علم التاريخ) والسخاوي (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ) وابن الجوزي (المنتظم في التاريخ) وغيرهم كثير. ويمكن رصد هذه الأصالة على عدة مستويات منتقاة. أولها مستوى تصور التاريخ؛ والثاني مستوى الفلسفة الثاوية وراء هذا التصور.

أ - مستوى تصور التاريخ

على مستوى تصور مفهوم التاريخ، يعتبر أغلب مؤرخي الثقافة الإسلامية التاريخ بحثا في الزمان باعتباره أحوالا موزعة وفق الأوقات. يُعرِّف الكافيجي التاريخ كالتالي: «هو علم يبحث عن الزمان وأحواله وعن أحوال ما يتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته». ويضيف: «[هو] تعيين وقت لِيُنْسَبَ إليه زمان مطلقا سواء كان قد مضى أو حاضرا أو سيأتي»[10]. ويعرفه السخاوي كالتالي: «وفي الاصطلاح: التعريف بالوقت الذي تُضبطُ به الأحوال»، إلى أن يقول: «والحاصل فيه أن يُبْحَثَ فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت، بل عما كان في العالم»[11].

والحال أن ما يغلب على هذا التصور هو التمثل الثيولوجي الكلامي للزمان. فالتاريخ يجمع بين التوقيت والحكاية. التوقيت (La désignation du temps) يكون وفق توزيع زمني (Un calendrier) موجود سلفا ينطلق من البدء (أو البدايات لأن لكل شيء بداية في الزمان، أو لكل شيء وقته)، بدء الخلق الإلهي والتكوين، ويصل إلى زمن النهايات أو نهاية الزمن الدنيوي (البعث والقيامة). يضيف السخاوي: «وربما يُتوسع فيه لبدء الخلق وقصص الأنبياء، وغير ذلك من الأمم الماضية وأحوال القيامة ومقدماتها مما سيأتي»[12]. التاريخ إذن حكاية (أو متن من الحكايات) تدرج ذاتها بين بداية مطلقة ونهاية مطلقة. لا تخوم أو حدود للتاريخ البشري (لنقارن ذلك بالأولية الأولى من أوليات نظرية العمران البشري كما عرضناها سابقا).

بموجب ذلك، كان العقل التاريخي يشتغل وفق آلية ذهنية ثقافية راسخة لخصها لنا الكافيجي كالتالي: «[إنه] تعريف للوقت بإسناده إلى أول حدوث أمر شائع كظهور ملة أو وقوع حادثة هائلة من طوفان أو زلزلة عظيمة ونحوهما من الآيات السماوية والعلامات الأرضية»[13]. لا فرق بين السماوي والأرضي، بين التاريخ البشري الدنيوي وبين ما قبل هذا

التاريخ، أي الحكاية المقدسة. والآلية ذاتها تتكرر عند الطبري[14]. وكذا عند المسعودي، رغم تميز هذا الأخير، الذي اعتبر مؤلَّفَهُ «مروج الذهب» كتابا في «أخبار الزمان»، وصرح في مقدمته أنه ابتدأه بتحديد هيئة الأرض ومدنها وعجائبها وبحارها وبدائع معادنها... إلى أن يصل إلى ذكر «شأن المبدأ وأصل النسل وتباين الأوطان... وتباين الناس في [تحديد] التاريخ القديم واختلافهم في بدئه وأوليته»[15]. والبيروني ذاته، الذي كان في ما يبدو أكثر هؤلاء انفتاحا على الفلسفة وعلومها، خضع لتأثير هذا العقل التاريخي الذي لا يفصل بين التاريخ البشري وبين الحكاية المقدسة. فالتاريخ عنده ينصب على «مدة معلومة تُعدُّ من لدن أول سنة ماضية كان فيها مبعث نبي بآيات وبرهان أو قيام ملك متسلط عظيم الشأن...أو هلاك أمة بطوفان عام مخرب أو زلزلة وخسف مبيد أو وباء مهلك.... أو حادثة عظيمة من الآيات السماوية والعلامات المشهورة الأرضية...»[16]. كما تتكرر الآلية ذاتها لدى ابن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ»؛ يقول: «فلما رأيتُ الأمر كذلك، شرعتُ في تأليف تاريخ جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما ليكون تذكرة لي أراجعه خوف النسيان، وآتي فيه بالحوادث والكائنات من أول الزمان...»[17].

يظهر، من خلال هذه النماذج، أن كل خطاب تاريخي في الثقافة الإسلامية ضريبته أنه يمر عبر ذكر البدايات ويخلص إلى النهاية، نهاية حدث ما أو نهاية التاريخ الدنيوي لتبتدئ الحكاية المقدسة من جديد حول العالم الآخر. لذلك، امتزجت فيه الرواية التاريخية بالحكاية عن الأصول والبدايات. لقد شكلت الحكاية أحد مكونات العقل التاريخي داخل الثقافة الإسلامية الكلاسيكية. كان المؤرخ ناقلا للخبر. إنه يتحرك داخل مجال يشمل الأخبار والأيام والأنساب والآثار والأمثال والأقوال والقصص...إلخ. وبما هو كذلك، كان يغذي مجالا واسعا يتداخل في تكوينه اليومي والأدبي والسياسي والديني والاجتماعي. لا شيء يمكنه الانفلات من مجال الخبر الذي يعطيه التدوين التاريخي تَثَبُّتا داخل الزمان والذاكرة. لذلك، كان الفعل الأول للمؤرخ هو التوقيت أو التحديد داخل الزمان. يتدخل لكي يمنح خبرا ما هوية زمانية تجعله يترسخ داخل ذاكرة المتلقي. لكن الزمان ليس سيولة مستمرة ومتصلة في ذهن المؤرخ، بل هو، كما حددته الكتابات الثيولوجية للمتكلمين الإسلاميين، أوقات منفصلة بعضها عن بعض، أو جواهر فردة أو آنات مستقلة. كل آن يشكل وحدة مستقلة لها بدايتها ونهايتها. أن نحصر الحدث بين حدّيْن (البداية والنهاية) يعني أيضا أن نثبت، ونحن نؤرخ له، تناهيه، أي حدوثه بفعل قدرة قديمة أبدية هي التي أوجدته (لنتأمل المقدمات التمهيدية للمصنفات التاريخية لدى كل من الطبري وابن الجوزي وابن كثير وغيرهم). بهذا الشكل، يستعيد المؤرخ، باعتباره ينتمي إلى المنظومة الثقافية الدينية التي شكلت معالمَها الأساسية الثيولوجيا الإسلامية، المفهوم الثيولوجي الديني للزمان ويوظفه بوعي ليبني عليه تصوره للتاريخ والتدوين التاريخي.

لم يكن هذا التدوين سوى استعادة لآنات الزمان التاريخي داخل أخبار مستقلة بعضها عن بعض. لقد جاءت البنية الخبرية لتعيد، على مستوى الخطاب، تكرار البنية الآنية للزمان كما صاغتها الثيولوجيا الإسلامية. وبما أن مجال الخبر يمتد خارج حدود الخبرة البشرية (أي ما يقيمه الإنسان بذاته من صناعات وفنون وعلاقات اجتماعية وأنظمة للحكم...إلخ)، لتشمل بداية الكون والخلق وكذا نهاية العالم (المصير الوجودي والأخلاقي للبشر)، فقد تدخلت الحكاية داخل الكتابة التاريخية لتصبح أحد أصواتها الداخلية. لا تريد الحكاية أن تكون مجرد تاريخ للماضي وما سبق من أحداث، بل تسعى إلى أن تكون ذاكرة لـ «الفتن والملاحم وأشراط الساعة ثم البعث والنشور وأهوال القيامة، ثم صفة ذلك وما في ذلك اليوم وما يقع فيه من الأمور الهائلة؛ ثم صفة النار، ثم صفة الجنان وما فيها من الخيرات الحسان...»[18].

وبما أن القارة الخبرية واسعة جدا، فقد كان إمكان تقمص الهوية التاريخية (L'identité historienne) سهلا جدا أمام كل من يشتغل داخل الحقل الثقافي. يمكن للأديب أن يتحول إلى مدون ومؤقت لطبقات الأدباء والشعراء، كما يمكن للفقيه أن يكتب تاريخا لطبقات الفقهاء وعلماء الدين. والإمكان ذاته يبقى مفتوحا أمام المحدث والبلاغي والممارس للسياسة... بل إن الحدود بين التخصصات المعرفية داخل القارة الخبرية تذوب وتنتفي إذ يمكن للفقيه أن يتحول إلى مؤرخ للنساء أو للأديب أن يؤرخ للفقهاء أو للأحداث السياسية وما إلى ذلك. وإن اتساع المادة الخبرية وتنافل موادها يسهلان عملية التدوين والتوقيت والحكاية. داخل هذا الإطار، لن تُفرض قيود على السرد والضبط اللهم إلا الاطلاع على المادة الخبرية وتوثيقها وإعادة كتابتها. ومن جهة ثانية، لم يكن للتاريخ هوية مؤسسية مستقلة كما لاحظ عزيز العظمة حين قال: «لم يكن للتاريخ مؤسسة اجتماعية وثقافية خاصة كما كان للفقيه مثلا، من مدارس وأوقاف ومذاهب ومرتبات وآليات تنفيذية من قضاء وغيره. ولم يكن للتاريخ نظام نموذجي علمي يفصله عن غيره من العلوم في تصانيف العلوم (...)، بل هو عندما كان يرام الدفاع عنه وتثبيت فاعليته العلمية، كان يرد إلى الفقه والحديث وغيرهما من العلوم بما هو آلة لها وخادم (...). فالتاريخ فاعلية تنتجُ معرفة توظف في أطر شتى، من حديث وفقه وتفسير ووعظ، ولكنها معرفة تنتج من أصول ليست خاصة بهذه الفاعلية. فأصول التاريخ ليست من التاريخ، بل هي من خارجه؛ فهي من مفهوم الخبر»[19]. كان التاريخ - كفعل خبري - فاعلية تخدم غيرها من مؤسسات المجتمع الثقافية (التصنيف في مجال الأيام والأدب)، والسياسية (مؤسسة السلطان ومن يخدمونها من وزراء وحجاب وكتاب..)، والدينية (علوم الدين من حديث وفقه وتفسير..)، إضافة إلى منتديات التسلية والمنادمة والفرجة. والمؤرخ، باعتباره خادما لمؤسسات اجتماعية مختلفة، كان يشتغل كناقل ومخبر: إنه يحكي عن الأيام والحروب وحوادث الزمان والبشر بما في ذلك حوادث الطبيعة (الفيضانات، الخسوف،

الزلازل...)، يمارس المؤرخ مهمته كوسيط ينقل الأخبار ويحكي ويدون. قد يتدخل أحيانا لكي يعيد هيكلة الخبر داخل الزمان، أي لكي يعطي للخبر، على مستوى العرض، بنية لغوية وحكائية معينة بتأطيرها داخل توقيت زماني. إن أصالة ابن خلدون تكمن، في رأينا، في إدراكه تدخل الحكاية في الخطاب التاريخي. وقد ربط تسرب الحكاية هذا بتدخل الذاتية والأهواء وإرادة التزييف في نقل الأخبار التاريخية. كما ربط هيمنة الحكاية هاته بغياب مرجع عقلاني يعتمده المؤرخ في تعامله مع الأخبار التاريخية (هو بالذات نظرية العمران). فالحكاية عن الأصول الأنطولوجية للكون والبشر وإدراج نظرية الخلق والسقوط والخير والشر، وما يرتبط بذلك من تصورات دينية، قد عرَّض الخطاب التاريخي في الثقافة الإسلامية إلى التحول إلى حكاية تخدم أهداف الثيولوجيا كما رأينا. وإذا كان لـ«المقدمة» الخلدونية من أصالة، فهي ترجع أولا، في نظرنا، إلى أنها أقامت الحدود بشكل ضمني أحيانا، ومعلن أحيانا أخرى بين الحكاية والتأريخ، بين خطاب الفرجة والتخييل الذي تُطرفُ به الأندية إذا غصها الاحتفال، وكذا العبرة الدينية ذات الغايات الأخلاقية الخالصة، وبين خطاب العلم والعقل الذي يقيمه المؤرخ خضوعا «لمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات». فالتاريخ هو قبل كل شيء «فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية» التي يحصرها ابن خلدون في ثلاثة عناصر، هي:

- الأحوال الحياتية للأمم السالفة وأعرافها وأخلاقها.
- السير الخاصة بالأنبياء وطريقة تدبيرهم للأمور الدينية داخل حياة البشر.
- سياسات الملوك والحكام وكيفية تدبيرهم لقضايا الدولة والمجتمع.

لأجل ذلك، كانت «كفاية» المؤرخ لا تقوم على اللجوء إلى الحكايات وتحيينها من جديد اقتفاء لآثار مَنْ سبق من المؤرخين وتقليد آثارهم على مستوى التصور والمنهج، بل دعما لعمل الفحص التاريخي والتحقيق والتعليل بنظرية شمولية قدر الإمكان حول الأحوال العمرانية البشرية في جوانبها الدينية أو السياسية أو الاجتماعية العامة (سنقول حاليا الثقافية بالمعنى الأنثروبولوجي للكلمة). وحينما يفتقد هذا العمق التاريخي، فإنه يفتقد «أسَّهُ» الذي يبني عليه أكثر مقاصده ويتبين به أخباره، يقصد ابن خلدون بذلك نظرية الأنماط العمرانية الأساسية لحياة البشر، وهذا ما لا يتم دون «ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار»[20]. ويعتبر ابن خلدون أن غياب نظرية حول الأنماط العمرانية سبب أساسي يفسر سقوط التأريخ في أسر الحكاية وتحول الخطاب التاريخي إلى خطاب للتخييل يغذي ذاكرة المتلقي بالعجائب والطرائف والحكايات؛ وهي كلها كلمات شائعة الاستعمال في معجم «المقدمة» اللغوي، وحاضرة على الخصوص في مقاطعها النقدية الموجهة إلى التدوين التاريخي الإسلامي السابق عليها أو المعاصر لها.

يعزو ابن خلدون سيادة الحكاية في الكتابة التاريخية إلى سبب يعتبره أساسيا هو الجهل بطبائع الأحوال العمرانية. يقول: «ومن الأسباب المقتضية له [يقصد الكذب أو التزييف في الكتابة

التاريخية، وهو أيضا أحد العناصر المغذية للحكاية في مجال هذه الكتابة]، وهي سابقة على جميع ما تقدم [من أسباب]، الجهلُ بطبائع الأحوال في العمران؛ فإنَّ كل حادث من الحوادث، ذاتا كان أو فعلا، لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفي ما يعرض له من أحوال. فإذا كان السامع عارفا بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها، أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب. وهذا أيضا أبلغُ في التمحيص من كل وجه يعرض»[٢١]. لأجل كل ذلك، «يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال، والإحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف، وتعليل المتفق منها والمختلف، والقيام على أصول الدول والملل ومبادئ ظهورها وأسباب حدوثها ودواعي كونها وأحوال القائمين بها وأخبارهم، حتى يكون مستوعبا لأسباب كل حادث، واقفا على أصول كل خبر. وحينئذ، يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول؛ فإنْ وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا، وإلا زيفه واستغنى عنه»[٢٢]. وإجمالا، يحتاج المؤرخ إلى أصول معرفية أخرى تدعم خطابه التاريخي وتمنحه معقوليته وصدقيته. وهي أصول ذات مشارب متعددة: فهو يحتاج إلى نظرية سياسية حول الدولة والتدبير السياسي وأصوله؛ كما يحتاج إلى نظرية أنثروبولوجية حول «السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال»، يقصد بذلك الأحوال التي تتولد داخل العمران البشري من صناعات وفنون مختلفة (والمقدمة في رأينا لم تتعرض للفنون والصناعات إلا استجابة لهذه الضرورة)؛ إضافة إلى ذلك يحتاج المؤرخ إلى المعارف الخاصة بالأحوال الطبيعية المتعلقة بالبيئات الجغرافية واختلافاتها وتأثيرها في البشر وأمزجتهم وأخلاقهم وطباعهم (لأجل ذلك تعرضت المقدمة أيضا لجغرافيا المعمور في حدود المعرفة الجغرافية السائدة آنذاك).

سيادة الحكاية داخل الكتابة التاريخية - إذن - تجد كامل تبريرها داخل آفة أساسية تمس «هوية المؤرخ»، نقصد بذلك غياب ثقافة موسوعية حول الحياة البشرية، وهو الأمر الذي غذّى من جهة عقليةَ التقليد والتبعية التي سادت لدى المؤرخين، ومن جهة ثانية سيادةَ الحكاية وتواترَها بشكل جعل الخطاب التاريخي خطابا تتوالد فيه الحكايات وتتناسل وتتغذى بكل ما هو عجيب وغريب وطريف ومُسلّ، لتغذي بدورها خيال المتلقي وأفعاله وردود أفعاله وأحكامه بخصوص الأحداث والأشياء.

يربط ابن خلدون في مستوى أول الحكاية بالوهم والغلط والكذب والتمويه، ويرجعها إلى آفة التقليد حين يقول: «وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا، لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار؛ فضَلّوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط، ولاسيما في إحصاء

أعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات، إذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر، ولا بد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد»[٣٣]. ومن قبيل ذلك، يوجه ابن خلدون انتقادات شديدة إلى مؤرخين كبار مثل المسعودي - مثلا - بخصوص المبالغة في عرض المعطيات التاريخية (تهم الجيش أو الجباية والأموال أو مظاهر الترف الاجتماعي...إلخ)، إلى درجة تحولت معها إلى حكايات هي أقرب إلى الحكايات الخرافية أو «الغرائب» بتعبير ابن خلدون[٣٤]. وقد امتد نقد ابن خلدون سيادة الحكاية داخل الكتابة التاريخية ليمس التفسيرات التي يقدمها مفسرو القرآن للعديد من الأخبار ذات الطبيعة التاريخية[٣٥]. والواقع أن ابن خلدون لم يكتب مقدمته إلا لأنه كان مقتنعا أشد الاقتناع باختلاف التاريخ عن حكايات الوهم والتهويل والمبالغة في التخييل. وإذا تفحصنا الفصول الأولى لـ «المقدمة»، لاحظنا مدى سخرية ابن خلدون وإدانته الشديدة لهيمنة هذه الحكايات وأمثالها. فهو يعتبر سرد هذه الحكايات داخل الكتابة التاريخية استجابة «لولوع النفس بالغرائب» وتجاوزها حدود العوائد وانسياقا وراء وساوس الإغراب[٣٦]. كما كان ابن الجوزي أيضا مدركا لهذه الوظيفة السيكولوجية للحكاية حين أكد أن النفوس في عصره تطلب «معرفة بدايات الأشياء، وتحب سماع أخبار الأنبياء، وتحن إلى مطالعة سير الملوك والحكماء، وترتاح إلى ذكر ما جرى للقدماء»، كما تسعى وراء الاطلاع «على عجائب الأمور وتقلبات الزمن وتصاريف القدر. والنفسُ تجد راحة بسماع الأخبار»[٣٧]. لذلك، كانت الأخبار الواردة في هذه الحكايات، وفق ما يعلق ابن خلدون، «كلها بعيدة عن الصحة، عريقة في الوهم والغلط، وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة» و «الأخبار الواهية المدخولة»[٣٨].

وعيُ ابن خلدون بهيمنة الحكاية في الكتابة التاريخية هو الذي جعله ينقل المعقولية التاريخية من التمركز حول الخبر إلى التمركز حول الحدث في ذاته. لذلك، كان ما يمنح الخبر التاريخي حول الحدث مصداقيته أو مشروعيته العقلية، هو سلطة العقل وقد أصبح تاريخيا ومعاييره التي يضعها (الإمكان العقلي، الاستحالة العقلية)، وليس مصدر الخبر (الإخباري أو شخص المؤرخ). لقد أدرك ابن خلدون - بنقده طريقة الكتابة التاريخية حتى عصره - العلاقة التي تربط بين هيمنة الإخباري عامة وبين هيمنة أسلوب الحكاية. أولى نتائج هذه العلاقة، تجاوز الكتابة التاريخية مجال الحياة البشرية لتمتد إلى الأصول الميتافيزيقية للكون والحياة والخير والشر...إلخ. لقد ارتبطت كتابة التاريخ بالحكاية عن المبتدأ والمنتهى، وهذا يعني بثيولوجيا كامنة حول الخلق والخير والشر والغائية الأخلاقية والدينية للحياة البشرية. وإن متأمل المصنفات في مجال التدوين التاريخي لدى كبار المؤرخين سيجد أن مقدماتهم مملوءة بفقرات ذات طبيعة ثيولوجية تبريرية تؤكد حدوث العالم وقدم الخالق والطبيعة الذرية (أو الجزيئية) للزمان...إلخ، كما لو كانوا يعلنون الانتماء المعرفي لتآليفهم

لمنظومة العلوم الدينية. لقد كان من بين أهداف التصنيف في مجال التاريخ معرفة الإنسان ليس فقط بماضيه السحيق، وهو الذي يشمل تاريخ الخبرة البشرية بكل مكوناتها السياسية والاجتماعية والدينية والأخلاقية... بل أيضا بأصوله التي تعود إلى ما قبل تاريخه الدنيوي. يورد السخاوي قولا للعماد بن محمد بن حامد الأصبهاني الكاتب (ت ٥٩٧ هـ) في كتابه «الفتح القدسي» جاء فيه: «إن عادة التواريخ الابتداء ببدء الخلق أو بدولة من الدول. فليست أمة أو دولة إلا ولها تاريخ يرجعون إليه ويعولون عليه، ينقله خلفها عن سلفها، وحاضرها عن غابرها؛ تُقَيِّدُ به شوارد الأيام وتُنَصَّبُ به معالم الأعلام. ولولا ذلك، لانقطعت الوُصَلُ وجُهِلَتِ الدول ومات في أيام الأواخر ذكر الأوائل، ولم يعلم الناس أنهم (...) نُطَفٌ في ظلمات الأَصلاب طويلة السرى، وأن أعمارهم مبتداة من العهد القديم لآدم وقد أخذ ربك من ظهورهم ذرياتهم لما أراده من ظهورهم (...) فيعلم المرء أنه قبل انقضاء عمره وقبل نزول قبره ما استبعده أهل الطي من حقيقة النشر...»[٢٩].

والواقع أن استعمال الحكاية وهيمنتها على مجال العقل التاريخي الإسلامي الكلاسيكي قد عمل على «تنويم» هذا العقل إلى درجة سقط فيها أسير حكاياته، سواء ارتبطت بمواضيع بداية العالم أو تاريخ النبوة أو حكايات البلاط وشخوصه وما يحاك حولها من روايات، أو الحروب وغيرها... لقد أصبح هذا العقل مركبا من الأقاويل والآراء العالقة في أذهان العوام والغافلين وأدعياء العلم. وقد كاد انشغال ابن خلدون بنقد هيمنة الحكاية على الكتابة التاريخية وابتذال العقل التاريخي، كاد يخرجه عن غرضه وهو يكتب «المقدمة». ومع ذلك، فهو ينبه القارئ إلى أن فن الحكاية، أو بالأصح فن التاريخ، وقد تحول إلى حكاية، قد فقد وجهته كعلم بعد أن أضعفه التقليد. لنتأمل قوله: «وقد كدنا نخرج عن غرض الكتاب [يقصد المقدمة] بالإطناب في هذه المغالط؛ فقد زلت أقدام كثير من الأثبات والمؤرخين الحفاظ في مثل هذه الأحاديث والآراء وعلقت بأفكارهم. ونقلها عنهم الكافةُ من ضعفة النظر والغفلة عن القياس، وتلقوها هم أيضا كذلك من غير بحث ولا روية، واندرجت في محفوظاتهم حتى صار فن التاريخ واهيا مختلطا، وناظره مرتبكا، وعُدَّ من مناحي العامة»[٣٠]، بل انتهى به الأمر إلى أن «صار انتحاله مجهلة، واستخف العوام ومَنْ لا رسوخ له في المعارف مطالعتَهُ وحَمْلَه والخوضَ فيه والتطفل عليه، فاختلط المرعي بالهمل واللباب بالقشر والصادق بالكاذب»[٣١].

ب - مستوى الفلسفة الضمنية

يريد ابن خلدون أن يقوم الخطاب التاريخي على مرجعية عقلانية تجمع بين نظرية الدولة ونظرية المجتمع والصناعات البشرية المادية والفكرية. لذلك، لم يكن التاريخ لديه مجرد بحث في أحوال الزمان ولا توقيتا، بل هو بحث في الأحوال الخاصة بعصر أو جيل معين، مستندا في ذلك إلى نظرية العمران البشري بمختلف أنماطه البدوية والحضرية. ولعل مقارنة أولية

بين الأسلوب العام لكتابة «المقدمة» والأسلوب العام للكتابة التاريخية لدى كبار مؤرخي الثقافة الإسلامية الكلاسيكية، تثبت لنا تميز ابن خلدون النسبي. لقد كان موضوع التاريخ لدى هؤلاء المؤرخين هو الزمان وأحواله باعتباره أفقا للتاريخ. وقد خضع تمثلهم للزمان لتصور ثيولوجي هو الذي صاغه علماء الكلام. فهذا الطبري يصوغ كتابه «تاريخ الأمم والملوك» كما لو كان جزءا من ملحمة الخلق الإلهي: وهو يمزج بين الخطاب التاريخي والخطاب الثيولوجي. يبتدئ مصنفه الكبير بخطاب ميتا - تاريخي (Métahistorique) لا يتحدثه إلا المتكلمون. موضوع هذا الخطاب: الخلق الإلهي وتبريره. يقول: «فإن الله جل جلاله وتقدست أسماؤه خلق خلقه من غير ضرورة كانت به إلى خلقهم، وانشاهم من غير حاجة كانت به إلى إنشائهم: بل خصه منهم بأمره ونهيه وامتحنه لعبادته ليعبدوه وليحمدوه على نعمه فيزيدهم من فضله ومننه، ويسبغ عليهم فضله وطَوْلَهُ كما قال عز وجل: ﴿وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يُطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾»[٣٢]. وينطلق الطبري من إثبات قدرة الله على الخلق استنادا إلى آيات قرآنية وأحاديث نبوية. فهو «خالق الدهر والأزمان»، باعتبار الزمن مقدار حركة كل شيء داخل العالم، وهو تعريف ثيولوجي للزمان. وهذا الكافيجي يؤصل نظرية التاريخ على أساس الثيولوجيا الكلامية الإسلامية. فهو يعرف التاريخ بأنه «علم يبحث عن الزمان وأحواله»، ويعرف الزمان كالتالي: «والزمان هو مقدار الحركة على الرأي المشهور، وهو الذي يحتاج إلى معرفته أهل التاريخ»[٣٣]. والمنحى ذاته سيسلكه ابن الجوزي في «المنتظم»: إذ سيبتدئ بذكر «الدليل على وجود الصانع سبحانه وتعالى»، لكي ينتقل في ما بعد إلى ذكر مخلوقاته التي تشمل «الموجودات» و «الحادثات» التي يندرج فيها كل ما يحدث ويعرض داخل العالم الأرضي من واقعات وكائنات. وبما أن كل حادث (وهو مصطلح ثيولوجي كما نلاحظ) له بداية ونهاية داخل الزمان بحسب الحجاج الثيولوجي، فسيجد ابن الجوزي ذاته - كمؤرخ - ملزما بذكر البدايات. يقول: «... ثم أتبع ذلك بذكر آدم عليه السلام وأحواله وما جرى له، ثم ذكر عظائم الحوادث التي كانت في زمانه ومن كان في مدة ولايته من أهل الخير وروس أهل الشر. ثم أذكر من خلفه من أولاده وما حدث في زمان ذلك الخالف من الأحداث (...)، ثم من يخلف ذلك كذلك إلى زمان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فيندرج في ذلك ذكر الأنبياء والملوك والعلماء والزهاد والحكماء والفراعنة والنماردة ومن له خبر يصلح إيراده من العوام، وما يحسن ذكره من الأمور والحوادث في كل زمن»[٣٤].

تقتضي المعطيات السابقة أن يكون الزمان أوقاتا. وموضوع المعرفة التاريخية هو الزمن باعتباره «وقتا مضروبا للفعل» (الكافيجي)[٣٥]. لكن، كل فعل لا يدخل مجال الخطاب التاريخي إلا حينما يصبح خَبَرا. والتاريخ علم بالخبر وإخبار في الوقت ذاته. إنه عرض للأخبار ونظرية حول الخبر هي التي يصوغها الكافيجي في كتابه «المختصر في علم التاريخ».

ويجب أن نشير هنا إلى أن الوظيفة التعريفية من الزاوية الخطابية غير تاريخية. المؤرخ لا يعرّف أدواته المفاهيمية كمؤرخ، بل هو يمارس وظيفة ميتا- لغوية. إنه يؤصل المفاهيم أو يبررها. وتلك كانت وظيفة الثيولوجيا (علم الكلام) داخل منظومة العلوم الدينية قديما. كما يجب أن نشير أيضا إلى أن الهدف من الوظيفة التبريرية أو التأصيلية للتاريخ عند الكافيجي والسخاوي وغيرهما هو إثبات وجوبية علم التاريخ الدينية. يقول الكافيجي: «فهو [أي التاريخ] علم كسائر العلوم المدونة [النقلية] كالفقه والنحو والبيان وغير ذلك. فثبت الاحتياج إليه على ما عداه من العلوم، وأنه واجب علمه على سبيل الكفاية كوجوب سائر العلوم لضبط زمن المبدأ والمعاد، وما بينهما على أحسن ما يكون»[٣٦]. ويقول العز الكناني الحنبلي وفق ما يورد السخاوي: «لا شك في جلالة علم التاريخ وعظمة موقعه من الدين وشدة الحاجة الشرعية إليه، لأن الأحكام الاعتقادية والمسائل الفقهية مأخوذة من كلام الهادي من الضلالة والمبصر من العمى والجهالة. والنقلة لذلك هم الواسطة بيننا وبينه؛ فوجب البحث عنهم والفحص عن أحوالهم. وهذا أمر مجمع عليه. والعلم المتكفل بذلك هو علم التاريخ. ولهذا قيل: إنه من فروض الكفاية»[٣٧].

وتظهر الوظيفة التأصيلية الثيولوجية للتاريخ في تصور المؤرخ فكرة الحدوث. يقول السخاوي: «وأما موضوعه [التاريخ] فالإنسان والأزمان ومسائله وأحوالهما المفصّلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة [بمعنى الحادثة] الموجودة للإنسان وفي الزمان»[٣٨]. وهكذا، إذا كان الزمان هو الحيثية أو الإطار الموضوعي لبحث الوقائع التاريخية، فإن ماهية ما يحدث تاريخيا هو الحدوث. هنا ميزت الثيولوجيا الداعمة للنظرية التاريخية، وهي تحدد مفهوم الوجود، بين الحادث والقديم. مجال الوجود يشمل القديم، وهو الله، وبين الحادث، وهو كل كائن يتحدد وجوده بحيثية الزمان. هنا بالذات أصبح العقل التاريخي ثيولوجيا، أي يدعم ذاته بنظرية ثيولوجية حول الوجود والموجود والقدم والحدوث. لقد تمثل العقل التاريخي ذاته كبحث في ما هو حادث (الحادث أو الحدوث هو المقولة الذهنية التي من خلالها يتم التفكير في كل ما يقع من وقائع وأكوان)، وحدد بذلك مجال معقوليته الدينية. مجال الكتابة التاريخية هو الزمن الممتد بين البدء والنهاية. التاريخ مطوق بين حكايتين مقدستين: حكاية الخلق وحكاية البعث والمصير. وعلى منطق التدوين التاريخي، حسب الكافيجي والسخاوي وابن الجوزي وابن كثير وغيرهم، الالتزام بهذه الحدود في ما يخص أدوات البحث وشروط المؤرخ واعتبارات التدوين التاريخي... إلخ.

وبالفعل، يظهر ارتباط النظرية التاريخية بالمنظومة الثيولوجية عند المسلمين، عدا ابن خلدون، باعتبار القصص القرآني براديغما أو نموذجا مرجعيا نظريا يجب على المؤرخ أن يحتذيه في عمله التأريخي. فليس القصص القرآني مجرد مرجع تيمائي (Thematique)

للخبر التاريخي، بل هو بنية مرجعية ثابتة تحدد سلوك العقل التاريخي بوصفه إخبارا ونظرية حول الخبر. ويحدد السخاوي عناصر هذه البنية المرجعية في ما يلي:

- هناك نوع من القصص تخص إظهار النبوة، بما في ذلك نبوة رسول الإسلام مع الاستدلال على رسالته. هنا يكون الخبر التاريخي حجة ودليلا على صدقية الرسالة النبوية.
- هناك قصص «التأسي بالأنبياء» في ما أثنى الله عليهم به والانتهاء [أي تجنب] عن ضده.
- هناك قصص تبرز الخصوصية الدينية للإسلام. وعلى الخبر التاريخي الاقتداء بذلك.
- هناك قصص التهذيب الغرض منها تأديب الأمة وتزويدها بثقافة عامة حول العقيدة والسلوك وفق مقتضياتها والدينية والمعاملاتية.
- هناك قصص تحفظ التراث الأخلاقي[٣٩].

على أساس ذلك، وجب أن تكون منهجية التدوين التاريخي ذاتها تستنسخ منهجية تدوين الحديث، بل على التاريخ أن يكون خادما للحديث وللثيولوجيا. فقد اشترط الكافيجي في المؤرخ ما يشترط عامة في رواة الحديث من عقل وضبط وإسلام وعدالة[٤٠]. لذلك، اعتبر السخاوي التاريخ «مسنَدِيًا»، أي يقوم على بنية السند والرواية، بل يتولى تصحيح الأسانيد ويضبطها، كما رأينا في قولة العز الكناني الحنبلي التي يوردها السخاوي كحجة. يقول التاج أبو طالب علي الخازن صاحب كتاب «أخبار الوزراء في دول الأئمة الخلفاء» وفق ما يورد السخاوي: «ثم إن تأمل ذلك [ما يقدمه التاريخ من حوادث وعبر] يبعث على التوحيد والاعتراف بوحدانية البارئ جل جلاله، إذ في تدبر مجاري الأقدار وتقلب الأدوار واختلاف الليل والنهار وتوالي الأمم وتعاقبها وتداول الدول وتناوئها عظة للمتعظين وتنبيه للغافلين»[٤١].

ما حصيلة تبعية التاريخ للعلوم الدينية ؟ يجب أن نعترف هنا بأن الوضع المعرفي للكتابة التاريخية كان غير مستقل عن منظومة العلوم الدينية. ومع ذلك، فالتاريخ يعرف وضعا مفارقا أو نقيضيا (Antinomique). أهم علاماته أنه لم تكن له هوية علمية مستقلة بما أنه يكرر براديغما مؤسسا للعلوم الدينية، خصوصا علم الحديث. ومع أن التاريخ كان حاضرا بقوة في المباحث الدينية والأدبية التي لجأت إلى الأخبار والأيام والأنساب والرحلة وغيرها، فقد أُقصي ولم يُعتبَر علما مستقلا بذاته. لقد احتاج المحدث إلى التاريخ لكي يؤكد صدقية شهادة أو يثبت سلسلة معينة من الرواة أو إحدى ميزات الإسلام عامة. وقد نتج عن ذلك أن أصبح حفاظ الحديث وسلاسل الرواة كيانا اجتماعيا يتحدد بفعل اختيار شخص معين وإدراجه داخل جماعة مذهبية معينة. والانخراط داخل هذه الجماعة أصبح يعني أيضا التزاما بقواعدها، وذاك هو التقليد في مقابل الرأي. كما انتهى الأمر بهذه المجموعات المذهبية إلى التحرر من تاريخ الوقائع، وهو التاريخ الذي يبقى مفتوحا على التجدد والتغير، بل الاستغناء عنه وتأسيس تقليد يضع ذاته فوق التغير والتجدد كما لاحظ عبدالله العروي[٤٢].

يمكننا أن نتساءل أخيرا: ما هي حدود الموضوعية التاريخية داخل التصور التقليدي-(Tradi-tionniste) الثيولوجي للتاريخ؟ لنشر - إجابة عن هذا السؤال - إلى أن هناك خلطا بين التاريخ وما قبل هذا التاريخ، بين التاريخ الدنيوي والنهاية المقدسة، بين الشفوي والمكتوب، بين الحكاية والتدوين. لقد ظل التاريخ يحمل في طياته ما قبل تاريخه. لم يتخلص التاريخ، باعتباره بحثا في أحوال الزمان الدنيوي، من الحكاية ومن التمثلات الميثولوجية المشحونة بالمتخيل والعجيب والغريب. يورد السخاوي أن ابن الجوزي في كتابه «شذور العقود في تاريخ العهود» أورد أنه من ضمن أهداف التدوين التاريخي التسلية والاطلاع على عجائب الأمور وتقلبات الزمن وتصاريف القدر وسماع الأخبار. وهكذا، في عرض «التواريخ وذكر السير راحة القلب وجلاء الهم وتنبيه الغافلين، فإنه إنْ ذكرتَ عجائب المخلوقات دلّتْ على عظمة الصانع...»[42]. ويضيف في «المنتظم» ذاكرا فوائد التاريخ: «...أن يطّلع [المرء] على عجائب الأمور وتقلبات الزمن وتصاريف القدر. والنفس تجد راحة بسماع الأخبار». وقال أبو عمرو بن العلاء لرجل من بكر بن وائل قد كبُر حتى ذهب منه لذة المآكل والمشرب والنكاح: «أتحب أن تموت؟ قال: لا. قيل: فما بقي من لذتك في الدنيا؟ قال: أسمع بالعجائب»[44]. كما ينتهي الكافيجي وهو يختتم كتابه «المختصر في علم التاريخ» إلى الخلاصة التالية: «فالتاريخ من المهمات العظام ... وهو معدن العجائب والغرائب والروايات والأمثال. والتاريخ زينة الأديب وعمدة اللبيب وعون المحدث وذخر الأريب»[45]. هذا أيضا ما يلمح إليه المسعودي في مقدمة «مروج الذهب» حين قال: «...فإنا صنفنا كتابنا في أخبار الزمان، وقدمنا القول فيه في هيئة الأرض ومدنها وعجائبها وبحارها... وبدائع معادنها...»[46]. أما ابن الأثير، في مؤلفه «الكامل في التاريخ»، فيعتبر أن من بين فوائد التاريخ ما «يتجمل به الإنسان في المجالس والمحافل من ذكر شيء من معارفها ونقل طريفة من طرائفها. فترى الأسماع مصغية إليه، والوجوه مقبلة عليه والقلوب متأملة ما يورده ويصدره مستحسنة ما يذكره»[47]. ذاك هو منطق الحكاية، وأية حكاية [48]. قد يذهب كل شيء في حياة المرء بما في ذلك رغبته في الملذات، لكن تعيش معه رغبته في الإنصات للحكاية استمتاعا بما هو عجيب وغريب وربما فاتن فيها. فنحن نعلم، وذاك هو درس ألف ليلة وليلة، أنه وراء كل حكاية يجثم صوت شهرزادي يفتن وينوّم ويخدر.

لقد تَكَوَّنَ العقل التاريخي في أحضان ثقافة شفوية تعود جذورها إلى ثقافة الأيام والأخبار التي وُجدت قبل مجيء الإسلام وتطورت بعد ظهوره باستعمال أسلوب الرواية والإسناد على طريقة أهل الحديث. وبقدر ما سيتوسع فعل التدوين التاريخي، بقدر ما ستجد الحكاية أمكنة أوسع وأرحب للتغلغل داخل الثقافة الإسلامية الكلاسيكية. خصوصا أن التدوين قد امتد ليشمل كل خبرات الأمة الوليدة، الاجتماعية، الدينية والسياسية والفكرية. لكن، تبقى الحكاية (والرواية) في كل ذلك سابقة على التأريخ ومؤسِّسة له. يتدخل المؤرخ كناقل يحكي الأخبار عن

الأيام والأنساب والمغازي والدول والسير والحروب وفحول الشعر وطبقات العلماء... إلخ. وهو لا يحكي الخبر ويدونه إلا لأنه يعيش داخل مجال ثقافي تسبق فيه الحكاية كل تاريخ ممكن[22]. تلك حقيقة أدركها الباحث عبدالسلام الشدادي بعمق حينما أكد «أن الأخبار والحكايات والطرائف والمعلومات والأقوال سابقة في الوجود على مؤلفات «التاريخ». كما أن سندها الأساسي ليس هو الكتاب، ولكن ذاكرة الناس. فمرحلة الكتابة هي نتيجة أو بديل وليست نقطة انطلاق»[23]. يروي السموأل بن يحيى المغربي (عاش في القرن الثاني عشر للميلاد وأسلم في أواخر حياته) عن اكتشافه للتاريخ؛ وكانت الحكاية طريقه الأساسي لهذا الاكتشاف، يقول: «ولما كنتُ بين العاشرة والثامنة عشرة، جذبتني أخبار التاريخ وحكاياته. واشتدت رغبتي في قراءة ما حدث في الأزمنة الغابرة وفي معرفة ما تم في العصور الخالية: فقرأتُ مختلف مجموعات القصص والحكايات، ثم انتقلت منها إلى الحكايات الطويلة المسلية، ثم إلى بعض القصص الطويلة كقصة عنترة وذات الهمة والبطال وقصة إسكندر ذي القرنين والعنقاء وطرف بن لوذان وغيرها. وبعد أن قرأت هذه الكتب، تبين لي أن معظم ما فيها مأخوذ من كتب المؤرخين، فبدأتُ أبحث عن أخبار التاريخ الصحيحة وأهتم بها: فقرأتُ كتاب علي بن مسكويه الذي سماه «تجارب الأمم». كما قرأتُ تاريخ الطبري وكتب التاريخ الأخرى، فتعرفتُ منها على أخبار الرسول وغزواته والمعجزات التي كرمه الله بها...»[24]. كانت الحكاية مدخلا للتاريخ. وهنا يكمن عمق النقد الخلدوني لمنهجية التدوين التاريخي السابقة عليه. فهو لم ينتقد هيمنة الحكايات متهما إياها بالغلط والوهم والكذب،... ولم ينتقد تدخل ذاتية المؤرخ في التدوين وسرد الأخبار إلا لكي يحرر التاريخ من سيادة الحكاية أولا، ومن هيمنة التصور الثيولوجي للزمان ثانيا، ويعطيه وضعا معرفيا مستقلا. ولم تكن نظرية العمران سوى ذلك الأس النظري الذي عليه ينبني التاريخ كعلم عقلي (وليس دينيا) جدير بأن ينتمي إلى علوم الحكمة العقلية. من المؤكد أن ذلك لم يكن ليتم عند ابن خلدون لولا تراكمات ساهم فيها مؤرخون سابقون كالمسعودي وابن الأثير ومسكويه والبيروني وغيرهم. غير أن التدخل الخلدوني، في «المقدمة» على الأقل، كان حاسما جدا. لقد شخّص وضعية العقل التاريخي داخل الثقافة الإسلامية تشخيصا عميقا وحدد مفاسده الأيديولوجية المرتبطة بالطبيعة البشرية للمؤرخ (الكذب وتزييف الأخبار والتشيع للآراء والمذاهب والحكام...) ومفاسده المرتبطة بالتكوين النظري والمنهجي للمؤرخ أيضا (غياب نظرية حول العمران البشري والاكتفاء بالنقل والتقليد والتبعية مما فتح المجال لشحن التاريخ بحكايات متنوعة والاكتفاء بنقلها من دون نقد أو تمحيص). أما نتيجة ذلك، فكانت هي إقامة معقولية ما هو تاريخي في الحياة البشرية على معيار الإمكان العقلي والاستحالة العقلية، لا على البنية الخبرية في ذاتها (سواء كانت تحكي عن الأحداث المقدسة كالخلق أو النبوة والدعوة أو المغازي أو الأحداث السياسية

وغيرها)، ولا على قوة السند الذي تستند إليه (سند الرواية والنقل). مع ابن خلدون، أصبح العقل تاريخيا، أي متيقظا لطبائع العمران البشري وقوانين الحياة الاجتماعية ولتغيراتها داخل الزمان والمكان، ولعلاقتها بما يمنحها معنى بالنسبة إلى البشر الذين يعيشون هذه الحياة، وهذا يعنى بالتفكير وما يفرضه على الأفعال والأحداث من علاقات منظمة تجعلها معقولة بالنسبة إلى فاعليها وإلى المؤرخ الذي يفحص تلك الأفعال والممارسات داخل أفقها التاريخي.

لكن هناك سؤالا يظل يطرح ذاته بإلحاح، هو: هل يمكن للمؤرخ أن يتخلص من سلطة الحكاية لفائدة العلم مطلقا؟ هل تمكن ابن خلدون - وهو الناقد لسلطة الحكايات وتدخل ذاتية المؤرخ وللتقليد والتبعية في مجال الكتابة التاريخية - من التخلص مطلقا من هيمنة الحكاية في تاريخه على الخصوص؟ هذا ما يمكن نفيه. داخل كل ثقافة، يوجد تعايش بين الحكاية والتاريخ. وهذا ما ينطبق بالذات على وضع الثقافة الإسلامية الكلاسيكية. ويمكن هنا أن نعترف بوجود خطين يتوازيان ويتداخلان داخل هذه الثقافة:

- **الأول** يمثله المسعودي وابن الأثير والبيروني ومسكويه وابن خلدون على الخصوص، طغت فيه المعقولية التاريخية ذات الأساس العقلي مع تقلص الحكاية.

- **والثاني** يمتد من الأخبار حول الأيام مرورا بالطبري وتاريخ ابن الفداء وتاريخ ابن الجوزي وابن كثير ومن سار على منوالهم، هيمنت فيه معقولية تاريخية تقليدية أفسحت في المجال بشكل أرحب لسيادة الحكاية وربط التاريخ البشري بما قبل هذا التاريخ، نقصد بذلك التاريخ المقدس (تاريخ الخلق والخطيئة والخير والشر والنبوات...). وإن ما نشهده حاليا، في وطننا العربي على الخصوص، هو إعادة تأسيس الخطاب التاريخي في مؤسسات المعرفة الحديثة (الجامعات على الخصوص). ومع «جهاد» المؤسسة الجامعية في المجتمعات العربية والإسلامية لأجل إعادة تأصيل خطاب تاريخي منفتح على معطيات النقد والعقل العلمي الحديث، بدأت الحكاية تعود لتطغى من جديد لتغذي المخيال الاجتماعي وتطرف بها الأندية، أصبحت الحكاية تستغل التاريخ لتغذي «جهادا» آخر، لدى جماعات منغلقة على ذاتها، يريد لذاته أن يكون تدميرا للمؤسسات والعقل والحياة الاجتماعية ككل. لا يسعنا أمام هذا الوضع إلا أن نقول: لنستمتع بالحكاية (فهي جزء من التراث الأدبي والفني لمجتمعاتنا)، لكن لنحذر الحكاية أيضا خصوصا حينما تكون وسيلة للتدمير والتخريب وسلب أهم ما في التاريخ، نقصد الحياة والقدرة على الفعل والتجديد والإبداع.

عالم الفكر
العدد 1 المجلد 37 يوليو - سبتمبر 2008

التحاور الكفء: محدداته وتنميته

د./ عبد المنعم شحاته (*)

التحاور الكفء ضرورة لممارسة ديموقراطية فعالة

تتعالى صيحات المنادين - داخليا وخارجيا - بالإصلاح في عالمنا العربي والإسلامي، وقد ترادف لديهم الإصلاح والديموقراطية؛ وكلاهما لا يتحقق من دون توسيع قاعدة المشاركة؛ وركيزتها تعدد الآراء وحرية التعبير عنها؛ فالمعنى الحقيقي للديموقراطية - كما يقول إمام[1] - هو حرية التعبير لكل فرد؛ فالديموقراطية تطبيق عملي للحرية، أي ممارسة بالدرجة الأولى.

وتضيف ليلى عبدالمجيد[2]: «ولتحقيق قدر عال من الممارسة الديموقراطية الفعالة حتى لا يكون التعبير الديموقراطي مجالا للتهييج والشتائم، بل سياقا تتجلى فيه الحقائق؛ فإن مؤتمرات ودراسات سياسات الاتصال تؤكد (ضرورة) ديموقراطية الاتصال، أي أن يصبح الفرد (الجمهور) شريكا إيجابيا في عملية الاتصال وليس مجرد هدف لها، وأن يتنوع مضمون الاتصال بما يتيح فرص الاختيار وتكوين آراء واتخاذ قرارات وتشجيعه على إبداء وجهات نظر نقدية في ما يقدم له»، مما يعني تعدد وجهات النظر واختلافها وربما تناقضها، فمنها ما هو صائب الرأي ومنها ماهو قائم على مغالطات منطقية؛ مما يوجد ممارسة ديموقراطية يشترط فيها توافر خصائص معينة منها ما أشار إليه مصطفى تركي[3]: المساواة في المشاركة الاجتماعية - والاجتهاد في فهم مشاعر الآخرين واهتماماتهم - وأن يتقبلهم الفرد على أنهم متساوون معه - وأن يتقبل الصراع معهم الذي قد يكون محتوما (نتيجة اختلاف الآراء أو تعارض الاهتمامات) - وألا يصل هذا الصراع إلى طريق العنف.

(*) أستاذ علم النفس وعميد كلية الآداب جامعة المنوفية - مصر.

يتطلب الإصلاح الديموقراطي - بوصفه مدخلا للتنمية - إذن مشاركة اجتماعية يشعر من خلالها الجميع بالمساواة في حرية التعبير؛ وينتج عنها تعدد الآراء واختيار تقبل - أو رفض - أحدها. من هنا تأتي قيمة ممارسة الديموقراطية وما تتطلبه من دربة ومران كما يقول إمام[4]؛ هذه الدربة التي تؤكد أهمية تعلم إدارة الحوار حتى ينجح الإصلاح في تحقيق هدفه المنشود؛ ألا وهو تنمية متنامية (استمرارية التنمية مع ارتفاع وتيرتها وتنوع مظاهرها) في المجالات المختلفة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وتربويا ...إلخ.

وتتمثل كفاءة التحاور في اتباع قواعد فنية تحدد كيفية التعامل مع اختلاف وجهات النظر؛ وماهية الدليل الذي ينبغي تقديمه لترجيح رأي على غيره؛ الأمر الذي يبرز قدرة أحد الأطراف على إقناع مخالفيه في الرأي بصحة وجهة نظره نحو القضية موضوع الحوار، أي أنه يقوم بعملية مزدوجة، حيث يفند وجهات نظر الآخرين كاشفا مغالطاتهم؛ ويقنعهم في الوقت نفسه بصحة وجهة نظره. ويطلق على هذه العملية المزدوجة المحاجة Argumentation وأبلغ تعريف لها ما ذكره الباجي[5] - في القرن الحادي عشر الميلادي - «تردد الكلام بين اثنين قصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه».

ويحدث خلط بين المحاجة وفقا للتحديد السابق وكل من: الدعاية بأساليبها - والاستمالة بطرقها - والمحاورة بصورتيها المناظرة والمجادلة - والبرهنة بأشكالها: الاستنتاج والاستنباط والاستقراء والاستدلال. ويمثل الحوار - أي التجاوب والمراجعة[6] - القاسم المشترك بينها بوصفه وعاء تتم جميعها في إطاره، ويعد الحوار أفضل صور المخاطبة، لأنه اتصال في اتجاهين طرفاه متكافئان ليس بينهما من هو المصدر ومن هو المتلقي، بل كل منهما المصدر والمتلقي في الوقت نفسه؛ أي أنهما تساويا وتناظرا في المخاطبة[7]. ويكشف تحليل مدلول هذه المفاهيم نقاط التقاء أخرى توضحها الفقرة التالية.

المفاهيم الأساسية

أولا: الدعاية Propaganda

ويقصد بها أي ممارسة مخطط لها لاستخدام الرموز (اللغة على رأسها) للتأثير في النتائج النهائية لحدث ما (الحرب أو الانتخابات البرلمانية أو... إلخ) بواسطة إحداث إيحاء وما يرتبط به من إذكاء وتهييج انفعالات معينة (الحب، الأمل، الخوف، الغضب... وغيرها) للتأثير في الأفراد المستهدفين؛ حيث يتم ربط هذه المشاعر - بعد تفجيرها - بهدف معين (سلعة ما أو مرشح سياسي... وما شابه)؛ ولفت الانتباه إليه بإثارة الرغبة فيه؛ وتكوين انطباع (جمال لايقهره الزمن أو منافس لم يولد بعد من يهزمه..) معين عنه؛ والإيحاء (أي تقبل فكرة من دون طلب دليل يبرره، مثل كون الحصول على سلعة ما يحقق ذاك الجمال، أو أن هذا المرشح سينجح أيا كان المنافس... وهكذا) بكيفية تحقيق هذا الهدف[8].

ثانيا: الاستمالة Persuasion

عملية حث الفرد وجعله يولع بشيء معين[9]؛ قد يكون ماديا كسلعة يسعى مروجها - من خلال الإعلان - إلى إقناع الجمهور باقتنائها، وقد يكون الشيء معنويا كفكرة - أو رأي أو اتجاه - يريد مقدمها إقناع متلقيها بصحتها. وبمعنى آخر تعد الاستمالة هي العملية التي ينتج عنها تبني الشخص وجهة من النظر أو موقفا لفرد أو أفراد آخرين بعد مخاطبتهم - سواء بالمواجهة أو من بعد وعبر وسائل الاتصال وتقنياته - لوجدانه وعقله[10]، ويقابلها عملية ثني dissuading الشخص عن أمر ما أو نصحه بالعدول عنه[11].

ثالثا: المحاورة Debate

ويقصد بها اللغويون تجاوب طرفين في حوار، ولها صورتان:

١ - **المناظرة**: وتكون حين يتعاون المتحاوران في إظهار الصواب بغض النظر عن كونه ظهر على يد أي منهما؛ وعرفها أبو البقاء الكفوي[12] بأنها «النظر بالبصيرة من الجانبين - أي طرفي الحوار - في النسبة بين الشيئين إظهارا للصواب».

٢ - **المجادلة**: وتكون إذا غاب هذا التعاون، وهي مشتقة من الجدل أي شدة الخصومة والمقدرة عليها[13]، وتشكل منازعة في مسألة ما لإلزام الخصم سواء أكان كلامه في نفسه فاسدا أم لا، ولها وجهان:

أ - **مكابرة**: حينما يعلم المحاور فساد كلامه وصحة كلام خصمه.

ب - **معاندة**: حينما لا يتوافر له هذا العلم[14].

رابعا: البرهنة Proving

وهي مضمون المحاورة بصورتيها المناظرة والمجادلة، ويقصد بها لغة الإتيان بالحجة الفاصلة البينة[15]، بوساطة نوع ما من الأقيسة المنطقية وهي:

١ - **الخطابة**: أو ما كانت مقدماته مشهورة بين الأفراد ويفيد الظن.

٢ - **الجدل**: ويفيد الظن أيضا عبر البرهنة «التي يقتدر بها على حفظ أي شيء يراد ولو باطلا وهدم أي وضع يراد ولو حقا»[16].

٣ - **الشعر**: أي نظم الكلام[17].

٤ - **السفسطة**: أو القياس المركب من مقدمات شبيهة بالحق؛ وتعد إحدى صور المغالطة المنطقية لوعي القائم بها أن الحق ليس معه.

٥ - **المبالغة**: أي تضخيم الأمر، وهي صورة أخرى للمغالطة[18].

٦ - **البرهان** ويفيد العلم، إذ يتسم بكون مقدماته معلومة: إما بذاتها أي ما يسميه أهل المنطق بالضروريات؛ وإما بواسطة وتسمى النظريات. والمقدمات - أساس البرهان والأقيسة المنطقية باستثناء الشعر - هي أقاويل تم تركيبها بحيث يلزم عنها رأي، ويتطرق الخلل إلى البرهان من جهة مقدماته أو من جهة تركيبها أو منهما معا[19].

خامسا: المحاجة Argumentation

وهي فن إعطاء أسباب مقنعة لاعتقادنا بصحة أشياء معينة؛ لذا تمثل أعلى درجات الكفاءة في الحوار، حيث القدرة على استخدام الأقيسة المنطقية - وخصوصا البرهان - لتوليد حجة أو دليل لإثبات أمر أو نقضه؛ والحجة والدليل مترادفان؛ ويشيران إلى أي شيء يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى علم أو ظن، فكلاهما يهدف إلى إخراج الشيء من الأشكال (الغموض) إلى الوضوح[٢٠]، من خلال إبراز:

١ - إما حقيقة الشيء؛ أي كونه موجودا أو غير موجود والمحكات التي استند إليها المحاور في ذلك.

٢ - وإما قيمة الشيء؛ أي كونه مرغوبا ومبررا أو كونه غير ذلك.

٣ - وإما توقع استحسان الآخر المتلقي لهذا الشيء ودرجة التأثر به؛ والذي يظهر من خلال تفوق الشيء بوصفه حجة على بدائله؛ لأنه يتمتع بفرص أكبر لإحداث تغيير في معتقدات المتلقي؛ يكون نفع هذا التغيير - لإحداث الإقناع - أكبر من ضرره[٢١]. ويشمل الدليل - أو الحجة - أي صيغة لمادة تدعم الفكرة (أو الرأي) وتوضحها، ويتم التوصل إلى هذه الصيغة - أي الحجة - عبرالاستدلال Reasoning أي إقامة الدليل؛ أو الانتقال من الأثر إلى المؤثر عبر تسلسل عدة أحكام مترتبة بعضها على بعض بحيث يكون الأخير منها متوافقا مع الأول بما يمكن الانتقال من حكم إلى آخر، وهكذا يمكن تصور التداخل بين المفاهيم السابقة؛ فالمحاجة مجموعة من المهارات الذهنية لإتمام البرهنة ونجاحها؛ التي هي بدورها محتوى المحاورة بصورتيها؛ هذه المحاورة التي هي نوع من الاستمالة بالمخاطبة تعتمد على المناشدة المنطقية من خلال المواجهة Face to Face، بمعنى آخر: نسعى من خلال الاستمالة إلى إحداث تأثير عبر اتصال بالمواجهة أو عن بعد Telecommunication؛ فإذا كان الاعتماد في إحداث الأثر على الإيحاء كانت دعاية: أما إذا كان إحداث الأثر عبر تقديم حجج مقنعة كانت محاجة تتم عبر سلسلة من عمليات البرهنة في سياق محاورة أي تخاطب بالمواجهة. ولكون الإصلاح المنشود في عالمنا العربي يتطلب المشاركة بما تعنيه من تعدد وجهات النظر واتباع الحوار وسيلة للتعامل مع هذا التعدد؛ من هنا تبرز قيمة إدارة هذا الحوار بكفاءة من خلال اكتساب مهارات المحاجة كما توضحه الفقرات التالية:

مكونات المحاجة:

تتمثل المحاجة في القدرة على إتيان دليل عبر توليد الحجج بواسطة عمليات الاستدلال، وهو نمط من التفكير يتوصل من خلاله الذهن إلى معرفة مجهول من حقائق معروفة أو قضايا مسلم بها؛ وذلك بربط شيء واضح أو مقبول (دليل) بفكرة أو مفهوم تحاول إقناع الآخرين بها، وينقسم هذا النمط من التفكير - أي الاستدلال - إلى مهارات فرعية هي: -

١ - **الاستنباط Deduction**: تطبيق القاعدة العامة على الجزئيات أو الحالات الخاصة.

٢ - **الاستقراء Induction**: التوصل إلى القاعدة العامة من خلال إدراك القاسم المشترك بين الجزئيات أو الحالات الخاصة.

٣ - **الاستنتاج Inference**: استخراج النتائج من المقدمات؛ أو لزوم النتيجة عن المقدمات اضطرارا. ويكون إما صوريا كقياس «أرسطو»، وإما **تحليليا** كالبرهان الرياضي، وإما تركيبيا إنشائيا ويقابل الاستقراء المتبع في علوم الطبيعة[22]، ويكون في حال تصفح الفرد الأمور الجزئية ليحكم بحكمها على مثالها[23].

وتمتع الفرد بدرجة مرتفعة من المهارات الثلاث السابقة يمكنه من بناء حجج تدعم دعواه أثناء التحاجج وتكشف مغالطات الطرف الآخر؛ ويعتمد كلاهما - أي الحجج الداعمة أو المفندة - على إيجاد علاقة بين المقولات أو الأفكار. وفي هذا الصدد يميز العلماء بين حالتين:

أ - **صنع Making**: الحجة أي البحث عن الدليل وما في حكمه واستخدامه إما للدفاع عن وجهة نظره أي محاجة دفاعية Refutative؛ وإما لدحض وجهة نظر الآخر أي محاجة إقناعية Rejontive، ويتم هذا الصنع من خلال:

- استخدام المثال النوعي، فما ينطبق على حالات جزئية قد ينطبق على كل الحالات.
- زيادة التوضيح بالشرح أو المقابلة (التضاد) أو الاستعانة بالإحصاءات وشاهد العيان[24].
- البدء بمبدأ عام واستنتاج مضامينه.
- اكتشاف العلاقات السببية اعتمادا على أي من: - التزامن في الظهور والاختفاء - الارتباط أو التباعد - المماثلة أو الاختلاف - التوافق أو التعارض - التصنيف. وتعد المماثلة Analogy آلية معرفية لصنع استنتاجات؛ لأنها مفتاح المتشابهات الكامنة وراء العلاقات ذات الرتبة الأعلى (أي العلاقات بين العلاقات أو الأنساق، فداخل كل نسق منها علاقات بين عناصره) بين الأحداث والمواقف، كتصور أن إضافة مقاومة إلى دائرة كهربائية يضعف تدفق الكهرباء - على سبيل المثال - مثلما يؤدي تركيب بوابة ضيقة في شارع إلى تقليل معدل الأفراد الذين يعبرونه[25].

ب - **امتلاك Having الحجة**، ويشير إلى المعارضة التي تتم في أثناء المحادثة وتعد معارضة للمعاندة وليس دفاعا عن موقف[26].

ولجوء المحاور لأي منهما في محاجته يعتمد على درايته بالكلمات وفك رموزها، وفقا لقواعد المعنى وموضع الكلمة من العبارة وقواعد هذا الموضع، إضافة إلى طبيعة القضية ووقائعها ومدى قدرة عمليات الحوار على إنتاج الحجة أو دعمها[27].

ويوظف المحاور في هذا عددا من المهارات الفرعية؛ لاكتشافها قام عبد المنعم شحاته وطريف شوقي[28] بتحليل محتوى Content Analysis 66 محاورة حجاجية إبان الحضارة

اليونانية والإسلامية والأوروبية والعربية الحديثة والمعاصرة، وكشفا عن ٥٤ مكونا لسلوك المحاجة يوضحها جدول (١) ونستنتج منه ما يلي:

الجدول (١): مكونات المحاجة التي كشف عنها تحليل مضمون ٦٦ محاورة ومقالة

م	الحقبة / مكونات المحاجة	اليونانية		الإسلامية		الأوروبية المعاصرة		العربية المعاصرة	
		ك*	الترتيب	ك	الترتيب	ك	الترتيب	ك	الترتيب**
١	مدح الآخر بشكل زائف	١	١٧	-	-	١	٢٨	-	-
٢	ادعاء الفهم لاستدراجه إلى تفاصيل قد توقعه في المغالطة	٦	١	-	-	-	-	١	٣٤
٣	التوضيح من خلال ذكر التشبيهات	٤	٣	٧	١٣	١	٢٤	٢	١٩
٤	التوضيح من خلال ذكر أمثلة معارضة	٢	٩	٤	٢٧	١	٢٧	١	٣٢
٥	اللجوء إلى المزايدات الخطابية	٢	٩	-	-	-	-	٥	١٩
٦	التمييز بين السؤال والتعليق	١	١٧	-	-	٣	١٤	٣	٢٥
٧	اكتشاف خلط المفاهيم	٥	٤	١	٣٣	٣	١٦	١	٣٤
٨	إعادة صياغة ما تم فهمه	٦	١	١	٢٢	١	٢٨	-	-
٩	انتزاع تسليم الآخر بتحديد معنى مفهوم	٢	٩	١	٣١	١١	٣	٢	٢٥
١٠	توجيه سخرية لاذعة إلى الآخر	٢	٩	-	-	١	٢٤	٥	١٥
١١	تقديم الأدلة القوية أو الراجحة	-	-	٦	١٥	-	-	-	-
١٢	إثبات صحة النقل للأمور النبوية	-	-	٢٩	١	-	-	-	-
١٣	إظهار عدم التعارض أو التناقض	-	-	٥	١٨	١	٢٨	١	٣٤
١٤	إعلان التسليم بالمتفق عليه من مسلمات	-	-	٢	٣٢	-	-	-	-
١٥	الاستدلال بالنصوص القرآنية	-	-	١٧	٢	-	-	٤	١٥
١٦	الاستفهام التقريري	-	-	٥	١٨	١	٢٨	٣	١٩
١٧	إبطال دعوى الآخر بإثبات نقيضها	٢	٩	٨	١٢	٢	١٤	٣	١٥
١٨	إلقاء أسئلة افتراضية وانتزاع موافقة الآخر على إجاباتها	١	١٧	٤	٢٣	١	٢٤	٢	١٩
١٩	إلزام المحاور بذكر أمثلة محسوسة	٢	٩	٥	١٨	٢	١٥	٢	٢٥
٢٠	إبراز الخلط بين معاني الكلمات المستخدمة	٤	٤	-	-	٢	١٤	١	٣٤
٢١	استخدام الأمثال السائدة وجعلها موضع الحجة	-	-	٢	٣٢	١	٢٤	٤	١٥
٢٢	التعامل مع الظواهر التي تتوقعها الذاكرة [illegible]	-	-	-	-	١	٢٧	٢	٢٥
٢٣	التركيز على مدى تمييز الفكرة أو التشهير وإهمال شقها الثاني	-	-	-	-	-	-	٦	٩
٢٤	الاعتماد على أثر الهالة لدى المحاورين	-	-	-	-	٢	١٥	-	-
٢٥	الإفراط في التعميم	-	-	-	-	-	-	١	٣٣
٢٦	استخدام المنطق الإحصائي	-	-	-	-	٨	٤	٢	١٩
٢٧	الاستطراد في الجزئيات وإهمال القضية الأساسية	-	-	٧	٢٢	١٥	١	٥	١١
٢٨	الاكتفاء بالإجمال دون التفصيل	٢	٩	٥	١٣	١	٢٤	٧	٧
٢٩	كشف مغالطة الآخر	٣	٦	٦	١٤	٢	١٦	١	٣٣
٣٠	الفصل بين الفعل وفاعله والتركيز على الأول وإهمال الثاني أو العكس	-	-	٦	٢٣	٢	١٥	٤	١٥
٣١	ذكر تفسير مختلف للحدث (الفعل)	١	١٧	٦	١٥	١٥	٢	١	٣١
٣٢	جمع المقدمات في سلسلة متكاملة	٢	٩	٥	٢٣	٣	١١	١	٣٤
٣٣	إضافة عنصر جديد إلى فكرة طرحها الآخر	-	-	١٦	٥	٨	٤	-	-
٣٤	عرض تقويم متوازن لعناصر الموقف	-	-	-	-	٢	١٥	١	٣٤
٣٥	عكس النسب التكوينية التي يطرحها الآخر	-	-	-	-	٧	٧	١	٣٤
٣٦	فصل الأحداث عن ملابساتها، والأفكار عن سياقاتها	-	-	٢	٢٧	١	٢٤	١	٣٤
٣٧	عزو موقف الآخر إلى دوافعه الشخصية	-	-	-	-	١	٢٨	٤	١٥
٣٨	تحليل الفكرة إلى عناصرها	٣	٦	٩	٢٤	٥	٨	٢	٢٥
٣٩	المطالبة بتطبيق الفكرة على أمثلة عيانية	١	١٧	١١	٧	٨	٤	١	٣٤
٤٠	تجاهل المطلوب	١	١٧	٧	٢٣	٢	١٥	٨	٤
٤١	المصادرة على المطلوب	١	١٧	-	-	١	٢٨	٧	٧
٤٢	الدخول في الدائرة المفرغة	١	١٧	٦	٢٣	٢	١٦	٥	١١
٤٣	الاستعانة بأدلة من التاريخ	-	-	٩	١٠	٤	١٠	٣	١٩
٤٤	الاتفاق جزئيا مع المحاور لانتزاع موافقته على جزء آخر من الحجة	١	١٧	-	-	٢	١٥	٦	٩
٤٥	مهاجمة المحاور شخصيا بدلا من تفنيد وجهة نظره	-	-	٦	٢٣	٢	١٥	٩	٧
٤٦	الاستشهاد بأقوال مأثورة / نص شعري	-	-	١٧	١	٦	٨	٨	٤
٤٧	جر المحاور إلى التسليم بحجة معينة واتخاذها مقدمة تلزم عنها نتيجة كان يرفضها مسبقا	٢	٦	٨	٢٣	١	٢٤	٢	٢٥
٤٨	المبالغة البلاغية والمجازية	-	-	١١	٧	-	-	٩	٢
٤٩	إثارة السؤال الصحيح في الوقت المناسب	١	١٧	٣	٢٦	١	٢٨	-	-
٥٠	التركيز على حرفية المعنى	١	١٧	١٤	٢	١	٢٤	١١	١
٥١	التركيز على الأشخاص وليس الموضوعات	-	-	٩	٢٧	-	-	٨	٤
٥٢	تبرير المواقف بعواقبها والوقائع بالنيات الحسنة	١	١٧	٩	١٠	-	-	٥	١١
٥٣	الإصرار على تسمية الأشياء بمسمياتها	٢	٦	٥	١٨	١	٢٨	٢	١٩
٥٤	قلب الحجة	١	١٧	١٢	٥	١	٢٨	١	٣٤

* يشير التكرار (ك) إلى ورود الفكرة في المحاورة (أو المقالة) ولو مرة واحدة، أي بغض النظر عن تكرار مرات ورودها في المحاورة نفسها
** وضع الترتيب على أساس التكرار فقط داخل كل حقبة على حدة

أ - أن ٢٠ مكونا (بنسبة ٣٧,٠٤٪ من مجموع المكونات) تشيع بين متحاورين من فترات تاريخية مختلفة وثقافات متباينة، مما يعني أنها تمثل قاسما مشتركا، وبتفحص هذه المكونات يتضح أن:

- يتعلق بعضها إما بجوانب منطقية مثل: إبطال دعوى الآخر بإثبات نقيضها، وجر المحاور إلى التسليم بحجة معينة، وجعلها مقدمة تلزم عنها نتيجة كان يرفضها، وقلب الحجة، والدخول في دائرة مفرغة، وإما تتعلق بجوانب لغوية كالإصرار على تسمية الأشياء بمسمياتها؛ والتركيز على حرفية المعنى؛ واكتشاف خلط المفاهيم.

- يعكس بعضها الآخر عمليات عقلية عليا مثل: طلب الإيضاح ويتمثل في المطالبة بتطبيق الفكرة على أمثلة عيانية، وذكر أمثلة محسوسة لها، والتوضيح من خلال ذكر تشبيهات أو ذكر أمثلة معارضة لها، والأصالة وتتمثل في ذكر تفسير مختلف للحدث أو الفعل، والتحليل أي تحليل الفكرة إلى عناصرها، والتركيب أي جمع المقدمات في سلسلة متكاملة، والخيال أو إلقاء أسئلة افتراضية وانتزاع موافقة الآخر على إجاباتها.

ب - هناك تباين في شيوع مكونات سلوك المحاجة من فترة تاريخية لأخرى، ويأخذ هذا التباين صورتين هما:

الأولى: أن عدد المكونات التي تشيع بين المتحاورين يتزايد كلما اتجهنا نحو الحداثة، فبينما استخدم المتحاورون في حقبة الفكر اليوناني - مع الإشارة إلى كون المحاورات التي تم تحليلها لا تمثل المرحلة بدقة - ٣١ مكونا (بنسبة ٥٦,٤٪) مقابل ٤٨ مكونا (بنسبة ٧٠,٤ ٪) تشيع في مرحلة الفكر الإسلامي، و٤٣ مكونا (بنسبة ٧٩,٣٪) في مرحلة الفكر الأوروبي المعاصر، و٤٦ مكونا (بنسبة ٨٥,٢٪) في مرحلة الفكر العربي المعاصر. ويعد هذا التزايد مقبولا في ضوء تميز كل من الفكر الإنساني بالتراكمية وتميز الأفراد بالاستفادة من الخبرات السابقة. الثانية: أن هذا التباين لا يقتصر على كم المكونات فقط، بل يشمل نوعيتها أيضا، ففي مرحلة الفكر اليوناني - ونشير مرة أخرى إلى قصور تمثيل المحاورات التي تم تحليلها للمراحل التاريخية مما يعني الحذر عند التعامل مع هذه الاستنتاجات - تحظى بالأولوية مكونات: ادعاء عدم الفهم لاستدراج الآخر إلى توضيحات توقعه في المغالطة، وإعادة صياغة ما تم فهمه، وإبراز خلط المعاني والمفاهيم. أما في مرحلة الفكر الإسلامي فإن ما يحظى بالأولوية هو مكونات: صحة النقل للأمور المروية، والتركيز على حرفية المعنى، وقلب الحجة، وإضافة عنصر جديد للفكرة المطروحة. ويشيع في مرحلة الفكر الأوربي المعاصر مكونات مثل: ذكر تفسير مختلف للحدث، وانتزاع تسليم الآخر بمعنى مفهوم ما، وإضافة عنصر جديد للفكرة المطروحة، وهو ما يعكس التوجه الإبداعي والاستقلالي والمؤكد للذات للثقافة الغربية المعاصرة، في حين يشيع في الفكر العربي المعاصر مكونات: التركيز على حرفية المعنى، والمبالغة البلاغية والمجازية،

ومهاجمة المحاور شخصيا بدلا من تفنيد وجهة نظره، والاستشهاد بأقوال مأثورة أو نص شعري، والتركيز على الأشخاص لا الموضوعات.

ج - باستعراض محتوى المكونات السابقة بغض النظر عن الفترة التاريخية التي تنتمي إليها المحاورات والمقالات نلحظ إمكان تصنيف مكونات سلوك المحاجة إلى فئات يمكن أن تمثل محور فرض تتحقق دراسة عامليه لاحقة من صحته، ومن الفئات التي تنتظم فيها مكونات سلوك المحاجة:

- مكونات تشير إلى قدرات المحاور الإبداعية مثل: الأصالة وتتمثل في تقديم تفسير مختلف للحدث وإضافة عنصر جديد إلى الفكرة المطروحة، ومثل القدرة على التركيب أو جمع المقدمات في سلسلة متكاملة، والقدرة على التحليل أو تحليل الفكرة إلى عناصرها، والقدرة على تقديم توضيح أو توسيع للفكرة من خلال ذكر التشبيهات وذكر الأمثلة المعارضة لها.

- مكونات تشير إلى قدرة الفرد على الإتيان بسلوك مؤكد للذات في موقف المحاورة كانتزاع تسليم الآخر بتحديد معنى مفهوم وإلزامه بما هو محسوس، وانتزاع موافقته على إجابة سؤال افتراضي.

- مكونات تشير إلى إصدار المحاور سلوكا عدوانيا، ومنها: السخرية اللاذعة، وتجاهل المطلوب أو المصادرة عليه، ومهاجمة الآخر شخصيا بدلا من تفنيد وجهة نظره.

وللتحقق من هذا الفرض أجرى طريف شوقي وعبد المنعم شحاته دراسة[٣٩] بأسلوب التحليل العاملي[٤٠] للتوصل إلى أبعاد أكثر دقة وتمثيلا للسلوك الحجاجي في الحياة اليومية بالثقافة المصرية المعاصرة، لذا جمعا بيانات - بواسطة مقياسهما لأبعاد سلوك المحاجة ويتضمن ٩٥ بندا تنتظم في ٢٨ مكونا فرعيا يوضحها الجدول (٢) والبنود التي تقيس كل مكون منها - من ٦١٧ فردا من الطلاب والموظفين من النوعين. وبتحليل هذه المكونات الثمانية والعشرين عامليا توصل الباحثان إلى العوامل الأربعة الرئيسية التي يوضحها الجدول (٣): بفحص محتواه نضع أيدينا على نقاط من شأنها الإسهام في تعميق فهمنا لطوبوغرافيا السلوك الحجاجي ودلالته الثقافية بصورة أفضل وتتمثل هذه النقاط في ما يلي:

أ - تبين أن العامل الأكثر أهمية الذي تنتظم فيه مكونات السلوك الحجاجي ومهاراته الفرعية، والأكثر استخداما وشيوعا لدى أفراد العينة الكلية، وهم من ذوي مستويات التعليم المرتفعة، هو عامل الهيمنة الحجاجية، أو بلغة أخرى التفنيد الهجومي لحجج الطرف الآخر لإفحامه، والذي يعكس ميلا لدى المحاجج إلى تفنيد حجج الطرف الآخر من خلال استخدام أساليب متعددة ذات طابع هجومي عادة وتتمثل في المناقضة، والاستفزاز، والتخويف، والتعجيز، والتشتيت، والاستدراج، وكشف التناقض، مما يعني أن المحاور يركز في المقام الأول على دحض حجج الآخر، والهجوم عليها بدرجة أكبر من الاهتمام بإقناعه بالحجج التي

الجدول (٢): مكونات مقياس أبعاد سلوك المحاجة والبنود التي تمثلها

م	المكون	البنود				
١	الاستشهاد والتوثيق لتقوية الحجة	١	٢٩	٥٧	٨٥	٩٢
٢	تحري الدقة الحجاجية	٢	٣٠	٥٨	٨٦	٩٣
٣	ضبط ومراعاة السياق	٣	٣١	٥٩	-	٩٤
٤	كشف التناقض	٤	٣٢	٦٠	-	-
٥	التشكيك	٥	٣٣	٦١	-	-
٦	الاستدراج	٦	٣٤	٦٢	-	-
٧	الاستفزاز	٧	٣٥	٦٣	٨٧	-
٨	الإرهاب الحجاجي	٨	٣٦	٦٤	-	-
٩	التشتيت	٩	٣٧	٦٥	-	-
١٠	التعمية والمراوغة	١٠	٣٨	٦٦	-	-
١١	التوكيد الحجاجي	١١	٣٩	٦٧	٨٨	-
١٢	توجيه مسار المحاجة	١٢	٤٠	٦٨	-	-
١٣	التأكد من الفهم	١٣	٤١	٦٩	-	-
١٤	الحكمة الحجاجية	١٤	٤٢	٧٠	٨٩	٩٥
١٥	تشريح الحجج وتجزيئها	١٥	٤٣	٧١	-	-
١٦	فحص طبيعة العلاقات بين الظواهر	١٦	٤٤	٧٢	٩٠	-
١٧	ضبط عملية التعميم	١٧	٤٥	٧٣	-	-
١٨	نظام ترتيب وإدارة الحجج	١٨	٤٦	٧٤	-	-
١٩	حصر قوائم الحجج السلبية والإيجابية	١٩	٤٧	٧٥	-	-
٢٠	إعادة هيكلة الموضوع	٢٠	٤٨	٧٦	-	-
٢١	الإبداع الحجاجي	٢١	٤٩	٧٧	٩١	-
٢٢	التمثيل والتشبيه	٢٢	٥٠	٧٨	-	-
٢٣	عقد المقارنات	٢٣	٥١	٧٩	-	-
٢٤	الإنهاك الفكري	٢٤	٥٢	٨٠	-	-
٢٥	القلب والمناقضة (الاستدلال العكسي)	٢٥	٥٣	٨١	-	-
٢٦	الداهنة	٢٦	٥٤	٨٢	-	-
٢٧	التعجيز	٢٧	٥٥	٨٣	-	-
٢٨	إبراز الجوانب الإيجابية	٢٨	٥٦	٨٤	-	-

يطرحها عليه، وهو أسلوب من شأنه إثارة حساسية الطرف الآخر، وإيجاد مناخ يساعد على تحول عملية المحاجة إلى نزاع لفظي، مما يقلل من احتمالات الوصول إلى حل الخلاف بين الطرفين حول المسألة مناط الحوار.

ب - أتى عامل الإقناع باستخدام عمليات الاستدلال المنطقي، والتي تعد من أكثر أنشطة حل المشكلات أهمية بما تتضمنه من عمليات تعميم وتمثيل واستنباط في الدرجة الثانية من الأهمية، وهو ما قد يعني أن الفرد يبدأ أولا بتفنيد حجج الآخر ثم يشرع بعد ذلك في إقناعه بما لديه من حجج، ويستخدم الفرد في ذلك مهارات حجاجية متنوعة تتمثل في فحص العلاقات بين الظواهر، والتي قد تأخذ أشكالا متنوعة منها: التناقض، والتضاد، والتصنيف، والتماثل، والتعدي، بالإضافة إلى ضبط عملية التعميم وتحليل الحجة إلى عناصرها الأولية.

الجدول (٣): عوامل سلوك المحاجة

العامل م	الأول الهيمنة الحجاجية	الثاني الاستدلال الحجاجي	الثالث الاستمالة الحجاجية	الرابع المبادأة الحجاجية
١	الاستفزاز	فحص طبيعة العلاقات بين الظواهر	التمثيل والتشبيه	كشف التناقض
٢	الإرهاب الحجاجي	الحكمة الحجاجية	الاستشهاد والتوثيق	التشكيك
٣	القلب والمناقضة	ضبط عملية التعميم	إبراز الجوانب الإيجابية	توجيه مسار المحاجة
٤	التعمية والمراوغة	التشريح والتجزيء	التأكيد من الفهم	ضبط ومراعاة
٥	التعجيز	التوكيد الحجاجي	عقد المقارنات	السياق
٦	الإنهاك الحجاجي	تحري الدقة	حصر قوائم الحجج	التوكيد الحجاجي
٧	ترتيب إدارة الحجج	عقد المقارنات	السلبية والإيجابية	التأكد من الفهم
٨	الإبداع الحجاجي	ضبط ومراعاة السياق	-	-
٩	إعادة هيكلة الموضوع	-	-	-
١٠	الاستدراج	-	-	-
١١	الدافعة	-	-	-
١٢	التثبيت	-	-	-
١٣	كشف التناقض	-	-	-
١٤	ضبط ومراعاة السياق	-	-	-

وعقد المقارنات بين الظواهر والأحداث، وتوخي الدقة في البيانات المقدمة، وضرب الأمثال، والاستعانة بالأقوال المأثورة، والمضاهاة وعقد المقارنات.

ج - برز عامل الاستمالة الحجاجية، والذي تتمثل أهميته كما يوضح «جرونبك Gronbeck»[31] وزملاؤه في أنه حين يريد الفرد إقناع آخر بشيء ما يجب أن يتضمن كلامه أكثر من المنطق حتى يتولد لدى الآخر الرغبة في التحاور؛ من هنا حرصه على تأكيد الفهم وحصر قوائم الحجج السلبية والإيجابية وإبراز الجوانب الإيجابية لموقف الحوار. ولهذا العامل أهمية نفسية (تعكسها مرتبته بين العوامل والتي تعتمد على درجة استيعابه للتشابه في استخدام مبحوثينا لمكوناته) أقل من سابقيه، مما يجعلنا نفترض أنه لا يستخدم إلا كوسيلة إضافية مساندة لعمليات الإقناع المنطقي لتخفيف حدة الآثار السلبية لعمليات التفنيد الهجومي، وخصوصا لدى الإناث، أي أنه عامل ملطف لعملية المحاجة.

د - أتى عامل المبادأة الحجاجية في ذيل قائمة عوامل المحاجة وقد تشكل من ستة مكونات قوامها كشف التناقض، ويشير إلى قدرة الفرد على اكتشاف تعارض إجابات الطرف الآخر على أسئلة مشابهة في أوقات مختلفة، أو البحث عن وقائع تتعارض مع ما يدعي، أو عدم الاتساق بين ما يفعل وما يقول. وجاء «التشكيك» في المرتبة التالية، ويتضمن التلميح إلى عدم موثوقية المصادر التي ينقل عنها الطرف الآخر بياناته. وإظهار عدم الثقة في صحة الوقائع الشخصية التي يستعين بها لدعم موقفه، وعدم التسليم بسهولة بما يطرحه من مسلمات. يلي ذلك مكون «توجيه مسار المحاجة» ويحوي سلوكيات من قبيل مطالبة الطرف الآخر بعدم الخروج عن الموضوع الأساسي، ومعارضة محاولته الانتقال إلى نقطة جديدة إلا بعد الانتهاء من تلك التي يتحدثون فيها، ووضع أسس معينة يطالبه بالالتزام بها حتى يبدأ الحديث معه. وبعد ذلك جاء «ضبط ومراعاة السياق»، ويشير إلى حرص الفرد على توضيح معالم الموقف وعدم اجتزاء كلام أو وقائع من سياقها حتى لا يحدث تشوه في الفهم. ثم أتى «التوكيد الحجاجي» حيث يسهل على الفرد إخبار الطرف الآخر بما يحويه كلامه من مغالطات، ولا ينساق مع ما يسعى لفرضه عليه من أفكار، ويطالبه بذكر مبررات إقناعه برأي ما، ويرفض الضغوط التي يمارسها عليه لانتزاع موافقته على ما يريد. وأخيرا جاء «التأكد من الفهم» حيث يتضمن سلوكيات قوامها تلخيص ما قاله الفرد، أو ما قاله الآخر في نهاية الحديث، للتأكد من الفهم المشترك، وتوجيه المزيد من الأسئلة وترك فرصة كافية للآخر للإجابة عنها حتى يفهم وجهة نظره بصورة دقيقة. يشير هذا العامل إلى قدرة الفرد على إصدار سلوك مؤكد للذات أثناء التحاجج يتمثل في توجيه مسارها، وضبط سياقها، وعدم التواني في إخبار الطرف الآخر بمظاهر تناقضه وعدم اتساقه إبانها، بل والتشكيك في صحة بعض ما يدعيه، لذا يمكننا تسميته بعامل «المبادأة الحجاجية».

هـ - ظهر تأثير متغير السياق الثقافي جليا في ثنايا نتائج الدراسة، ومن مؤشرات ذلك وجود طابع ثقافي لعمليات المحاجة في الثقافة المصرية المعاصرة جسده أداء أفراد العينة - مع الاعتراف بعدم تمثيلها بصورة دقيقة للمجتمع ككل - قوامه وجود غلبة لسلوكيات التفنيد الهجومي لحجج الطرف الآخر على السلوكيات الرامية لإقناعه أو استمالته لتبني موقفه أوالموافقة على حججه، مما يعني أن عملية المحاجة يغلب عليها الطابع الصراعي، أو يسهل تحولها إلى نزاع في ظل هذه الممارسات.

ولفهم المحاجة كنشاط لفظي اجتماعي يعد مسؤولا عن كفاءة التحاور: نتعرف على العوامل التي تشكله؛ أي تسهم في تحديد مستواه ارتفاعا أو انخفاضا، وتستعرضها الفقرة التالية:

محددات المحاجة:

وتتمثل قيمة معرفة هذه المحددات في إمكان توظيف المتغيرات المرتبطة بارتفاع المحاجة في تصميم برامج لتنميتها؛ وفي المقابل استبعاد أو تقليص العوامل المسؤولة عن انخفاض مهارات المحاجة، ويوضح الشكل (١) هذه المحددات:



الشكل (١): محددات المحاجة

وفيه نجد فئتين من العوامل التي تشكل مستوى مهارات شخص ما الحجاجية: تتعلق احداهما بطرفي المحاجة والأخرى تمثل متغيرات السياق الحضاري الاجتماعي المحيط بهما، وفئتا المحددات هما:

أولا: متغيرات خاصة بطرفي المحاجة:

أ - متغيرات حيوية اجتماعية (ديموجرافية):

١ - النوع: تؤكد الدراسات[٣٢] غياب الفروق بين الذكور والإناث في الاستعداد للمحاجة والمهارات الحجاجية بشكل عام، مما يشير إلى أن لدى أفرادهما عقلية حجاجية واحدة؛ والتفاوت بينهما يكون في مستوى هذه العقلية وطبيعتها؛ كأن يتفوق الذكور في المبادأة والاستدلال العكسي وطرح الأسئلة في حين تتفوق الإناث في الاستمالة الحجاجية والنظرة التفصيلية للأمور والتقدم بحلول توفيقية، وهو تباين يمكن إرجاعه إلى عوامل ارتقائية واجتماعية أخرى.

٢ - **العمر**: تمثل المحاجة مجموعة من المهارات المعرفية المركبة التي يعكس ارتقاؤها تأثيرا للنضج العقلي والانفعالي والاجتماعي، وهي مثلها مثل أي عملية نفسية - اجتماعية تتبلور مهاراتها وتزيد درجة امتلاك الفرد لها كلما تقدم به العمر؛ وذلك إذا توافر التمرين والدربة، فقد كشفت الدراسات[٣٣] أن الراشدين يستخدمون استراتيجيات خطاب متقدمة بشكل أكثر تكرارا واتساقا ومرونة، مقارنة بالمراهقين، وأن المراهقين الذين تلقوا تدريبا على استخدام المحاجة أظهروا ارتقاء في الخطاب الحجاجي يقترب مما يستخدمه الراشدون، وذلك مقارنة بنظرائهم الذين لم يتلقوا هذا التدريب.

٣ - **مستوى تعليم الفرد**: يعد اجتياز الفرد مستويات تعليمية أعلى مؤشرا إلى اكتسابه معارف ومهارات تسهم في تشكيل عقليته وأسلوب تفكيره ونمطه الحجاجي.

ب - عمليات المعرفة والوعي بالمعرفة Cognitive & Metacognitive processes:

في ضوء التسليم بأن المعرفة تسبق السلوك وتسهم في تشكيله، نتوقع أهمية الدور الذي تؤديه عمليات المعرفة والوعي بالمعرفة في تحديد طبيعة المهارات الحجاجية، نعرض في ما يلي لدور أبرز هذه العمليات كمحدد للمحاجة:

أولا: التفكير الناقد Critical thinking: وهو مهارة عقلية عليا تشمل تقييم الحجج أو القدرة على إصدار حكم تم التوصل إليه ذاتيا كنتيجة للتفسير والتحليل والتقويم والاستنتاج مثلما هو امتداد لاعتبارات سياقية أو منهجية أو مفهومية أو خاصة بالدليل[٣٤]، فالتفكير الناقد يتضمن مهارات معرفية نوعية كالتصنيف وترميز الدلالة وتوضيح المعنى وفحص الأفكار وتحليل الحجج وتقويمها وإقرار النتائج وتبرير الإجراءات والاستدلال بالمماثلة واستخدام المتشابهات والتنبؤ، ليس هذا فقط، بل يعكس التفكير الناقد التكامل حال كونه يتضمن ثلاثة جوانب:

١ - عمليات معرفية كالمشار إليها سلفا.

٢ - استعداد دافعي يشكل اهتمام الفرد بإثارة الأسئلة وجمع الأدلة والتفكير بسرعة وبوضوح وبجدية مغتنما الفرصة لذلك مع عناية بتركيز الانتباه والمثابرة والمرونة وتفهم آراء الآخرين.

٣ - اعتياد ممارسة هذه العمليات بما يجعل الفرد حساسا لتوظيف قدراته فلا يسأل الأسئلة الخاطئة.

٤ - فلسفة حياة أي نسق معتقدات يدعم اعتياد ممارسة التفكير الناقد[٣٥]، فمهارات التفكير الناقد تمكن الفرد من ممارسة المحاجة بشكل فعال، خصوصا شقها التفنيدي أي دحض حجج الطرف الآخر وكشف مغالطاتها.

ثانيا: العزو Attribution: وهو عملية معرفية يقوم من خلالها الفرد بتفسير سلوك شخص آخر - أو التنبؤ به - إما استنادا إلى خصال شخصيته وأهدافه وإما استنادا إلى

ملابسات الموقف. وفهم دور هذه العملية في المحاجة يزيد فعاليتها: فقد تكون الحجة المضادة قائمة على خطأ عزوي: يؤدي كشفه إلى هدمها. مثال ذلك تفسير فرد ما حادثا مروريا شاهده بأن السائق كان مخمورا: في حين قد يكون السبب الحقيقي عطلا مفاجئا في محرك السيارة. وهناك عوامل معينة تجعل الفرد يرجح سببا على آخر، وتعد هذه العوامل قواعد منطقية كما يرى «هارولد كيللي» H.Kelly، وهي:

١ - التلازم أو التغير المصاحب Co-variation أي ربط التغير في الحدث أ (المرور في الشارع) بالتنوع في الحدث ب (ظروف سائق بعينه). وذلك لأننا ندركهما وكأنما يحدثان معا، فندرك أن أحدهما سبب للآخر.

٢ - التغاضي Discounting أي إبراز أحد عناصر الموقف والتغاضي عن البقية، ونفعل ذلك على الرغم من أن ظهور حدث ما هو نتيجة تضافر عدة أسباب معا: فحادث السيارة في المثال السابق قد يكون سببه إما سير السيارة بسرعة شديدة، أو سيرها في الاتجاه الخاطئ، أو سيرها ليلا مما يشير إلى صعوبة الرؤية، أو أن السائق لم يعتد المنطقة، أو كان يقود السيارة وهو تحت تأثير مخدر، أو... الخ. ونحن نتغاضى عن هذه الأسباب جميعها ونعزو الحادث إلى سبب آخر.

٣ - تزايد الخسائر Augmentation أي ما يترتب على فعل الشخص من مغارم وتكلفة نتيجة تباينه مع ما يعتقد القائم بالعزو أنه شائع بين أفراد مجتمعهما.

٤ - الاتساق Consistency في السلوك، فإذا اتسقت أفعال الفرد عبر المواقف ثم عزوها غالبا إلى أسباب داخلية، وإذا لم تتسق ثم إرجاعها إلى أسباب خارجية.

٥ - التمايز Distinctiveness فكلما تمايزت أفعال الفرد كانت الأسباب وراءها خارجية، وكلما قل تمايزها كانت الأسباب داخلية.

٦ - الإجماع Consensus فإذا جاء فعل الفرد مشابها لأفعال الآخرين عُزي إلى أسباب خارجية، وإذا اختلف معها، فإننا نرجعه إلى أسباب داخلية.

وفي أغلب الأحيان، تكون استدلالاتنا خاطئة، وتكون الأحكام التي بنيت عليها من ثم غير صحيحة، ومصادر الخطأ في استدلالاتنا هي:

١ - التسرع: فنحن نتسرع في إصدار الأحكام على سلوك الأفراد، ونتعجّل في تفسيره، من دون إتاحة الوقت الكافي للإحاطة بمقدمات هذا السلوك ونتائجه، حيث يكون الفرد - موضع الحكم - أكثر وعيا بهما، أي المقدمات والنتائج، ويأتي سلوكه متسقا معهما، فمثلا لو شاهدت شخصا يسب آخر، فإنك تصفه بالعدوانية، بينما هو يرى نفسه غير ذلك وأن سلوكه نتيجة تلقائية لمحاولة الآخر مهاجمته.

٢ - البعد عن استخدام القواعد المنطقية، والاكتفاء فقط بملاحظة التلازم أو التعاقب في ظهور الأحداث، من دون إجراء مقارنة بينها، والتدقيق في مقدمات كل منها، للتحقق إما من

مدى التماثل بينها بما يجعلها جميعا أسبابا لحدث لم يقع بعد أو لم نلحظه، وإما لإثبات كون أحدها نتيجة للبقية. وإذا حدث هذا التدقيق، فيتم غالبا من دون مراعاة توافر شروط القياس التي تضمن صحة الاستدلال.

٢ - خصال الشخصية، فعلى سبيل المثال يؤدي ميل الفرد للتساهل إلى التسرع في القول بعلاقة سببية بين الأحداث. وكذلك أيضا فإن ميله لجعل الأشياء الأكثر بروزا في مجاله الإدراكي تحتل بؤره الانتباه لديه؛ هذا الميل يجعله أقل إحاطة مما يؤدي به إلى التغاضي. مثال آخر لتأثير خصال الشخصية في الاستدلال هو ما تؤكده نتائج البحوث من ميل مشاهدي الجرائم إلى إلقاء اللوم على ضحاياها، فالضحية هو السبب - من وجهة نظرهم - في ما حدث له وليس الجاني، حتى وإن كشف السياق غير ذلك[٣٦]. فكثير من المغالطات مصدرها عزو متحيز مرجعه الاعتماد على قواعد مرتجلة أو متاحة، ومعرفة مصادر سوء العزو هذه تمكن المحاور من كشف مغالطات الطرف الآخر للحوار.

ثالثا: المعتقدات المعرفية: لأن المحاجة تستثير لدى القائم بها - أو المشارك فيها - معالجة أعمق لمحتوى الحجج المتداولة، ولأن هذه المعالجة تتطلب منهما استعدادا للاستغراق Involving في صنع الحجة أو تلقيها ومعالجتها، فإن عددا من المتغيرات يسهم في تحديد هذا الاستعداد؛ ومنها المعتقدات المعرفية Epistemological التي تحدد كون الفرد مستعدا للإقدام على التحاجي أو تجنبه؛ والمثابرة فيه إذا أقدم؛ وتعديل تفكيره في أثناء ممارستها وتغيير موقفه حتى يمكنه انتزاع معلومات تدعم وجهة نظره.

وتكشف إحدى الدراسات[٣٧] أن تأثير المعتقدات المعرفية يأخذ مسارين وفقا لإدراك الفرد؛ فإذا أدرك فائدة المحاجة تسهم هذه المعتقدات في زيادة الإقدام عليها؛ أما إذا رغب في الحفاظ على علاقاته الحميمة بمشاركيه المواقف الحجاجية فإن معتقداته تزيد ميله لتجنب المحاجة معهم. ويقصد بالمعتقدات المعرفية مجموعة أفكار الفرد عن كل من:

١ - طبيعة المعرفة مثل الاعتقاد في كونها يقينية أم ظنية؛ يمكن التحكم في اكتسابها أم لا؛ قابلة للتنظيم أم لا؛... إلخ.

٢ - طبيعة التفكير؛ ومدى إمكان اتخاذ قرارات بشأن مساره.

٣ - مدى الاستغراق؛ مثل إمكانية النظر للقضية - موضوع التفكير - من زوايا عدة وإمكان توجيه أسئلة للسلطة (المدرس مثلا).

وكان «بري» Perry - عندما سأل طلابه عن اتجاهاتهم نحو المعلم سنة ١٩٦٨ - أول من تناول هذا النوع من المعتقدات[٣٨].

رابعا: المراقبة الذاتية self-monitoring: ويعد «شنايدر» Snyder أول من قدم هذا المفهوم في سبعينيات القرن العشرين وعَرفه بأنه قدرة الفرد على ملاحظة تصرفاته والتحكم فيها

في ضوء ردود أفعال الآخرين بما يتوافق ومتطلبات الموقف. ويرى الباحثون أن المراقبة الذاتية تتضمن عدة أبعاد هي:

١ - الانتباه إلى معلومات مستمدة من مقارنات اجتماعية .

٢ - الاهتمام بتقديم الذات في المواقف الاجتماعية، والقدرة على التحكم فيه .

٣ - ملاءمة السلوك الاجتماعي للبيئة المحيطة .

٤ - تغيير السلوك الاجتماعي استجابة للموقف .

٥ - القدرة على ملاحظة الذات ومقارنة حالتها بما يجب أن تكون عليه والوقوف على مدى التعارض بين الحالتين والسعي إلى التقريب بينهما[٣٩].

وفي دراسة صور فيها «دابس» Dabbs وآخرون [٤٠] المحادثات المتبادلة بين أزواج من النوع نفسه: إما مماثلين في مستوى المراقبة الذاتية وإما مختلفين، ثم بوساطة الحاسب الآلي عُزلت النظرات عن محتوى المحادثة. وتكشف المقارنة عن أن مرتفع المراقبة متحدث سلس إذا كان الكلام منتظم الإيقاع، وفي حالات التوقف أو الإزعاج، بينما منخفض المراقبة أكثر استجابة لتغيير نمط الحديث إذا كان شريكه مرتفع المراقبة الذي بدوره يكون أقل استجابة لهذا التغيير. ولا توجد فروق بينهما في أنماط النظرات المتبادلة. وأحد التفسيرات المطروحة لهذا الفارق بين مرتفعي المراقبة الذاتية ومنخفضيها هو كون مرتفع المراقبة يميل إلى أداء دور أكثر منه تقديم صورة فعلية عن نفسه: موظفا هاديات يتلقاها من الآخرين كمرشد يوضح له ما ينبغي عند تقديم نفسه، ويتمثل هذا التوظيف في تنظيم التقديم والتحكم فيه. في حين يستمد منخفض المراقبة هذا التنظيم وذلك التحكم من حالاته الانفعالية ومعتقداته. وتعكس أنماطهما في التحدث هذا التباين، حتى أن بعض الباحثين يعتقد في صعوبة تفاعلهما معا أثناء جلسة غير مخطط لها، بينما يرى آخرون سهولة ذلك انطلاقا من مبدأ «التوافق» الحاكم لعمليات تكوين علاقة متبادلة واستمرارها بين طرفين؛ حيث يتحقق إحساس كليهما بالرضا عن هذه العلاقة إذا كان أحدهما مرتفع الدرجة في جانب ما وكان الآخر منخفضا عليه[٤١].

ج - متغيرات مزاجية:

١ - **الدافعية للتحاجج:** تشير الدافعية بوجه عام إلى عملية نفسية تستثير السلوك وتعبئ الطاقة لتوجهه نحو هدف معين وتحافظ على وجهته هذه بما يضمن استمراريته؛ ومن بين أنواعها ما يسمى «دوافع الكفاءة» التي تحث الفرد على القيام بأنشطة يعبر بها عن قدرته على التعامل الكفء مع البيئة؛ وعلى رأس دوافع الكفاءة «دافع الإنجاز» الذي قدمه «موراي» Murray مشيرا به إلى «ميل ثابت نسبيا لديه يحدد مدى سعيه لتحقيق الامتياز ببذل أقصى جهد لإتمام شيء صعب يثير التحدي وعمله بسرعة وإتقان والاستمتاع بالمنافسة والإصرار على تحقيق الفوز والتغلب على الملل والتعب بمحاولة التحكم في الأفكار وحسن تناولها وتنظيم

الأشياء والأشخاص ..الخ للوصول إلى معيار مرتفع يتفوق به الفرد على نفسه ويتجاوز الآخرين». والدافعية بهذا المعنى ترادف «الهمة» التي يعرفها الغزالي (ت: ١١٣٩م) بأنها «إجماع القلب واستجماع العزم والتصميم لنيل مقصد معين بالتوجه إليه دون غيره، وإذا كان هذا المقصد علما ارتبط بالاجتهاد الذي هو استفراغ الوسع في تحصيل أمر مستلزم الكلفة والمشقة»، أو كما قال ابن الجوزي (ت: ١٢٣١م) «أن ينتهي بالنفس كمالها الممكن في العلم والعمل»[٤٢]. وتؤثر دوافع الفرد في استدلالاته والتي تؤثر بدورها في مهاراته الحجاجية من خلال مصدرين:

- **اولهما**: رغبة الفرد في أن يكون دقيقا: تدفعه إلى بذل مجهود ذهني مضن عند فحص المعلومات المتعلقة بالقضية موضوع التحاجج؛ ويعالجها مستخدما قواعد أكثر تعقيدا في الاستدلال منها. وتؤيد نتائج بحوث عدة هذه النقطة. فحينما أبلغ مبحوثو أحد هذه البحوث أن المهمة المكلفين بها حيوية جدا زادت دافعيتهم لأن يكونوا أكثر دقة واستغرقوا وقتا أطول في أدائها مستخدمين استراتيجيات معرفية أكثر تعقيدا.

- **ثانيهما**: ولأن الأهداف أهم مكون في الدافعية؛ فإن الفرد الذي يسعى إلى تحقيق هدف ما يعيد صياغة المعلومات بطريقة إبداعية تمكنه من التوصل إلى خلاصات تدعم معتقدات عن نجاحه في تحقيق الهدف[٤٣].

- **ثالثهما**: الميل إلى توكيد الذات: ويشير إلى مجموعة مهارات سلوكية - لفظية كانت أو غير لفظية - نوعية موقفية متعلمة ذات فعالية نسبية تتضمن تعبير الفرد عن مشاعره الإيجابية (كالتقدير) - أو السلبية (كالاحتجاج) - بصورة ملائمة، ومقاومة ضغوط الآخرين لإجباره على فعل ما لا يرغبه والكف عما يرغبه، والمبادرة ببدء تفاعلات اجتماعية والاستمرار فيها أو إنهائها، والدفاع عن حقوقه من دون انتهاك لحقوق الآخرين[٤٤]. وطبقا لهذا المعنى: يتطلب بدء المحاجة ومواصلتها درجة مرتفعة من التوكيد تمكن الفرد من مواجهة الآخر والتعبير عن الاختلاف معه في الرأي وعدم الانصياع لما يقول وطلب تفسيرات منه وطرح أسئلة عليه، وهي مهارات يصعب على منخفض التوكيد ممارستها؛ وبالتالي لا يستطيع المشاركة في عمليات حجاجية.

ثانيا: متغيرات السياق الثقافي الاجتماعي المحيط بالمتحاجين:

إذ يحدد هذا السياق درجة تقبل الأفراد لخلافاتهم واعتيادهم التعامل معها بالحوار، ويطلق على درجة التقبل هذه الاتجاهات نحو المحاجة: وهي التي تحدد ممارسة الأفراد للمحاجة: إذ تسلم كل تعريفات الاتجاه بأنه محدد للسلوك[٤٥]، ويلخص الاتجاه نحو المحاجة طبيعة تصورات الفرد ومعتقداته - إيجابية كانت أم سلبية - حول المحاجة ومشاعره نحوها، وكلاهما تحدد مدى إقدامه - أو إحجامه - للمشاركة في عمليات حجاجية[٤٦]. فالذي ينظر إلى المحاجة كوسيلة لحل الصراع، معتقدا أن الآخرين يحترمون المحاج لأنه موضوعي

متحضر؛ سيميل هذا الفرد إلى المشاركة في الأنشطة الحجاجية. بينما من يعتقد أنها نوع من السفسطة أو وسيلة للسيطرة على الآخرين؛ وأن المحاج متصلب ومماطل، فإن هذا الفرد سيرفض المحاجة ويحجم عن مخالطة المتحاجين.

وما ينطبق على الفرد يطلق على الثقافة ككل، حيث توجد علاقة طردية بين تحضر الثقافة واتجاهها نحو المحاجة؛ ومن ثم شيوعها بين أفراد هذه الثقافة كشيوع المحاورات في الثقافة اليونانية وعلم الجدل في الثقافة الإسلامية ونظام المحلفين والمناظرات الانتخابية في الثقافة الغربية المعاصرة. وقد تتبنى الثقافة اتجاها سلبيا نحو المحاجة فتدفع أفرادها إلى المجاراة ورفض المحاجة. والوعي بهذه النقطة مهم؛ فقد كشفت دراسة[٤٤] عن أن الذين لديهم وعي بالمعايير العامة للمحاجة أكثر قدرة على ممارسة الاستدلال الدقيق مقارنة بالأقل وعيا. ويعكس وعي الفرد بمعايير المحاجة مدى ألفته بها وممارسته لها.

مصدر آخر لإسهام عوامل السياق الحضاري الاجتماعي في تشكيل مهارات المحاجة لدى أفراده، يتمثل في كون هذه العوامل تؤثر في البنية التحتية للمحاجة أي عمليات: الانتباه والترميز والذاكرة والاستدلال والحكم، إذ تتأثر هذه العمليات وبشدة بافتراضاتنا عن سياق المعلومة التي نتلقاها أو نتذكرها أو نستنتج منها معلومة أخرى. حيث يرى الفلاسفة المحدثون أن قدرة الفرد على استنتاج معلومة مما يسمعه من اللغة الدارجة تتشكل من خلال طبيعة التفاعل الاجتماعي في موقف المحادثة: التي تحدد:

١ - أيا من مفردات هذه المحادثة يجذب الانتباه.

٢ - الذكريات التي تنشط بسماعها.

٣ - الاستنتاجات المستخلصة منهما.

وللتحقق من ذلك حلل كلام أي متحادثين؛ ستجد أحدهما يقدم إجابتين مختلفتين للسؤال نفسه (فمثلا ستختلف إجابة الفرد عن سؤال: كيف الأولاد؟ وفقا لإدراكه معنى «أولاد»: هل الزوجة فقط أم الأسرة ككل أم الأبناء فعلا) في ضوء إدراك معنى لفظ بعينه تبعا لتنشيط تمثيل عقلي معين للفظ في سياقاته المختلفة مما يؤدي إلى تحيز مصدره عمليات ذاكرة استرجاعية[٤٥] Retrieval. فسياق المحادثة (بجوانبه اللغوية والرمزية) يحدد الفهم - أو سوء الفهم - المتبادل الناتج عن كل من: نجاح أو فشل ترميز الرسائل المتبادلة - واتباع سيناريوهات Scriptsمستمدة من خبرات اتصالية سابقة. وتمارس عوامل السياق تأثيرها في البنية التحتية للمحاجة وفي وعي الأفراد بمعاييرها العامة من خلال:

١ - معدل التعرض للمحاجة: وتؤدي الأسرة الدور المركزي فيه؛ حيث هناك علاقة واضحة بين الخبرات المبكرة داخل الأسرة وارتقاء مهارات إدارة الصراع؛ إلا أنها لم تختبر إمبريقيا (بوساطة بحوث واقعية) بعد. وتكشف دراسة «هرر، دن» Herrer&Dunn ذلك[٤٦] -

من خلال ملاحظة تفاعل عينة أطفال مع أمهاتهم وإخوتهم الأكبر لمدة ٢٣ شهرا؛ ثم ملاحظة تفاعلهم مع أصدقائهم لمدة ٧٢ شهرا - فاستخدام الأم أو الأخ محاجة تضع في حسبانها حاجات الطفل ارتبط إيجابيا باستخدام الطفل لاحقا حجة بنائية لحل الصراع مع أصدقائه، بينما أدى استخدام الأم أو الأخ محاجة تركز على حاجاتهما إلى إحجام الطفل لاحقا عن المحاجة. وينبئ استخدام الأم المحاجة مع طفلها بإدارة لاحقة من قبله للصراع مع تفهم انفعالي وطلاقة لفظية، مما يؤكد أن تعرض الفرد لعمليات حجاجية داخل الأسرة - أو المدرسة أو مجتمعه المحلي أو... إلخ - يجعله يألفها ويتقبلها ويعتادها ويصقل مهاراته الحجاجية من خلال التعلم بالاقتداء.

٢ - طبيعة العائد الذي يتلقاه الفرد أو يدركه: ولهذا العائد مصدران: أحدهما نتاج مشاركة آخرين في أنشطة حجاجية: فإذا انتهت هذه المشاركة بتغيير مواقفهم وتقديرهم له لذلك؛ أي نتاج إيجابي يدعم كون المحاجة وسيلة فعالة للتعامل، ومن ثم يزيد إقدامه عليها. أما إذا غضبوا منه ووصفوه بالسفسطة أو السعي إلى السيطرة؛ يحجم الفرد عن المشاركة لاحقا. على أن نتاج محاولة الانخراط في أنشطة حجاجية قد يشجع الفرد وقد يثبطه وفقا لقانون الأثر في التعلم. والمصدر الثاني لعائد المشاركة يكون من خلال ما يدركه الفرد لدى الآخرين تلقوه، أي تعلم بالعبرة.

هذه بعض محددات المحاجة التي يؤدي فهمها إلى الاستفادة منها - إما بتعظيم أثر العوامل الميسرة، وإما بإبعاد أو تقليل تأثير العوامل المعوقة، وإما (وهذا أفضل) تكامل المسارين: التعظيم والإبعاد - عند تنمية مهارات المحاجة، وهو ما توضحه الفقرة الثانية.

تنمية المحاجة

وتعد معرفة مراحل المحاجة، والمهارات التي يتطلبها النجاح في كل مرحلة منها: الخطوة الأولى في هذه التنمية، ويوضح الشكل (٢) هذه المراحل.

ومنه تتبين أن استمرار المحاجة يقتضي إظهار طرفها الثاني رفضا لدعوى الطرف الأول. لهذا الرفض مستويات: - طلب دليل إضافي - استدراج الطرف الأول لدعوى بديلة - هدم الأساس المنطقي الذي أقام عليه الطرف الأول دعواه - محاولة الطرف الأول تقديم حجج جديدة تدعم وجهة نظره. ويعد هذا التقديم شرط استمرارية المحاجة، والتي هي في مستواها العام تتكون من أفكار مؤيدة Proponents أو معارضة Opponents تتبادلان المواقع بين الطرفين أثناء عمليات التحاجج: التي تتطور عندما يقدم أحدهما حديثا تفنيديا يتمثل في سلسلة برهنة تكشف زيف فكرة الآخر أو تعيد بناءها وصولا إلى قرار بشأنها يمهد لإنهاء المحاجة. والمحاجة في مستواها النوعي هي تحليل بنية حجة نوعية في ضوء ثلاث خصائص:



الشكل (٢): مراحل المحاجة

١ - ترسيخ الدعوى من خلال إيجاد محك للحكم على الأدلة الداعمة لها.

٢ - تنظيم هذه الأدلة.

٣ - تلخيص موقف المحاجة لإبراز تفوق الدعوى على وجهة النظر المضادة[٥٠].

وحتى تتسم محاولات تنمية المحاجة بالفعالية يجب أن ترتكز على المحاور التالية:

أولا: المبادئ الحاكمة لعمليات التنمية، وتشمل كلا من:

١ - ضرورة التمييز بين المحاجة وكل من السفسطة والعدوان: حتى يكون واضحا لدى القائمين بعملية التنمية طبيعة المهارات الحجاجية التي سيتم التعامل معها. ويتمثل الفارق الرئيس بين المحاجة والسفسطة في كون: هدف الأولى: كشف الحقيقة اعتمادا على مبادئ المنطق والاستدلال لتفنيد الحجج التي يطرحها الطرف الآخر وإقناعه بما يعتقد الطرف الأول

بصحته: فالمحاجة هي فن إعطاء أسباب مقنعة لاعتقادنا بصحة أشياء معينة، وهذا الفن يمارسه البشر منذ تاريخ طويل؛ الا أن دراسته بشكل منهجي أمر حديث نسبيا؛ فقد بدئت الدراسة العلمية للمحاجة على يد الفيلسوف «ستيفن تولمين» S. Toulmin عام ١٩٥٧ . في حين تهدف الثانية: - أي السفسطة - إلى تفنيد حجج الآخر اعتمادا على مغالطات منطقية واستدلالات زائفة مع علم القائم بها أن الحق ليس معه وأنه يدافع عن باطل.

كما يتمثل الفارق بين المحاجة والعدوان في كون الانتقاد موجها في المحاجة إلى أفكار الفرد وأفعاله؛ بينما يتركز الانتقاد في حال العدوان على الشخص نفسه. وأهمية أن يعي الفرد هذا الفارق هي أن استجابة الطرف الآخر - شرط بدء المحاجة واستمرارها - يحددها إدراكه أن الانتقاد إما موجه إلى شخصه فيقرر الدفاع عن نفسه بما في ذلك المبادرة بالهجوم، أم إلى فكره فيعيد النظر فيه.

٢ - تحديد بيان المهارات الحجاجية لكل متدرب وذلك بقياسها؛ ويحقق هذا القياس فائدتين: - تتمثل الأولى في تقدير مستوى هذه المهارات لديه قبل بدء التدريب؛ وتحديد أيها في حاجة إلى التنمية. والفائدة الثانية هي أن هذا المستوى يعد أساسا لمقارنة لاحقة (بقياس المهارات بعد التدريب) لمعرفة مدى التحسن الذي تحقق نتيجة التدريب.

٣ - الاسترشاد بالمبادئ النفسية عند صياغة البرنامج التدريبي؛ خصوصا أن التدريب هو تعلم منظم ومحدد ومبرمج لإكساب المتدرب عادات واتجاهات ومهارات وقدرات، أو رفع كفاءته في أي منها؛ مما يعني تطبيق مبادئ التعلم على موقف التدريب، ومن هذه المبادئ:

أ - أن يعي القائم بالتدريب ظاهرة «الفروق الفردية»، وهي ظاهرة عامة :إذ يتفاوت الأفراد في ما لديهم من قدرة أو وسع أو خصلة... إلخ. وهذا التفاوت يجعل بعضهم أكثر استجابة للتدريب مقارنة بالبعض الآخر.

ب - ووعي المدرب بالنقطة السابقة يجعله يحسن توظيفها في إثارة رغبة المتدربين لتلقي برنامج تدريبي، فلكل فرد دوافعه الخاصة التي يتوقع إشباعها من خلال انتظامه في برنامج ما؛ والبرنامج التدريبي الذي يضع في حسبانه هذه الدوافع ويعمل على إثارتها ويرسم الطريق لإشباعها يكون برنامجا ناجحا.

ج - إذ يعد هذا الإشباع تدعيما، وحددت البحوث النفسية الشروط الواجب اتباعها لحسن توظيف مبدأ الدعم في اكتساب الخبرة(عند اختيار نوع المدعم وتوقيت تقديمه)، ومراعاة المدرب هذه الشروط تزيد فرص نجاح برنامجه.

د - كما يمكن الاستفادة من مبادئ التعلم مثل: - الممارسة النشطة للمتدرب - مدى هذه الممارسة: كلية أو جزئية - المدى الزمني للتدريب: مستمر أم على فترات متقطعة - شمولية التدريب: أي يشمل

كل جوانب المحاجة أم يركز على بعض جوانبها الأساسية معتمدا على مبدأ «انتقال الأثر» لتحقيق تقدم في باقي الجوانب - عدد مرات التعرض للبرنامج التدريبي أي التكرار ... وهكذا.

٤ - تحديد كيفية تقويم تلقي البرنامج التدريبي ومصير هذا التقويم، أي ماذا سيحدث لمن اجتاز البرنامج، وكذلك لمن فشل في هذا الاجتياز؟ إن وضوح الآثار الناتجة عن تلقي البرنامج أمر مهم لنجاحه.

ثانيا: الأهداف العامة لبرامج تنمية المهارات الحجاجية وتتمثل في:

١ - بناء اتجاه إيجابي نحو المحاجة كوسيلة ناجحة وآمنة لحل الصراع، ويتحقق هذا البناء من خلال تقديم جرعة معرفية حول قواعد المحاجة الفعالة وأساليبها، يحقق هذا التقديم فائدتين:

- الأولى منهما أنه يشكل بنية تحتية لإثارة رغبة الفرد في تنمية مهاراته الحجاجية التي يرى أنها في حاجة إلى التنمية، وتهيئه للإقدام على هذه التنمية سواء بالالتحاق ببرامجها النظامية أو بمحاولة تنفيذها ذاتيا، وييسر - أي بناء الاتجاه - اكتساب الفرد المهارات التي تركز على تنميتها البرامج النظامية - أو الذاتية - التي التحق بها.

- أما الفائدة الثانية لتقديم جرعة معرفية حول المحاجة فهي أن هذا التقديم يعرف الفرد بالممارسات الحكيمة للمحاجة، مما يجعله يحسن تقدير متى يدخل كطرف في محاجة ومتى يحجم، وإذا دخل متى يبدأ ومتى يتوقف.

٢ - زيادة فعالية مهارات المتدرب الحجاجية من خلال أحد مسارين أو كليهما معا، أي ب: تعظيم ما يجنيه من فوائد نتيجة الاستخدام الأمثل لمهارات حجاجية مرتفعة المستوى لديه - تقليص ما ينتج عن تدني مستوى مهارات أخرى - أو سوء استخدام مهاراته المرتفعة.

ثالثا: أساليب تنمية المحاجة وبعضها نظامي وبعضها ذاتي:

أ - من أمثلة أساليب التنمية النظامية:

١ - **الأسرة كوسيط لاكتساب المحاجة:** تلعب الأسرة - كمؤسسة اجتماعية مهمتها نقل ثقافة المجتمع ومعاييره للسلوك - دورا أساسيا في اعتياد الطفل ممارسة الاقناع بما يجعله أكثر ثقة في نجاحه إذا حاول؛ وأكثر إقداما على هذه المحاولة، كما ترسخ لديه اتجاهات إيجابية نحو المحاجة تحثه على ممارستها.

٢ - **الاستعانة بالمدرسة كسياق لتعلم المحاجة:** من بين الأدوار المتعددة التي تلعبها المدرسة هي التفاعل الحجاجي وتدريب التفاوض واكتساب مهارات التفكير الناقد، التي أهم محدداته اعتياد ممارسة النقد، فقد يفشل الطلاب، ليس لانخفاض مهاراتهم في التفكير الناقد، ولكن لضعف قدرتهم على استثمارها في المواقف الحياتية المختلفة؛ يظهر هذا عندما يسألون الأسئلة الخاطئة؛ فهذه الأسئلة لا تدل على انخفاض حظوظهم من المهارات بقدر ما تشير إلى فشل توظيفها في تحديد مصادر الغموض في ما يتلقونه من أرقام وألفاظ، أو في اكتشاف

منطق التفكير. ولكي يتعلم الفرد توظيف قدراته عليه اعتياد التفكير الناقد، بأن يتدرب على التحليل والمقارنة والتوقع. ويحتاج هذا التدريب إلى دعم يعززه، وهذا الدعم مصدره المعتقدات السائدة أو المناخ الحضاري الاجتماعي الذي يعيش فيه الفرد[51].

ويشكل الفصل المدرسي جزءا من هذا المناخ الداعم - أو المثبط - للمحاجة، إذ يلعب كل من المدرس والمقرر الدراسي والأنشطة اللاصفية دورا أساسيا في تدريب الطلاب على ممارسة التفكير الناقد ومهارات المحاجة. فللمدرس دور حافز لطلابه: سواء كقدوة يتعلمون من ممارساته الحجاجية، أو لكونه يمد الطلاب بحجج مساندة لأفكارهم. وقد حلل «إرنا Erna»[52] ممارسات المدرس الحجاجية في الفصل: فوجدوا ضرورة لاستبصاره بـ:

١ - إن اشراك تلاميذه في مناقشة المفاهيم الجديدة وأدوات التحقق منها يرسخ قدرتهم على المحاجة ويزيد إنتاجية الحجج لديهم.

٢ - إن نجاحه في ذلك يتطلب امتلاكه فهما أعمق لكل من: ارتقاء عمليات تكوين المفهوم لدى تلاميذه وترجمة الأنشطة الدراسية لها. كذلك يمكن توظيف المقررات الدراسية في ذلك من خلال الاستعانة بمحتواها في تغيير دلالة المفاهيم: كما في دراسة[53] تكشف فعالية استراتيجية تغيير فهم الطلاب المفاهيم من خلال تقدير (فحص) المسائل العلمية أي قضايا وتفسيراتها أي حجج ومقارنة هذه التقديرات. وقد ثبتت كفاءة الذين تدربوا بهذه الكيفية، كما ثبتت أن كفاءتها تزيد في حال اتساقها مع طرق تدريس أخرى، مثل إجراء التجارب والتوليد الذاتي للحجج أي التفسيرات. كما يمكن تضمين الأنشطة اللاصفية برامج نوعية، متخصصة لتنمية المحاجة لدى الطلاب، من خلال التركيز على مهارة نوعية، كالاستدلال أو التفكير الناقد... وما شابههما: تتم وفق تصورات وإجراءات مقننة (موحدة) تستهدف تدريب عينات محدودة من الطلاب (ممن يعانون ضعفا في مهارات حجاجية نوعية) لمدة قصيرة (ثلاثة أسابيع في المتوسط بمعدل جلستين أسبوعيا، تستغرق كل منها ما بين ساعة ونصف إلى ساعتين) بإشراف مدرب متخصص يبدأ بتقديم نبذة عن طبيعة المحاجة ومكوناتها ومحدداتها، وأسس المحاجة الفعالة وطرق تنميتها: ثم يدير مباريات حجاجية بين فريقين من المتدربين، أحدهما مؤيد لموضوع خلافي والآخر معارض؛ لتعريفهما بقواعد بناء الحجج أو كشف المغالطات؛ ويكلفهما بواجبات منزلية ومتابعتها مع بدء الجلسة التالية. وهناك أمثلة عديدة لهذه النوعية من البرامج أحدها «برنامج النسق الاستكشافي» Innovational system[54]، وقد استُخدم لتدريب تلاميذ الصف الأول الإعدادي بهدف تنمية قدرتهم على توليد الحجج واستخدامها بفعالية.

٣ - الاستعانة بتقنيات المعلومات في تنمية المحاجة: وذلك بواسطة برامج صممت لاستخدام الحاسب الآلي في تعلم الحجاج وتوسيعه بهدف تحسين فهم الطلاب لآليات المحاجة وتعميق مساحة الحوار بينهم، من هذه البرامج:

- برنامج ALEX لاكتساب مهارات صنع الحجة من خلال اختيار جمل متوازية وإكمالها. ويقوم الحاسب بتمثيلها بصريا (أي ترجمتها إلى صور مرئية) وتقويم نوعيتها وتقديم النصح للمستخدم حتى ينتج حجج أكثر كفاءة[55]. وتكشف عدة بحوث عن إمكان استخدام وسيلة «الدردشة» (chat) لترسيخ مقدرة استخدام الحوار والكتابة التحليلية بما يزيد كفاءة المحاجة[56]. مثال آخر هو برنامج CATO، الذي أعده خبراء قانون بمشاركة باحثي الذكاء الاصطناعي، اعتمادا على نماذج خطية (حسابية) لحجج اكتسبها المحلفون في أثناء مناقشاتهم قضايا عرضت عليهم؛ وذلك بـ:

- تنظيم حجج متعددة استخدمت في أثناء مناقشة تلك القضايا.
- استنتاج الفروق بين تلك القضايا لتوليد حجج جديدة.
- مماثلة الموقف الراهن مع إحدى هذه القضايا لتقدير مدى ملاءمة الحجج المستخدمة فيها لتبرير قرار في هذا الموقف. وقد صمم البرنامج لمساعدة دارسي القانون في اكتساب مهارة التوليد الدينامي للحجج؛ واختُبرت كفاءته بمقارنة كتابات الذين تدربوا بكتابات قانونيين محترفين؛ فتبينت فعاليته في تعلم مهارات المحاجة الأساسية[57].

ب - **تنمية ذاتية**: أي يدرك الفرد - وبنفسه - نقاط القوة في سلوكه الحجاجي ومواطن ضعفه، أو الجوانب التي تمثل قصورا لديه؛ فيميها ويجتهد بشكل شخصي في التغلب عليها وتجاوزها. وترجع أهمية لجوء الفرد إلى التنمية الذاتية إلى سببين: - أحدهما صعوبة توفير دورات تدريبية نظامية تغطي كل المهارات الحجاجية لتنوعها الشديد - والثاني كون البعض لا يستفيد من الدورات التدريبية النظامية لأنها لا تلائم إما احتياجاته التدريبية وإما ظروفه الشخصية. مما سبق يتضح أهمية التدريب الموجه ذاتيا، الذي تزداد الحاجة إليه لتنمية المحاجة بوجه خاص؛ لصعوبة برمجة معظم مهاراتها تدريبيا. إضافة إلى كون التدريب الموجه ذاتيا ليس بديلا للتدريب النظامي؛ بل مكملا له ويحد من مشكلاته (مثل: التكلفة - صعوبة تنفيذه في أي زمان أو مكان - سلبية بعض المتدربين - ... إلخ)، ويزيد ثقة الأفراد بأنفسهم والشعور بالأهمية والقدرة على حل مشكلاتهم بطريقتهم الخاصة. لذا ذهب بعض الباحثين إلى جعل الخطوة الأولى للتنمية النظامية هي التنمية الذاتية.

وأساس هذه التنمية الذاتية هو اعتياد محاورة الآخرين من خلال الممارسة المتكررة عبر:

١ - الدخول في نقاش حول قضايا حياتية يومية مع المقربين يمد الفرد بتقدير الذات إذا نجح في إقناعهم؛ ويضمن تلقي المساندة عند الفشل.

٢ - الدراية بسلوك الفرد الحجاجي وقراءته جيدا لتحديد كل من:

- بيان مهارات الفرد الحجاجية، ومهاراته التي يشعر بضعفها.

٣ - وبناء على ما سبق يحدد كيفية تخطيط هذا النقاش مستقبلا من خلال استراتيجية مناسبة لتنمية المهارة التي شعر بضعفها، وتكون هذه التنمية عبر:

١ - الاقتداء، سواء أكان واقعيا أم متخيلا: حيث يتخذ المتدرب نموذجا أو قدوة يشاهده ويتعلم منه بشكل تطبيقي، وقد يكون سلوك النموذج الحجاجي مصورا (بالفيديو)، يشاهده المتدرب ويحاكي هذا السلوك بشكل تخيلي (بواسطة التسميع أو التكرار بطريقة إرادية)، ثم يحاول نقله إلى الموقف الجديد الذي يواجهه. ويمكن أن يكون التخيل باستعادة صورة لنموذج سبق أن رآه الفرد ويتذكره في الموقف الذي يواجهه، ويتخيل كيف سيكون تصرفه، ويؤدي مثلما تخيل.

٢ - التأليف بين الأشتات: وهي طريقة تجعل الغريب مألوفا، بتحويل المشكلة الجديدة إلى مألوفة من خلال مماثلتها بشيء مألوف، أو تجعل المألوف غريبا بالنظر إلى الأمر المعتاد من زوايا جديدة. ويتعلم الفرد ذلك عندما يخصص وقتا يستعرض فيه الأشياء المحيطة به: ثم يضع كل اثنين متنافرين كزوج: ثم يفكر في أوجه الشبه بينهما. وهذه الطريقة تمكنه من إدراك علاقات بين الأشياء تساعده في الجمع بينها على هيئة جديدة قد تكون مبتكرة. وتعد المماثلة Analogy (بأنواعها الأربعة: الشخصية: أي تخيل الفرد نفسه محل ما يؤديه. والمباشرة: أي عندما تسود إحدى الحقائق أو التقنيات على غيرها. والرمزية: أي استخدام تخيلات في حل مشكلة ما. والتخيلية: أي تخيل الفرد أنه يعبر عن رغباته من خلال الخيال) آلية التأليف بين الأشتات: ووسيلة التغلب على الجمود الذهني الذي قد يواجه مستخدم هذه الطريقة.

٣ - الدعم الذاتي: حيث يراقب الفرد سلوكه - خصوصا في مواقف التفاعل التي يتعرض فيها للنقد ويتحتم عليه فيها الدفاع عن وجهة نظره - ويقدم لنفسه الإثابة حين يحقق الهدف المرجو. ويفيد هنا أن يدرب الفرد نفسه على تقييم استجاباته والوعي بها والتحكم فيها؛ ويعد نجاحه في هذا نوعا من الدعم.

٤ - السيناريو البديل: أن يتخيل الفرد كل الاحتمالات الممكنة، من ردود الأفعال لحجة سيستخدمها؛ ويقوم بتخيل استجاباته لكل رد فعل منها. هذه الطريقة تمكنه من تقييم كفاءة حججه.

٥ - المترتبات البعيدة: أي توقع سلسلة النتائج التي تترتب على مقدمة معينة ووضع خطط للتعامل معها. بهذه الطريقة يألف الفرد المحاورات قبل مواجهتها فعلا: الأمر الذي يمكنه من تقييمها وتلافي أوجه القصور في أدائه فيها.

٦ - مهارات عرض الأفكار، ويتعلمها الفرد باكتشاف مواطن الضعف في ما يسمع أو يقرأ، ومن خلال محاولات التلخيص والإيجاز.

٧ - مهارات ضبط الحديث أو التفكير: حيث يدرب الفرد نفسه على التحكم في طريقة كلامه - أو تفكيره - لتحويلها من الطابع السلبي إلى الإيجابي مستعينا في ذلك بوسائل مساعدة منها:

أ - طرح أسئلة على نفسه عن ضرورة قوله جملة بعينها أو مدى ملاءمة نبرة صوته في موقف بعينه أو... ما شابه.

ب - ملاحظة نفسه كأنه طرف ثالث، وهذه استراتيجية مفيدة لمراقبة تغيير السلوك، كما تكشف سلسلة بحوث أجرتها «ليبي» Libby [88] وزملاؤها: فإن تنظر لنفسك بعين طرف ثالث يمكنك ترسيخ التغييرات الصادرة عنك ويشعرك بالرضا عن مجهودك الذي بدوره يزيد دافعيتك لمواصلة التغيير.

ج - الاستعانة بقراءة كتب عن مشاهير المحاورين والمناطقة، مثل واصل بن عطاء و«هوايتهد»... وغيرهما؛ ويطابق القارئ بين صفات أحدهم وسماته. هذه بعض الأمثلة لبرامج يضعها الفرد لنفسه كي يدرب ذاته ويكتسب مهارات تزيد كفاءته كمحاور؛ نقدمها على سبيل المثال لا الحصر، إذ من الصعب حصر الأساليب التي من خلالها ينمي الأفراد أنفسهم، فهي من التنوع بحيث تستعصي على الحصر. إنما هي نماذج للاسترشاد بها عند محاولتهم تنمية مهاراتهم الحجاجية. وتزداد الحاجة إلى مثل هذه المهارات: وبالتالي إلى تنميتها؛ في ظل التغييرات المتوقعة في عالمنا العربي استجابة لرياح الإصلاح الديموقراطي؛ وما يتطلبه من مشاركة اجتماعية للشعوب عبر آلية الحوار والإقناع بالحجة للوصول إلى قرار مشترك في قضايا محل خلاف. ولعل هذه المقالة محاولة متواضعة لنشر ثقافة المحاجة ونقد الأفكار وتنقيحها، كآلية حضارية للإقناع بوجهات النظر أو الدفاع عن مصالح الأطراف المختلفة، كبديل حتمي لعمليات التعصب والانغلاق الفكري وأحادية الرؤية.

عالم الفكر
العدد 1 المجلد 37 يوليو - سبتمبر 2008

معضلة التفاعلية في وسائل الاتصال الجديدة (دراسة مسحية) (*)

د. عبدالرحمن محمد سعيد الشامي (**)

مقدمة

تطلق كلمة Dilemma في اللغة الإنجليزية على تلك الموضوعات التي يصل فيها النقاش والجدل إلى أبواب مغلقة، نظرا إلى صعوبتها البالغة، وهذا الوصف ينطبق إلى حد كبير على مفهوم «التفاعلية» التي توسم بها وسائل الاتصال الجديدة.

فعلى الرغم من الاستخدام الواسع لهذا المفهوم في حقول معرفية عديدة، لكن إدراكه على نحو تام لايزال أمرا غاية في الصعوبة، ويحفه كثير من الغموض، برغم جهود كثير من الباحثين في هذا المجال، خصوصا في علوم التسويق والإعلانات، وهذا قد يؤدي بدوره إلى تأخر علم الاتصال عن مواكبة هذه الظاهرة الاتصالية الحديثة، في حال استمرار الوضع الراهن من قلة الدراسات المهتمة بتقصي مظاهر الاتصال التي تحدث في هذه البيئة، والعواقب المترتبة عليها.

وتحاول هذه الدراسة تسليط الضوء على مفهوم التفاعلية، باعتبارها أبرز الخصائص والصفات المميزة لوسائل الاتصال الجديدة، وذلك من خلال مراجعة عدد من الأدبيات الأجنبية التي اهتمت بتقصي هذه الظاهرة، بدءا من تأكيد بعض علماء الاتصال مدى الغموض الذي يكتنف هذا المفهوم، والتداخل الحاصل بينه وبين التفاعل، والنحو الذي تحدث عليه التفاعلية، مرورا بالتعريفات العديدة لمفهوم التفاعلية ونماذجها، سواء ذات البعد الواحد، أو الأبعاد المتعددة، التي هي أكثر قدرة على شرح هذا المفهوم، وتوضيح كيفية حدوثه، وانتهاء بتناول شبكة «الإنترنت»، باعتبارها أبرز وسائل الاتصال الحديثة.

(*) أنجز هذا البحث بجامعة «بوسطن» بالولايات المتحدة الأمريكية، بدعم من منظمة «الفولبرايت».
(**) أستاذ الاتصال المساعد - كلية الإعلام - جامعة صنعاء - الجمهورية اليمنية.

وكيف تتحقق التفاعلية من خلالها، وإلى أي حد يمكن أن تكون وسيلة لنشر الديموقراطية وتعزيزها.

١ - ١ - التفاعلية... بين غموض المفهوم وتجاهله

بمراجعة عدد من الدراسات العلمية الأجنبية، التي اهتمت بتقصي ظاهرة الإعلام الجديد، خصوصا خلال العقود الثلاثة المنصرمة، يمكن القول إن ظاهرة «التفاعلية» التي تتم في بيئة هذا الاتصال قد لفتت أنظار بعض علماء الاتصال والباحثين إلى دراستها، كما نالت اهتماما لا بأس به لتسليط الضوء على بعض جوانبها، خصوصا من قبل الدراسات الإعلانية والتسويق، وفي ضوء هذه الدراسات يتضح مدى الاختلاف في تحديد هذا المفهوم، والغموض الذي يكتنف كثيرا من جوانبه، على الرغم من عودة جذوره إلى بداية حقبة «الخمسينيات» من القرن الماضي، حين بدأت الجهود تعمل على تطوير تلفزيون تفاعلي حقيقي (Jenesn, 1998: 135).

ويتضح مدى الغموض الذي يحف بمفهوم التفاعلية من خلال النقد الموجه إليه من بعض الباحثين تارة، ووصمه ببعض الصفات السلبية تارة أخرى، حيث يرى Rafaeli, ١٩٨٨ ن التفاعلية مفهوم جذاب، ويستخدم بصورة تلقائية على نطاق واسع، غير أنه لايزال في طور التعريف، وعلى الرغم من قيمته الاتصالية العالية، لكنه عصي على الفهم والتوضيح، كما لا يوجد إجماع كبير على معناه حتى الآن، فضلا عن التحقق الإمبريقي الحديث من دوره (Rafaeli, P.110)، أما Heeter, (١٩٨٩) فترى أن مفهوم «التفاعلية» نادرا ما يتم تعريفه، وله مستويات مختلفة من المعاني (ص٢٢١)، فضلا عن أن الكلمة في حد ذاتها «مشوشة» Muddle أكثر منها واضحة، وذلك في ما يتعلق بالمعنى المتبادر إلى ذهن المتحدث، إضافة إلى أن اشتقاقاتها تستعمل للتعبير عن معان مختلفة جدا، وفي كل الأحوال، فلاتزال في طور الصياغة على الرغم من استخداماتها الكثيرة (Heeter, 2000: 1-2)، وتذهب دولاكيا وزملاؤها (Dholakia et al.,2001) إلى أن تعريف «التفاعلية» منفلت، ويعوزه الإحكام loosely، فهو يعني أشياء عديدة لكثير من الناس (١٠٨)، كما أنه مفهوم «ضبابي» Murky (Jennifer, 2000:391)، ويقع حاليا ضمن الكلمات المحاطة بكثير من «الدعاية» Hype، فضلا عن أنه من أكثر الكلمات «الطنانة» Buzzwords، المفرطة في التعقيد، ويضم قائمة من الاختلافات الشديدة، علاوة على ذلك، فإن استخدامه في مجالي المعلوماتية ودراسات الاتصال يتم على نحو مترادف (Jensen, 185-200).

وعلى الرغم من الغموض الذي يحيط بالتفاعلية، فإنها دائما ما توصف بأنها تمثل المفهوم المركزي لوسائل الاتصال الجديدة، في الوقت الذي نادرا ما ندرك فحواها، فضلا عما تفعله بالجمهور (Bucy, 2004: 385)، نظرا إلى عدم تأطيرها في أدبيات الاتصال، على الرغم من تعريفاتها الكثيرة (Sunda, 2004:5)، وهو ما أكد عليه Jensen من خلال ملاحظته غياب هذا

المصطلح من كل من «قاموس وسائل الإعلام والاتصال» -Dictionary of Mass Media & Com munication، «دراسات وسائل الإعلام والاتصال» Communication and Media Studies، و«دليل الاتصال» Handbook of Communication. وعدم وروده حتى في الإصدارات الاتصالية الحديثة، مثل: «مفاهيم أساسية» Concepts Key، الذي يهتم بدراسات الاتصال الثقافي، والذي التزم الصمت حين وصل إلى هذا المفهوم (١٨٦).

١ - ٢ - تفاعل... أم تفاعلية

يثير مصطلح «التفاعل» Interaction اختلافا حوله، في إطار علاقته بمصطلح «التفاعلية» Interactivity، وما إذا كانا صنوين بمعنى واحد، أم أنهما منفصلان كل منهما عن الآخر، أو أن أحدهما مأخوذ عن الآخر. وفي هذا المجال يعد Jackel (١٩٩٥) أحد الذين أشاروا إلى أن مفهوم التفاعلية مأخوذ من مصطلح التفاعل، الذي يعنى بشكل عام «التبادل» Exchange و«التفاعل» Interplay والتأثير المتبادل (نقلا عن:Jensen, 188).

ويرد مفهوم «التفاعلية» في ثلاثة حقول أكاديمية هي: علم الاجتماع، والدراسات الاتصالية والمعلومات، حيث ينصب اهتمام علم الاجتماع على التفاعل الذي يتم بين شخصين أو أكثر، وطريقة تبادل العلاقات بينهما، حين يتبنيان في حالة معينة، وعلى نحو متعادل السلوك والأفعال كل منهما من الآخر. في حين أنه يشير في مجال المعلومات إلى العلاقة التي تتم بين الناس والآلات، وغالبا ما يطلق على هذا النوع من التفاعل: «تفاعل الإنسان مع الحاسوب» Human-Computer Interactions، ويعود بشكل أساسي إلى الخطوات التي تأخذ مكانها حين يقوم الإنسان المستخدم بتشغيل هذه الآلة، والعمليات التي تتم بينهما في ما بعد ذلك، والتي تعد الصفة المركزية لهذا المصطلح في مجال المعلومات، وإلى أي درجة كبيرة تشبه كثيرا الاتصال الذي يتم بين الناس (Jensen, 188-189) في واقع الحياة العملية. وقد لاحظ كل من Reeves, Nass, 1996 أن تفاعلات الأفراد مع كل من الحواسيب والتلفزيون ووسائل الاتصال الجديدة، في ما يتعلق بنواحيها العقلية والاجتماعية والطبيعية، تشبه بالضبط ذلك التفاعل الذي يتم بين الناس في الحياة العملية (ص٥). أما في مجال دراسات الاتصال ووسائله، فلا توجد إجابة محددة وواضحة في هذا الخصوص، فهناك مفاهيم مختلفة من التفاعل تقع في هذا المجال، غير أن الاتجاه السائد في الدراسات الحديثة، في هذا الحقل، والذي يطلق عليه «الدراسات الثقافية»، هو استخدام مصطلح «التفاعلية» على نطاق واسع، ليشمل العمليات التي تأخذ مكانها بين المستقبلين من جهة، ورسائل وسائل الاتصال من جهة أخرى، ومن ثم فإن مفهومي «التفاعل» و«التفاعلية» في دراسات الاتصال والمعلوماتية يستخدمان على نحو مترادف (Jensen, 188-190).

أما «التفاعل» في حد ذاته - كمصطلح «ديناميكي» - فيعد حلقة أو سلسلة من حلقات الفعل الجسدي، أو رد الفعل الإنساني في تعامله مع العالم الخارجي، بما في ذلك البيئة

والأشياء والأجرام التي في الكون. هذا الفعل ورد الفعل هما في واقع الأمر تفاعل جزئي من نطاق التفاعلات العديدة التي تتم بين الإنسان والعالم الخارجي في زمان ومكان معينين (Heeter, 2001: 7-8).

وعلى المستوى الاصطلاحي، قدم Miller (١٩٩٨) تعريفا لكل من مصطلح: «التفاعلية» و«التفاعل» و«الوسائل التفاعلية»، حيث عرف «الأولى» بأنها «حوار متبادل يتم بين كل من المستخدم من جهة، والنظام من جهة أخرى»، في حين أن «التفاعل» يفهم على أنه «يتضمن مشاركة فاعلة من المستخدم في اتجاه انسياب برنامج الحاسوب أو الفيديو، حيث يسمح النظام بتبادل المعلومات مع المشاهد، وبمعالجة المدخلات التي تتم من قبله، والتي تولد استجابة ملائمة في إطار السياق العام للبرنامج» (١٨٨-١٩١). أما مفهوم Heeter (٢٠٠٠) للتفاعلية فيتضمن كل الأعمال التي يقوم بها الإنسان مع الحاسوب، أو يرسلها إليه، وهو ما يطلق عليه حينها تفاعل الإنسان مع الحاسوب (ص٢)، ويقاس رد الفعل حينها على نحو متواصل، ويتم من خلال رصد سلوك المستخدم لنظام وسائل الاتصال، فهو شكل خاص من ردود الأفعال التي تتم من قبل المصدر وجميع المستخدمين (Heeter, 1989: 232) في آن واحد.

ويرى «الباحث» أنه يمكن التمييز بين كل من «التفاعل» و«التفاعلية» في ظل الاتصال الذي يحدث في بيئة التكنولوجيا الجديدة، من خلال الإضافة الفعلية التي تترتب على التفاعلية، بحيث يمكن القول إن أي نشاط اتصالي يقوم به المستخدم، ويترتب عليه نوع من الإضافة الفعلية إلى نظام المعلومات القائم سلفا، يعتبر نمطا من أنماط «التفاعلية»، كما أن نظام الاتصال الذي يمكّن من حدوث التفاعل، ويتيح عملية الإضافة يعتبر «نظاما تفاعليا» Interac-tive System، في حين إذا كانت الجهود التي يقوم بها المستخدم هي مجرد استعمال، أو إفادة فقط مما تتيحه أنظمة الاتصال الحالية، فنحن في هذه الحالة نكون أمام صورة من صور التفاعل فقط، كما أن النظام الذي يمكّن المستخدم من التفاعل معه فقط يعد «نظاما متفاعلا» Interaction System، يشبه كثيرا أنماط تلك التفاعلات التي تتم في بيئة وسائل الاتصال التقليدية (مثل: التنقل بين قنوات الراديو والتلفزيون، وتقليب صفحات الجرائد، يقابله هنا تصفح مواد مختلفة على شبكة الإنترنت، والتنقل بين مواقعها المختلفة بواسطة الضغط على «الفأرة» لقراءة مادة معينة، أو مشاهدة مادة مصورة، أو الاستماع إليها فقط...)، وعلى العكس من ذلك حين يدخل المستخدم في نقاش مع شخص آخر، أو ينخرط في حوار يدور بين مجموعة من الناس على هذه الشبكة، أو يرسل رسالة، أو يشترك بتعليق معين في حوار مكتوب، أو ينضم إلى عضوية أحد «المنتديات» التي تزخر بها العديد من مواقع «الإنترنت» اليوم... هذه الأفعال جميعا تمثل صورا من صور «التفاعلية» المختلفة، ونشاط المستخدم يمكن قياسه حينها من خلال أوجه الإسهامات المختلفة التي يقوم بها، وكلما أتاح

النظام الآلي للمستخدمين إمكانات أكثر في هذا الجانب، أو سهل حدوث مزيد من أنماط التفاعل، كان هذا النظام أكثر تفاعلية. فضلا عن أن هذه التوجهات من شأنها أن تؤدي إلى مزيد من التفاعلية التي تتم بواسطة المستخدمين.

وبصرف النظر عما إذا كان مصطلحا «التفاعلية» و«التفاعل» مترادفين، أو أنهما مفهومان مختلفان، فإن التفاعلية هي أكثر صفات وسائل الاتصال الجديدة بروزا، إلى حد أنها غالبا ما تستخدم كمرادف لهذه الوسائل، مثلها في ذلك مثل شبكة الإنترنت العالمية (McMillan, Hwang, 2002:29) المرتبطة بهذه الوسائل. فالتفاعلية هي المكون الأساسي للوسائل الجديدة (Dholakia et al., 108)، وهي الأساس الذي تقوم عليه (Rice et al., 1984:56). وغالبا ما تذكر على أنها المميز الأبرز للتكنولوجيا الجديدة، التي تتيح نسبة عالية من هذه الخاصية (Heeter, 1989:221)، بل هي صنو للتفاعلية، وسبب «الانغماس» (Immersion Lev, 2002: 1-7) الذي يحدث للمستخدمين، ومن ثم فهي حجر الزاوية لفهم وسائل الاتصال الجديدة (Flew, 2002: 22). وبناء على إدراك القائمين على الاتصال لأهمية هذه الخاصية، يترتب مدى نجاح تعاملهم مع هذه الوسائل من عدمه، وذلك في ما يتعلق بإعداد المواد الاتصالية التي يراعى فيها إتاحة التفاعلية على نطاق واسع، وبقدر اتسام هذه المواد بهذه الخاصية، بقدر ما يكون انتماؤها إلى بيئة الاتصال الحديثة، من عدمه.

ووفقا لما سبق، يذهب كل من Rogers, Chaffee (١٩٨٣) إلى أن الاتصال التفاعلي يمثل تحولا تاريخيا في ما يتعلق بنقل المعلومات، الذي يختلف كلية عن النمط الذي يتم في وسائل الاتصال التقليدية، من حيث السير في اتجاه واحد (ص٢٥)، فالمصدر والمستقبل لا يمكن التفريق بينهما في نظام الاتصال التفاعلي (Heeter 1989:233). فضلا عن ذلك، فإن المفهوم القديم لهذين المصطلحين لم يعد ملائما في دراسة وسائل الاتصال الجديدة (Morris, Ogan, 1996: 48).

واعتمادا على هذا التحول الكبير في انسياب المعلومات وطرقها، فقد تنبأ خبراء الاتصال Sages في مطلع التسعينيات من القرن الماضي بأن ذلك العقد، او ما أطلق عليه «طريق المعلومات السريع»، سوف يوفر تلقائيا لكل فرد تقريبا عالما واسعا من المعلومات التفاعلية والتسلية، والتسوق والخدمات الشخصية من خلال القيام ببعض الأشكال الاتصالية التي تتم عبر الحاسوب، والتي أطلق عليها عالم المستقبليات George Gilder اصطلاح «الاتصال المحوسب عن بعد» Teleputer (Fidler, 1997: 6).

أما الجوانب الإيجابية التي تحيط بوسائل الاتصال الجديدة، والمفاهيم المتصلة بها، والمزايا التي ستترتب على استخدامها، فتعد إدراكا دقيقا لأحد الانعكاسات المترتبة على هذه الوسائل، وما يمثله محتواها، فعلى سبيل المثال، في ٣١ من شهر مايو من عام ١٩٩٣ ظهر مفهوم «التفاعلية» على غلاف مجلة «نيوز وويك» Newsweek التي وصفتها بأنها تكنولوجيا جديدة

سوف تغير طريقة التسوق واللعب والتعلم، وسوف تصبح صناعة تجلب «زليون» Zillion من الدولارات، كما ستضع العالم في متناول بنان الأصابع (Jensen, 185).

وعلى الرغم من أن وسائل الاتصال الجديدة هي تفاعلية في المقام الأول، ومن ثم يمكن استخدامها من خلال طرق جديدة عديدة، مثل: تسهيل الاتصال الشخصي، والاتصال الجماعي، فضلا عن الاستخدامات الخاصة بالحصول على المعلومات العامة (Rice, 56)، غير أن أنواعا مختلفة من هذه الوسائل تمتلك درجات متفاوتة من التفاعل، كما أن بعض الوسائل الرقمية ليست تفاعلية على الإطلاق، فضلا عن أن هذه الصفة ليست سمة في كل تكنولوجيا الاتصال الجديدة الموجودة على شبكة «الإنترنت»، على الرغم من التوجه القوي حاليا، الرامي إلى الدفع بالتفاعلية إلى كل أنواع هذه الوسائل، وبخاصة في إطار التوسع الحاصل حاليا في قدرات «الموجات الواسعة» Bandwidth (Flew, 22)، أما غياب التفاعلية عن بعض المواد الاتصالية التي تزخر بها شبكة الإنترنت فيمكن تفسيره، إما بعدم وعي القائمين على الاتصال بطبيعة هذه الشبكة، وإما بقصور إدراك إمكاناتها في هذا المجال، مما يجعل بعض صور النشر عليها نسخا مكررة من النشر في وسائل الاتصال التقليدية.

١ - ٢ - كيف تحدث التفاعلية في حقل الإعلام الجديد؟

قبل الخوض في مفاهيم التفاعلية ونماذجها، يحسن في البداية الحديث عن كيفية حدوثها، وما موقعها بالنسبة إلى المستخدمين، وما المتطلبات اللازمة لحدوث تفاعل تام ومكتمل، وفي هذا الصدد تشير Heeter, (٢٠٠٠) إلى أن التفاعلية هي أمر يقوم الباحثون بدراسته، فهي تكنولوجيا جديدة تدعمها الإعلانات التجارية، ويعمل على تصميمها مبدعون متخصصون في أنظمة هذه التكنولوجيا، فالتفاعلية ليست شيئا واحدا يفعله الناس، بل هي مجموعة أشياء يعملونها في آن واحد، فالناس يستخدمون شبكة الإنترنت لمشاهدة التلفزيون، وللقيام بعمليات التسوق، واستكشاف أشياء جديدة، وبغرض التعلم، وإرسال رسائل بريدية، واستقبال أخرى، وللبحث عن أشياء معينة، فالمستخدمون دائما نشيطون إلى حد ما، وكما أن النشاط هو صفة المستخدم هنا، فهو أيضا صفة الوسيلة، ففي وسائل الاتصال الجديدة تُطلَب المعلومات دائما، أو تُختار، ولا تُرسل فحسب، من هنا فإن نظام هذه الوسائل يتطلب مستويات مختلفة من النشاط من قبل المستخدم، فالتفاعلات التي تتم بين الشخص والآلة هي شكل خاص من أشكال الاتصال، ولهذا فإن بعض وسائل الاتصال تتميز بأنها أكثر تفاعلية من الأخرى، كما أن بعض المستقبلين أكثر تفاعلا من غيرهم، وفي النهاية فإن نظام هذه الوسائل يمكن أن يسهل عملية الاتصال الجماهيري، أو الاتصال الشخصي، أو كليهما معا (Heeter, 1989:222) في الوقت ذاته.

واعتمادا على هذا الفهم، قدمت Heeter (٢٠٠٠) مناقشة مستفيضة لهذا الافتراض، أشارت فيها إلى أن عالم التفاعل محصور أساسا بالأفعال الجسدية، وبالتفاعل الذي يتم من قبل المشترك وخبرته في هذا المجال، فالأفعال وردود الأفعال التي تتم بواسطة الجسم الإنساني بشكل أساسي، حتى لو توسطت هذا التفاعل تكنولوجيا الاتصال من خلال أدواتها التقنية، والتي يمكن أن تُضيِّق أو توسع من قنوات اتصال الجسم الطبيعية، فإن التفاعل يحدث في إطار زمن معين، ومن قبل مشترك واحد، أو من عدة مشتركين من مختلف أنحاء العالم، وتلفت Heeter إلى أنه ربما يكون هناك مستوى آخر من التجسد الافتراضي يتم بواسطة تكنولوجيا الاتصال، غير أن دور الجسم الفعلي يظل جزءا أساسيا في التفاعل، كما أن التفاعلية تتطلب أفعالا جسدية، وردود أفعال أخرى محتملة، قد يعيها المشتركون، ويدركون مغزاها على نحو دقيق، وقد لا يفعلون ذلك، وربما أدركوا بعضها دون البعض الآخر (Heeter, 2000:14-17).

ويرى كل من Rafaeli, Sudweeks أن التفاعلية يمكن أن تحدث في سياقات الاتصال المواجهي، غير أن ذلك ليس أمرا حتميا، كما أنها ليست صفة للوسيلة (Rafaeli, Sudweeks, 1997: 1-18) في حد ذاتها، فالوسيلة نفسها يمكن أن تمتلك صفات تسهل من التفاعل أو تعيقه، لكن مسألة التفاعلية في حد ذاتها هي أمر يعود إلى المستخدم نفسه، أو إلى مجموعة المستخدمين (Stewart, Pavlou, 2000: 380) لهذه الوسائل، وهم الذين يقررون نوع التفاعل ومستواه.

كما يعتبر الاتصال، الذي يحدث بواسطة الحاسوب، نمطا من أنماط التفاعلية الأخرى، وفي هذه الحالة فإن هذا النمط من التفاعل ليس مباشرا، ولا مماثلا لحالة التفاعل المواجهي، لكنه يتعلق بمدى تتابع الرسائل، وارتباط بعضها بالبعض الآخر، وبخاصة في حالة إشارة الرسائل التالية إلى علاقتها بالرسائل السابقة لها، ويتطلب التفاعل التام ألا تأخذ الرسائل الأخيرة في اعتبارها الرسائل التي سبقتها فقط، بصرف النظر عن ترتيبها، بل والكيفية التي يتم بها التفاعل مع الرسائل السابقة لها أيضا، وفي هذه الحالة فإن التفاعلية التي تتم على هذا النحو تشكل حقيقة اجتماعية (Rafaeli, Sudweeks, 3-4)، وواقعا ملموسا في بيئة الاتصال التفاعلية.

١ - ٤ - تعريف التفاعلية

يعد مصطلح التفاعلية واحدا من المصطلحات المعقدة، والواسعة الدلالة، ولهذا فمن الصعوبة بمكان صياغة تعريف واحد جامع وشامل لهذا المصطلح، ومن ثم فقد ظهرت تعريفات عدة تعاطت معه من منظورات مختلفة، وقد استطاع كل من McMillan, Hwang . (٢٠٠٢) إحصاء «ثلاثين» تعريفا، ظهرت في أدبيات الاتصال خلال الفترة من عام ١٩٨٠ وحتى عام ٢٠٠٢، وتناولت هذا المصطلح من زوايا مختلفة: «عشرة» منها ركزت على الطريقة التي تتم بها التفاعلية، و«ثمانية» اهتمت بالسمات التفاعلية، و«ستة» تناولت كيفية إدراكها، وأخرى مثلها جمعت بين ذلك كله (ص ٣١ - ٣٤) .

ويعتبر تعريف «الموسوعة العالمية للاتصال» من أبرز التعريفات العلمية للتفاعلية، حيث عرّفتها بأنها «تكنولوجيا توفر اتصالا من شخص إلى شخص آخر بواسطة قنوات الاتصال عن بعد، وتفاعلات تتم بين الإنسان والآلة تحاكي التفاعلات الشخصية» (Erik et al, 198-328)، في حين أن Rafaeli (١٩٩٦) عرفها من خلال المدى الذي ينعكس فيه الاتصال على نفسه، بحيث يغذيه، ويرد على ما سبقه[١] من اتصال. فهي خطوات مرتبطة ببعضها، وصفات مميزة لمشهد الاتصال، تشبه الاتصال الذي يتم وجها لوجه، حيث يمتلك الحاسوب القدرة على إتاحة تفاعلية عالية للاتصال الذي يتم بوساطته (Rafaeli, Sudweeks, 3).

وقدمت دولاكيا وزملاؤها (Dholakia et.al.) تعريفا شاملا للتفاعلية، بوصفها سمة في نظام الاتصال، تتيح على نحو اختياري لمستخدم أو أكثر تبادل الاتصال كمرسلين، أو مستقبلين مع مستخدم واحد، أو عدة مستخدمين آخرين لأجهزة الاتصال في وقت متزامن، ويحدث في وضع يقع فيه كل من: المضمون والتوقيت وترتيب الاتصال تحت سيطرة المستخدم، ويرتبط بدرجات مختلفة بمضمون الاتصال السابق له، وتوقيته وترتيبه (ص١٠٩). ويتفق التعريف، الذي أورده كل من Yuping Shrum مع التعريف السابق، ويضيف إليه حدوث تأثير متزامن، حيث أشار إلى أن التفاعلية هي الدرجة التي يمكن فيها التواصل بين طرفين أو أكثر، من خلال وسيلة اتصال محددة، وحول رسائل معينة، وبدرجة يحدث فيها نوع من التأثيرات على نحو متزامن (Yuping Shrum, 2002: 54). أما Jensen فيرى أن التفاعلية تقيس مدى قدرة وسائل الاتصال على إتاحة الفرصة للمستخدم لأن يحدث تأثيرا في المضمون، أو هي شكل من أشكال الاتصال الذي يتم عبر وسيط معين، ويمكن تقسيمها إلى أربعة مفاهيم، أو أبعاد فرعية، وهي: النقل Transmission، المحادثة Conversation، الاستشارة Consultation وتوثيق التفاعلية Registration Interactivity (Jensen, 201) في حين أن Flew وصفت التفاعلية من خلال تجزئتها إلى مكونين أساسين، هما: التفاعلية، بمعنى المقدرة على الارتباط بسهولة بالتفاعلات الجارية عبر شبكات مختلفة، ثم إمكان الدخول Interoperability إلى مواقع الشبكة، وإلى جميع أشكال المعلومات المتاحة، ووسائل الاتصال الأخرى المرتبطة بها من خلال أنظمة اتصالية مختلفة، مع ملاحظة أن التفاعل الحقيقي ينشأ حين يوجد الطرفان في المكان نفسه (ص٢٢).

ويعرف الباحث «التفاعلية» أنها: اتصال مزدوج الاتجاه، يحدث بين مستخدمين اثنين، أو مجموعة مستخدمين، أو يجرى بين المستخدم والآلة، ويتم في بيئة واقعية أو افتراضية، تمكن من تبادل الرموز الصوتية أو المرئية، أو كليهما معا على نحو متزامن[*]، ويترتب عليها تأثيرات عدة.

(*) يمكن اعتبار التفاعل الذي يتم مع رسائل المستخدمين في ساحات الحوار والمنتديات بعد تثبيتها من قبل القائمين على الاتصال في هذه الأماكن تفاعلا من باب التجوز، لأن هذه الرسائل غالبا ما تمر عبر «حارس البوابة» الذي بدوره قد يثبت هذه الرسالة وقد لا يثبتها، ومن ثم فالتفاعل الذي قد يتم مع هذه الرسائل يفتقر إلى عنصر التزامن «Real Time».

١ - ٥ - نماذج التفاعلية

من الأدوار المهمة للنماذج - بشكل عام - مساعدتها على تقريب المفاهيم، من خلال وضعها في أطر معينة تسهل فهمها، وهو من أهم ما تحتاج إليه التفاعلية. إذ من شأن ذلك المساعدة على توضيح بعض جوانبها الغامضة، وإزالة اللبس الذي يحيط بها، ومن ثم فقد قام الباحثون في علم الاتصال، المهتمون بدراسة الوسائل التفاعلية، بجهود واضحة في هذا المجال، وتمخضت تلك الجهود في كم يعتد به من هذه النماذج، التي ركزت بشكل أساسي إما على تناولها من خلال بعد واحد، أو أبعاد متعددة.

ويعد كل من نموذج Bordewijk, Kaam (١٩٨٦) من أول النماذج التي حاولت شرح التفاعلية من خلال بعد واحد، انطلاقا من مفهومين أساسيين للكيفية التي تسير عليها المعلومات، وذلك من خلال السؤال الخاص بـ: من يملك المعلومات ويوفرها، ويتحكم في توزيعها، من حيث الزمن والمضمون، ومن ثم فهناك أربعة احتمالات لتدفق هذه المعلومات (نقلا عن: Jensen, 186-187) في هذا الصدد:

الأول: يتمثل في إنتاج مركزي يتم بواسطة مصدر يمتلك المعلومات، ويتحكم في توزيعها، وفي هذه الحالة فنحن أمام أنموذج الاتصال الذي يتم في اتجاه واحد، ويكون نشاط المستهلك الأساسي هو مجرد استقبال هذه المعلومات.

الثاني: يحدث على النقيض من السابق تماما، حيث ينتج المستهلكون المعلومات، وهم الذين يملكون السيطرة عليها، ويوزعونها، ومن ثم فنحن هنا أمام النموذج المحادثاتي للاتصال، الذي يبدو في حالة الاتصال التقليدي، ويتم في اتجاهين، حيث يتمثل دور المستهلك في إنتاج الرسائل، ونقلها من خلال العمليات الذهنية التي تتم في أثناء المحادثات الجارية.

الثالث: تُنتَج فيه المعلومة من خلال موفر يمتلكها، غير أن المستهلك يحتفظ بنوع من السيطرة عليها، وذلك من حيث نوع المعلومات التي تُوزَّع، والوقت الذي يحدث فيه هذا التوزيع، وفي هذه الحالة فنحن أمام نموذج الاتصال التشاوري، الذي يطلب فيه المستهلك معلومة معينة، تُرسل إليه من المركز الموفر لهذه الخدمة، ويتمثل نشاطه الأساسي هنا في الاختيار من خلال البدائل المتاحة له.

الرابع: تُوفَّر فيه الخدمة من قبل مستهلك المعلومات، غير أن مركز توفير هذه الخدمات هو الذي يعالجها، كما يملك السيطرة عليها، ومن ثم فنحن أمام نموذج الاتصال التسجيلي أو التوثيقي، وفي هذا النموذج من الاتصال يجمع المركز المعلومات من المستخدم أو حوله، ومن ثم، فسمة وسائل الاتصال هنا هي قدرتها على معالجة هذه البيانات أو المعلومات واستخدامها، ومن أمثلة ذلك، أنواع الإشراف المركزية المختلفة، وأنظمة التسجيل التي تتم في عدد من المواقع على شبكة الإنترنت، فضلا عن أنظمة الدخول إلى الحواسيب وشبكات المعلومات.

أما النوع الثاني من نماذج التفاعلية، والذي يعد أكثر قدرة على شرحها وتوضيح سماتها، فهو ذلك الذي حاول وصفها في إطار أبعادها المتعددة، وقد أورد Jensen في مقاله حول «التفاعلية» بعض هذه النماذج التي قدمت مناقشة متعمقة لهذا المفهوم في ضوء الأبعاد المذكورة، وذلك في أعمال كل من: Rogers, 1987، Rafaeli, 1988، Bohdan, 1995، Lurel, 1986-1990، Goertz, 1995، وHeeter, 1989، وقد تراوحت أبعاد التفاعلية المقدمة في هذه الأعمال، ما بين بُعد واحد، مثل: نموذج Rogers، و«ستة أبعاد»، كما هو في نموذج Heeter.

ويعد نموذج Rogers من أوائل نماذج التفاعلية الأحادية الأبعاد، ويتدرج من المستوى المنخفض، كما يحدث في حالة التفاعل الذي يتم من المستخدم مع الصحيفة، والراديو، والتلفزيون، والفيلم، إلى المستوى المتوسط، كما هو في حالة تفاعل المستخدم مع النص التلفزيوني المرئي Teletext، ثم المستوى العالي، كالاتصال الذي يتم بواسطة الحاسوب، والكابل التفاعلي، والرسائل الإلكترونية، من خلال تكنولوجيا الاتصال المختلفة.

أما مفهوم Rafaeli (١٩٨٨) فيعتمد على مقدرة وسائل الاتصال على الاستجابة للمستخدمين، وقدرتها على التفاعل معهم، في حين اعتمد نموذج Szuprowicz للتفاعلية على نظام تدفق المعلومات، وأنماط التفاعل المصاحبة لذلك، والمتمثلة هنا في ثلاثة أنماط، هي: تفاعل يتم بين المستخدم والرسالة، وآخر بين المستخدم والحاسوب، وثالث يتم بين مستخدِمَين (Szuprowicz, 1995: 195-196) أو أكثر، ويؤكد هذا النموذج التفاعلي الثلاثي الأبعاد الدرجة التي يمكن أن يتفاعل من خلالها طرفان اتصاليان أو أكثر كل منهما مع الآخر حول رسائل معينة، من خلال وسيلة الاتصال، ومدى درجة التأثيرات المصاحبة لهذه العملية (Yuping, Shrum, 54).

ويقوم نموذج Lurel للتفاعلية على ثلاثة متغيرات هي: تكرار التفاعل ومداه ودلالته، ويقدر ما يتاح للمستخدم من هذه المتغيرات بقدر ما تكون تفاعليته أكثر، أو أقل دلالة (نقلا عن: Jensen, 195-196)(*)، في حين أن كلا من (Yuping, Shrum) حددا ثلاثة متغيرات أخرى للتفاعلية، هي: السيطرة الفاعلة، وإتاحة الاتصال في اتجاهين، وتزامن حدوثها بين الأطراف المشتركة فيها (Yuping, Shrum, 54).

ويعد نموذج Goetz الرباعي الأبعاد، أحد النماذج التي تجسد معنى مكتملا للتفاعلية، ويقوم على كل من: درجة الاختيار المتاح، والقابلية للتعديل Modifiability، والخطية Linearity، أو غير الخطية التي تسير عليها التفاعلية، وعدد الاختيارات وأنواعها، والتعديلات الممكنة، فهناك وسائل توفر للمستخدمين درجة عالية من إمكان التعديل، غير أنها تتيح لهم نسبة منخفضة من الاختيارات المتاحة، وعلى العكس من ذلك، هناك وسائل أخرى تتيح لهم درجة منخفضة من إمكانة التعديل، مقابل درجة عالية من الاختيارات المتاحة، وينطبق ذلك - مثلا -

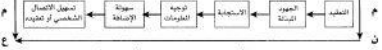
(*) لمزيد من التفاصيل، ينظر المرجع نفسه.

على البث الإذاعي التقليدي للراديو والتلفزيون، اللذين يتيحان درجة منخفضة نسبيا من التفاعلية، في حين أن وسائل الاتصال التي تستخدم الاتصال الشخصي تتمتع بدرجة عالية من التفاعلية (Jensen, 199).

ومن النماذج الخماسية الأبعاد للتفاعلية نموذج دولاكيا وزملاؤها Dholakia et.al، الذي يقوم على كل من: سيطرة المستخدم، وذلك في ما يتعلق بالمدى الذي يستطيع من خلاله الفرد أن يغير في مضمون المعلومات، وزمنها ودرجة تتابعها، ومدى الاستجابة للرسائل السابقة، ثم التزامن الذي يتم من خلال سرعة الاتصال وفورية الاستجابة، وبقدر سرعة هذه الاستجابة بقدر ما تتم التفاعلية على نحو أكبر، والعنصر الرابع من هذا النموذج هو «الارتباط» Connectedness، ويعنى ذلك إحساس المستخدم بالاتصال بالعالم خارج نطاق مكان معين، أما المكون الأخير لهذا النموذج، فهو ما يتعلق بالقدرة على الشخصانية والتعديل Personalization Customization، اللذين يعكسان الدرجة التي تُفصَّل بها المعلومة لتلبي احتياجات الفرد والزوار (١٠٨-١١٠) على حد سواء.

أما نموذج Heeter السداسي الأبعاد للتفاعلية، فيجدر فهمه بداية في إطار خصائص الفترة الاتصالية التي ظهر فيها هذا النموذج، وهي فترة ازدهار الاتصال التلفزيوني الكابلي، وتعدد القنوات المتاحة من خلال هذه التقنية، فضلا عن أصناف الاتصال الجديدة الأخرى، التي ظهرت في تلك الفترة، مثل: نصوص الفيديو المصورة Videotext، ونصوص التلفزيون المرئية Teletext، وتفاعلا مع هذه التقنية المزدهرة حينها إلى حد كبير، ظهر هذا النموذج المكثف، الرامي إلى فهم التفاعلية، واشتمل على ستة أبعاد (الشكل ١) هي: مدى تعقد الاختيارات المتاحة، أو الانتقائية، والجهود التي يتعين على المستخدم بذلها للدخول إلى المعلومات، والاستجابة التي تتم عليه، والنظام المستخدم لمراقبة المعلومات، وسهولة الإضافة إلى النظام القائم، وتسهيل الاتصال الشخصي، ومن ثم تذهب Heeter إلى أن البعد التفاعلي لوسائل الاتصال يقاس في هذا الجانب بالمدى الذي فيه تُوفَّر المعلومة لعدد من المستخدمين، ودرجة تسهيل نظام هذه الوسائل للاتصال الشخصي بين مستخدمين معينين(*).

الشكل (١): رسم توضيحي لنموذج Heeter السداسي الأبعاد



(يشير السهم الأيمن إلى مدى التفاعلية، والأيسر إلى أبعادها)
«ع» عال، «م» متوسط، «ن» منخفض

(*) لمزيد من التفاصيل حول هذا النموذج يمكن الرجوع إلى المرجع نفسه، ص ٢٢١-٢٢٥.

ويعلق Jensen على هذا النموذج بقوله: إن صياغة مفاهيم التفاعلية على هذا النحو تتيح تقسيما أكثر دقة لتفاعل وسائل الاتصال، غير أنه كلما كثرت الأبعاد، وزادت درجة تعقيدها، أدى ذلك إلى صعوبة أكثر في التعامل مع هذه المفاهيم على أساس عملي (ص٢٠٠). كما أن هذا «النموذج» يقدم نظرة جيدة للتفاعل، لكنه غير ملائم على نحو تام لتطبيقه على وسائل الاتصال الحديثة، مثل «الإنترنت» (Hwiman, Zhao, 2004: 1-40).

ويلاحظ على هذه النماذج المتعددة الأبعاد استفادتها بدرجات متفاوتة من نموذج Rogers (١٩٨٦) لكيفية انتشار المبتكرات المستحدثة بين أفراد المجتمع، الذي يعتمد على العائد النسبي المتوقع منها، ومدى ملاءمتها، ودرجة تعقيدها، ومستوى الاعتماد عليها، والقدرة على ملاحظتها، ومن ثم يمكن القول: إن هذا النموذج هو الأب الشرعي لكل نماذج التفاعلية التي ظهرت في ما بعد ذلك.

كما تجدر الإشارة إلى أن عنصر الرقابة المفروض حاليا في بعض بيئات الاتصال الحديثة، من شأنه أن يؤدي إلى انخفاض في مستويات تفاعل المستخدمين، إذ من المتوقع انصرافهم عن تلك المواقع الاتصالية التي تفرض، على نحو متفاوت، قيودا على نشر مشاركاتهم، في الوقت الذي سيذهبون فيه إلى المواقع الأخرى التي تتيح لهم مساحة أكبر للمشاركة، ومجالا أوسع من حرية التعبير عن آرائهم واتجاهاتهم إزاء القضايا المختلفة، ومن ثم فمن المتوقع أن يؤدي ذلك إلى ارتفاع في درجة تفاعلية هؤلاء المستخدمين، وعلى العكس من هذا، هو ما يمكن أن يتمخض عن الاتجاه الآخر.

٢ - ١ - الإنترنت كوسيلة تفاعلية

توصف «الشبكة العنكبوتية العالمية» World Wide Web عادة بأنها الوسيلة الأكثر نموا من أي وسيلة اتصالية أخرى، سواء على مستوى مواقعها المتزايدة، أو من حيث عدد المستخدمين الذين ينضمون إليها يوميا، ولم تجذب أي وسيلة أخرى من وسائل التكنولوجيا المبتكرة الأنظار إليها بهذه السرعة، وبذلك التأثير على النحو الذي تفعله هذه الشبكة (Peters, 1998: 2) اليوم، وتشير الإحصائيات في هذا المجال، إلى أن استخدام الإنترنت على مستوى العالم قد تضاعف بنسبة ١٦٠ في المائة ما بين الأعوام ٢٠٠٠ و٢٠٠٥، فقد وصل عدد المستخدمين لها إلى ما يقرب من ٩٥٠ مليونا في عام ٢٠٠٥، بعد أن كانوا فقط ٥٨٠ مليونا في عام ٢٠٠٠ (Internet World State)، وهذا النمو الكبير يختلف كلية عن كثير من شبكات الاتصال التي نمت على نحو بطيء وغير محسوس، في حين أن هذه الشبكة قد انفجرت أمام أعيننا من «مئات» قليلة من عدد الصفحات المتاحة عليها، في بداية حقبة «التسعينيات»، إلى أكثر من مليار صفحة بعد «عقد» فقط من تلك الفترة (Tremayn, 2004: 237)، لتصبح في الوقت الراهن أكبر شبكة حواسيب على مستوى العالم، فقد وصل عدد «المضيفات» Hosts المرتبطة بعضها ببعض في عام ٢٠٠٠ إلى ما يزيد على «مائة» مليون «مضيف» (Crystal, 2001, 3).

وتعرف شبكة الإنترنت ببساطة بأنها: عدد من أجهزة الحواسيب المرتبطة ببعضها، أو هي مجموعة من شبكات الحواسيب المنتشرة في كل أنحاء العالم تقريبا (Peters, 2)، وقد تطورت في عام ١٩٦٠ في الولايات المتحدة الأمريكية كشبكة تجريبية، نمت بعد ذلك على نحو سريع، لتشمل خدماتها: القوات المسلحة، والدولة الفيدرالية، والأقاليم المختلفة، والجامعات، فضلا عن استخدامات شخصية عديدة، أو أخرى تتعلق بالعمل (Crystal, 2001: 3)، ومن ثم فقد أصبح السؤال الخاص بمدى جدوى استخدام هذه الشبكة من الأسئلة التي لا يجدر بأحد طرحه، فلم تعد «الإنترنت» اليوم بالنسبة إلى كثير من الناس على مستوى العالم شيئا غير مألوف، بل أصبحت جزءا من حياتهم اليومية الفعلية (Flew, 15)، حيث يعتبرها كثير منهم مكونا مهما وأساسيا في حياتهم اليومية، من خلال استخداماتهم لها بطرق مختلفة: كمصدر للمعلومات، ومن أجل التسوق، والمناقشة مع مستخدمين آخرين (Hamburger et al., 2004:104)، أو للتواصل الفردي أو الجماعي، وكوسيلة للنشر على نطاق عالمي، والحصول على المعلومات من خلال «البريد الإلكتروني»، وجماعات المستخدمين، وغرف الدردشة، وقوائم المراسلات البريدية، وغيرها من الأنشطة العديدة التي تتم اليوم على هذه الشبكة الاتصالية العالمية (Flew, 12)، إما على نحو فردي وإما في صورة جماعية.

وبناء على ما سبق، فلا يمكن النظر إلى الإنترنت على أنها وسيلة اتصال واحدة، لكنها شبكة تتألف من عدد من وسائل الاتصال، وتتضمن أوجها اتصالية عديدة، كما تشمل أشكالا مختلفة من الاتصال (Morris, Ogan, 17, 42)، ومن أكثر مزاياها الظاهرة مقارنة بوسائل الاتصال التقليدية هي أنها مثل: الصحافة توفر المعلومات العامة، وكالتلفون تسمح بالاتصال المتبادل بين الأشخاص، كما أنها مثل الكتب، والكتيبات الصغيرة تقدم دروسا خاصة، وهي مثل الأفلام والتلفزيون تقدم التسلية. فهي وسيلة معلوماتية واتصالية غير عادية، كما تختلف في الوقت نفسه عن وسائل الاتصال التقليدية الأخرى، من حيث قدرتها على القيام بكل هذه الوظائف مجتمعة: مطبوعة ومرئية ومسموعة (Selnow, 2000: 2) في آن واحد، فضلا عن أنها وسيلة اتصال تفاعلية، تمكن من الاتصال في اتجاهين، كما تتيح لمستخدميها أن يكونوا منتجين ومستهلكين للمضمون (Flew, 1) في الوقت نفسه، وهذا هو مصدر قوتها الحقيقية، وما يميزها عن وسائل الاتصال التقليدية الأخرى (Stewart, Pavlou, 2002:380)، نظرا إلى أن هذا النوع من الاتصال التفاعلي هو اتصال المستقبل القريب (Rafaeli, 1997:4)، وقد بدأت ممارسة بعض صوره، وبعضها الآخر تلوح ملامحه في الأفق القريب.

تجدر الإشارة في هذا الصدد، إلى أن ما يعرف بتقنية «الوصلات الفائقة السرعة» Hyperlinks يعتبر هو الجزء الأساسي الذي يتيح هذه القدرات التفاعلية، وهناك نوعان من هذه الوصلات: وصلات داخلية، وأخرى خارجية، والفرق بينهما هو أن الوصلات الفائقة

السرعة الخارجية ترسل «المتصفح» Surfer خارج نطاق الموقع إلى مصادر خارجية أخرى للمعلومات، في حين أن الوصلات الفائقة السرعة الداخلية ترسل المتصفح مباشرة إلى الجزء المطلوب على الموقع نفسه، ومن ثم، فإن اختلاف المواقع يعتمد على مستويات التفاعلية التي تتيحها، فالموقع الذي يستخدم كثيرا من الوصلات الفائقة السرعة، يطلق عليه عالي التفاعلية، في حين أن الموقع الذي يتيح قليلا من هذه الوصلات، أو يفتقر كلية إلى هذا النوع من الوصلات يعتبر موقعا مسطحا (Hamburger et.al, 104-105)، كما أن أنماط التفاعلية يمكن أن تصاحب أشكالا أخرى من الاتصالات التي تتم بواسطة الشبكة، لتمكن من الحصول على تغذية مرتدة، تحدث في هيئة مسارات دائرية، تروح جيئة وذهابا بين المنتجين والمستخدمين، وأشكالا تواصلية أخرى تقع على نحو متزامن بين عدد من المتصلين (Flew, 21-22).

وعلى نحو قوي ترتبط ظاهرتا: تفاعلية وسائل الاتصال الجديدة، وتطور شبكاتها بالتقارب الحادث بين وسائل الاتصال، ورقمنته، فوسائل الاتصال التفاعلية هي تلك التي تعطي للمستخدمين درجة من الاختيار في نظام المعلومات المتاح، سواء في ما يتعلق باختيار مصادر المعلومات التي يرغب المستخدم في الدخول إليها، أو من خلال التحكم في المخرجات التي تتم من خلال استخدام ذلك النظام الذي يتيح هذه الاختيارات (Flew, 21) وبناء على هذا، تعد الإنترنت عاملا أساسيا في إعادة تعريف وسائل الاتصال الجماهيري، وهناك نقاش قد بدأ بالفعل في ما يتعلق بالبحث عن مسمى أكثر تعبيرا لما يجري في هذا المجال الاتصالي الجديد، ويرى Anthony Oettinger مدير «قسم البرامج وموارد المعلومات» بجامعة Harvard بالولايات المتحدة الأمريكية أن وسائل الاتصال ستصبح جزءا من بنية اتصالات بارعة، تتألف من الحواسيب، وأنظمة الاتصالات (Dizard, 1997: 5) الأخرى، ومن ثم فإن الاندماج الذي يتم في هذا المجال جدير أن يطلق عليه «اتصال محوسب» Compunications، غير أن هذا المصطلح لم ينل الاهتمام (Pavlik, Dennis, 1993: 2) الذي يستحقه بعد.

ويذهب آخرون إلى أن هذا العصر هو عصر النشاط المعلوماتي، مشيرين إلى ظهور عدد من المصادر الاتصالية، المرادف بعضها للبعض الآخر، وتتم من خلال «أنابيب معلومات» Information Pipes إلكترونية شبيهة بمرافق الغاز والمياه (Dizard 5) الحالية. ووفقا لنظرية عالم الاقتصاد السوفييتي Nikolia Kondratieve، التي ظهرت في القرن الماضي، فنحن نعيش الآن الموجة الخامسة الطويلة من الإبداع التكنولوجي (Flew, 58-60)، والجيل الرابع من النظام التفاعلي (Zigler, 1996: 186)، الذي من المتوقع أن يشهد انتشارا واسعا في المستقبل القريب، فباستخدام الذكاء الاصطناعي، يجري الآن تصميم أنظمة حاسوبية قادرة على محاكاة السلوك الإنساني، بحيث يتخاطب الإنسان الحقيقي مع الإنسان الافتراضي

(الآلة) حول موضوعات مختلفة، ويحصل على معلومات عديدة، وهو نظام متطور يتجاوز الحوارات البدائية التي تتم اليوم بين الإنسان والآلة في بيئة الاتصال التقليدية.

وفي ضوء هذه الاعتبارات وغيرها فإن شبكة الإنترنت تعد من أبرز تجليات وسائل الاتصال الحديثة، ومن ثم فهي تثير العديد من النقاشات حولها على نطاق واسع، ويتجلى ذلك من خلال صياغة كثير من المفاهيم، من مثل: «الفضاء المتخيل» Cyberspace، العالم الافتراضي، المجتمع الشبكي، وطريق المعلومات السريع...، وغيرها من المصطلحات الأخرى التي تعكس في مجملها الاحتمالات الجديدة التي ستظهر جراء التطور السريع لهذه الشبكة (Flew, 11-12)، الذي تتطلب متابعتها اليقظة المستمرة، لترشيد طموحه، وكبح جموحه.

٢ - ٢ - الإنترنت كوسيلة ديموقراطية

توصف الإنترنت بأنها أحجية وسائل الاتصال الجديدة (Fidler, 1997, 13)، فهي شبكة قضبان عالمية تتيح آلافا من مصادر المعلومات المختلفة، التي تلبي مختلف الاهتمامات، بدءا من مجموعات لعب الدمى Barbie Doll Collections، إلى أعمال Shakespeare (Dizard, 23) العظيمة، كما أنها تعطي صوتا لأولئك الذين لا تصل إليهم ترددات الراديو أو التلفزيون، ولا الصحافة المطبوعة، متجاوزة الحدود، ومن ثم فهي الوسيلة المثلى لمن يريد الوصول إلى نطاق عالمي، من خلال كسرها لحواجز الدخول، وفي بعض الأحيان توسم بأنها تمثل قمة الصحافة «التافهة» Vanity، حيث غدا لدى ملايين من الناس المقدرة على النشر الشخصي من خلال هذه الوسيلة (Flew, 99) الإلكترونية العالمية التي يمكن الدخول إليها من أي مكان في العالم، وربما كان ذلك أكثر الأشياء فيها أهمية، وأسرعها انتشارا (Pavlik, 2001:62) في الوقت ذاته، وأكثرها حداثة، فضلا عن كونه أبرز المواد التي تُضاف إلى مخزون الوسائل الجديدة، وهي التي تجذب إليها كلا من الإعلانات التجارية، والمستهلكين على حد سواء، بسبب التفاعلات العديدة التي يمكن أن تتم (Wu, 2005: 2) من جمهور المستخدمين مع هذه المواد.

ويعد ما يعرف بـ «طريق المعلومات الفائق» أفضل الأشياء دلالة على ظهور شبكات البيانات الرقمية التي انتشرت على نحو سريع، وغدت اليوم تغطي العالم، ولها تأثيرات مهمة ليس على الصحافة فقط، ولكن أيضا على المجتمع بأسره، وعلى الديموقراطية نفسها (Pavlik, Dennis, 1996, 136)، فكما ساعدت التكنولوجيا في إحداث تحول في الرؤى الخاصة بالمجتمع المبنية على أساس الجغرافيا، إلى المجتمع القائم على الاهتمامات المشتركة، فإن هناك عواقب مهمة في ما يخص الديموقراطية، وخطوات درامية يمكن أن تحدث في هذا المجال، يتأسس أكثرها على استخدام التكنولوجيا الجديدة، بتسهيل الطرق التي يتم من خلالها إعلام عامة المواطنين، وقدرتها على زيادة مشاركة الجمهور في الخطوات الديموقراطية وتحسينها، وهو الدور الذي كان منوطا بشكل أساسي بالصحافة في إطار علاقتها بالديموقراطية، ومن ثم، فإن ظهور

تكنولوجيا وسائل الاتصال الجديدة يمكن أن يعزز من هذه الوظيفة، وذلك من خلال إعطاء الجمهور مداخل أكثر وأسرع وأسهل لزيادة نطاق مصادر المعلومات، ومن ثم فإن هذه التكنولوجيا تحمل وعدا بتحسين مشاركة الجمهور العام في العملية السياسية، وخفض نسبة الاغتراب السياسي بينهم (Pavlik, 313).

وفي سياق النقاش الدائر حول المشاركة الديموقراطية وفكرة «المجتمع المحلي» Community في النظام الرأسمالي الصناعي الحالي، ومجتمعات وسائط الاتصال (Flew, 79)، يمكن لشبكة الإنترنت أن تقوم بدور ملموس في تهيئة الناس للانتقال إلى الديموقراطية، فقد غدت هذه الشبكة مفتوحة للجميع، وتربط بين الناس عبر الحدود، كما تنقل إليهم مظاهر الحياة التي تجري في ما وراء حافة المدينة، وتوفر الخطوات اللازمة لإعداد الناس لمجتمع مدني مفتوح، وتقوم بهذا من خلال وسائل جديدة، تذهب بعيدا عن تأثير الأفلام والعروض التلفزيونية، وإذاعات محطات الراديو الدولية، وفي الواقع فإنها تذهب خارج نطاق الخبرة الحالية، إلى ما هو أوسع مدى من ذلك، إلى تجارب المجتمعات الحرة في كل مكان (Selnow, 58-59)، ومن ثم فهي تحدث تأثيرا عميقا في العملية الديموقراطية، يتجاوز دور وسائل الاتصال التقليدية في هذا المجال، وقد أصبح هذا التأثير واضحا وملموسا على نحو قوي في عام ٢٠٠١، حين أصبحت الإنترنت وتكنولوجيا وسائل الاتصال الجديدة التفاعلية أكثر انتشارا وأقل تكلفة لدخول الجمهور إليها (Pavlik, 2001:132) من ذي قبل.

ويمكن الاستشهاد في هذا الصدد، بالتظاهرة التي اندلعت في الفلبين، في شهر يناير ٢٠٠١، حيث كانت الرسائل القصيرة (SMS) عبر الهواتف الخلوية، والبريد الإلكتروني وشبكة الإنترنت بوجه عام أسلحة مؤثرة بالنسبة إلى المتظاهرين، وقد بلغ عدد المواقع المنشأة على هذه الشبكة خلال تلك الفترة، والتي عملت ضد الرئيس الفلبيني مائتي موقع، كما بلغ عدد مجموعات القوائم البريدية مائة مجموعة، وقدرت عدد الرسائل التي أرسلت خلال أسبوع المظاهرة بسبعين مليون رسالة (Coronel, 2002: 61-63)، وبناء على ما سبق، يذهب Boutie (١٩٩٦) إلى أن سوق أفكار الديموقراطية الأثينية المثالية على وشك التحقق، فضلا عن «العواقب» repercussions العديدة التي تلحق بمؤسسات الاتصال من جراء ذلك، فلم يعد البعض في حاجة إلى شراء مساحة من وسائل الاتصال بعد الآن (ص٤٩)، بعد أن أضحت الفضائيات الاتصالية مفتوحة أمام كل من يملك وسيلة الدخول إليها من أي بقعة في العالم، ويمكنه أن يقول من خلالها ما يشاء.

وتبدو شبكة الإنترنت اليوم ساحة ضخمة مفتوحة أمام الجميع، ومنفتحة على جميع المعتقدات والآراء والأفكار والاتجاهات، مهما كانت متطرفة أو معتدلة، فهي المكان الذي يذهب إليه كل من يرغب في قول أي شيء، أو يريد عمل أي شيء، بدءا من شرح فكر متعمق،

والتعبير عن رأي رشيد، إلى مجرد التنفيس عن طاقات مكبوتة، وآراء فردية، قد لا تهم سوى صاحبها، ولا تشغل غير باله. وهنا تتبادر إلى الذهن أسئلة عديدة في هذا المقام، منها: ما نوع الديموقراطية التي تحضرها إلينا شبكة الانترنت؟ وما خصائص الجمهور المفتوحة أمامه هذه الشبكة؟ وما عواقب الأفكار والمعتقدات التي يتم الإفصاح عنها من خلالها؟ وأخيرا: هل يمكن لـ«الإنترنت» في وضع من هذا النوع أن تكون أداة لنشر ديموقراطية رشيدة؟ أم أنها بمنزلة عربة لديموقراطية القطيع؟ أسئلة عديدة تفرض نفسها في هذا الخصوص على نحو ملح، خصوصا أننا على مشارف عصر جديد لديموقراطية لا يحترم فيه البعض ديانات الآخرين، ولا يعير انتباها لمعتقداتهم ولا لآرائهم، ومن ثم فالخوف أن تنتهي مثل هذه التوجهات الديموقراطية إلى شيء من الفوضى التي تحدث على مستويات مختلفة، وقد بدأنا نستدل على بعض ملامحها اليوم من خلال عدد ما يجري في ساحات الحوار، والمنتديات، ومواقع الدردشة المنتشرة على نطاق واسع على شبكة الإنترنت، ولعل هذا هو ما دعا كلا من: Pavlik, Dennis, 1996 إلى التحذير من مثل هذه المخاطر السياسية (ص٣١٣). أما Morrisett, 2003 فيضع لهذه الشبكة ستة اشتراطات مهمة، حتى تكون وسيلة تكنولوجية حقة، تمكن من ممارسة حرية التعبير، وتعمل من أجل مجتمع ديموقراطي، وهي: إمكان الدخول إليها، وتوفيرها للمعلومات، وإتاحتها للمناقشة، وتداول الآراء Deliberation المختلفة، فضلا عن إمكان الاختيار والفعل (٢٠٠٢: ٣١٢) الذي يتاح للمستخدمين.

وفي نهاية المطاف، فإن هذه الممارسات البادية للعيان اليوم، لا تعدو أن تكون بعضا من العواقب التي تنشأ عن وسائل الاتصال الجديدة، والتي ليس بمقدور أحد أن يحول دونها، لكن قد يكون في الوسع تدارك بعض الأخطار العديدة ، وتقليل بعض المخاطر المختلفة، وترشيد عدد من جوانب الاستخدامات المتجاوزة، وذلك من خلال الدراسات والأبحاث العلمية التي تسعى إلى تقصي ظاهرة الاتصال الحديثة، وتهدف إلى رصد عملية الاتصال التي تتم في بيئة الاتصال الجديدة، مع إعطاء عناية للممارسات السلبية التي تنشأ في هذه البيئة الاتصالية الجديدة، والعواقب التي يمكن أن تترتب عليها.

الخاتمة

اتضح من خلال هذه الدراسة مدى الغموض الكبير الذي يكتنف مفهوم «التفاعلية» كخاصية تميز وسائل الاتصال الجديدة، فعلى الرغم من الجهود البحثية في هذا المجال، لكن لا يزال هناك كثير من الجوانب المتصلة بهذا المفهوم، التي تحتاج إلى أبحاث مستفيضة لإزالة بعض جوانب اللبس التي تكتنفها. كما استقصت الدراسة مفاهيم التفاعلية المختلفة، والفرق بينها وبين التفاعل، مقترحة في هذا الصدد، التمييز بينهما على أساس الإضافة التي تتمخض عن جهود

المستخدمين، كما تعاطت مع نماذج التفاعلية بأبعادها المختلفة، وسلطت الضوء على شبكة الإنترنت بوصفها أبرز قنوات وسائل الاتصال الجديدة، مركزة على قدراتها التفاعلية، فضلا عن كونها وسيلة واعدة بنشر مزيد من الديموقراطية، وتوسيع نسبة المشاركة السياسية، ومن ثم خفض نسبة الاغتراب السياسي.

وتلفت الدراسة في مجملها أنظار الباحثين العرب إلى أهمية الدراسة العلمية لمظاهر الاتصال المصاحبة لوسائل الاتصال الجديدة، والتي تحتاج إلى جهود بحثية مكثفة، يمكن أن ينشأ عنها إسهام عربي تنظيري وإمبيريقي في حقل الدراسات الاتصالية، أو على الأقل القدرة على التعامل مع العواقب المجتمعية التي يمكن أن تترتب على هذه الظاهرة الاتصالية الحديثة المتنامية الانتشار في كل بلدان العالم اليوم.

عالم الفكر
العدد 1 المجلد 37 يوليو - سبتمبر 2008

من قضايا اللغة العربية . . . في اللسانيات التوليدية

د. حافيظ إسماعيلي علوي (*)

تمهيد

نشأ الاتجاه التوليدي التحويلي على أنقاض اللسانيات البنيوية، فقد كان من الطبيعي أن تقود الانتقادات التي وُجهت للبنيويين إلى البحث عن أنموذج جديد يجيب عن الأسئلة العالقة، وينحو بالبحث اللساني منحى مغايرا. ولتحقيق هذا المسعى تغيرت وجهة البحث من الاهتمام بالوصف وما يقوم عليه من استقراء للمادة اللغوية وتحليلها، إلى الوصف والتفسير في الوقت ذاته؛ والتفسير هنا يركز على اللغة من داخلها، وليس من خارجها.

لقد انصب اهتمام التوليديين على صياغة قواعد عامة يمكن أن تشمل سائر اللغات، وصياغة مثل تلك القواعد تفرض الاستناد إلى نماذج مفترضة مستنبطة وفقا لمعايير منطقية ورياضية.

غير أن التغيير الذي طبع النظرية اللسانية مع تشومسكي لا يمكن أن يحجب عنا إفاداته من مدارس لسانية سابقة كالتوزيعية (Distributionalisme)، ممثلة في ما قدمه هاريس (Z.S. Harris)، الذي اتجه اتجاها مباينا لاتجاه أستاذه بلومفيلد (L. Bloomfield)، وخصوصا ما اعتمده في وصف اللغة من طرائق تحويلية.

(*) أستاذ اللسانيات - كلية الآداب - جامعة ابن زهر - أكادير - المغرب.

ونجد من لا يتوانى في ربط النظرية التوليدية بالبنيوية، ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى أن بياجي يطلق على الاتجاه التوليدي «**البنيوية التحويلية**»، في إشارة واضحة إلى العلاقة بين الاتجاهين.

لقد انشد كثير من الباحثين إلى هذا التوجه الجديد الذي عرف طريقه إلى ثقافات عديدة، ولم تكن الثقافة العربية لتشكل استثناء في هذا المجال. فقد عرفت النظرية التوليدية طريقها إلى ثقافتنا في بداية السبعينيات من القرن العشرين، كما عرفت تطبيقات مهمة على اللغة العربية. غير أن السمة البارزة التي ظلت تطبع الكتابة اللسانية التوليدية العربية هي التفاوت:

١ - من حيث قيمتها ومستواها العلمي.

٢ - من حيث النماذج التوليدية المؤطرة لها.

من حيث القيمة العلمية يمكن التمييز:

بين ما هو تبسيط للنماذج التوليدية، وما هو تطبيق لهذه النماذج على اللغة العربية، وما هو إبداع في الكتابة اللسانية التوليدية العربية يساهم في إغناء النماذج التوليدية واللسانيات العربية على حد سواء[١]. فما هي أهم الخصوصيات التي وسمت الاتجاه التوليدي في الثقافة العربية؟

١ - النماذج التوليدية في الثقافة العربية

إن المتتبع لمسار الدرس التوليدي في المجال العربي لا يجد «إلا القليل من الدراسات العربية التي تقدم فعلا افتراضات جديدة بشأن بنيات العربية من منظور توليدي، وتعكس مجهودا عربيا فيه أصالة وإبداع يضع الدرس اللساني العربي في إطار عالمي. وتكاد هذه المساهمات تنحصر في بعض الأسماء العربية»[٢]، وفي بعض النماذج. وعموما يمكن أن نميز في الكتابة التوليدية العربية بين:

- **محاولات جزئية**: ونقصد بها تلك المحاولات التي ركزت اهتمامها على نموذج أو أكثر من النماذج التوليدية وسعت إلى تطبيقه(ها) على اللغة العربية، ومن أهم النماذج التي استأثرت باهتمام التوليديين العرب: النموذج المعيار، والنموذج المعيار الموسع، ونحو الأحوال، والنظرية الدلالية التصنيفية.

- **محاولات شمولية**: وتظهر شموليتها في متابعتها للتطورات المتلاحقة التي عرفتها النماذج التوليدية، مع تحديث الآلة الواصفة لمعطيات اللغة العربية، والانخراط في مستجدات الأسئلة التي أفرزها الخطاب اللساني الغربي المعاصر، والتوليدي منه بشكل خاص.

١ - ١ - المحاولات الجزئية(*)

١ - ١ - ١ - النموذج المعيار والنموذج المعيار الموسع

نمثل لحضور النموذج المعيار، والنموذج المعيار الموسع في الثقافة العربية بنموذجين دالين هما داود عبده وميشال زكريا.

١ - ١ - ١ - ١ - داود عبده

يعتبر داود عبده واحدا من أوائل اللسانيين العرب الذين استلهموا مبادئ النظرية التوليدية، تشهد على ذلك مؤلفاته[٣] التي تجمع بين الدراسات الصوتية والدراسات التركيبية، وهي دراسات ركزت على تجاوز القصور الذي طبع الاتجاه الوصفي، يقول عبده «ويخيل إلي أن عددا من هؤلاء اللغويين المعاصرين قد بلغ في التعصب للمنهج «الوصفي» حد التطرف، فكاد يجرد علم اللغة مما يستحق أن يسمى من أجله علما. فإذا كانت غاية علم اللغة الوصف فقط، فلأي علم تنسب تفسير الظواهر اللغوية المختلفة؟ (...) في اللغة نحن نحتاج إلى عالم لغوي لكي يذكر لنا «أن الفعل الثلاثي في العربية يأتي على أوزان مختلفة: كتب، قام، باع، مد، قضى، غزا، نسين، ولكل من هذه الفئات تصريف خاص قائم بذاته». فأي عربي مثقف يستطيع أن يلاحظ هذا. ما نحتاج إليه هو تفسير عدد من الظواهر المتعلقة بهذه الأفعال»[٤].

إن اعتماد التفسير في التحليل والاستعاضة به عن الوصف، يعني انخراطا واضحا في المنهج التوليدي، ويبدو ذلك واضحا في دراسات داود عبده الصوتية والتركيبية.

أ - الدراسات الصوتية

أفرد داود عبده كتابا خاصا لدراسة أصوات العربية، اختار له عنوان: «دراسات في أصوات العربية»، وفي ذلك إشارة واضحة إلى الأهمية التي يوليها للجانب الصوتي. وإذا كان عبده يدعو إلى تجاوز الوصف إلى التفسير دون إعلان صريح عن الانتساب إلى الاتجاه التوليدي، فإن المتابعة الدقيقة لكتاباته تتم عن وعي صحيح، وانتماء صريح إلى المدرسة التوليدية، التي استلهم الكثير من مفاهيمها، خصوصا تلك التي تضمنها النموذج المعيار، والنموذج المعيار الموسع.

أولى تشومسكي أهمية خاصة للمكون التركيبي في أبحاثه، وركز فيه على القواعد الأساس والقواعد التحويلية، فإذا كانت القواعد الأساس تصنف البنية المكونية للجملة (البنية العميقة)، فإن المكون التحويلي يحتوي على قواعد تستقبل البنى العميقة وتخضعها لبعض التغييرات (أو التحويلات) لتمررها بعد ذلك لمكونات لسانية أخرى، وقد بين تشومسكي في النموذج المعيار أن هناك أربعة أنواع من التحويل هي: الحذف، والتعويض، والإضافة، والقلب. وقد جاءت تحليلات داود عبده متضمنة للمبادئ التي ركز عليها تشومسكي، ويظهر ذلك في توظيفه لمفهوم «البنية

(*) عندما نصف هذه المحاولات بالجزئية، فإننا نعني بذلك التقليل من أهميتها وفي عمقها التحليلي، الفصل المنهجي بالدرجة الأولى.

العميقة والبنية السطحية» في تفسير بعض قضايا اللغة العربية. يقول: «يتطلب التفسير الصحيح لكثير من قضايا اللغة العربية أن نرد كثيرا من الكلمات إلى أصل أو بنية تحتية Underling structure تختلف عن ظاهر اللفظ (...). فالفعل ردّ، مثلا، يجب اعتبار أصله رَدَدَ، وكذلك يجب اعتبار البنية التحتية لكلمة يَرُدُّ: يَرْدُدُ، واحس: احسس، ويحس: يحسس، واحتل: احتلل، واستمر: استمرر، وأسنة: أسننة، ومفر: مفرر، ومجن: مجنن، واعز: أعزز...إلخ»[٥].

وقد وظف مفهوم «البنية العميقة، والبنية السطحية» أيضا، في الفصل الرابع من كتابه المذكور أعلاه لدحض تصور بعض اللغويين العرب للألف[٦].

وقد خلص إلى طرح وجهة نظر مختلفة في الموضوع، إذ «الألف في الأفعال المزيدة واسم الفاعل والمثنى، وكل ألف ليست «بدلا من واو أو ياء بعامة، هي في الأصل همزة. أي أن البنية التحتية لصيغة فاعل: فأعل، ولصيغة أفعال: افعالل، ولصيغة يفعلان: يفعلأن، وأن الهمزة سقطت من هذه الصيغ، وأطيلت الفتحة السابقة لها (كما سقطت الهمزة من مثل: أامن، مثلا، وأطيلت الفتحة السابقة فأصبحت آمن، وكما سقطت الهمزة وأطيلت العلة السابقة لها في مثل راس وبير وشوم في اللهجات المحلية). فكانت الألف التي نجدها في هذه الصيغ»[٧].

ب - الدراسات التركيبية

إلى جانب اهتمام عبده بالدراسات الصوتية قدم مجموعة من البحوث التركيبية، حاول، من خلالها، استلهام بعض مفاهيم النظرية التوليدية لتحليل جوانب من التركيب في لغة الضاد. وقد استأثرت باهتمامه قضية تركيبية شكلت منطلق دراسات وبحوث تركيبية عديدة في مرحلة السبعينيات، وأعني بذلك قضية الرتبة.

ينتهج عبده في مقارباته خطة منهجية تتسم بعرض التصورات المعروفة في الموضوع، وخلق فرضيات حولها، قبل أن يعود لدحضها، وطرح التصور البديل عنها. وهذا ما يظهر من تحليله للرتبة.

إذا كان اللغات تختلف في ترتيب مكونات جملها، بالنظر إلى موقع الفعل، والفاعل، والمفعول، فإن النظر في تراكيب اللغة العربية يظهر أنها تجيز الأنواع التالية من الترتيب في الجملة «الفعلية»[٨]:

١ - فعل - فاعل - مفعول ← (قرأ الرجل الصحيفة).
٢ - فاعل (مبتدأ) - فعل - مفعول ← (الرجل قرأ الصحيفة).
٣ - فعل - مفعول - فاعل ← (قرأ الصحيفة الرجل).
٤ - مفعول - فعل - فاعل ← (الصحيفة قرأ الرجل).
٥ - مفعول - فاعل - فعل ← (الصحيفة الرجل قرأ).

وإذا كانت العربية تسمح بهذه الإمكانات من الترتيب، فإن الجمل السابقة تبقى «لها بنية داخلية (أو عميقة تحتية)، وهناك قواعد تحويلية تعيد ترتيب المكونات الثلاثة في البنية الداخلية بطرق تؤدي إلى البنى الخارجية (أو السطحية)، أي ظاهر اللفظ»[9].

إن معظم اللسانيين الذين تناولوا هذا الموضوع اعتبروا البنية الأصلية للجملة العربية هي: فعل - فاعل - مفعول، ومن هؤلاء الفاسي الفهري وميشال زكريا، وخليل عمايرة، غير أن باحثين آخرين، ومنهم داود عبده يميلون إلى اعتبار الترتيب الأصلي هو: فاعل - فعل - مفعول، وهذا ما سعى عبده إلى البرهنة عليه، حيث اهتم بالحجج التي يقدمها المدافعون عن تصور البنية الداخلية للجملة العربية: **فعل - فاعل - مفعول**. ومما انتهى إليه أن القواعد التحويلية، التي نحتاج إليها، إذا اعتبرنا تلك البنية، «تصبح أكثر تعقيدا من جهة وتشمل قاعدة إلزامية (وهي صفة غير مستحبة في القواعد التحويلية) من جهة أخرى»[10]. ومن أهم الأسباب التي تؤيد اعتبار البنية الداخلية هي: فاعل - فعل - مفعول، في نظره، ما يلي:

1 - أن الفعل مكون جملي واحد:

إن اعتبار البنية الداخلية للجملة الفعلية في العربية: فعل - فاعل - مفعول يعني أن الفعل والمفعول به ليس مكونا جمليا واحدا، فإذا تبين أن هناك ما يدعو إلى اعتبارهما كذلك، فإن الافتراض أن البنية الداخلية هي فعل - فاعل - مفعول ينهار من أساسه[11].

2 - الأفعال التي تتعدى بحرف جر:

لاحظ عبده وجود أفعال تتعدى بحرف جر، كما هو معروف، مثل أجاب عن السؤال، **اعترف** بذنبه، رغب عن الجائزة، وافق على القرار، ... إلخ. وحرف الجر في الأمثلة السابقة يشكل مع الفعل مكونا جمليا واحدا، وهو يختلف اختلافا جذريا عن حرف الجر في مثل: جلس على الكرسي، أو بقي في البيت (لاحظ أنك تستطيع أن تقول: قعد على الكرسي، وقف على الكرسي، نام على الكرسي، ... إلخ. كما تستطيع أن تقول: جلس فوق الكرسي، جلس تحت الكرسي، ... إلخ. ولكنك لا تستطيع أن تقول: قبل على القرار، رفض على القرار، ولا وافق فوق القرار. **فـ على مرتبطة بـ وافق، ولكنها ليست مرتبطة بـ جلس أو قعد أو نام أو وقف**).

فإذا اعتبرنا البنية الداخلية للجملة الفعلية: فعل - فاعل - مفعول فإن أصل الجملة مثل: **وافق الرجل على القرار يصبح: وافق على الرجل القرار**، ويعني هذا أننا نحتاج إلى قاعدة تنقل حرف الجر إلى ما قبل المفعول:

وافق على الرجل القرار ← وافق الرجل على القرار.

وهذه القاعدة تتصف بصفتين غير مرغوب فيهما: الأولى أنها إلزامية، والثانية أنه لا يحتاج إليها في غير هذا الموضع[12].

٣ - الأفعال المساعدة:

يمثل الباحث للأفعال المساعدة بـ: أخذ وراح (أخذ يقرأ، راح يقرأ) وكان وأخواتها، وهي أفعال تشكل مع الفعل الذي يليها مكونا جمليا واحدا. ومن هذا المنطلق إذا تصورنا البنية الداخلية للجملة الفعلية هي فعل - فاعل - مفعول فهذا يعني أن أصل الجملة من قبيل:

٦ - أخذ الرجل يقرأ الصحيفة.

٧ - وكان الرجل يقرأ الصحيفة هو:

٨ - أخذ يقرأ الرجل الصحيفة.

٩ - وكان يقرأ الرجل الصحيفة.

أي أننا بحاجة إلى قاعدة إلزامية تنقل الفعل إلى يسار الفاعل (أو الفاعل إلى يمين الفعل) وهي قاعدة لا حاجة إليها. وعلى العكس من ذلك إذا كانت البنية الداخلية هي فاعل - فعل - مفعول فإن كل ما نحتاج إليه هو قاعدة اختيارية تنقل الفعل إلى يمين الفاعل (أو الفاعل إلى يسار الفعل المساعد):

١٠- الرجل أخذ يقرأ الصحيفة ← ١١ - أخذ الرجل يقرأ **الصحيفة**.

١٢ - الرجل كان يقرأ الصحيفة ← ١٣ - كان الرجل يقرأ **الصحيفة**.

ويبدو في نظر عبده أن المكون القاعدي والقاعدة التي تنقل الفعل دون حرف جر أو الفاعل على يسار الفعل قبل حرف جر، قاعدتان لا يحتاج إليهما إلا في هذين الموقعين. ولكنهما في الحقيقة ليستا قاعدتين منفصلتين عن القاعدة العامة التي تنقل الفعل اختياريا إلى يمين الفاعل (أو الفاعل إلى يسار الفعل). فالقاعدة العامة يمكن صياغتها بطريقة تنطبق على الحالات الثلاث. فسواء أكان الفعل مؤلفا من جزاين (فعل + حرف جر أو فعل مساعد + فعل)، أو من جزء واحد (الفعل + لا شيء)، فإن القاعدة تنص على أن ما ينقل اختياريا إلى يمين الفاعل هو الجزء الأول فقط، أي أول فعل (أو فعل مساعد) يقع إلى يسار الفاعل (أو أن الفاعل ينقل على يسار الجزء الأول):

١٤ - الرجل وافق + على القرار ← ١٥ - وافق الرجل على القرار

١٦ - الرجل أخذ + يقرأ الصحيفة ← ١٧ - أخذ الرجل يقرأ الصحيفة.

١٨ - الرجل يقرأ + (لا شيء) الصحيفة ← ١٩ - يقرأ الرجل الصحيفة[٢٢].

٤ - المساواة بين الجملة الاسمية والفعلية:

يشير داود عبده إلى الإجماع الحاصل في كتب النحو على أن المبتدأ يسبق الخبر، وبما أن الأمر كذلك فلماذا يختلف الأمر في جملة مثل:

٢٠ - وصل زيد أو ٢١ - أقرأ زيد الصحيفة؟

ويتساءل: «أليس الأصل في الجملتين السابقتين أن نخبر بالأول عن زيد بأنه وصل وبالثانية عن أنه قرأ الصحيفة، تماما كما أن أصل **هناك رجل**، مثلا هو **رجل هناك**، وأصل **في البيت رجل** هو **رجل في البيت**؟ وكما أن هناك قاعدة تحويلية تنقل المبتدأ إلى نهاية الجملة (أنه نكرة) فكذلك في الجملة «الفعلية» قواعد تنقل عناصرها من موقع إلى آخر لأسباب مختلفة»[14].

إن اعتبار الأصل في الفاعل وقوعه قبل الفعل (بصرف النظر عن الاسم الذي نطلقه عليه) يجعل الجمل العربية نوعا واحدا يتألف من مبتدأ وخبر، بدل نوعين: اسمية وفعلية. كما أنه يوجد بين بعض الظواهر المتشابهة. فوجوب وقوع المبتدأ بعد الخبر في مثل **وصل رجل** أو **في البيت رجل**، لا يختلف عن وجوب وقوع الفاعل بعد الفعل، في مثل **وصل رجل** فالسبب، في الحالتين أن الاسم نكرة:

رجل	{ هناك / في البيت / وصل }	←	{ هناك / في البيت / وصل }	رجل

يستنتج داود عبده من خلال ما سبق أن الرأي الشائع حول البنية الداخلية للجملة التي تحتوي على فعل في العربية، وهي فعل - فاعل - مفعول، يقوم على أسس غير ثابتة، وأن هناك من الأدلة ما يكفي لترجيح الرأي الآخر القائل بأن البنية الداخلية هي فاعل - فعل - مفعول[15].

ويظهر من تحليل داود عبده، وتوظيفه لبعض المفاهيم مثل: البنية الخارجية، البنية الداخلية، قواعد تحويلية، قواعد اختيارية، قواعد إلزامية... تمثله الصحيح للنظرية التوليدية ولمفاهيمها الموظفة بشكل خاص في النموذجين المعيار والمعيار الموسع.

١-١-١-٢ - ميشال زكريا

تتميز كتابات ميشال زكريا[16] بعرضه المفصل للقواعد التوليدية التحويلية والتمثيل لها من معطيات اللغة العربية، ومن أبرز تحليلاته ما تعلق بدراسة الجملة. فقد أشار إلى الأهمية البالغة التي تتخذها إعادة كتابة الجملة في القواعد التوليدية والتحويلية من حيث إنها القاعدة الأساسية التي تنطلق منها بقية القواعد في البنية العميقة. فالجملة من هذه الزاوية، هي الوحدة الأساسية التي تقوم عليها هذه القواعد[17]، كما أشار إلى مفهوم الجملة عند اللغويين العرب، وقد لخص نظرتهم إليها في التعريف الآتي: «الجملة هي اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عنها». إن هذا التعريف الذي أورده ابن هشام الأنصاري في أوضح المسالك، تبناه في دراسته حيث لاحظ صورة مشابهة له عند اللسانيين المعاصرين، من أمثال هاريس[18].

وبعد أن عرض زكريا للعلاقة الوثيقة بين الجملة الاسمية والجملة الفعلية، انتهى إلى أنها قسم واحد وهو الجملة الفعلية[19].

من المسائل التي عالجها زكريا أيضا قضية الرتبة تحت عنوان كبير: «ترتيب العناصر اللغوية في البنية العميقة»، ومما انتهى إليه أن ترتيب عناصر الجملة في اللغة العربية ليس ترتيبا حرا، بل هو ترتيب محدد بصورة أساسية، ويبرهن على صحة هذا النمط بمجموعة من الحجج[٢٠].

وتقوم مؤلفات الجملة عند زكريا على ركنين: ركن الإسناد، وركن التكملة. أما ركن الإسناد فتبينه القاعدة:

ركن الإسناد ← ركن فعلي + ركن اسمي + ركن اسمي + ركن حرفي.

ويستدل على اعتماد قاعدة ركن الإسناد السابقة على القضايا التالية:

١ - ترتيب عناصر الجملة في البنية العميقة.

٢ - العلاقات القائمة بين الفعل وفاعله.

٣ - التقليد اللغوي العربي.

٤ - الركن الحرفي المرتبط بصورة وثيقة بالفعل.

أما ركن التكملة فيتكون من عناصر لا ترتبط مباشرة بالفعل، إنما تعود إلى الجملة كلها. أما الاسم المجرور في ركن التكملة فلا يمكن نقله إلى موقع الابتداء.

كما يصف زكريا البنية العميقة للجملة العربية باستخدام سمات الركن الفعلي بين: زمنه، وتعديته، ولزومه، وما ينتج عنه...[٢١].

ويستخدم سمات أخرى للركن الاسمي تبين: تعريفه وتنكيره، وإفراده وتثنيته وجمعه، وتذكيره وتأنيثه...[٢٢].

وقد تحدث زكريا أيضا عن سمات أخرى للحرف العربي، لا تبتعد كثيرا عن معاني حروف الجر في النحو العربي[٢٣].

وفي ختام حديثه عن الجملة تناول موضوع «النعت»، ورأى أنه يعمل عمل الفعل في الجملة[٢٤]، ومثل لذلك بالجمل الآتية:

٥ - الرجل كريم.

٦ - الرجل جالس.

٧ - الرجل مضروب.

٨ - الرجل قتال[٢٥].

يتبدى من خلال هذه الأمثلة، أن المورفمات «كريم»، «مضروب»، «جالس»، «قتال»، يشابه عملها عمل الفعل، ودليله على ذلك أنه يظهر التوزيع نفسه الذي يظهره الفعل. إذ بالإمكان، في كل جملة من الجمل السابقة، استبدال النعت بفعل والحصول على جملة أصولية، كما تظهر هذه الجمل:

٩ - الرجل كرُم.

١٠ - الرجل جلس.

١١ - الرجل ضرب.

١٢ - الرجل قتل.

نستنتج من تحليل زكريا لمعطيات اللغة العربية إفادته الواضحة من معطيات النظرية التوليدية، وخصوصا ما سطره تشومسكي في نماذجه الأولى، ويبرز ذلك بشكل جلي في تركيزه على عناصر التحويل، ودراسة البنية المكونية، ومعالجة القواعد الأساس بما فيها قواعد إعادة الكتابة لتنظيم المعطيات التركيبية... وعلى الرغم من التمثل الدقيق لهذه العناصر، فإن زكريا أهمل عناصر أخرى، مما يسمح به عنصر التحويل مثلا[٣٦].

١ - ١ - ٢ - نحو الأحوال:

يمكن أن نمثل لنحو الأحوال في الكتابة التوليدية العربية بما كتبه الخولي محمد علي:

١ - ٢ - ١ - ١ - الخولي محمد علي:

إذا كان داود عبده ضنينا بمصادره التوليدية، فإننا نجد من التوليديين العرب من لا يتوانى في الإعلان عن النموذج التوليدي الذي يؤطر عمله، وهذا ما نجده عند الخولي محمد علي، الذي وجد فرضيات نظرية فيلمور (C. Fillmore)، المعروفة بنحو الأحوال Grammaire des cas، والمطورة عن نظرية تشومسكي في نموذجها الثاني، أكثر ملاءمة للعربية لبساطتها[٣٧].

وتتألف فرضية فيلمور كما عرضها الخولي من خمس قواعد:

١ - الجملة ⟵ (مشروطية) + مساعد + جوهر.

٢ - المشروطية ⟵ روابط خارجية، ويقصد بها الكلمات التي تربط بين هذه الجملة وسابقتها، مثال ذلك قولنا: ولهذا، بناء على ذلك... وتشمل أيضا ظروف الزمان وأدوات الاستفهام وأدوات النفي.

٣ - الجوهر ⟵ فعل + (محور) + (مفعول به غير مباشر) + (مكان) + (أداة) + (فاعل).

٤ - المحور ⟵ العبارة الاسمية، ويقصد بها تكوّن من اسم وتوابعه.

٥ - العبارة الاسمية ⟵ حرف جر + (معرف) + اسم + جملة[٣٨].

بالنظر إلى هذه القواعد، نجد أن أهم ما يميز محاولة الخولي هو التعديل الذي أدخله على فرضية فيلمور، وتحديدا على القانون الخامس، بتغيير موقع (جملة) ليصبح بعد «اسم»، ليصير متوافقا مع معطيات اللغة العربية.

فاعتمادا على فرضية فيلمور، والتعديل المقترح، درس الخولي عينة من الجمل العربية حصرها في اثنتين وخمسين جملة، ونمثل هنا بتحليله لجملة:

٦ - ما أجمل البيت.

فقد وصف الخولي هذه الجملة هكذا:

ما + أجمل + البيت.

فاعل + مساعد، فعلية + محور.

ثم حدد للمفردات، اسما كانت أو فعلا أو حرفا أو أداة، سمات معينة[٣٩]، فصاغ ستة وثلاثين قانونا تحويليا[٣٠]، منها:

القانون التحويلي الخامس: (إجباري)، تقديم الفاعل أم المحور.

الوصف التركيبي ← : مساعد + فعلية + فاعل أو محور.

التغيير التركيبي ← : مساعد + فاعل + أو محور + فعلية.

مثلا يكون + ضحوك + الولد.

يكون + الولد + ضحوك.

ثم تعقب ذلك تحويلات يؤول بواسطتها التركيب إلى: الولد ضحوك. ومن تلك التحويلات، حذف «يكون» وإدخال الحركات.

نتبين من تحليلات الخولي وتعديلاته أنه استطاع أن يكيف الكثير من نظرية فيلمور مع معطيات اللغة العربية، ومع ذلك فإن ما قدمه يبقى من الصعب تعميمه على كل معطيات لغة الضاد.

١ - ١ - ٣ - النظرية الدلالية التصنيفية

١ - ١ - ٣ - ١ - مازن الوعر

اعتمد مازن الوعر النظرية الدلالية التطبيقية التي وضعها والتر كوك (W. Cook) سنة ١٩٧٩ إطارا نظريا. تهدف هذه النظرية إلى تقديم جملة من المعايير الدلالية لوصف المضمون الدلالي للتراكيب. وهي عبارة عن «نظام من الأدوار الوظيفية الدلالية التي تمنح من خلال اعتبار الفعل محورا للعمليات الدلالية، وتمكن من معرفة أنواع الفعل من خلال الصفات المميزة له.

في هذا الإطار يفرق بين المميزات الدلالية المرتبطة بالفعل وبين الأدوار التي تحدث مع الاسم. والمميزات الدلالية عمودية وأفقية. وتكون العمودية إما كونية وإما إجرائية وإما حركية. فالمميز [+ كوني] يتطلب دورا دلاليا يعبر عنه بموضوع ثبوتي. أما المميز الدلالي [+ حركي] فيتطلب دورين دلاليين وظيفيين يعبر عنهما بالفاعل والموضوع.

أما أفقيا فيتطلب المميز الدلالي [+ شعوري] دورا دلاليا وظيفيا يعبر عنه بالمجرب، بينما يتطلب المميز الدلالي [+ استفادة] دورا وظيفيا يعبر عنه بالمستفيد، ويتطلب المميز الدلالي [+ مكاني] دورا دلاليا وظيفيا يعبر عنه بالمكان»[٣١].

استنادا إلى التقسيم السابق تميز النظرية الدلالية التصنيفية عموديا بين ثلاثة أنواع من الأفعال: أفعال كونية، وأفعال إجرائية، وأفعال حركية، وأفقيا بين أربعة أنواع من الأفعال: أفعال أساسية، أفعال شعورية وأفعال استفادة وأفعال ظرفية (مكانية).

أما الأدوار الدلالية الوظيفية المرتبطة بالاسم فهي نوعان: «الأدوار الدلالية السطحية التي تحدث في البنية العميقة والبنية السطحية وجوبا، والأدوار الدلالية المستترة التي تحدث في البنية العميقة، ولكن يمكن أن تحدث في البنية السطحية ويمكنها ألا تحدث»[٣٢].

يرى مازن الوعر أن التراكيب في العربية قسمان: التركيب الاسمي والتركيب الفعلي، وهو تمييز قائم على «وجوه براجماتية - وظيفة دقيقة لتحديد المعنى»[٣٣]. كما أن مفهوم المسند (م) والمسند إليه (م إ) والفضلة (ف) تمثل في نظره حجر الأساس في النظرة اللسانية العربية للتراكيب، والعلاقة التي تربط بين هذه المكونات تدعى الإسناد (إس)[٣٤]. إن انتظام هذه الأركان ينتج حاصلا لغويا هو الكلام (ك):

التركيب الفعلي (م...م إ...ف).

التركيب الاسمي (م إ...م...ف).

وتستند الحقيقة النظرية اللسانية العربية إلى مفهوم العامل والمعمول، فتحليل النحاة للتراكيب كان من «وجهة نظر علائقية وذلك لطبيعة العامل والمعمول»[٣٥]. أما الوجوه الدلالية والوظيفية للتراكيب فقد أغفلوها ولم يناقشوها «مناقشة مستفيضة، وذلك لأنهم كانوا مهتمين بشكل خاص بالتحليل البنيوي الشكلي للغة العربية»، في حين تركوا أمر الدلالة والوظيفة للبلاغيين «الذين شرحوا بشكل مستفيض وموسع الوجوه الدلالية والوظيفية للتراكيب الأساسية في اللغة العربية»[٣٦].

وتظهر إفادة الوعر من نظريتي تشومسكي وكوك في عرضه لـ «الافتراضات النحوية والدلالية للبنية العميقة أو المقدرة للتركيب العربي»[٣٧]. وفي هذا الإطار يقدم ركنا آخر يمكنه أن يحول التركيب الأساسي في العربية إلى تراكيب مشتقة جديدة، ويسمى هذا الركن الأداة (أد)، ويمكن أن يكون: أداة استفهام، أو أداة نفي، أو أداة شرط... أو نحو ذلك، ولذا تكون القاعدة التالية هي التي تولد التراكيب الأساسية في اللغة العربية:

ك ———→ أد - إس

ويتمثل الإسناد (إس في التركيبين: الفعلي والاسمي، ويضيف تركيبا آخر إلى التركيبين الاسمي والفعلي، هو التركيب الكوني، في نحو: زيد شاعر، زيد في المكتبة، زيد هنا. ويتألف من:

[إس ....إم .... م (X)]

فالمقولة «X» قد تكون اسما أو صفة أو جارا أو مجرورا أو ظرفا. وشرط هذا التركيب أن يحذف الفعل (يكون منه وجوبا، إلا إذا كان في الزمن الماضي (كان) أو في الزمن المستقبل

(اسيكون))[٣٨]، والتقدير في الأمثلة السابقة: زيد يكون (هو) شاعر، زيد يكون (هو) في المكتبة، زيد يكون (هو) هنا.

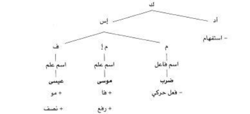
ويعلن الوعر أنه سيصف البنية العميقة (المقدرة) للتركيب العربي مستخدما الأدوار الدلالية التي اقترحها كوك في منهجه الدلالي التصنيف، وهي: فاعل (فا)، مجرب (مج)، مستفيد (مس)، مكان (مك)، موضوع (مو)، بالإضافة إلى استخدامه الحركات الإعرابية: رفع، نصب، جر. فبتطبيق المنهج المذكور على التركيبين:

١ - ضرب الموسيان العيسيين.

٢ - أضارب موسى عيسى؟

ستكون البنية العميقة والسطحية لهذين التركيبين كما هي عليه في الشكلين:





من القضايا الأساسية الأخرى التي عالجها الوعر في إطار هذا التصور، قضية التقديم والتأخير في التراكيب العربية: الفعلية والاسمية والكونية.

يبين التركيب الفعلي أن الحركة التحويلية للفضلة (ف) حركة مسموح بها، إلى يمين الفعل أو إلى يساره، ضمن نطاق الإسناد (إس) مع الاحتفاظ بوظيفتها الدلالية وحركتها الإعرابية كما في الأمثلة التالية:

٣ - ضرب زيد أخاه.

٤ - ضرب أخاه زيد.

٥ - أخاه ضرب زيد.

غير أن هذه الحركة تصبح ممتنعة إذا تخلل التركيب لبسا دلاليا، أو أنتجت تركيبا غير نحوي. أما الحركة التحويلية للفاعل فغير مسموح بها: لأن الفعل والفاعل، في رأيه يشكلان «وحدة لسانية لا يمكن تجزئتها». وهذه الوحدة وكل من: الجار والمجرور، والتابع والمتبوع، والصلة والموصول، والمضاف والمضاف إليه، تعد مركبات متلازمة، تندرج تحت مبدأ عام هو ما يسميه الوعر «مبدأ المقولة المتلازمة». هذا المبدأ الذي ينص على وجوب أن تنقل القاعدة التحويلية المتلازمة برمتها .أما الحركة التحويلية في هذه البنيات الجملية الاسمية ذات الخبر الفعلي (م ! - م - م ! - ف)، كما هو الحال في:

٦ - زيد ضرب عمرا.

وذات الخبر الاسمي (م ! - م ! - م): نحو:

٧ - زيد أبوه شاعر.

فتكون ضمن تركيب الخبر، حيث يقال في الأول:

٨ - زيد عمرا ضرب.

وفي الثاني:

٩ - زيد شاعر أبوه.

فما يتعلق بالتراكيب، فإن الذي يتحرك فيها هو الخبر أيضا، كما يظهر في الجملة: شاعر زيد.

والبنية العميقة للتركيب الكوني: **شاعر زيد**.

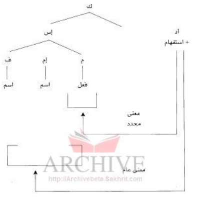
هي: «يكون» «هو» شاعر زيد.

إلى جانب القضايا المتحدث عنها آنفا عالج الوعر التراكيب الاستفهامية بقسميها:

أ - **التصديقي**: الذي يحدث بواسطة «الهمزة» و«هل».

ب - **والتصوري**: الذي يكون بأدوات الاستفهام الأخرى.

فالدور الذي تقوم به أدوات الاستفهام هو أنها تغير التركيب الأساسي إلى تركيب مشتق، كما يظهر الشكل:



يوضح هذا الشكل، من خلال البنية العميقة، الدور الدلالي الذي تقوم به أداة الاستفهام، حيث يظهر أن أدوات الاستفهام تؤدي دورين دلاليين:

أ - تحول المعنى العام في التركيب الأساسي المثبت إلى المعنى الاستفهامي في التركيب المشتق.

ب - تحدد الدور الدلالي للركن اللغوي المستفهم عنه، سواء أكان فعلا أم اسما، ومن كل ذلك يخلص الوعر إلى أن «أدوات الاستفهام في اللغة العربية تعتبر أدوات تحويل، ولها وظيفة دلالية بحتة»[٣٦].

يتحدث الباحث بعد ذلك عن الاستفهام التصديقي، فيذكر أن العربية تستعمل أداتين تحويليتين للتعبير عنه، هما: «الهمزة» و«هل»، ويذكر الصفات النحوية التي تشترك فيها هاتان الأداتان والصفات التي تختلفان فيها. أما في ما يخص الاستفهام التصوري، الذي يحدث بأدوات أخرى، مثل: متى، أين، كيف، ماذا...، فيقترح لهما وضعين:

١ - وضع: م إ، ويتحقق في التركيب الاسمي، نحو: من جاء؟ والكوني: من في الدار؟ فالركن الاستفهامي يقع تحت المستوى «م إ»، وبهذا لا تكون حركة تحويلية لصياغة التركيب الاستفهامي.

٢ - وضع: ف، ويقع في مواضع مختلفة تحت المستوى «إس»، ثم ينتقل إلى المستوى «+استفهام»، ومثاله: من ضرب زيد؟[٤٠].

هذه مجمل اقتراحات مازن الوعر في إطار نموذج النظرية الدلالية التصنيفية كما أطرتها أعمال اللساني والتر كوك، ويظهر، من تتبعنا لاقتراحاته وتحليلاته، أنه حاول أن يوائم بين كثير من جوانب هذه النظرة ومعطيات اللغة العربية، ومع ذلك فإن بعض عناصر التحليل (الحذف، الزيادة..) التي تسمح بها نظرية الدلالة التصنيفية تبقى غائبة في تحليلات الوعر[٤١].

ننتهي من عرضنا للمحاولات الجزئية في الكتابة التوليدية العربية إلى أن بعضها يفتقر إلى الشروط الإبيستمولوجية لصياغة القواعد، كما هو معمول به في النظرية التوليدية، ونجمل أهم الإشكالات المطروحة في:

- عدم تحليل معطيات اللغة العربية تحليلا ضافيا.
- غياب الشمولية.
- التعامل مع المعطيات بانتقائية واضحة.
- تمثل الظواهر المدروسة بشكل سطحي.
- عدم تبني النموذج في كليته والاقتصار على مكون من مكوناته (المكون التحويلي أو البنية المكونية).

٢ - ١ - المحاولات الشمولية

إن أهم ممثل للمحاولات الشمولية في الكتابة اللسانية التوليدية العربية هو عبدالقادر الفاسي الفهري، ونعتبره كذلك لعدة اعتبارات يمكن أن نجملها في ما يلي:

أولا: طرح الفاسي الفهري قضايا تحديث الآلة الواصفة لمعطيات اللغة العربية، وذلك بالانخراط في مستجدات الأسئلة التي أفرزها الخطاب اللساني الغربي، والتوليدي منه بشكل خاص.

ثانيا: انطلق من وعي إبيستمولوجي يحرك البحث ويدفعه إلى تقدم الدرس اللساني، عربيه وغربيه، ويتمثل في ضرورة الفصل بين صنفين من اللسانيات: لسانيات ظواهر: تفرز خصائص أنحاء اللغات الطبيعية، ولسانيات محاور تؤرخ لمنجزات الدرس النحوي القديم بتوظيف آليات نظرية وتحليلية ناضجة إبيستمولوجيا، حتى إذا طرحت قضايا معينة لا تصاغ وفق مفاهيم واستدلالات القدماء، وإنما تطرح بجهاز استدلالي يستوفي شروط المعايير العلمية الكامنة في التنظير اللساني الحديث.

ثالثا: وضعه لبرنامج عمل في الخطاب اللساني العربي يتجاوز الكلام المكرور أو الأيدلوجي للتدقيق في قضايا تتوزع على قطاعات معرفية متبادلة (علم اللغة، علم الاجتماع اللغوي، اللسانيات التطبيقية، علم النفس اللغوي..)، وتكمن الخطوط العريضة لهذا البرنامج في ما يلي:

- بناء نماذج آلية وحاسوبية لإدراك اللغة واستعمالها تسترشد بالنماذج النفسية في إطار إدراك آليات اكتساب اللغة وتعلمها.
- التأريخ للنحو العربي القديم بتوظيف منهجية المحاور التي وظفها هولطن.
- استثمار نتائج اللسانيات النظرية في قضايا تدريس اللغة العربية.

وقد انخرط الباحث عبر مشاريعه العلمية في بناء أوصاف دقيقة لظواهر من اللغة العربية (صرفا، وتركيبا، ومعجما، ودلالة). ولم يكتف بالبحث في قضايا اللغة العربية اللسانية، بل أثار قضايا تهم التخطيط اللغوي والتوظيف الحاسوبي للغة العربية.

إن متابعة دقيقة لما راكمته أبحاث الفاسي الفهري تبين أن معظم القضايا التي أثارها جاءت مواكبة لتطورات الدرس التوليدي، وأيضا للقضايا التركيبية والصرفية والمعجمية التي شغلت الباحثين المنخرطين فيه، ومن ذلك:

أ - **الانشغال بمسألة الرتبة**، من خلال النظرية الموسعة التي **اقترحها تشومسكي** في أواسط السبعينيات: الرتبة الأصلية: **فا ف مف، النقل**، التبئير، التفكيك، **بنية المركب الاسمي**.

ب - قضايا الربط والضمائر التي شغلت برنامج الربط العاملي الذي اقترحه تشومسكي سنة ١٩٨١.

جـ - البحث عن اطرادات في المعجم العربي بناء على مسلمات نظرية تهدف إلى الدفاع عن كون المعجم ليس مجاله الخصائص الفرادية غير المتنبأ بها، وإنما هو مجال لبناء تعميمات واكتشاف اطرادات تحتاج إلى نماذج نظرية واضحة، ومن ثم فإن الانشغال بتركيب وصرف الصيغ في اللغة العربية (البناء للمفعول، والمطاوعة والتعدي ...) يعد مدخلا لاستخلاص وفهم آليات اشتغال المعجم.

د - دافع الفاسي الفهري انطلاقا من **برنامج المبادئ والوسائط** المقترح في أواسط الثمانينيات من لدن تشومسكي على جعل اللسانيات ذات طبيعة مقارنة؛ ذلك أن فهم خصائص لغة معينة لا يتم إلا بفهم خصائص لغات أخرى لاستخلاص ما تشترك فيه اللغات، ومن ثم فإن كتاب البناء الموازي يعد تعميقا لقضايا أثيرت في الأبحاث السابقة كالرتبة والضمائر والبناء للمفعول.وذلك من منطلق الوصول إلى عمق الكفاية التفسيرية لهذه الظواهر والتي تسمح بها نظرية الربط العاملي.

هـ - يلاحظ المتتبع للأبحاث الأخيرة للفاسي الفهري وجود قضايا أخرى أولاها اهتماما خاصا، وهي قضايا ذات طبيعة معجمية، فالمعجم بالنسبة إليه لا يأخذ دلالة إلا داخل التركيب؛ ذلك أن مبادئ، وقيود وتعميمات التركيب قادرة على تقييد المعجم والكشف عن

الجانب الاطرادي فيه، وهذا ما تبينه دراسات من قبيل: تركيب الأحداث، التشجير والتعدي، المعجم المولد... إلخ.

إن تأصيل دراسات من هذا القبيل يجعل الدرس اللساني ينزاح عن المقاربات القاموسية للمعجم التي تكرس النظرة اللااطرادية له كفضاء للظواهر غير القياسية، نحو تأصيل منظور جديد يجعل قضايا المعجميات مندمجة مع قضايا التركيب والصرف والدلالة. فالاهتمام ينبغي أن ينصب على المعجم الذهني؛ لأن فهم آليات اشتغال المعرفة المعجمية جزء من فهم اشتغال المعرفة اللغوية في الذهن البشري.

لا يمكن أن يخفى على المتتبع لتطورات النظرية التوليدية أهمية النموذج الذي نشتغل عليه حاليا وهو البرنامج الأدنوي أو النظرية الأدنوية، وهو البرنامج الذي نجد له تطبيقات عملية على اللغة العربية عند الفاسي الفهري.

هذه بعض الملاحظات عن المشروع اللساني للفاسي الفهري تكشف عن أهميته وجدوى البحث فيه. غير أن المتابعة الدقيقة لكل جزئياته تتطلب بحثا مستقلا. لذلك سنقتصر على قضية أساس يمكن أن نستشف من خلالها خصوصيات تلقي اللسانيات التوليدية عند الفاسي الفهري، وهي قضية الرتبة.

١ - ٢ - ١ - قضية الرتبة في البحث التوليدي

يأتي اهتمام التوليديين بقضية الرتبة ضمن قضايا أخرى؛ ذلك أن فهم هذه الظاهرة التركيبية يشكل مفتاحا أو مدخلا لفهم مجموعة من الظواهر التركيبية. وتكمن أهمية هذه الظاهرة، في إطار البرنامج التوليدي، في كونها المدخل لمعالجة مجموعة من القضايا، ومن أهمها:

- إشكال الإعراب واتجاه الإسناد في اللغة العربية.
- إشكال الضمائر والمتصلات، بما فيها ظاهرة التطابق، وما تخضع له من تنوع ملحوظ في سماتها تبعا لترتيب المكونات داخل الجملة.
- إشكال النقل؛ ذلك أن التركيز على الرتبة الأصلية وآليات اشتقاقها يمكننا من فهم آليات اشتقاق الرتب الممكنة عبر قواعد وقيود على انطباق القواعد.
- يجرنا البحث عن الرتبة بين المكونات في الجملة، استنادا إلى مفهوم شجري معين يعتبر الفعل رأسا له مخصص (الفاعل)، وفضلة اختياريا أو إجباريا (لازم أو متعد)، إلى البحث عن إمكانات التوازي بين الرتبة التي تسند إلى مكونات الجملة، والرتبة داخل المركب الاسمي أو الحدي.

لهذه الاعتبارات انشغل التوليديون ببحث قضية الرتبة، وفي هذا الإطار يأتي اهتمام تشومسكي بالبحث عن رتبة أصلية في اللغة الإنجليزية، وقد قادته نتائج البحث التي قام بها إلى اعتبار اللغة الإنجليزية من نمط:

فا ف مف

ويستند تشومسكي في القول بأصلية هذه الرتبة إلى قاعدة مقولية يراها صالحة لتأصيل الرتبة في جميع اللغات، ويصوغها على هذا النحو:

ج ⟵ م.س صرفة م.ف

بموجب هذه القاعدة يذهب تشومسكي إلى أن كل اللغات من نمط فا ف مف، بل يذهب إلى أبعد من ذلك حين ينكر وجود لغات من نمط آخر، ومن ذلك رتبة **ف فا مف**، كما هو الشأن بالنسبة إلى اللغة العربية: إلا أن تشومسكي لا يستدل على موقفه ذلك، بحسب ما ذهب إليه الفاسي الفهري[٣٢].

وعلى عكس ما ذهب إليه تشومسكي يعتبر الفاسي الفهري اللغة العربية من نمط **ف فا مف**، وهذا ما حاول الاستدلال عليه. غير أن هذا الاستدلال عرف تغييرات متلاحقة جاءت نتيجة لتغيرات النماذج التوليدية وتطوير آليات استدلالاتها، ويمكن أن نميز في كتابات الفاسي الفهري بين ثلاثة مواقف أساسية، عبرت عنها كتبه: «اللسانيات واللغة العربية»، و«البناء الموازي»، و«المقارنة والتخطيط»، على التوالي.

١ - ٢ - ١ - ١ - رتبة ف فا مف

قدم الفاسي الفهري معالجة لقضية الرتبة في اللغة العربية في كتابه «اللسانيات واللغة العربية»، وهي مقاربة مبنية على أساسيات البرنامج التوليدي، وبخاصة النحو المعجمي الوظيفي.

يرى الفاسي الفهري - خلافا لما ذهب إليه تشومسكي - أن الرتبة في اللغة العربية من نمط: ف فا مف١ مف٢. وهي الرتبة التي تعبر عنها الجمل الآتية:

١ - جاء الولد. ٢ - أكل عمرو تفاحة. ٣ - أعطى زيد عمرا هدية.

وللاستدلال على أصل هذه الرتبة يوظف الباحث تقنية الحجج المستخدمة في اللسانيات التوليدية مع تبريرها، وهي حجج من داخل اللغة، ومن ذلك[٣٣]:

- أن هذه الرتبة توجد في الجمل التي تتضمن فعلا متعديا، حيث يتوسط الفاعل بين الفعل والمفعول.

عدم إمكان اللبس في الجمل التي يتوارد فيها الفاعل والمفعول بدون إعراب بارز، مثل:

٤ - ضرب عيسى موسى. ٥ - ضرب موسى عيسى.

فعيسى فاعل بالضرورة في الجملة (٤)، وموسى فاعل بالضرورة في الجملة (٥).

- بعض القيود على الإضمار، فالنحاة يذكرون أن مفسر الضمير يجب أن يتقدمه إما لفظا كما في (٦) وإما رتبة كما في (٧).

٦ - ابتلى إبراهيمَ ربُّه. ٧ - دخل مكتبه زيد

فإن تأخر عن الضمير في الرتبة واللفظ لم يجز:

٨ - ابتلى ربُّه إبراهيمَ.

فإن صح قيد النحاة على الإضمار، وجب أن تكون الرتبة الأصلية كما ذكر.

- ظاهرة التطابق بين الفعل والفاعل، فالفعل يطابق الفاعل جنسا وعددا إذا تقدم الفاعل عليه، أما إذا لم يتقدم فلا يطابقه في العدد:

٩ - جاء الأولاد. **١٠ - الأولاد جاءوا.** **١١ - جاءوا الأولاد.**

وينتهي الفاسي الفهري من كل ذلك إلى القول: «إن مثل هذه المعطيات يمكن أن يساهم في بناء الحجة على أن العربية من نمط ف فا مف»[٤٤].

أما في ما يخص الجمل الاسمية التي لا يكون فيها المسند فعلا، فإنه يفترض فيها رابطا مقدرا هو «كان»، إن هذا الرابط مزود بسمة الجهة والزمن، والمركب الاسمي بعده فاعل، وليس مبتدأ كما نجد في تفسير بعض النحاة.

يهدف الفاسي الفهري من خلال هذا الافتراض إلى التوحيد بين الجمل الاسمية والجمل الفعلية، ويردهما إلى بنية عميقة واحدة. وهذا ما يسميه «الافتراض الرابطي»، ويعني به «أن الجمل التي لا يظهر فيها فعل في سطح البنية جمل ذات رابطة (أو رابطية)، مثلها في ذلك مثل الجمل التي تظهر فيها رابطة»[٤٥]، كما في الجمل التالية:

١٢ - كان في الدار رجل. **١٣ - كان الرجال مجتمعين.**

١٤ - كان حسين ملكا. **١٥ - كان زيد في الدار.**

وفي إطار هذا التصور عرض لما يصطلح عليه التبئير (Focalisation) أو الموضعة (Topicalisation)، وهو «عملية صورية تنقل بمقتضاها مقولة كبرى (major category) كالمركبات الاسمية أو الحرفية، أو الوصفية... إلخ، من مكان داخلي (داخل ج) إلى مكان خارجي (خارج ج)، أي مكان البؤرة المحدد بالقاعدة»[٤٦].

جَ ⟵ «بؤ» جَ

ويمثل لذلك بالأمثلة التالية:

١٦ - إياك نعبد. **١٧ - الله أدعو.**

١٨ - في الدار وجدته. **١٩ - غدا سنلتقي.**

٢٠ - أميتا كان؟ **٢١ - أما عن زيد فحدث ولا حرج.**

من خصوصيات التبئير أن العنصر المبأر لا يترك أثرا ضميريا في موقفه السابق (داخل ج)، ويحتفظ بإعرابه الذي كان قد أسند إليه في ذلك الموقع.

إن عملية النقل تخضع لقيود استمد الباحث بعضها من تحليلات النحاة المرتبطة بأدوات الصدارة، واتكأ في بعضها الآخر على مبادئ اقترحها تشومسكي، ومن ذلك «التتابع الملكي» (successive cyclicity) الذي اقترحه تشومسكي سنة ١٩٧٣، ويتم بموجبه النقل من المكان

المصدر وفق تسلسل ينتهي إلى المكان الهدف، ومبدأ التحتية (subjacency).

إذا أخذنا الجملة التالية:

٢٢ - من تريد أن أضرب؟

فإن التحويل الذي طرأ عليها هكذا:

٢٣ - تريد أن أضرب من.

٢٤ - تريد من أن أضرب.

٢٥ - من تريد أن أضرب.

أما التغيير الذي يحدث محليا بعد الفعل معيدا ترتيب الفضلات فهو ما يسميه الزحلقة أو الخفق، كما يظهر من الجمل التالية:

٢٦ - ضرب زيدٌ الولدَ. **٢٧ - ضرب الولدَ زيدٌ.**

٢٨ - جاء البارحة كثير من الرجال. **٢٩ - جاء كثير من الرجال البارحة**

٣٠ - جاء كثير البارحة من الرجال. **٣١ - كم تظن أن زيدا تزوج من النساء؟**

٣٢ -**كم تظن** من النساء أن زيدا تزوج؟

وينتهي الفهري من تحليله إلى أن الخفق لا يؤثر بشكل يذكر في الصورة المنطقية للجمل، ولذلك يمكن اعتباره قاعدة أسلوبية لا تحويلية.

كما يعالج أيضا ضمن قضية الرتبة ظاهرة التفكيك (Dislocation)، والتفكيك باعتبار الجهة نوعان:

- تفكيك إلى يمين الجملة
- تفكيك إلى يسارها.

كما يظهر في الجملتين على التوالي:

٣٣ - زيد ضربته. **٣٤ - ضربته زيد.**

إن البنى التفكيكية، شأنها شأن البنى التبئيرية، تولد في الأنحاء التوليدية، الأولى عن طريق تحويل نقل، بحيث ينقل العنصر المفكك (زيد) من موقع داخلي إلى موقع خارجي، ويترك مكانه أثرا ضميريا، غير أن روس (١٩٦٧) لاحظ أن التفكيك، خلافا للتبئير، لا يخضع لقيود الجزيرة الميمية التي اقترحها؛ كما توضح الأمثلة:

٣٥ - زيد لقيت الرجل الذي انتقد أباه. **٣٦ - زيد هل تعرف من انتقده؟**

٣٧ - زيد رأيت عمرا الذي ضربه.

لقد اقترح روس (١٩٦٧) أن تصنف التحويلات إلى: قواعد باترة، كالتبئير، حيث لا نجد أثرا بارزا، وقواعد ناسخة كالتفكيك، حيث نجد نسخة أو أثرا ضميريا للمقولة المنتقلة، والنوع الأول يخضع للقيود على التحويلات، أما النوع الثاني فلا يخضع لها[١٧].

وقد بين الفاسي الفهري أن المقاربة التحويلية للتفكيك غير لائقة لأسباب عديدة، ولذلك من الضروري وجود قواعد مقولية من قبيل:

[جَ ←—— «بؤ» جَ]

لتوليد البنى السابقة بدءا في البنية العميقة.

من القضايا الأساسية الأخرى التي يتناولها الفهري في إطار الرتبة موضوع الاشتغال، ومن الأسئلة التي حاول الإجابة عنها: هل الاشتغال تفكيك أم تبئير؟

أول ملاحظة يسوقها في الموضوع أن الاشتغال لم يعد أسلوبا مستعملا في العربية الحالية، وأن النحاة اعتبروا بنى الابتداء والتقديم والاشتغال بنى مختلفة اعتمادا على مقاييس عاملية محضة. ثم عرض لخصائص الاشتغال عند النحاة، فوجد أنه يماثل التبئير من وجوه، ويماثل التفكيك من وجوه أخرى. كما حدد أهم خصائص الاشتغال كما وردت عند النحاة[18].

على أساس هذه المعطيات يستدل الفاسي الفهري على أن الرتبة الأصل في اللغة العربية هي **ف فا مف** بافتراض وجود رابطة في الجمل الاسمية، وافتراض قواعد للتفكيك والتبئير والزحلقة والخفق في بنى أخرى، وهي افتراضات مؤسسة تركيبيا ودلاليا وليست ذات قيمة تفسيرية فقط، بل ذات قيمة وصفية كذلك، لأنها تقدم وصفا أمثل للغة العربية، وتربطها بمثيلاتها من اللغات الطبيعية[19].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الفهري أفاد كثيرا من معطيات القدماء في مواضع كثيرة، من ذلك مثلا حديثه: عن التسوير، والمراقبة الوظيفية، وقيود التبئير، والبرهنة على صحة كل رتبة من نمط **ف فا مف**. كما نشير إلى أنه أعاد النظر في كثير من المعطيات المعروفة في النظرية التوليدية لتكييفها مع مرونة النسق في العربية كما راجع بعض الثوابت في النحو العربي، كالتمييز بين الجمل الفعلية والجمل الاسمية، ليثبت وجود بنية واحدة فقط للجملة العربية هي بنية الجملة الفعلية، وهي من نمط «ف فا مف»، وهو التصور الذي حاول أن يبرهن عليه بمبادئ النظرية التوليدية [كالتبئير، والخفق، والتفكيك، وظاهرة الاشتغال، والربط الإحالي، والمراقبة الوظيفية، والمراقبة العائدية]، والهدف من كل ذلك هو التأكيد أن اللغة العربية لغة طبيعية؛ لأن معطياتها لا تختلف عن اللغة الإنجليزية، وهذا ما سنناقشه في حينه.

١ - ٢ - ١ - ٢ التوسيط : التطابق وازدواجية الرتبة

أ - مقدمات أساسية

يقوم كتاب الفاسي الفهري (البناء الموازي) ضمنيا على مسلمة أساسية وهي مسلمة التوسيط الواحد، ومفاد هذه الفكرة أن اللغات تختلف بالنظر إلى إمكان وجود تركيب معين أو غيابه تبعا للقيمة التي يأخذها وسيط معين في اللغة، وهي قيمة إما موجبة وإما سالبة. ويمكن التمثيل لذلك بوسيط إسقاط ضم؛ فإذا أمكن أن نقول في اللغة العربية:

- أكلوا.

فإنه من غير الممكن أن نقول في اللغة الفرنسية:

- mangent.

دون إظهار الفاعل. والسبب في ذلك أن العربية يمكن أن تستغني عن الفاعل الضميري أو غير الضميري؛ لأن صرفته التطابقية تسوغ ظهور مقولة فارغة، وهي «ضم» تسد مسد الفاعل، وهذا ما لا يمكن للغة الفرنسية أو الإنجليزية أن تقوم به. المسلمة الضمنية في هذا الاستدلال أن اللغة لا تمنح إلا قيمة واحدة لوسيط معين.

باعتماد هذه المنطلقات الجديدة في التحليل حاول الفاسي الفهري مراجعة التصور الذي أطر عمله في «اللسانيات واللغة العربية»، والذي يستند إلى تصور وجود رتبة أصلية (ف فا مف). في هذا الإطار لاحظ أن المركبات الضميرية - كما حددتها نظرية الربط العاملي - تزكي ما ذهب إليه سابقا، إذ إن تأويل الضمائر يخضع لترتيب «ف مف١ مف٢» سواء أكانت الضمائر متصلة أو مزيجا من المتصلات والمنفصلات، كما يظهر في الجملتين «أ» و«ب» على التوالي:

٣٨ - أعطيتنيه.

٣٩ - أعطيتني إياه.

إن الضمائر المتصلة ضمائر يتم نقلها من موقعها الأصلي لتدمج في الفعل، وبذلك تقدم وقائع الاتصال الدليل على أصلية رتبة «ف فا مف»[50]. ما الجديد إذن، الذي يقدمه في إطار «مبدإ التوسيط»؟

خصص الفهري الفصل الثالث من كتاب «البناء الموازي» للحديث عن: التطابق، والاتصال الضميري، والمبهمات، وقد لاحظ أن دراسة ظواهر التطابق والدور الذي تلعبه علاماته تظل فقيرة، وليست هناك نظرية شاملة ومقنعة للتطابق، وهو ما دفعه إلى تقديم بعض العناصر الأساسية في سبيل بناء هذه النظرية، وكذلك إلى تقديم تحليل للتطابق في العربية، مع التركيز على التطابق بين المركب الاسمي والحمل، علما أن نسق الضمائر يتفاعل مع نسق التطابق، ولا يمكن دراسة واحد منهما في معزل عن الآخر، بل إن عددا من الثغرات في النسقين، وعددا من الأسئلة الحرجة يمكن الإجابة عنها عندما يدرس النسقان دراسة موازية. وهذا ما يمكن من الوصول إلى تمثل أمثل للتطابق[51].

إن المقاربة التي يقدمها الباحث للتطابق كثيرة وغنية لذلك سنهتم، تحديدا، بالدور الذي يلعبه التطابق في الرتبة.

يبني الفاسي الفهري تصوره على التمييز «بين نمطين شجريين أساسيين من التطابق: التطابق بين الرأس والمخصص (Spec-head agreement)، والتطابق بين الرأس والفضلة

(Head-comp agreement)، فهذان النمطان يظهران عادة في سياقات مختلفة، وفق وجودهما في الجمل أو في المركبات، إلا أن هذين النمطين يظهران معا في التراكيب المبهمة، ويكون رأس المركب محققا للمشترك بين علامتيهما»[٥٢].

لاشك في أن هذا سيخلق مشاكل كثيرة تحتم وضع افتراضات لتجاوزها، وهذا ما حاول الوصول إليه. ومن الافتراضات التي يضعها:

- اعتبار الضمائر المتصلة أو المربوطة، وعلامات التطابق منتمية إلى طبقة طبيعية واحدة هي طبقة العناصر الصرفية (أو الوظيفية) الاسمية. إلا أن هذه العناصر تختلف بالنظر إلى الإحالية. فإذا كان العنصر إحاليا فإنه يولد رأسا للمركب الحدي. وإذا كان غير إحالي، فإنه يولد تحت ص، في المركب الصرفي (أو بصفة أكثر دقة تحت تط في ص). وهكذا فإن إحالية الشكل أو عدمها تنتج عن افتراض التوليد تحت صرفة أو أخرى. وبهذا الافتراض، يمكن رصد الطبيعة المزدوجة (أو الاشتراك) للشكل الواحد[٥٣].

ويرى الفاسي الفهري أن «المتصلات وعلامات التطابق أشكال مربوطة صرفيا، بمعنى أنها لا تستعمل بذاتها. وعلى هذا الأساس، فإن قيود السلامة الصرفية تضطرها إلى الاندماج أو الاتصال بعماد تلتصق به. وقد تتيح قاعدة انتقال رأس إلى رأس أن تتصل هذه اللواصق أو المربوطات بكلمة أخرى - ثم إن هذه الأشكال مكونة من سمات «الشخص، العدد، الجنس، ... إلخ». فبعض المجموعات من السمات تجتمع فيها جميع سمات الضمير (كالشخص والعدد). وبعض هذه الأشكال لا يجتمع فيها ذلك. فهناك مجموعة من السمات تجعل التطابق بمنزلة اسم يتلقى إعرابا، ويخضع للمصفاة الإعرابية. بينما هناك مجموعات من السمات لا تكتمل اسميتها، فلا تتلقى إعرابا. لنسم هذا وسيط اسمية التطابق. فهذا الوسيط له انعكاس مباشر على الرتبة. ويمكن اعتبار اسمية التطابق خاصية محددة للغات فا ف مف، بينما عدم اسمية تط هي خاصية محددة للغات ف فا مف»[٥٤]. فكيف يوظف الافتراضات السابقة في تحليله للرتبة؟

ب. وسيط الإحالية

لنأخذ الجملتين التاليتين:

٤٠ - جاءت.

٤١ - جاءت البنات.

نلاحظ أن [-ت] في الجملة (٤٠) هي ضمير متصل يحمل سمات الشخص والعدد والجنس، أما في الجملة ٤١ فإنها محدودة في سمة الجنس (مؤنث). من الأسئلة التي تطرح بناء على هذه الملاحظات:

- ما هي طبيعة الاشتراك، وكيف يمكن رصده؟
- هل الاشتراك محدود في الغالب(ة)؟

للإجابة عن هذه التساؤلات يفترض الفاسي أن كل أشكال اللواصق يمكن أن تكون ملتبسة، ويرمز إلى كل منها بـ **تط**. ويرى أن الالتباس في **تط** يمكن إرجاعه إلى كون الضمائر المربوطة وعلامات التطابق تنتمي إلى الطبقة النحوية الطبيعية نفسها، أي طبقة العناصر الاسمية في الصرفة التي دلل عليها بـ **تط**، وبذلك يجعل الاختيار الآتي مسؤولا عن تحديد الاشتراك:

يكون تط إحاليا أو غير إحالي[٥٥].

وللتوضيح أكثر يفترض أن تط يولد في نوعين من المواقع:

أ - تحت إسقاط ص في الجملة (وتحديدا تحت ثط في ص).

ب - تحت الإسقاط الصرفي في المركب الاسمي التقليدي، الذي أعاد تحليله كمركب حدي، والإسقاط الحدي هو حد (D)، كما هو عند أبني (١٩٨٧) Abney[٥٦].

على هذا الأساس «إذا كانت تط مولدة تحت الحد، في المركب الحدي، فإن لها قدرة على «إشباع» (saturate) الموقع الداخلي «المفتوح» داخل المركب الحدي، عن طريق الربط، إذا ما اتبعنا نظرية هيكنبوتم (١٩٨٥) Higginbutham في إشباع الأدوار الدلالية، أو «تحريرها» (discharge). فالمركب الحدي المشبع هو عبارة محلية. وإذا كان الأمر كذلك، فإن المركب الحدي الذي يحوي تط يسند إليه دور محوري، بموجب المقياس المحوري، ونتيجة لهذا، فإن تط في المركب الحدي (الذي يعتبر ضميرا مربوطا يمكن أن يشبع المواقع المحورية في الحمول، أما إذا ولد تط تحت الصرفة، فإنه لا يكون إحاليا. فإذا افترضنا أن الوسم الإعرابي لا يقع إلا في إسقاطات المقولات المعجمية، فإن كون تط يسند إليه دور محوري ينتج كذلك عن المقياس المحوري»[٥٧].

إن هذا التفريق السياقي الوظيفي للإحالية من شأنه أن يقدم رصدا للفرق بين تط في (٤٠) و(٤١). ففي الجملة (٤٠) تولد تط تحت المركب الحدي. أما في الجملة (٤١) فهي مولدة تحت صرفة الجملة (في تط رأس الجملة).

خلاصة التحليل السابق أن تط في العربية قد يكون إما [+إحالي] أو [-إحالي]. وفي كلتا الحالتين فإن تط لاصقة مربوطة. ونتيجة لذلك، فإن شروط السلامة الصرفية تشترط اتصال تط بكلمة أخرى «إذا كانت تط تحت حد، فإنه يتصل العمل فيه (ح، س، ف...) أما إذا كانت تحت ص، فإنه يتصل بالفعل الذي انتقل إلى ص (وكذلك بالزمن هناك). ويتم الاتصال بقاعدة «انقل رأس - إلى - رأس»»[٥٨].

ويظهر الاختلاف بين اللغات بالنسبة إلى إحالية تط حيث لاحظ أن بعض اللغات ليس لها **تط** إحالي كالإنجليزية مثلا، بينما نجده في اللغة العربية. وبما أن الفرق بين اللغتين لا يمكن أن يعزى إلى مضمون المركب الاسمي (أو الحدي) في كل لغة، فإن الفاسي الفهري يقترح أن يكون وسيط الإحالية هو ما يجب أن يسوي بوجود أو عدم وجود قاعدة للاتصال. فإذا كانت

العربية تتوافر على هذه القاعدة فإن الإنجليزية ليست كذلك، وتبعا لوسيط الإحالية يقدم تصنيفا للغات كما يلي:

أ: [-[حالي]: الإنجليزية، الفرنسي، الإيطالية، ... إلخ.

ب: [+[حالي]: الإيرلندية، الولس، البربرية، ... إلخ.

ج: [+ إحالي]: العربية الفصيحة،... إلخ.

ج - وسيط الاسمية

إن التميـيـز بين اللغات اعتـمادا على وسيط الإحـالية لا يمكن أن يحل كل الإشكالات المطروحة، ومن ذلك: لماذا سنحد الالتباس في الغائب(ة) المفرد(ة)؟ وعليه وجب التمييز بين صنفين من تط غير الإحالي أو صنفين من العلامات، كما لاحظنا سابقا بالنسبة إلى الجملتين السابقتين.

إن [- ت] في الجملة الأولى لها كل السمات التي توجد في الضمائر، ولذلك من المعقول اعتبارها بمنزلة «أسماء» (أو ضمائر)، في حين لا يمكن أن تكون العلامات الأخرى كذلك؛ لأن اسميتها لا تكتمل بوجود سمة أو سمتين. بناء على هاتين الملاحظتين يفترض الفاسي الفهري أن العلامات التي تكتمل اسميتها تتلقى (أو تطلب) إعرابا، بينـمـا العلامات غـير الاسـمـية لا تتلقى إعرابا. وعلى هذا الأساس نلاحظ ارتباطا بين اكتمال الاسـمـية في تط وتطلب الإعراب، وهو ما يمثله التضايف التالي:

«إذا كان تط اسميا، فإن تط يتلقى إعرابا». هذا التضايف (Correlation)، هو حالة خاصة، من دون شك، للمصفاة الإعرابية التي تحتم أن يتلقى كل اسم إعرابا[٥٩].

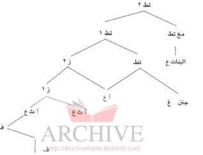
بعد هذه التوضيحات الضرورية يعود الفاسي الفهري إلى نوع التطابق بين المخصص والرأس في الجمل الفعلية. فإذا كانت كل الأشكال ملتبسة، كما يقترح، فإن ما يتنبأ به هو أن هذا التطابق ممكن في العربية، ولكن شريطة ألا يمنعه مانع-إذا كان الأمر كذلك، فإن الجملة: «البنات جئن» يمكن أن تؤخذ على أنها تمثل التطابق بين المخصص والرأس:

يبين هذا الوسيط مسوغات تنقل المركب الاسمي إلى مخصص تط في البنى فا - ف. إذا كان م.س الفاعل يستطيع تلقي الإعـراب في بنيـة ف - فـا، ثم يكشف عن الأسباب التي توجب اختلاف الإنجليزية عن العربية في هذا الصدد، ولماذا لا توجد في الإنجليزية رتبة ف - فا، إلى جانب رتبة فا - ف. وتجدر الإشارة إلى أنه في المقاربة التي يقترحها الفاسي الفهري، ترتبط اسمية التطابق بإسناد الإعراب، وعن المتطلبات الإعرابية تنتج الرتبة[٦٠].

اعتمادا على الملاحظات السابقة كيف علل الفاسي الفهري تمييزه بين بنية ف - فا وبنية فا - ف؟

أولا - بنية ف - فا

لنلاحظ البنية الآتية:



في هذا التحليل ينتقل ف إلى ز، ثم إلى تط، ويصعد المركب الاسمي الفاعل من مخصص ف إلى مخصص ز، ويرسو هناك؛ والسؤال الذي يجب أن يطرح هو: كيف يتلقى بها المركب الاسمي الفاعل الرفع؟

يفترض الفاسي أن يكون ز مسندا للرفع إلى م.س الموجود في مخصص ز، وإما أن يسند تط الإعراب إلى م.س هناك، مع تفضيل الحل الأول[٦١].

ويرجع أسباب هذا التفضيل إلى سببين اثنين:

أ - التطابق ليس اسميا ولا يمكن أن «يتحمل» الإعراب ويسنده بعد ذلك.

ب - لو أسند تط الإعراب هنا يكون مسندا له بصفة «استثنائية»، أي غير اعتيادية: لأن الإسناد الاعتيادي يكون بالعمل مباشرة في المركب الاسمي، كما يعمل ز فيه، وإنما يعمل عند تخطي حد الإسقاط الأقصى ز٢، وهو ما يتعارف عليه بالوسم الإعرابي الاستثنائي (Exceptional Case Marking) الذي يبقى حلا أقل طبيعية من الحل الذي لا يلجأ إلى هذه الآلية الاستثنائية[٦٢].

ثانيا - بنية فا ف مف

يمثل الفاسي الفهري لهذه الرتبة بالجملة:

٤٣ - البنات جئن.

إن الرتبة في هذه البنية مرتبطة باسمية **تط**؛ حيث يلاحظ وجود ارتباط بين اكتمال الاسمية في **تط** وتطلب الإعراب. وهو ما يمثله التضايف التالي:

إذا كان **تط** اسميا، فإن **تط** يتلقى إعرابا، وهذا التضايف (Correlation) هو حالة خاصة، دون شك، للمصفاة الإعرابية التي تحتم أن يتلقى كل اسم إعرابا[٦٣].

إن صحة التضايف السابق يعني أن الإعراب المسند بواسطة ز يمتصه **تط**، وإلا فإن الناتج تصفيه المصفاة الإعرابية. فإذا كان هذا صحيحا، فإن ز لن يسند الإعراب ثانية إلى م.س في مخصص ز، لأنه «أفرغ» إعرابه. وهذا يضطر م.س إلى الانتقال إلى موقع يتلقى فيه إعرابا. والموقع هو مخصص **تط**، يتلقى فيه الإعراب من **تط** الذي عمل فيه بصفة اعتيادية. والملاحظ بحسب الفاسي الفهري أن الترتيب ليس مهما في عملية إسناد الإعراب. لنفترض أن ز أسندت أولا الإعراب إلى الفاعل م.س في مخصص ز، فإن تط يسطع بدون إعراب، لأنه ليس هناك مصدر آخر يمكن أن يتلقى منه الإعراب إذا أفرغت ز إعرابها في م.س، وعليه تكون البنية غير سليمة، فلا غرابة ألا يتوارد التطابق الاسمي والمركب الاسمي الفاعل بعد الفعل، وأن يؤدي تواردهما إلى تركيب لاحن كما في:

٤٤ - جئن البنات.

ويرجع لحن هذا التركيب إلى فرضية سابقة يعتبر الفاسي الفهري بموجبها كل الأشكال المربوطة ملتبسة، وبذلك أصبح في التركيب السابق تطابق اسمي. فإذا كان **تط** إحاليا، فإن البنية تكون لاحنة بموجب المقياس المحوري، وإذا كان **تط** غير إحالي فإن البنية تكون لاحنة كذلك، لكن لحنها يعود إلى المصفاة الإعرابية.

والخلاصة التي ينتهي إليها من تحليله السابق يمكن أن نختزلها في نقطتين:

أ - البنى ف - فا تظهر مع تط غير الاسمي.

ب - البنى فا - ف تظهر مع تط الاسمي.

وبناء على ذلك، فإن **تط** يمتص الإعراب الذي يسنده ز في الرتبة **فا - ف**، مما يضطر المركب الاسمي الفاعل إلى الانتقال إلى مخصص **تط** لتلقي الإعراب منه، لكن الأمر ليس كذلك في الرتبة **ف - فا**، التي لا يظهر فيها تط الاسمي. وبذلك فالرتبتان معا تنتجان بحسب نمط **تط**[٦٤].

إن منطق التحليل في نظر الفاسي الفهري أن العربية لها **تط** اسمي و**تط** غير اسمي، أما الإنجليزية فلها **تط** اسمي فقط، ومن غير المحتمل أن يكون وسيط الاسمية مؤديا إلى وجود

قاعدة تركيبية أو عدم وجودها، ومن المعقول أن يربط هذا الأخير بالخصائص الداخلية لنظام العلامات، بمعنى أن الوسيط مرتبط بما يوجد من علامات في اللغة. فالإنجليزية اختارت العلامات الاسمية فقط؛ بينما العربية اختارتهما معا، والإيرلندية اختارت العلامات غير الاسمية فقط[٦٥]. فما هي، إذن، نتائج البحث المقدم أعلاه؟

يعتبر الفاسي الفهري تحليله السابق ذا نتيجة مباشرة بالنسبة إلى نظرية الرتبة، وما يتبناه هو أن نمطية اللغات ستستغل وسيط اسمية تط محددا أنماطا ثلاثا للغات.

أ - اللغات ذات الرتبة فا ف فقط، مثل الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية، ولها تط اسمي فقط.

ب - اللغات المزدوجة الرتبة، ولها تط اسمي وغير اسمي، ومثالها العربية الفصيحة.

ت - اللغات ذات الرتبة ف - فا فقط، وليس لها تط اسمي، مثل الإيرلندية[٦٦].

وينتهي من تصوراته واقتراحاته السابقة إلى أن مقاربته لا تسلم بوجود نمط واحد من اللغات ف - فا، كما أنها لا تسلم بوجود نمط واحد من اللغات فا - ف. وبذلك فالرتبة في العربية يمكن أن تعتبر فا - ف، إضافة إلى كونها ف - فا[٦٧].

ثالثا - نحو تنميط متعدد

شكلت مرحلة التسعينيات من القرن المنصرم مرحلة أساسية في تدقيق البحث في مكون الوسائط داخل البرنامج التوليدي. وعلى أساس التغييرات الجديدة التي أدخلها تشومسكي على هذا المكون (الوسائط) ظهرت مقاربات جديدة لكثير من القضايا. وفي هذا الإطار يأتي كتاب الفاسي الفهري (المعجمة والتوسيط) ليقدم تصورات جديدة لم يكن بالإمكان رصدها من قبل. إن المقاربة الجديدة تسمح بإمكان توسيط متعدد القيم، بمعنى أن الوسيط نفسه يمكن أن يأخذ قيما متعددة داخل اللغة وفي تراكيب متعددة. على ضوء هذا المعطى لم يعد التنميط في اللسانيات المعاصرة ينبني على مقاربة فرادية بين اللغات الطبيعية، ولا على تصنيف اللغات إلى أسر وطبقات اعتمادا على أسس القرابة التاريخية، كما كان سائدا في اللسانيات المقارنة، خصوصا بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر، بل أصبح يرتكز على «التوسيط».

إن «التوسيط» برنامج لساني ترجع أصوله التاريخية إلى أعمال فون همبولت ورومان ياكبسون، ويهدف هذا البرنامج إلى رصد الكليات الجوهرية المميزة للغات الطبيعية. وقد طورت النظرية التوليدية هذا البرنامج بالبحث في مضمون الفرق بين الملكة اللغوية المحددة بيولوجيا، بصفتها ملكة خاصة بالنوع البشري، والملكة الخاصة بلغة بعينها. ولذلك فإن اللسانيات التوليدية تميز بين النحو الكلي (Grammar Universal)، وهو مجموع المبادئ الكلية التي تحدد القدرة اللغوية، والنحو الخاص الذي يعتمد على تثبيت قيم الوسائط التي يتيحها النحو الكلي[٦٨].

إن مناقشة الفاسي الفهري لمفهوم التوسيط يمكن رصدها من خلال التساؤلات التالية:

أ - هل هناك تلاؤم بين قيم الوسائط في كل اللغات الطبيعية؟

ب - هل ينبغي أن تحصر التوسيط في مكون معين من مكونات اللغة؟

ج - هل يمكن أن تكون قيم التوسيط متعددة في اللغة نفسها؟

بالنسبة إلى الإشكالية الأولى، أوضح ريدزي Rizz، الذي اشتغل على الإيطالية، أن هناك تلازما بين إمكان الاستغناء عن الفاعل وإمكان قلب الفاعل بالنسبة إلى رتبة الفعل[٦٩].

أما بالنسبة إلى الإشكالية الثانية فمفادها أن التوسيط ينبغي أن يحصر في المقولات الوظيفية الصرفية، أو ما يسمى كذلك بالمقولات النحوية، أي التطابق والزمن والجهة والبناء والحد، ولا يتعداها إلى المقولات المعجمية مثل الفعل والاسم والحرف وغيرها[٧٠].

لقد ركز الفاسي الفهري تحديدا على الإشكالية الثالثة المتعلقة بوحدة قيم التوسيط أو تعددها في اللغة الواحدة، واقترح تصورا تعدديا يفترض أن اللغة الواحدة «لا تختار بالضرورة قيمة واحدة بالنسبة إلى الوسيط نفسه، أو بمعنى آخر، أن كل لغة يمكن أن توجد فيها لغات، بل أحيانا جميع اللغات»[٧١]. ويبرر موقفه ذلك بتعدد الرتب الممكنة للفعل والفاعل والمفعول في اللغة العربية التي تتيح جميع الإمكانات المنطقية التي يسمح بها التركيب الحسابي لهذه المكونات الثلاثة، كما يفهم من سلامة التراكيب التالية:

٤٥ - أكل زيد تفاحة.

٤٦ - أكل تفاح زيد.

٤٧ - زيد أكل تفاحة.

٤٨ - زيد تفاحة أكل.

٤٩ - تفاحة زيد أكل.

٥٠ - تفاحة أكل زيد.

إن كون الجملة (٤٥) هي الرتبة المحايدة أو غير المخصصة ذريعيا (Paragmatically un-marked) بتعبير الفاسي الفهري[٧٢]، لا يمنع من اعتبار الرتب الأخرى ممكنة مبدئيا في اللغة العربية؛ وعليه فإن كل توسيط لرتبة مكونات الجمل في اللغات الطبيعية ينبغي أن يكون قادرا على رصد إمكان تعدد هذه الرتب في اللغة الواحدة. ومن هذا المنطلق يشكك الفاسي الفهري في المقترحات النظرية التي قدمت في الأدبيات اللسانية المعاصرة، والتي تهدف إلى رصد رتبة الفعل بالنسبة إلى الفاعل مثل مقترح ترافيس (١٩٨٤)، الذي يقول بتوسيط هذه الرتبة بناء على توسيط اتجاه إسناد الإعراب ومقترح مكلوسكي (١٩٩٠) وروفري (١٩٩٠) القاضي بتوسيط هذه الرتبة على أساس توسيط وجود مخصص للفعل المتصرف ومقترح أوحلا (١٩٨٨)، الذي يقول بتوسيط الانتقاء الصرفي[٧٣].

باعتماد ما سبق يظهر أن الفاسي الفهري طور موقفه بخصوص الرتبة من القول برتبة اصلية في اللغة العربية إلى القول برتبة مزدوجة لينتهي إلى القول بالتنميط المتعدد، ويعتبر موقفه هذا نابعا:

اولا: من تتبعه الدقيق لمسار النموذج التوليدي.

ثانيا: من إدراكه العميق للطروحات التوليدية المختلفة وتحليلها تحليلا نقديا يقوم على اختيار ما هو ممكن وإبعاد ما هو غير ممكن، وبذلك تتأتى الشمولية لبحوث الفاسي الفهري.

تلكم، إذن، بعض القضايا التي استأثرت باهتمام الكتابة التوليدية العربية، جزئيا كانت أم شمولية، ولنا أن نتساءل بعد كل ما أسلفناه: ما هو الجديد الذي قدمته هذه الكتابة للغة العربية؟

ما حدود الاتصال والانفصال بينها وبين التراث النحوي العربي؟

ما درجة مساهمتها في تطوير النظرية التوليدية؟

هل يمكن أن تؤدي تفسيرات التوليديين العرب إلى نحو جديد بديل عن النحو العربي؟

هل جاءت تحليلات التوليديين منسجمة ومتكاملة في وسائلها المنهجية وأصولها النظرية؟...

لا مراء أن الإجابة عن هذه التساؤلات وعن غيرها، من شأنها أن تكشف بشكل جلي عن أهم خصوصيات الكتابة اللسانية التوليدية العربية وهو ما نسعى إليه.

٢ - إشكالات التلقي في الكتابة التوليدية العربية

لقد أضحى التكامل والتداخل تقليدا علميا يطبع مسيرة العلوم في العصر الحديث، ولم تكن البحوث اللسانية، والتوليدية منها بشكل خاص، بمنأى عن هذا التقليد، بل كانت معنية به بشكل أكبر؛ لأن النمذجة اللسانية تفرض خصوصيات لسانية لا يمكن الاهتداء إليها إلا بالاستعانة بالتطور الحاصل في مجالات معرفية أخرى. وقد ساعد على هذا التكامل «التطور الداخلي للسانيات نفسها، التي بلغت مستوى من النضج جعل منها علما لا يقل أهمية ودقة عن العلوم الطبيعية. ولم يكن ليحصل هذا النضج لولا المراجعة التي قامت بها اللسانيات للأسس التي نهجت عليها»[٧٤]. وعليه يكون التراكم أحد الشروط الأساسية لتقدم البحث اللساني وبلوغه النمذجة.

لقد أولى تشومسكي أهمية هذا التكامل وضرورته في تقدم المعرفة اللسانية وصياغة نماذج لسانية تتسم بالدقة والوضوح، يشهد على ذلك اهتمامه بالبحوث الرياضية[٧٥]، والبحوث الحاسوبية، ويؤكد تشومسكي (١٩٨٦) هذا الاتصال معتبرا نسق القواعد الذي يشكل بنية النموذج التوليدي التحويلي، نسقا تضبطه النظرية الحاسوبية.

كما يعتبر النظرية اللسانية التي يقترحها مماثلة للنظرية الحاسوبية التي يقترحها مار Mar والعاملون معه[٧٦]، كما تتميز النظرية التوليدية بتبني تشومسكي للأسلوب الغليلي في البحث،

إذ لا يمكن تطوير مفهوم دال للغة بوصفها موضوع بحث عقلاني، إلا على أساس التجريد الضارب في العمق، واتباع أسلوب غليلي في البحث»[٢٧].

ويفسر هذا الاهتمام بالأهداف التي تروم اللسانيات التوليدية بلوغها، والتي تجعل منها نظرية متميزة عن غيرها من النظريات الأخرى، وذلك من جهتين على الأقل:

١ - أنها نظرية تتبنى مفهوما عقلانيا للمعرفة العلمية، يقوم على ضرورة انتقاد النظريات التي يبنيها العالم في ميدان تخصصه، وذلك بمواجهتها مع التجريب. وهذه هي الطريق الوحيدة نحو التقدم العلمي، إذ المطلوب هو إبطال النظريات وليس البرهنة على صحتها أو إثباتها، وهذا ملمح إيبستمولوجي في النظرية التوليدية.

٢ - أنها نظرية لا تعتني باللغة، وإنما بالنحو، «أي بالآلة الصورية التي تمكن من توليد عدد لا محدود من المتواليات التي تنتمي إلى لغة بشرية معينة. فلم تعد مسألة البحث في اللغات مسألة خروج بـ «أفكار» عن طبيعة هذه اللغات، بل إن مضمون العمل التنظيري أصبح يقتضي بناء آلة ونماذج صورية، تنسب إليها خصائص تجريبية، بل يفترض فيها أن تكون ملبية للحاجة التجريبية، إذ «تحاكي» خصائص اللغات البشرية، وتمثل بنية «العضو الذهني» الذي يتم بواسطته اللغو، وعاد ضمن البحث اللساني البحث في الخصائص الصورية لهذه الآلات الكافية لوصف اللغات الطبيعية»[٢٨].

وعلاوة على اهتمام تشومسكي بجانب التكامل والتداخل بين القطاعات المعرفية، أولى اهتماما خاصا للتكامل بين بحوث اللسانيين، فمستويات اللغة متشعبة يصعب الإلمام بها إلماما يحقق الدقة المطلوبة، ولذلك فإن اللساني الذي يتوق إلى بلوغ الصورنة يجب أن يركز على هذا الجانب.

باعتبار ما سبق فإن النظرية التوليدية تسير في اتجاهين مختلفين:

- أولهما عمودي قائم على مراعاة العلائق الممكنة بينها وبين بعض النظريات العلمية مما يساهم في تحقيق النمذجة اللسانية.

- وثانيهما أفقي يراعي التكامل بين المستويات اللسانية.

قصدنا من الإشارات السابقة التنبيه إلى بعض خصوصيات النظرية التوليدية، وعليه فإن كل حديث عن كتابة توليدية عربية يقتضي بالضرورة اختيار مدى توفق اللسانيين التوليديين العرب في إدراك تلك الخصوصيات، ومدى وعيهم بأهميتها. للإجابة عن هذه التساؤلات سنركز بشكل أساس على بعض المنطلقات المنهجية في الكتابة التوليدية العربية.

٢ - ١ - الكتابة اللسانية التوليدية والإشكال المنهجي

إن الالتزام بالجانب المنهجي في مجال المعارف الإنسانية أمر ضروري لأنه يهيئ أرضا صلبة يمكن الوقوف عليها للمساهمة بشكل فعال في تحقيق الأهداف المنشودة. فهل التزمت الكتابة التوليدية العربية بهذا الجانب؟

عالم الفكر
العدد 1 المجلد 37 يوليو - سبتمبر 2008

٢ - ١ - ١ - الكتابة التوليدية العربية تراكم أم طفرة؟

يفضي النظر في البحوث والدراسات اللغوية في الغرب إلى أن تطورها قائم على التراكم والتجاوز، ذلك أن «التراكم المعرفي في حقل اللغة يستوجب التفكير في مختلف الأنظار للفحص والاختبار. وهو يدعو إلى إنشاء منهج للمعايرة، يتخذ كيفيات البحث في اللغة موضوعا ويجعل من نقدها هدفا، حتى إذا التأمت عناصره في بناء وانشقت اختبرت قدرته على تمييز ما قد يصدق من النظريات اللسانية وينجح»[٧٩].

إن ظهور اللسانيات التوليدية في الغرب لم يكن طفرة، بل كان حصيلة تطور طبيعي وتلقائي أفضت إليه تراكمات أعمال فلسفية ومنطقية ولسانية يغطي قسم منها ما يقارب ثلاثة قرون؛ شكلت أعمال نحاة القرون الوسطى، والنحو العام المعقلن لبور رويال، واللسانيات الديكارتية، واللسانيات المقارنة، واللسانيات البنيوية، أهم سماتها البارزة، وكان الشغل الشاغل لتشومسكي «هو تحديد طبيعة هذا «الرأسمال الفكري» المتراكم في المرحلة التي سبقت المرحلة المعاصرة، وتثمين قيمة هذه المساهمة، ووسائل استثمارها لتطوير دراسة اللغة»[٨٠].

لقد شكلت تلك المساهمات أهم منطلقات النظرية التوليدية، وأهم مصادرها التاريخية، غير أن هذا لا يعني أن تشومسكي ظل أسير ذلك «الرأسمال الفكري»، بل سعى إلى وضع أهداف محددة لنظرية تستلهم وتستثمر من مبادئ التوجهات السابقة ما ينسجم مع التصور الجديد، وتدحض ما يتعارض معه.

حاصل الأمر أن اللسانيات التوليدية كانت نتيجة طبيعية لتراكمات لغوية مهدت الطريق لتشومسكي، وفسحت له في المجال لاختبار أنظار سابقة كشف تاريخ البحث اللغوي عن عدم إجرائيتها. وعلى هذا الأساس يكون التراكم أساسا من أسس البحث اللساني السليم. وباعتبار ما سبق فإننا نتساءل: هل توفر هذا التراكم للكتابة التوليدية العربية؟ وهل وعى التوليديون العرب أهمية هذا التراكم ودلالته؟

إذا كانت الثقافة العربية قد تعرفت على أهم اتجاهات البحث اللغوي التي سادت في الغرب منذ المراحل الأولى من عصر النهضة، فإنها لم تستطع إفراز بحوث تضاهي نظيرتها في الغرب، وقد ارتبط ذلك بظروف قومية وحضارية بالأساس، كما أن الثقافة العربية لم تفرز اتجاها بنيويا يحمل كل مقومات هذا الاتجاه وخصوصياته كما هي عليه في الغرب، فقد ظل الاتجاه البنيوي في الثقافة العربية أسير أعمال النحاة وتحليلاتهم على الرغم من سعي البنيويين العرب لتجاوزها والبحث عن بدائل لها[٨١]. لهذه الاعتبارات ولأخرى غيرها فإن الحديث عن اتجاه توليدي في الثقافة العربية يبقى مفتقدا الشروط الحضارية والتاريخية (التراكم) التي على أساسها ظهر الاتجاه التوليدي في الغرب. وبذلك يمكن أن نقول إن ظهور اللسانيات التوليدية في الثقافة العربية كان

طفرة، مما يجعل هذا الاتجاه مفتقدا الأسس التي يفرضها تطور الاتجاهات اللسانية؛ وكل ذلك يعبر عن خور في المنهج.

لقد تنبه أحد الباحثين إلى هذا الخلل المنهجي، فتساءل: «هل الحكمة أن نبدأ - نحن العرب - بما انتهى إليه الغرب في هذا الميدان لنقول إننا التحقنا بالغرب، وأننا نسايره؟ هل من الصواب أن نؤلف بادئ ذي بدء في نحو الحالات الذي لم يظهر في أمريكا إلا سنة ١٩٦٦ فقط بمقال Fillmore (...)، والحالة أننا لم نمر كما مروا من مراحل لغوية دقيقة هيأت نحو الحالات هذا؟ هل من الحكمة نشر دراسات حول النحو التوليد التطبيقي الذي رأى النور أول ما رآه في حوالي ١٩٦٢؛ ونحن بعد مفتقرون إلى المؤلفات التي عنها تمخض هذا التيار؟ أم هل من الصواب أن نصنف في النحو التوليدي الذي لم يظهر في أمريكا إلا سنة ١٩٥٧ (...)، بعد أن هيأت ظهوره تيارات لغوية أخرى مازال ميدان التأليف العربي لا يعرف عنها إلا النزر القليل، الذي لا يفيد؟»[٨٢].

إن صاحب هذا النص يبني تساؤلاته على تصور واضح يقوم على افتقاد الثقافة العربية أسسا منهجية سليمة توصل بالتدريج إلى البحث اللساني المتوخى. وهنا مكمن الاختلاف بين التأليف في اتجاه لساني معين، وبين التطور التدريجي القائم على أسس منهجية صلبة. إن ما يرمي إليه الباحث ليس صعوبة النحو التوليدي، أو استحالة تقديمه للقارئ العربي، ولكن مرامه أن البحث اللغوي مبني على تراكمات تستمد فاعليتها من اختلاف النظريات وبلوغها مرحلة العلم الشاذ بتعبير توماس كون الذي يقوم إلى العلم الثوري والذي يؤسس بدوره لمرحلة جديدة، ومن ثم تكون النتائج مبنية على أسس ذات قيمة نظرية وعملية تراعي حصيلة الدراسات السابقة وتطوراتها، فتكون النظريات اللسانية بذلك مبنية على إبيستمولوجيا جدلية بتعبير جوليا كريستيفا[٨٣]. وهذا ما يوضحه الراجي أكثر بقوله: «إنه من الحكمة أن نبدأ من النقطة التي منها انطلقوا لنرسي هذا العلم الذي نريده عصريا متطورا على أسسه الطبيعية السليمة. لاشك في أن النقطة التي بدأوا منها هي قواعد دير Port Royal التي وضعها سنة ١٦٦٠ الراهبان Lancelot & Arnold، والتي تعرف بـ «القواعد اللغوية العامة والمعللة تعليلا عقليا». لا يخامرني شك في أننا إن بدأنا من هنا ثم تدرجنا مع التيارات والمذاهب التي تلاحقت دون انقطاع ما بين ١٦٦٠ و١٩٧٧، نفهمها حق الفهم أولا، ثم نعرب مصطلحاتها بعد ذلك مطبقين ما يمكن تطبيقه منها على لغتنا، وذلك بوضع الأمثلة الملائمة لكل قاعدة أصبحنا قادرين على مسايرة كل ما يجد في علم اللغة بجميع فروعه، ونحن - مع ذلك - مطالبون وقت قيامنا بكل هذا بوضع لغة واصفة منسجمة، نستعملها في محاضراتنا وندواتنا ومؤلفاتنا»[٨٤].

إن الكتابة التوليدية العربية لا تعير اهتماما لهذا التطور التدريجي، وتتجاوز كليا الأصول العلمية والمعرفية للسانيات الغربية.

٢ - ١ - ٢ - الكتابة التوليدية العربية والتراث النحوي العربي

يظهر من تحليلنا للكتابة التوليدية العربية وجود موقفين مختلفين من التراث اللغوي العربي:

١ - موقف يسعى إلى التوفيق بين فرضيات ومبادئ الدرس التوليدي، ومعطيات النحو العربي، وهو الموقف الذي يتبناه مازن الوعر في كتاباته مؤكدا أهمية وضرورة انفتاح البحث اللساني العربي على البحوث اللغوية التراثية، إن هو أراد أن يتجاوز كل المجادلات العقيمة التي تعوق تقدمه، ومن ذلك الصراع بين القديم والحديث، يقول الوعر مشددا على أهمية هذه المسألة: «إن أي نظرية لسانية عربية حديثة، تطمح إلى أن تكون علمية فاعلة ومتفاعلة في حقل التكوين اللساني المعاصر، لابد لها من أن تتجاوز المشكلات والمجادلات الزائفة التي تعوق البحث اللساني في الثقافة العربية المعاصرة، تلك المشكلات الناتجة عن الصراع الذي مازال مستمرا بين أنصار القديم وأنصار الحديث، بين أنصار القديم المتعلق بالبحوث اللغوية العربية التي وضعها العرب القدماء، وأنصار الحديث المتعلق بالبحوث اللسانية الغربية التي وضعها علماء الغرب المحدثون، وأسسوا من خلالها علما قائما برأسه دعوه علم اللسانيات»[85].

وعلى هذا الأساس فإن أي إغفال أو إهمال للنظرية اللغوية القديمة بمناهجها المختلفة سيؤدي إلى نقص وعدم كفاية في النظرية اللغوية الحديثة. إن الربط الذي يقيمه مازن الوعر بين القديم والحديث لا يعني جهله بالمنطلقات الفلسفية والعلمية للسانيات، والمنطلقات الإنسانية للتراث اللغوي العربي، فهو يقر بهذه الاختلافات، ولكنه يدرك في الوقت نفسه أن النظرية لا تكتمل وتتبلور إلا من خلال مناهجها المتعددة[86].

٢ - في مقابل هذا التوجه، نجد توجها آخر يرى أصحابه أن معطيات التراث النحوي العربي ناقصة، ولا تصلح لوصف اللغة العربية الحالية، نجد مثل هذا الموقف عند ميشال زكريا الذي يرى أنه «لا نفع، بعد الآن، في أن نردد، بصورة متواصلة، الدراسات التي قامت بها الأجيال السابقة والمفاهيم التي تبنوها في المجالات اللغوية، وإن أضفينا عليها بعض التعديلات السطحية من حيث الشكل والعرض. فهذه الدراسات وإن دلت على المجهود الذي قام به اللغويون في مجال دراسة اللغة، وإن كانت تساعدنا على فهم بعض القضايا اللغوية، لم تعد تفي، في الحقيقة، في مجال تحليل اللغة. ففي هذا المجال تكون النظريات الألسنية العلمية الحديثة، في نظرنا، التقنية المتطورة التي تتسلح بها لسبر قضايا اللغة وتفسيرها وتوضيحها»[87].

إن زكريا يعبر بشكل صريح عن عدم صلاحية الدراسات النحوية لدراسة اللغة، ويرى أن النظريات اللسانية يمكن أن تشكل بديلا عن النحو العربي.

في إطار هذا التوجه أيضا يمكن إدراج موقف الفاسي الفهري الذي يرى أنه «على العكس من الفكرة الشائعة التي مفادها أن النحو التقليدي يزودنا بكل ما نحن في حاجة إليه، ينبغي

أن نتوقع غياب المعطيات الأكثر دلالة بالنسبة إلى افتراضاتنا، أو تشويهها أو إنكار بعض النحاة لها، أو اختلافها اختلاف مراحل تاريخ اللغة...إلخ. على أن هذا لا يعني فساد كل المعطيات والتعميمات التي نعثر عليها»[88].

إن ما يدعو إلى تجاوز النحو العربي من منظور هذا التوجه هو أن القضايا اللغوية لم تعد تفي بالحاجة، وأن معطيات اللغة العربية الحالية، ليست هي المعطيات التي وصفها النحاة، لأن تحليلاتهم تجعل المعطيات الأكثر دلالة بالنسبة إلى افتراضات التوليديين غائبة، أو تشوهها أو تنكرها، وأن البديل هو اللسانيات الحديثة، وتحديدا اللسانيات التوليدية.

بناء على كل ما سبق يمكن أن نتساءل:

هل تشكل تحليلات التوليديين بديلا عن النحو العربي؟

وهل استطاع التوليديون التخلي تماما عن هذا النحو؟

لا نعتقد ذلك مادامت أغلب الضوابط التي تحكم تحليلات التوليديين هي نفسها الضوابط المعروفة في النحو العربي، إننا لا نشك في اختلاف الأصول وطرائق التفسير، لكن جدوى هذه الأوصاف الجديدة لا يمكن أن تكون ذات فائدة إلا بإيجاد حل للمشكلات التي تتخبط فيها اللغة العربية اليوم، كما أن قيمة هذه الأعمال العلمية العالية لا يمكن أن تكون ذات مردودية إلا من خلال تجارب ميدانية تساعد على بلورة الافتراضات وتخرجها إلى حيز الفعل، وبذلك نتمكن من إيجاد حلول عملية للتحديات التي تواجه لغتنا اليوم.

ونشير من جهة أخرى إلى أن أغلب تحليلات التوليديين ظلت أسيرة التحليل النحوي، والاختلافات التي يمكن أن نقف عليها هي اختلافات تهم مصطلحات الوصف وميكانيزمات التحليل، أما جوهر اللغة فيبقى هو هو؛ ولذلك لا نعتقد أن ما تقدمه اللسانيات التوليدية اليوم كاف لتجاوز صعوبات النحو وتبرم الناشئة منه، وقد لا نبالغ إذا قلنا إن طرق الوصف والتفسير والصورنة والتجريد وما يصاحب ذلك كله من تحويل اللغة إلى رموز ومعادلات وأشكال ورسوم... كل ذلك يطرح صعوبات أكثر من تلك التي يطرحها النحو، لأنه يفرض على من يريد أن يتخصص في مجال اللسانيات تكوينا علميا في المنطق والرياضيات، ولعل هذا أحد الأسباب التي تفسر ضعف الإقبال على اللسانيات في الجامعات العربية[89].

٢ - ١ - ٣ - الكتابة التوليدية العربية تكامل أم تجزيء؟!

إذا كان التكامل ضرورة علمية لا مناص منها في جميع العلوم، فإن البحث اللساني لا يمكن أن يحيد عن هذا القانون العلمي، بل يبقى العمل الجماعي أكثر إلحاحا وأكثر كثافة في اللسانيات منها في العلوم الأخرى، لأن طبيعة اللسانيات متشعبة ومتداخلة إلى حد يصعب معه الإلمام بكل جوانبها. وقد أشرنا من قبل إلى تركيز تشومسكي على أهمية العمل الجماعي. فهل وعى اللسانيون التوليديون العرب أهمية هذا الجانب التكاملي وضرورته في تقدم البحث اللساني؟

لئن كان العمل الجماعي في الغرب ضرورة علمية - كما سبق أن أسلفنا - فإنه يتخذ في الثقافة العربية بعدا آخر، فهو «واجب قومي وضرورة ملحة جدا، ذلك أنه من دون هذا العمل الجماعي لا نستطيع إدخال هذا العلم الطويل والعريض إلى الثقافة العربية»[٩٠].

غير أنه يتبدى من عرضنا للنماذج التوليدية في الثقافة العربية أن أغلب تلك النماذج، وخصوصا في المحاولات الجزئية، تركز اهتمامها على مستويين أساسين: هما المستوى التركيبي والمستوى الصوتي، وبدرجة أقل المستوى الدلالي غير آبهة بأهمية تداخل هذه المستويات وتكاملها في الدرس التوليدي خصوصا واللساني عامة. والملاحظ كذلك أن النتائج المتحصلة لا يكمل ولا يطور بعضها البعض الآخر كما يحصل في الغرب. فإذا أخذنا - على سبيل المثال - قضية الرتبة وجدنا أن أغلب البحوث التوليدية العربية قد اهتمت بهذه المسألة، غير أن النتائج المتحصلة لا يربط بينها رابط.

صحيح أن اختلاف النتائج يفسر باختلاف النموذج المتبنى، غير أن ما يلفت النظر هو أن الاختلاف يبقى قائما حتى إن كان النموذج المتبنى في التحليل هو نفسه. ويلاحظ بهذا الخصوص أن المعطيات التي تُعتمد للاستدلال على رتبة معينة تأتي مختلفة من باحث إلى آخر. هذا ما وجدناه عند الفاسي الفهري وخليل عمايرة: فاتفاقهما على أن الرتبة الأصلية هي ف فا مف لم يمنع من اختلاف آليات الاستدلال التي يوظفها كل واحد منهما.

والواقع أن الاختلافات بين التوليديين العرب كان بالإمكان أن توظف بشكل إيجابي لو تم الامتثال للعمل الجماعي.

لقد تقدم أن من اللسانيين من استدل على أن الرتبة الأصلية هي ف فا مف، ومنهم من وجد أن تلك الرتبة هي فا ف مف، وهي استدلالات كان من الممكن أن توظف لاختبار قدرات النماذج التوليدية على تفسير معطيات اللغة العربية، لا العكس. غير أنه لا شيء من ذلك حصل، كما أنه كان بالإمكان الاستعانة بآراء النحاة وتحليلاتهم ولو تم ذلك لاهتدى التوليديون العرب إلى رتبة أصلية أخرى قال بها ابن جني هي رتبة مف ف فا[٩١] قبل أن يقول تشومسكي بحرية الرتبة[٩٢].

إن التحليلات المقدمة في الكتابة اللسانية التوليدية كان بالإمكان أن يهتدي من خلالها التوليديون العرب إلى ازدواجية الرتبة قبل أن يقول بذلك تشومسكي اعتمادا على مبدأ التوسيط. كما أن الاهتمام بالدرس النحوي العربي كان بالإمكان أن يمهد النقاش حول التنميط المتعدد. لكن النماذج اللسانية التوليدية العربية ظلت أسيرة تطور النماذج التوليدية.

من كل ما سبق نلاحظ أن أبسط شروط التنسيق بين التوليديين العرب تبقى شبه منعدمة بخصوص قضية واحدة، فما بالنا بالقضايا التي تطرح على مستويات مختلفة؟! وبذلك يبقى غياب التكامل السمة البارزة في بحوث التوليديين العرب، والاستثناء الذي يمكن أن نقف عليه

بهذا الخصوص تمثله المدرسة التوليدية في المغرب، التي استطاعت أن ترسخ اتجاها توليديا يحمل كثيرا من مقومات العمل المتكامل. فإلى جانب أعمال الفاسي الفهري التي اهتمت بمستويات اللغة تركيبا ودلالة ومعجما، اهتم باحثون توليديون آخرون بتعميق البحث في المستويات السابقة أو البحث عن تطبيقات عملية للنتائج المتحصلة عبر أبحاث ودراسات منشورة[٩٣]، أو عبر أبحاث جامعية. فقد اهتم إدريس السغروشني بالمستوى الصواتي، ويظهر ذلك في مؤلفه «مدخل للصواتة التوليدية»، الذي حاول من خلاله أن يطلع «القارئ على جانب آخر من النظرية اللسانية التوليدية التي سبق أن طرح في إطارها الفاسي الفهري مشكلات التركيب والمعجم... وتمكن القارئ من التعرف على مختلف الاتجاهات الصواتية في إطار الصواتة التوليدية التي تكون جزءا من النحو التوليدي التحويلي»[٩٤]. كما اهتم عبدالمجيد جحفة[٩٥] ومحمد غاليم[٩٦] بالمجال الدلالي.

ولا تقل البحوث الجامعية أهمية في تطوير البحث التوليدي، وهي أعمال يطبعها التنوع إذ شملت كل مستويات اللغة: تركيبا ودلالة ومعجما وأصواتا[٩٧]. كما نستحضر في هذا السياق بعض الأعمال التوليدية التي صدرت في مؤلفات ودوريات مشتركة[٩٨]. ورغم كل هذه المجهودات فإن البحث اللساني التوليدي في الثقافة العربية مازال يفتقد الكثير من شروط الانسجام والتكامل.

٢ - ١ - ٤ - الكتابة التوليدية العربية قضايا إبيستمولوجية

غير خاف على متتبع الممارسة العلمية في الدول المتقدمة أن كل خطاب معرفي في قطاع من قطاعات المعرفة العلمية يستضمر كثيرا من التقنيات الاستدلالية والمفاهيم ذات الأصول المعرفية المتعددة، والمقدمات الفلسفية والطرق الاستكشافية، والتي لا يصرح بها لأنها جزء من تقليد علمي منغرس في آليات إنتاج المعرفة الاستدلالية، وبالتالي فهذه المعرفة ضمنية، تتوارث بين الخطابات وتنتقل بين القطاعات المعرفية. غير أن المتتبع للكتابة اللسانية العربية يلاحظ أنه من بين ما يجعل انخراطنا في إنتاج المعرفة اللسانية انخراطا سطحيا، كون السياق الميتودولوجي والإبيستمولوجي الذي يؤطر إنتاج الأفكار وتبليغها غير مؤسس في مؤسساتنا العلمية، وهذا ما سنسعى إلى الكشف عن بعض جوانبه.

معلوم أن النماذج التوليدية لها أصول رياضية ومنطقية، وهي أصول مضمرة في تقنيات الصورنة التي تنتجها، والتي تسعى من خلالها إلى صقل الآلة الواصفة، وتوفير شروط محكمة لآليات الوصف تتقاطع فيها مع العلوم الأخرى، وهي عبارة عن مبادئ ميتودولوجية، مثل البساطة والاتساق والقدرة على اختزال التعميمات إلى مبادئ تفسيرية... إن كثيرا من هذه الأصول لا تُستحضر في الدرس اللساني التوليدي العربي، وهذا يعني أن جزءا من سياق اللسانيات التوليدية غير الظاهر يتم تغييبه، مما يجعل تلقي اللسانية في الثقافة العربية تلقيا

مبتورا. ومما لا شك فيه أن القدرة على التطوير تتأتى من القدرة على الامتلاك المعرفي للخلفيات الاستدلالية الكامنة وراء إنتاج الآلات الواصفة والنماذج الصورية، وهو ما يدعو إلى ضرورة إقامة تخصصات تدرس هذه القطاعات المعرفية.

إن تغييب هذه الجوانب يؤدي إلى عدم إدراك الأبعاد المختلفة لممارسة العلم. فالعلم له وجه فلسفي ووجه تقاني؛ ويظهر وجهه التقاني داخل المعرفة اللسانية في إطار النماذج الصورية التي تبنيها اللسانيات التوليدية، وتطورها بتعديلها وتكييفها مع أنظمة اللغة الطبيعية أو مع أنظمة الحواسيب. فهذا البعد يقرب العلم من مجالات تسعى إلى استثمار المعرفة استثمارا تطبيقيا ملموسا.

وعليه فإن كل حديث عن تطوير اللسانيات يظل حديثا عاما وفضفاضا ما لم يدرك أهمية امتلاك المعرفة اللسانية في بعدها التقاني من ضمن أبعاد أخرى متعددة، إذ إن من بين خصائص العلم قدرته على تجاوز حدوده الخاصة ليقوم بأبعاد تطبيقية تمس مجالات متباينة (تدريس اللغة، التخطيط اللغوي...).

إن الانخراط في هذه الأبعاد يقتضي امتلاك البعد التقني للعلم، وهو تملك لا يمكن أن يحصل في غياب استحضار الأصول المنطقية والرياضية للصورنة وأساليب بناء النماذج، وهو ما لم يحصل فيه تقدم في اللسانيات التوليدية العربية بشكل خاص؛ وبذلك ظلت اللسانيات التوليدية في الثقافة العربية تواجه الطرفية والآنية في قطاعات مختلفة مما قد يعتقد معه أن اللسانيات غير فاعلة في محيطها الاجتماعي، ويظهر ذلك جليا في قطاعات دراسة اللغة وتعليمها والتخطيط اللغوي، وحوسبة اللغة... ويستعاض عن كل ذلك بتبني نماذج جاهزة.

ومما يقترن بما سقناه أعلاه أن كثيرا من القضايا التي يثيرها الدرس اللساني التوليدي العربي، والتي تبدو للوهلة الأولى ذات بعد إبيستمولوجي مثل قضية الوضوح والملاءمة والضبط، تطرح خارج سياقها، لتغيب الأبعاد التقانية من داخل النماذج وتغيب معها الأبعاد الإبيستمولوجية. إن كثيرا من القضايا التقانية التي تبتني عليها الاستدلالات في إطار اللسانيات التوليدية، توجد في صلب تعريف النموذج كما هو واضح عند جون ديبوا الذي يعتبر النموذج: «بنية منطقية أو رياضية تستعمل لرصد مجموعة من العمليات التي تملك فيما بينها علائق معينة»(٩٩).

إن مجمل البحوث التوليدية العربية هي تطبيقات تتفاوت في درجة تمثل النماذج التوليدية الحديثة لكنها تشترك في كونها تعزل اللسانيات التوليدية عن السؤال الكبير الموجه للبحث في اللغة الطبيعية، وهو معرفة اشتغال الذهن البشري وتحديدا اكتساب اللغة وتفسير مشكل أفلاطون: كيف للإنسان أن يكتسب معرفة لغوية منظمة على الرغم من فقر المنبه، وقصر المدة الزمنية التي حصل فيها الاكتساب؟

إن تشومسكي ينخرط في البحث اللساني مستحضرا هذا السؤال، بل يجعله الموجه في دراسته للغة الإنسانية. أما اللسانيات التوليدية العربية فإنها تبدو منعزلة لتغييبها السياق الميتودولوجي والثقافي والفلسفي والمعرفي، فيقع تجزيء المشروع التوليدي واختزاله لتتحول بذلك اللسانيات التوليدية إلى نماذج صالحة للتطبيق على بعض ظواهر اللغة العربية؛ وذلك بانتقاء مبادئ وتعميمات الدرس التوليدي، وانتقاء الظواهر المناسبة لتمثيلها، وهي صورة ناقصة إذا ما قورنت بما ينجز في العالم الغربي داخل المشروع التوليدي، والذي يتحول إلى قطاعات معرفية جزئية تخدم الإطار العام للنظرية التوليدية، ومن ذلك البحث في ظواهر اكتساب تراكيب في إطار علم النفس اللغوي للبرهنة على صحة الاستدلالات التوليدية، ودراسة أساليب الصورنة والاستدلال في النحو التوليدي لصقل النموذج، فضلا عن تنوع مظاهر تطبيق النموذج: الصرف، والتركيب، والدلالة، والصواتة، والمعجم، ...، وقد تقدم أن الأبحاث التوليدية العربية تركز اهتمامها على بعض الجوانب دون غيرها، ومن ذلك على وجه التحديد البحوث التركيبية والصواتية، بينما تتم الإشارة إلى المستويات الأخرى إشارات محتشمة، وكأن اللغة العربية غير معنية بها. والواقع أن كثيرا من تلك القضايا التركيبية في اللغة العربية مرتبطة في جوانب كثيرة بمستويات اللغة وتداخلها، ولا يمكن أن نعزلها عن بعضها إلا لاعتبارات منهجية ليس إلا.

لقد كان من النتائج المباشرة لغياب الانسجام بين البحوث التوليدية العربية: العجز عن تطوير أي نموذج من النماذج التوليدية؛ وأي ملمح إضافي لا يتجاوز اقتراح تعميمات جديدة لا تخرج عن إطار النظرية التوليدية العام.

كما يلاحظ على الكتابة التوليدية العربية مراكمتها لأوصاف محددة. ومعلوم أن اللساني العالم ينبغي ألا يقف عند حدود ما هو ملاحظ، بل يجب أن يمتلك الحاسة التي تمكن من استكشاف الظواهر ذات الدلالة بالنسبة إلى تطور النظرية أو النموذج، إن ذلك يجعل كثيرا من الأوصاف التوليدية العربية مكررة لأنها تعالج القضايا نفسها، وهو ما لاحظناه بوضوح في عرضنا للنماذج التوليدية في الثقافة العربية حيث استأثرت قضية الرتبة باهتمام خاص، وشكلت تيمة البحث التوليدي العربي، بينما ظل كثير من قضايا اللغة العربية مغيبا.

خلاصة:

حاولنا في هذا الدراسة الكشف عن أهم الخصوصيات التي وسمت تلقي اللسانيات التوليدية في الثقافة العربية، حيث ميزنا بهذا الخصوص بين محاولات جزئية، ومحاولات شمولية. والملاحظ أن تلك المحاولات يطبعها التفاوت من جهة أهميتها وجديتها. من النتائج المتحصلة أيضا، أن التوليديين العرب يسلكون طرائق قددا في تحليلاتهم وطروحاتهم وآليات الاستدلال الموظفة

عالم الفكر
العدد 1 المجلد 37 يوليو - سبتمبر 2008

النحو عند ضياء الدين بن الأثير

د. عبدالرحمان الخالدي (*)

لم يكن لنا من مبرر لتناول قضية النحو عند ضياء الدين بن الأثير، أحد نقاد القرن السابع الهجري[1]، غير الموقف الذي تبناه من القضية، وسياقه في سبيل إقناع القراء به العديد من الأدلة والأمثلة. ولعل الموقف الذي نقصده هو اعتبار ابن الأثير النحو أمرا ثانويا في الحكم للجملة العربية بالصحة أو بالخطأ بعد حكم الذوق لها. وهو ما يعني من وجهة نظر أخرى أن الجملة العربية متى حكم لها الذوق العربي، المبني على قواعد، بالجواز فلا داعي بعد ذلك لتحكيم ما تقوله القواعد النحوية، ولا يهم في ذلك أكان ما جوزه الذوق موافقا لما جاء في النحو أم لا.

ليس معنى هذا أن ابن الأثير يقصد أن مقياس قبول كلمة دون أخرى هو استعمال العرب القدامى لها، وورودها في دواوينهم ومصنفاتهم، بل يذهب بخلاف ذلك إلى أن «استحسان الألفاظ واستقباحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب، لأنه شيء ليس للتقليد فيه مجال»، مشيرا إلى أن لكل جيل وعصر ذاتيته الخاصة، وهي المرجع والحكم في مسألة الذوق. يقول ابن الأثير: «ومع هذا فإن القول بأن العرب كانت تستعمل من الألفاظ كذا وكذا، وهذا دليل على أنه حسن، قول فاسد لا يصدر إلا عن جاهل، فإن استحسان الألفاظ واستقباحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب لأنه شيء ليس للتقليد فيه مجال، وإنما هو شيء له خصائص وهيئات وعلامات، إذا وجدت عُلِم حسنُه من قبحه، [...] وأما الذي تقلد العرب فيه من الألفاظ فإنما

(*) باحث من المغرب.

هو الاستشهاد بأشعارها على ما ينقل من لغتها، والأخذ بأقوالها في الأوضاع النحوية في رفع الفاعل ونصب المفعول وجر المضاف إليه وجزم فعل الشرط وأشباه ذلك، وما عداه فلا»[٢].

ويرى ابن الأثير ان «الذوق» الذي يمكن أن يحكم للجملة العربية بالجواز أو عدم الجواز هو الذوق الذي بناه صاحبه على الدربة والمران من كثرة مطالعة نصوص القدامى. وفي هذا السياق ينقل عن ابن خلدون قوله في مقدمته: «وهذه الملكة -الذوق- إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه، وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة البيان، فإن هذه القوانين إنما تفيد علما بذلك اللسان، ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها، [...] وإذا تقرر ذلك فملكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ إلى وجود النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم، ولو رام صاحب هذه الملكة حيدا عن هذه السبيل المعنية والتراكيب المخصوصة، لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه لأنه لا يعتاده، ولا تهديه إليه ملكته الراسخة عنده. وإذا عرض الكلام حائدا عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجه، وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم»[٣].

إن الدراسة الأسلوبية تعد من أقرب المنافذ لطبيعة المكونات التاريخية الخاصة باللغة العربية، التي اعتمدت إبان صياغتها وخلال مراحل تقعيدها الأولى على ثروة وفيرة من التجربة الشعرية، مثلت الأساس الفعلي للمادة التي قيس عليها الإطار النحوي العام. ولست أشير بذلك إلى المنظومات الأجرومية المتأخرة كألفية ابن مالك، التي أصبحت دستورا للغة، وإنما الأمر يمتد إلى فجر الفكر اللغوي العربي، الذي أطل على مساحات واسعة من شعرية القصيد والقرآن، استقى منهما العلماء الهياكل الرئيسة لنظام اللغة والتصورات المهمة في أساليبها، ولم يخطر لهؤلاء النحاة واللغويين أن يميزوا بين مستويات النثر والشعر، بل كانوا أكثر اعتمادا على الحصيلة الشعرية عند استخلاصهم للقواعد وملاحظتهم للظواهر، مما صبغ هذا الفكر بصبغة شعرية ملازمة، كان لها أثرها الواضح في الإنتاج اللغوي ذاته. فقد وضعت القوانين للقاعدة والشذوذ، وانتظم الإعراب إطارا جامعا للعبارات، وهو من آثار الضبط الموسيقي للكلمات، وأصبح الفكر اللغوي يدور في فلك الشعرية، فالنحو يسقط تنويعات اللهجات من حسابه، ويعزف عن مستويات الخطاب النثري اليومي في أبنيته، ويعتمد في تصنيفاته على المستوى الفني الراقي للغة كما يتجلى في أصفى أحواله[٤].

ومن ثمة فإن الدراسة الأسلوبية الحديثة، خاصة عندما تتركز في لغة الأدب وتنحو إلى اكتشاف قوانينه بطريقة تجريبية لا معيارية، تستأنف هذا النشاط لمنطق الفكر اللغوي العربي على أساس جديد يقوم على أمرين:

الأول: تطوير مفهوم نظرية اللغة وعلاقتها بالواقع الحضاري، ودورها في الصياغة الجدلية للعقل العربي، إذ تعكسه وتؤثر في مساره. ومن ثمة، فإن مشروعيتها ترتبط بالمشروع العلمي الحضاري للأمة على مستوى التخصص الدقيق لبحوث اللغة والفن والواقع.

الثاني: الاعتماد على المنهج التجريبي العلمي في بناء الوقائع واستخلاص النتائج بالبحوث النصية المنتظمة على محاور آنية وزمنية، والمتراكمة في نتائجها حتى تؤدي إلى القفزات النوعية في محاولة للوصول إلى «نحو للشعر» لا يختلط بـ «نحو اللغة»، وإن انبثق منه، ولا يرجع إلى «شعرية النحو» كما كان الأمر قديما.

وإذا كانت الملامح الأسلوبية تعود بالضرورة إلى خواص النسيج اللغوي وتنبثق منه، فإن البحث عن بعض هذه الخواص ينبغي أن يتركز في الوحدات المكونة للنص وكيفية بروزها وعلائقها [5].

إن مداركنا لا تتسع بمعزل عن النحو الذي نستعمله الآن، أو استعملته النصوص سابقا، موقنين أنه (النحو) جزء أساس من فكرة الأسلوب، وليس مجموعة من الأنظمة الخارجية التي تشبه اللباس، تخلع وترتدى. إنه عميق متمكن في النفس العربية، لا ينفصل في الإحساس العام عن المتوارث عن إدراكنا وانفعالنا.

ثم إن القرون الأربعة الأولى تمثل القمة في النشاط العلمي بظهور مجالات التخصص، حيث نشطت حركة التأليف بعد أن تكاملت عناصرها وتحددت طرائقها بشكل أفضل، فبرزت فيها معالم التنظيم والاتساع والشمول، وقد قويت الصلة بين الأدباء، واشتعل لهيب الخلاف بين الفرق، فكان ذلك رحمة للعلم حيث تضجت العقول واستوت. لكن، بالإضافة إلى هذا الجانب، كان هناك من غرق في تيار الجري على ما لا طائل منه، وهذا في بعض البحوث النحوية المتخصصة التي ضاعت بين البحث عن العلل الأوائل والثواني والثوالث، مما أفقد النحو ميزته وجعل الناس يزهدون فيه وينفرون من أخذه، فيكون القرن الخامس الهجري الذي ظهر فيه عبدالقاهر الجرجاني بداية انحطاط ثقافي في تاريخ الأدب العربي، حيث برز تيار الاعتناء بتنسيق الكلمات، وأدى ذلك إلى إهمال الشعر والانصراف عن النحو.

أمام هذه التحديات لم يكن أمام عبدالقاهر الجرجاني أي خيار إلا أن يتصدى بكل شجاعة للرد على هؤلاء، فأخرج كتابه «دلائل الإعجاز في علم المعاني» أكد فيه أن البلاغة ليست أمرا مستقلا عن النحو، وأن البلاغة تساعد اللغة على أداء وظيفتها البلاغية، شرط أن تدرس عنصري اللفظ والمعنى. فكان كتابه مرحلة جديدة في تاريخ علم اللغة العربية، وهي مرحلة الدراسة الوظيفية للغة العربية [6]. لقد أريد من وراء فحص جماليات النحو شيء من التضامن والتماس الغلبة أو القوة أو التساند، لكن القوة لا تبدو على السطح ولا تعلن عن نفسها في غلظة، إنها كامنة في قرار بعيد.

وفي ضوء هذا كله بدا للباحثين أن كلمة «الأسلوب» تحتاج إلى تمحيص أكبر في ضوء النحو أو ضوء المستوى الباطني الذي يستقر على مسافة من السطح (٧).

وفي هذا السياق، يرى الأستاذ محمد حماسة عبداللطيف، في ما ينقله عنه صالح بلعيد، أن الجملة العربية التي تكون مقبولة نحويا ودلاليا لا بد أن تتوافر فيها عناصر أربعة هي:

١- وظائف نحوية بينها علاقات أساسية تمد المنطوق بالمعنى الأساس.

٢- مفردات يتم الاختيار من بينها لشغل الوظائف النحوية.

٣- علاقات دلالية متفاعلة بين الوظائف النحوية والمفردات المختارة.

٤- السياق الخاص الذي ترد فيه الجملة، سواء كان سياقا لغويا أو غير لغوي.

وهذا يعني أن فهم العبارة اللغوية لا يحصل إلا بفهم أبعادها الدلالية وموقعها الإيصالي وموقعها فيه، لأن التواصل الإنساني يتم عبر ارتباط الدلالات بالأصوات اللغوية (٨). حيث ترتبط مكونات الأداء الكلامي وتتفاعل في أداء سليم تحت رعاية القواعد الشكلية التي يكتسبها الإنسان من كفايته اللغوية (٩)، ورعاية ما يتوصل إليه ذوقه الخاص والمعلل في الحكم على فصاحة الكلمة.

مقومات النحو عند ضياء الدين بن الأثير

قام النحو عند ضياء الدين بن الأثير على المقارنة بين علم البيان وعلم النحو، فعقد لهذه المسألة مبحثا هو آخر ما ورد في مقدمته العامة، قدم فيه سؤالا مفاده: هل «علم البيان» من الفصاحة والبلاغة جار مجرى علم النحو أم لا؟ وجاء في الجواب أن الفرق بينهما ظاهر بيّن، وذاك أن أقسام النحو أخذت من واضعها بالتقليد، حتى لو عكس القضية فيها لجاز له ذلك. ولما كان العقل يأباه ولا ينكره فإنه لو جعل الفاعل منصوبا والمفعول مرفوعا قلد في ذلك كما قلد في رفع الفاعل ونصب المفعول، وأما علم البيان من الفصاحة والبلاغة فليس كذلك. وحاصل هذه المقارنة أن النحو وضعه واضع، وقد أخذت أقسامه من واضعها بالتقليد. أما علم البيان فلا يخضع للتقليد «لأنه استنبط بالنظر وقضية العقل من غير واضع اللغة، ولم يفتقر فيه إلى التوقيف منه، بل أخذت ألفاظ ومعان على هيئة مخصوصة، وحكم لها العقل بمزية الحسن، لا يشاركها فيها غيرها» (١٠).

فعلم البيان لم يؤخذ بالتقليد من واضع وضعه، ولا هو مُستَقْرًى من النصوص، وإنما هو في رأي ابن الأثير مستنبط بالعقل من وصفي الفصاحة والبلاغة المختصين بالألفاظ والمعاني، والعالقين بكل لغة من اللغات، فهو يفترض أن كل لغة من حيث هي نظام لا تخلو من هذين الوصفين، واللغات في رأيه تتفاوت درجة الاتصاف بهما، إلا أن للغة العربية - حسبه - مزية على غيرها لما فيها من التوسعات التي لا توجد في لغة أخرى سواها.

معنى ذلك أنه يذهب إلى أن علم البيان ليس له أصل منهجي، ولكن له أصل مبدئي، مرجعه إلى أن «كل عارف بأسرار الكلام من أي لغة كانت من اللغات يعلم أن إخراج المعاني في ألفاظ حسنة رائعة يلذها السمع ولا ينبو عنها الطبع خير من إخراجها في ألفاظ قبيحة مستكرهة ينبو عنها السمع»[11]، وهذا الأمر لا تكفي فيه المعرفة بالنحو وأصوله، ذلك أن معرفة «القاعدة النحوية» أو «البلاغية» لا تتيح إمكان النقد ما لم تكن هذه القاعدة موجهة ومدعومة بإحساس فني جمالي، فالنص ليس نظاما من الوحدات اللغوية التي تستهدف الفهم فحسب، وإنما هو نظام ذو وظيفة تأثيرية، وكلما أدرك الناقد البصير هذا النظام حصلت له متعة فنية تدفعه في النهاية إلى الحكم بجمال الأثر. إن غاية ابن الأثير هي إبراز القدرات الذوقية عند الناقد التي لا تكتسب إلا بفعل المران وإدمان النظر أو إدمان الرياضة على حد تعبير علي بن عبدالعزيز الجرجاني، يقول هذا الأخير: «الفاسد - من الألفاظ - له وجهان، أحدهما ظاهر يشترك في معرفته ويقل التفاضل في علمه، وهو ما كان اختلاله وفساده من باب اللحن والخطأ، والخطأ من ناحية الإعراب واللغة. وأظهر من هذا ما عرض له ذلك من قبل الوزن والذوق، فإن العامي قد يميز بذوقه الأعاريض والأضرب، ويفصل بطبعه بين الأجناس والأبحر... والآخر غامض يوصل إلى بعضه بالرواية، ويوقف عند بعضه بالدراية، ويحتاج في كثير منه إلى دقة الفطنة وصفاء القريحة ولطف الفكر وبعد الغوص، وملاك ذلك كله وتمامه الجامع له والزمام عليه صحة الطبع وإدمان الرياضة، فإنهما أمران ما اجتمعا في شخص فقصرا في إيصال صاحبهما عن غايته ورضيا له بدون نهايته»[12]. فهل نال النحو عند ابن الأثير ما يستحق من الدراسة أو كان في درجة ثانية بعد الذوق والدربة والإدمان؟ ثم أليس النحو من أهم ما يعتد به الدارس، ليس للنص العربي فقط، بل للبيان العربي بصفة عامة؟

إنه لما كان النحو والبلاغة من أهم مصادر ثقافة الأديب في المجال الأدبي كان الاعتناء بهما - وبالنحو خاصة - يعود على الأقل لسببين:

أولهما أن اعتماد السليقة في القول لم يعد ممكنا، ومرد ذلك إلى اختلاط الأجناس بفعل اتصال الأمم والشعوب بعضها ببعض، «ثم خلف قوم بعد قوم من أهل الأمصار وأبناء العجم ليس لهم طبع اللغة ولا علم التكلم فهفوا في الكثير من الحروف وزلوا وقرأوا بالشاذ وأخلوا»[13]. وقد صاحب هذا الاختلاطَ اختلاط آخر بين اللغات مما أحدث تداخلا لغويا أقر الجاحظ بانعدام جدواه، واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها[14].

أما **ثانيهما** فهو أهميته في أداء المعنى، إذ النحو تحقيق المعنى باللفظ[15]، ولا أدل على ذلك من التحريف الذي يصيب المعنى من جراء اللحن «والكلام يتغير المراد فيه باختلاف الإعراب كما يتغير الحكم فيه باختلاف الأسماء، وكما يتغير الحكم باختلاف الأفعال، وكما ينقلب المعنى باختلاف الحروف»[16].

وظيفة النحو إذن هي استخراج مبادئ اللغة ونظمها استنادا إلى الاستعمال المشترك، أو ما يظن أنه استعمال مشترك، وغايته القصوى حماية اللغة من الفساد، والحرص على أن تواصل أداء وظيفتها الأصلية التي هي الإبلاغ، ووسيلته في ذلك ضبط المعايير التي تفصل بين الخطأ والصواب. ولهذا تتبع النقاد هفوات الأدباء واعتبروا سلامة اللغة أحد مقاييسهم لمحاصرة «أدبية» النص. وفي هذا الصدد يمكن أن نقسم ملاحظاتهم حول النحو إلى قسمين:

القسم الأول: وفيه تمت الدعوة إلى ضرورة العناية بالنحو، كما جاء ذلك عند الخليل «كان أصحاب الشعر يمرون بالخليل فيتكلمون في النحو فقال الخليل لابد لهم من أصل»[17]. وقال أيضا: «لا يصل أحد من النحو إلى ما يحتاج إليه إلا بتعلم ما لا يحتاج إليه ... وكل علم بهذه المنزلة فيه الجلي والغامض كما في الفقه، فإن مسائله الغامضة في الحيض والتيمم والفرائض وغير ذلك.... لا يتوصل الإنسان إلى معرفة هذه المسائل العويصة إلا بعد مقدمات يفهمها من الوسائل الواضحة»[18]. وهذا ما أكده ثعلب حين قال: «لا يصح الشعر ولا الغريب إلا بالنحو، النحو ميزان هذا كله»[19].

أما القسم الثاني من ملاحظاتهم فيخص استهجانهم للحن، وقد أورد الجاحظ مجموعة مهمة من **الأقوال** في ذلك منها: «اللحن هجنة على الشريف» و«اللحن في المنطق أقبح من آثار الجذري في الوجه»[20]. ويبدو أن فكرة عدم الحاجة إلى إعراب الكلام كانت مختمرة عند ابن الأثير، فلم يكن يترك مناسبة لإثبات صحتها إلا وفعل[21]، واهتم النقاد أيضا بعلم البلاغة، وقد ساعد ظهور بعض المصنفات المنظمة على تدريس هذا العلم ككتاب «البديع» لابن المعتز، وكتاب «الصناعتين» لأبي هلال العسكري وغيرهما.

لقد جعل ابن الأثير من النحو وتراكيبه وسيلة لضبط أواخر الكلمات، فهو جملة من القواعد الجافة التي لا علاقة لها بالبلاغة أو بفصاحة الأسلوب، بل الغرض منها فقط عدم الوقوع في اللحن. أما كلمة المعاني التي جاء ذكرها في قوله «فإذا نظرنا إلى ضرورته وأقسامه المدونة، وجدنا أكثرها غير محتاج إليه في إفهام المعاني»[22]، فيقصد بها المعاني النحوية كالفاعلية والمفعولية والإضافة... إلى آخر، تلك المعاني التي تدل عليها حركات الإعراب منقطعة تماما عن معاني الكلم، بل إنه ليستغني عن حركات الإعراب إذا عرفت تلك المعاني دونها. يدل على ذلك قوله «... وإلا فإذا نظرنا إلى ضرورته [النحو] وأقسامه المدونة وجدنا أكثرها غير محتاج إليه في إفهام المعاني. الا ترى أنك لو أمرت رجلا بالقيام فقلت له «قوم» بإثبات الواو ولم تجزم لما اختل من فهم ذلك شيء، وكذلك الشرط لو قلت «إن تقوم أقوم» ولم تجزم لكان المعنى مفهوما. والفضلات كلها تجري هذا المجرى كالحال والتمييز، فإذا قلت «جاء زيدٌ راكبٌ» و«ما في السماء قدر راحة سحابٌ» و«قام القوم إلا زيدٌ» فلزمت السكون في ذلك كله، ولم تبين إعرابا لما توقف الفهم على نصب الراكب والسحاب ولا على نصب زيد.

وهكذا يقال في المجرورات وفي المفعول فيه والمفعول له والمفعول معه وفي المبتدأ والخبر وغير ذلك من أقسام أخر»[٢٣].

هذا النص يدل دلالة واضحة على استهزاء ابن الأثير بالنحو، وهو انه عنده واستصغاره لشأنه، حتى أنه قد قصر النحو على حركات الإعراب، ليس ذلك فقط، بل إنه عد حركات الإعراب لازمة أحيانا وغير لازمة أحيانا أخرى، وهذا - لعمري - كلام لا يستقيم مع مقتضيات البحث العلمي، الذي يقتضي أن تكون القاعدة صالحة في جملتها أو غير صالحة كلية. ثم إننا إذا نحينا العلاقة بين النحو والبلاغة جانبا، وجدنا تعريف ابن الأثير للنحو تعريفا قاصرا غير جامع لأركانه ووظائفه، فليس الأمر في النحو مقصورا على حركات الإعراب، وليس الإعراب هو النحو كله، ولو أنه نظر إلى تعريف ابن جني (المتوفى سنة ٣٩٢هـ) للنحو لعرف أنه قد ظلم النحو والنحاة جميعا. يقول ابن جني «النحو هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه، من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم»[٢٤].

أما الصفدي فيؤكد ضرورة إتقان النحو وتعلمه لصيانة اللسان العربي عن اللحن والخطأ حتى وصل في اندفاعه، مع هذا، إلى الإشارة إلى أن هناك من يعتقد بعدم استجابة الدعاء ما لم يكن بلغة سليمة معربة لا يشوبها لحن ولا خطأ. وكم أثارته آراء لابن الأثير لمس فيها تساهلا مريبا في أمر النحو والتقيد بقواعد الإعراب، فقال في رده عليه والدهشة لا تفارقه «ما يورد مثل هذا إلا عوام الناس، ومن لم يتلبس بالمعرفة، ولم يرح رائحة العلم، ألم يعلم أنه إذا صدر عن مترسل كتاب لم يجزم أفعال أمره ولا شروطه وجوابها ولم يرفع فاعله وينصب فضلاته، ولا راعى شيئا من قواعد إعرابه التي هي ظاهرة، ولا حافظ على شيء من الإعراب البتة، كان ضحكة للمغفلين فضلا عن العقلاء، وحينئذ فقد استوى العلماء والجهال ... ألم يعلم أن بعضهم ذهب إلى أن الله تعالى لا يقبل الدعاء إذا لم يكن معربا»[٢٥].

وتبدو أهمية البلاغة في كونها آلة للأديب تساعده على الإبلاغ أكثر من غيرها، إذ بواسطتها يعرف الجيد والرديء، لأنها تمده بالقوانين العامة، فإذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر رديء، ولفظ حسن وآخر قبيح، وشعر نادر وآخر بارد، بان جهله وظهر نقصه. وهو أيضا إذا أراد أن يضع قصيدة أو ينشد رسالة، وفاته هذا العلم، مزج الصفو بالكدر وخلط الغرر بالعرر»[٢٦].

يمكن القول على العموم إن ابن الأثير من خلال اعتباره الذوق المقياس الوحيد في الحكم على العبارة الفنية، قد ثار على الأقيسة المنطقية واعتبرها مجرد قوانين جامدة لا تفيد شيئا في تذوق النصوص الأدبية والحكم عليها. لهذا دخل في خلاف مع النحاة واللغويين، لأنهم

نظروا إلى العبارة البيانية من خلال تلك الأقيسة التي وضعوها، بينما العبارة الأدبية لا تقتصر على هذا الجانب وحده، وإنما تتعداه إلى جوانب أخرى وراء التعبير المنطقي وقضية الصحة والخطأ[27].

لقد كان هم ضياء الدين بن الأثير هو الكشف عن الحسن والجمال في العبارة الفنية، لهذا لم يكن يرى اللحن قادحا في حسن الكلام، لأن هذه العلة لم يسلم منها حتى أكبر الشعراء كأبي نواس والبحتري وأبي تمام والمتنبي. وذهب إلى أن الشاعر عندما ينظم كلامه فإنه لم يكن غرضه رفع الفاعل أو نصب المفعول، وإنما يكون غرضه التعبير عن شعور يخالجه، فسواء التزم في هذا التعبير بقواعد اللغة أم لم يلتزم فإن التجربة في حالة الصحة والخطأ واحدة، ولم يكن الشاعر مخطئا حين قال:

كَـــمَـــا خُطَّ الكتـــابُ بكفِّ يَوْمًـــا
يَـهُـــــــوديٍّ يُقَـــــارِبُ او يـزِيـلُ

إذ فصل بين المضاف والمضاف إليه، لأن المعنى الذي أراده مفهوم من قوله -وإن كان عسيرا - ولذا فالمعنى وثب في ذهنه قبل تكوين العبارة ونظم البيت، وهذا المعنى لا يتغير بالحرص على ملازمة المضاف المضاف إليه أو فصلهما. ومن ثم يخرج بالحكم الآتي: «إن الجهل بالنحو لا يقدح في فصاحة ولا بلاغة، ولكنه يقدح في الجاهل به نفسه، لأنه رسوم قوم تواضعوا عليه، وهم الناطقون باللغة، فوجب اتباعهم، والدليل على ذلك أن الشاعر لم ينظم شعره وغرضه منه رفع الفاعل أو نصب المفعول أو ما جرى مجراهما، وإنما غرضه إيراد المعنى الحسن في اللفظ الحسن المتصفين بصفة الفصاحة والبلاغة، ولهذا لم يكن اللحن قادحا في حسن الكلام[28].

على مثل هذا القول علق الصفدي قائلا «ما بقي بعد هذا إلا أن يقول، في إشارة إلى ابن الأثير، مبرزا نقطة الخلاف معه: إن مراعاة الإعراب علة موجبة لقبح الكلام، أتراه ما سمع بقولهم: النحو في الكلام كالملح في الطعام، وقد ذهب بعضهم إلى أن الإعراب إنما سمي إعرابا لأن العرُب في قوله تعالى «عرُبا أترابا»[29] هن المتحببات إلى أزواجهن، فكان من أعرب كلامه تحبب إلى مخاطبه»[30].

وهذه النصوص وغيرها من المثل السائر تدلنا على أن ابن الأثير لم ينتفع بالدراسات الجادة الأصيلة لعبدالقاهر الجرجاني الذي كانت وفاته قبل وفاته بنحو ثلاث وستين ومائة سنة، ذلك أن ابن الأثير قد فصل في هذه النصوص بين تعبيرين: «التعبير العادي والتعبير المزخرف»، وجعل للكلام البليغ خصائص يمتاز بها عن المستوى العادي من الكلام[31].

وفي تقعيد العربية - شأنها في ذلك شأن كل اللغات - لابد من الاستعانة لفهم التركيب أو بناء الجملة بذوق اللغة الخاص، النابع من المعنى المعجمي والصيغي للكلمات، ومعنى السياق

العام والخاص. فمثلا لو أخذنا كلمات «ضرب» و«يضرب» و«اضرب» عند وضعها في جملة ما، فلابد من فهم صيغتها الخاصة ونوع هذه الصيغة في بابها. ومعناها المعجمي الأول، وهو إيقاع الضرب على شخص ما أو شيء ما. وانتقال هذا المعنى في سياق آخر إلى معنى مختلف، ولابد من فهم معناها التركيبي، وهو احتياجها إلى فاعل أو مفعول به في بعض التراكيب دون بعضها الآخر. ولابد من فهم سياقها الخاص في بناء جملتها عن طريق ترابطها مع ما يتعلق بها أو يقيدها إلى آخره. ولذلك تجد معاني الجمل الآتية مختلفة مع اشتمال كل منها على فعل مادته واحدة «ضرب - يضرب - اضرب» في قوله تعالى: ﴿فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾[٣٣] و﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾[٣٣] و﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾[٣٤] و﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾[٣٥].

وليس تذوق اللغة أمرا عشوائيا، ولكنه نابع من فهم تقاليد اللغة الخاصة ودلالات مفرداتها الحقيقية والمجازية، ووضعها في بناء جملتها ووسائل ترابطها مع العناصر الأخرى المكونة للجملة. وقد تتحدد الدلالة الخاصة لبعض الصيغ بوضعها في سياق تركيبي خاص. فلا يستطيع دارس العربية مثلا أن يحدد أن «من» شرطية أو استفهامية أو موصولة إلا عن طريق استخدامها عند كل حالة، وقد قدم النظام اللغوي الوسائل التي تعين على هذا التحديد. فعندما تكون شرطية يجزم المضارع بعدها ويحتاج شرطها إلى جواب له خصائص معينة كذلك، وعندما تكون موصولة تحتاج إلى صلة لها خصائص معينة، وتصبح مع ما يتممها مركبا اسميا يعد مكونا واحدا من مكونات بناء الجملة، وعندما تكون استفهامية لا تحتاج إلى ما تحتاج إليه الشرطية أو الموصولة في بناء الجملة، ولكن تحتاج إلى نغمة مختلفة إن كانت منطوقة. فليس الحكم بكونها على حالة من تلك الحالات آتيا من بنيتها الخاصة، ولكن من وضعها في بناء جملتها مع ما يتعاون معها من علامات لغوية أخرى[٣٦].

وفي السياق نفسه نشير إلى أن هناك فرقا بين معرفة القواعد واكتساب الملكة، وإذا تأكد هذا الفرق في كثير من المهارات فإنه أكثر وكادة في المهارة اللغوية، إذ ليس كل من يعرف القواعد اللغوية لديه الملكة الخاصة بهذه اللغة ضرورة، وليس من الضروري كذلك لمن لديه الملكة اللغوية أن يكون عارفا بقواعد اللغة معرفة نظرية دقيقة، وذلك لأن القواعد لا تكون الملكة اللغوية، بل تفسرها. لكن الذي يكون هذه الملكة هو الدربة والمران على القراءة السليمة والسماع الصحيح الكثير المتكرر، ولهذا لا نتوقع من كتب النحو أن تساعدنا على تكوين الملكة اللغوية، بل يجب أن نتوقع منها أن تساعدنا على تفسير البناء اللغوي تفسيرا يقوم على توضيح العلاقات وكشف الترابط بين أجزاء الجملة[٣٧].

ويرتكز عبدالقاهر الجرجاني في توضيحه لمعاني النحو، التي يقيم عليها مفهومه للأسلوب، أو النظم، على مبدأ التقسيم الثلاثي للكلمة - من حيث الشكل والبنية - في اللغة العربية، إلى

اسم وفعل وحرف، ووجوه تعلق كل منها بالآخر. فالمتكلم الذي يعبر عن معنى من المعاني إنما ينطلق بالألفاظ الدالة عليه مرتبة في علاقات نحوية تعكس تصوره لهذا المعنى، بأن يعمد إلى اسم مثلا، فيجعله فاعلا لفعل، أو مفعولا، أو يعمد إلى اسمين، فيجعل أحدهما خبرا عن الآخر، أو يتبع الاسم اسما على أن يكون الثاني صفة للأول، أو تأكيدا له، أو بدلا منه، أو يجيء باسم بعد تمام كلامه على أن يكون صفة، أو حالا، أو تمييزا، أو يتوخى نفي معنى من المعاني، أو الاستفهام عنه، أو تمنيه فيدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك، أو يريد في فعلين أن يجعل أحدهما شرطا في الآخر، فيجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى، أو يعد اسما من الأسماء التي ضمنت معنى ذلك الحرف... وهكذا.

والمعنى الذي يتحصل من نظم كلام ما، وتأليفه وفقا للعلاقات النحوية السابقة، أو غيرها مما اجتزأنا الحديث عنه، ليس إلا معنى واحدا. فعلاقة المتكلم بمفردات لغته وتصرفه فيها بالتركيب على نمط خاص أشبه بعلاقة الصائغ الذي يأخذ قطعا من الذهب فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة. فحين يقول قائل مثلا: «أقام الطلاب حفلا جميلا يوم الخميس تكريما لأساتذتهم»، فإننا نحصل من مجموع هذه الكلم كلها على مفهوم، هو معنى واحد، لا عدة معان، وذلك أن القائل لم يأت بهذه الكلم ليفيد السامع أنفس معانيها، وإنما جاء بها ليفيده وجوه التعلق التي بين الفعل «أقام» وبين ما عمل فيه. والأحكام التي هي محصول التعلق، فلا يعقل الإنسان معنى المفعولية في «حفلا» وكونه موصوفا بالجمال، وكون «يوم الخميس» زمانا له، وكون «التكريم» علة له - لا يعقل الإنسان كل ذلك بمعزل عن المعنى الأول الذي هو أصل الفائدة - وهو إسناد «أقام» إلى «الطلاب». وإذا كان ذلك كذلك فقد ثبت أن المفهوم من مجموع الكلم معنى واحد، لا عدة معان، وهو إثبات أن الطلاب فاعل للحفل الذي جاء على صفة معينة، وفي وقت معين، ولغرض معين، ولهذا يعد كلاما واحدا[38].

وإذا لم تتوافر العلاقات النحوية بين طائفة معينة من مفردات اللغة، أو بعبارة أخرى إذا تناثرت مجموعة من الكلمات، وأخذت وضعا يمتنع معه دخول أي معنى من معاني النحو فيها، لم يتحقق للأسلوب أو النظم معنى من الأساس. فلو قلنا في المثال السابق: «تكريما - الطلاب - جميلا - يوم الخميس - لأساتذتهم - حفلا - أقام» لعد ذلك لغوا من القول، ومجرد أصوات تصك السمع وليس لها معنى[39].

وتتنوع المعاني النحوية تنوعا هائلا، وثمة فروق دقيقة بين الأوجه التي تأتي عليها، سواء أكان غيره قد قاله بالفعل أم لم يصدر عن أحد قط.

فهناك الوصل بين الجمل، خاصة بالواو ودلالته، وهناك التكرار، وهناك الحذف أو الذكر لبعض أجزاء الأسلوب، وهناك التعريف أو التنكير، وهناك التقديم أو التأخير، وهناك الإظهار أو الإضمار. وكل معنى من هذه المعاني ينبغي أن يستخدم في موضعه من الكلام[40].

وقد يتبادر إلى الذهن أن ربط مفهوم الأسلوب بمعاني النحو يلزمه أنه لا يتأتى لأحد نظم كلام إلا إذا كان لديه علم سلفا بمصطلحات النحو وأسماء المعاني، ففي «الخبر» مثلا نجد أمثال هذه العبارات: «خالد ينطلق» و«ينطلق خالد» و«خالد منطلق» و«خالد هو المنطلق» و«خالد هو منطلق» وليست كلها في الاستخدام سواء.

فـ «الحال» قد تأتي مفردة فيقال مثلا «أقبل صديقي مبتسما»، أو جملة اسمية مقترنة بالواو مثلا: «أقبل صديقي وهو مبتسم، أو وهو يبتسم»، أو فعلية مقترنة بـ «قد» مثل: «أقبل صديقي قد ابتسم»، أو مقترنة بقد والواو معا مثل «أقبل صديقي وقد ابتسم»، وعلى المتكلم - كما يقول عبدالقاهر - أن يعرف لكل من ذلك موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له.

وفي «النفي» ثمة فرق كبير بين أن تتقدم أداة النفي على المسند إليه المخبر عنه بفعل رافع لضميره، وأن تتأخر عنه، فمثال الحالة الأولى: «ما أنا قلت هذا الكلام»، ومفاد هذه العبارة أن الكلام قد قيل بالفعل، لكن المتكلم ينفيه عن نفسه، ومثال الحالة الثانية: أنا ما قلت هذا الكلام، والمعنى حينئذ في العبارتين نفي القول عن المتكلم فقط، سواء أكان غيره قد قاله بالفعل أم لم يصدر عن أحد قط.

وقد يتبادر إلى الذهن أن ربط مفهوم الأسلوب بمعاني النحو يلزمه أنه لا يتأتى لأحد نظم كلام إلا إذا كان لديه علم سلفا بمصطلحات النحو وأسماء المعاني النحوية، فيعرف المبتدأ والخبر، والحال، والتمييز، والأفعال الناسخة، وأفعال المقاربة، وما إلى ذلك.

والحق أنه لا ارتباط بين تأليف الأساليب، والعلم بمصطلحات المعاني النحوية التي تنتظمها، فثمة فرق بين الاستخدام لظاهرة لغوية ما كإحدى الخبرات المكتسبة الكامنة في النفس، واكتشافها وتعريفها باسم معين، وأكثر المتكلمين باللغة يستخدمون أنساقها التعبيرية استخداما صحيحا وفق ما اكتسبوه من البيئة، من دون وعي منهم بالأسماء والمصطلحات التي يطلقها علماء اللغة والباحثون فيها.

وقد كان فصحاء العرب في الجاهلية، من شعراء وخطباء، على وعي دقيق بمعاني النحو وأحكامه، والفروق بينها، قبل أن تظهر أسماؤها الاصطلاحية بفترة طويلة. فامرؤ القيس حين قال في صدر معلقته: «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل» نراه قد استخدم فعل الأمر المسند إلى ألف الاثنين، وجزم المضارع الواقع بعده وهو «نبك» لأنه في جوابه، وأتى بكلمة «ذكرى» مجرورة بحرف الجر، ومعطوفا عليها كلمة «منزل» بالواو. صنع كل ذلك قبل أن يدور مجرد التفكير في قواعد اللغة في خاطر أحد، وإنما كان يستهدي في تعبيره ذاك بالنظام اللغوي الذي يختزنه عقله الباطن، والمستمد أصلا من البيئة.

ومن وحي هذه السليقة اللغوية المدركة لأنماط التعبير اللغوي بغض النظر عن أسماء العلاقات النحوية، كان إنكار أحد الأعراب على المؤذن الذي قال: «أشهد أن محمدا رسول

الله» بنصب «رسول»، وصاح قائلا: «صنع ماذا؟» أي أنه بحاسته اللغوية أدرك أن الأسلوب على هذا النحو لا يستقيم، لأنه غير مفيد، من دون أن يعرف التعليل الاصطلاحي الذي يقوله النحويون في هذا الشأن، وهو أن «رسول» بالنصب تكون عطف بيان، أو بدلا من «محمد»، والبيان والبدل هما المبين والمبدل منه، وذلك يعني أن المعنى لم يكتمل. فأما في حالة رفع كلمة «رسول» فإنها تكون خبرا، ويتم المعنى[٤١].

النحو بين الاستخدام العادي للغة والاستخدام الفني

نستخلص من خلال النصوص والأفكار السابقة ما رآه بعض النقاد المحدثين من «فروق بين مستويين من استخدام اللغة. أحدهما نطلق عليه المستوى العادي أو المستوى النمطي، والآخر يمكن أن نسميه المستوى الفني أو اللغة الفنية. وهذه الفروق هي:

أ - اصطلاحية المستوى العادي وفردية المستوى الفني.

ب - سبق المستوى العادي ولحوق المستوى الفني.

ج - مثالية المستوى العادي وانحراف المستوى الفني».

الفرق الأول، ذكره ابن الأثير بقوله «صاحب علم البيان والنحوي يشتركان في أن النحوي ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي، وتلك دلالة عامة، وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة وهي دلالة خاصة»[٤٢].

ثم **الفرق الثاني**، ووضحه بقوله «أما علم النحو فإنه في علم البيان من المنظوم والمنثور بمنزلة أبجد في تعليم الخط، وهو أول ما ينبغي إتقان معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربي»[٤٣]. وفي هذا إقرار منه بأن الاستخدام العادي للغة أسبق من الاستخدام الفني لها.

أما **الفرق الثالث الأخير** فهو متصل بالفرق الأول، وهو أن اصطلاحية المستوى العادي وفردية المستوى الفني يتبعهما دون شك المثالية في التعبير في المستوى الفني. وقد عبر ابن الأثير عن ذلك بقوله «والدليل على ذلك أن الشاعر لم ينظم شعره وغرضه منه رفع الفاعل أو نصب المفعول أو ما جرى مجراهما، وإنما غرضه إيراد المعنى الحسن في اللفظ الحسن المتصفين بالفصاحة والبلاغة، ولهذا لم يكن اللحن قادحا في حسن الكلام»[٤٤].

يعلق الدكتور أحمد سليمان ياقوت على النصوص الأثيرية السابقة مبرزا وجه الاعتراض على ابن الأثير، فيقول مستشهدا بنص لعبدالحكيم راضي «وهذا الفصل بين اللغتين، أو بمعنى آخر إيجاد مستويين للاستعمال اللغوي مما يؤخذ على ابن الأثير، فليس هناك ما يمنع أن يكون الكلام جاريا على ما اصطلح عليه من القواعد النحوية والأصول، ويكون في الوقت نفسه فصيحا بليغا بحيث تتحقق فيه الفنية، إذ كيف تختلف المعايير ليصبح البليغ خلافا للصحيح، مع أن الشائع هو استمداد الجميع من القول العربي في أنقى صورة وأبلغها. ثم كيف ذلك

وقد وصف القرآن - كتاب العربية الأكبر - بأنه بليغ إلى حد الإعجاز، وبأنه جار في نفس الوقت على نمط قواعدهم وسلامة لغتهم»[٤٥].

الخلاف بين ضياء الدين واللغويين راجع إلى الزاوية التي ينظر كل واحد منهما إلى العبارة، فهو ينظر إليها من منظار فني يغلب كفة الحسن والجمال على كفة الصحة والخطأ، بينما كان ديدن اللغويين القياس والسماع، بمعنى: هل العبارة تتفق مع القواعد التي وضعها أو لا؟ فلم يوسعوا قواعدهم وأصولهم لتشمل النواحي الجمالية كما فعل عبدالقاهر الجرجاني. لهذا نجد ابن الأثير يدخل معهم في مناقشات عديدة في كتابه «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر»، ومن هذه المناقشات ما جرى بينه وبين أحد النحويين في الآية الكريمة: «فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما»[٤٦]، فرأى هذا النحوي ان «أنْ» الأولى في الآية زائدة بحيث إنها إذا حذفت لا يتغير المعنى مستشهدا على ذلك بما ورد عند النحاة على أن «أنّ» إذا جاءت بعد «لما» وقبل الفعل تكون زائدة. فيرد على هذا النحوي قائلا: «النحاة لا فتيا لهم في موقع الفصاحة والبلاغة، ولا عندهم معرفة بأسرارها من حيث إنهم نحاة، ولا شك أنهم وجدوا «أنّ» ترد بعد لما وقبل الفعل في القرآن الكريم وفي كلام فصحاء العرب، فظنوا أن المعنى بوجودها كالمعنى إذا أسقطت، فقالوا هذه زائدة، وليس الأمر كذلك، بل إذا وردت «لما» وورد الفعل بعدها بإسقاط «أنّ» دل ذلك على الفور، وإذا لم تسقط لم يدلنا على أن الفعل كان على الفور، وإنما كان فيه تراخ وإبطاء»[٤٧]، لينتهي إلى أن فائدة وضع الألفاظ أن تكون أمثلة على المعاني، فإذا وردت لفظة من الألفاظ في كلام مشهود له بالفصاحة والبلاغة، فالأولى أن تحمل تلك اللفظة على معنى[٤٨]. وقال في نهاية هذه المحاجة: «وهذه دقائق ورموز لا تؤخذ من النحاة لأنها ليست من شأنهم»[٤٩]. وقال في موضع آخر «وأسرار الفصاحة لا تؤخذ من علماء العربية وإنما تؤخذ منهم مسألة نحوية أو تصريفية أو نقل كلمة لغوية أو ما جرى هذا المجرى. وأما أسرار الفصاحة فلها قوم مخصوصون بها»[٥٠].

لقد حمل ابن الأثير على اللغويين في أماكن عديدة من كتابه، فاعترض على أحمد بن يحيى ثعلب حين عد كلمة «إمة»، بالكسر، من الكلمات اللغوية الفصيحة وليست كذلك فقال «ورأيت صاحب كتاب الفصيح قد ذكرها - الإمة - في ما اختاره من الألفاظ الفصيحة ، ويا ليت شعري ما الذي رآه من فصاحتها حتى اختارها؟»[٥١]. وانتقد ابن جني في شرحه بيتي المتنبي:

كل جـــريحٍ تُرجى ســـلامـتُـه
إلا فـــؤادا دَهَتْـــه عـــيناها
تَبُلُّ خـــدَّيَّ كُلَّمـــا ابتـــسَمَتْ
مِـنْ مَطَرٍ بَرْقُـــه في ثـنـايـاهـا[٥٢].

يقول ابن الأثير في ذلك: «وبلغني عن ابن جني أنه شرح ذلك في كتابه الموسوم بالمفسر الذي ألفه في شرح شعر أبي الطيب المتنبي فقال: «إنها كانت تبزق في وجهه فظن أن أبا الطيب أراد أنها كانت تبتسم فيخرج الريق من فمها، ويقع الريق على وجهه فشبهه بالمطر. وما كنت أظن أن أحدا من الناس يذهب وهمه وخاطره حيث ذهب وهم هذا الرجل وخاطره. وإذا كان هذا القول قول إمام من أئمة اللغة العربية تشد إليه الرحال فما يقال في غيره؟ لكن فن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو والإعراب»[٥٣]. ولم تكن ثورته مقصورة على النحويين واللغويين السابقين، بل تعدتهم إلى الأصوليين والفقهاء، كأبي حامد الغزالي، مثلا، عند حديثه عن أقسام المجاز [٥٤]، وكان يرى أن هؤلاء ينظرون إلى أمور الفصاحة والبلاغة بالقدر الذي يريدون إثبات قواعدهم بأدلة منطقية بعيدة عن روح الأدب، لأن هذا الأخير في نظره ليس نتاج العقل وحده، والغاية منه ليس إفهام حقيقة ما بقدر ما هو إحداث لذة ومتعة. والدارس ينبغي ألا ينظر إلى الأساليب البلاغية بمنظار عقلي مجرد، بل ينبغي أن يكون للذوق والإحساس دورهما الكبير في هذه المسألة، لأن المجال مجال حسن وقبح ولذة وألم وليس مجال صحة وخطأ فقط، وهذه النظرة لازمت ابن الأثير في كل ما كتبه، سواء تعلق الأمر بآرائه في الألفاظ أو المعاني. وقد عبر عن ذلك في أكثر من موضع في كتابه فقال مثلا: «وليس المراد هنا ... إلا ما يفرق بين الجيد والرديء، لا ما يعلم به الجائز وغير الجائز، لأن كتابي هذا موضوع لذكر ما يتضمنه الكلام على اختلاف أنواعه من وصف الفصاحة والبلاغة»[٥٥].

يقول معلقا على بيت عنترة بن شداد:

فإن يبرأ فلم أنفث عليه
وإن يفقد فحق له الفقود[٥٦]

قوله «الفقود» جمع مصدر من قولنا: فقد، يفقد، فقدا، واستعمال مثل هذه اللفظة غير سائغ ولا لذيذ وإن كان جائزا، ونحن في استعمال ما نستعمله من الألفاظ واقفون مع الحسن لا مع الجواز. وهذا كله يرجع إلى حاكم الذوق السليم، فإن صاحب هذه الصناعة يصرف الألفاظ بضروب التصريف، فما عذب في فمه منها استعمله، وما لفظه فمه تركه»[٥٧]. وتختلف العبارة الفنية عن العبارة اللغوية - المنطقية - في أن الثانية تقصد إلى مجرد التعبير عن أشياء محدودة بألفاظ محدودة لا تحتمل زيادة ولا نقصانا، بينما لا يقتصر الغرض في الأولى على ذلك وحده، بل يتعداه إلى أشياء أخرى وراء ذلك.

إن ثورة ابن الأثير ضياء الدين على اللغويين ليست إلا حلقة وسط سلسلة من الانتقادات وجهها إليهم الشعراء والدارسون السابقون، وانتقاداته لم تختلف في جوهرها عما قال به بعض الدارسين وعلماء الجمال مع بداية القرن الماضي، فقد ذهب «بندوتو كروتشيه» إلى أن

عالم الفكر
العدد 1 المجلد 37 يوليو - سبتمبر 2008

الأساليب الأدبية تتمرد على المقاييس العقلية والمنطقية، لأن الأدب مصدره الإحساس الداخلي للمرء، وهذا الإحساس يتجسد في صور مجازية وتوقيعات نغمية تعجز المقاييس العقلية عن تقنينها وضبطها[58].

خلاصة

حاولنا من خلال هذه الدراسة «النحو عند ضياء الدين بن الأثير» تأكيد أن الدراسة الأسلوبية الحديثة عندما تتركز في لغة الأدب وتنحو إلى اكتشاف قوانينه بطريقة تجريبية لا معيارية، فإنها تستأنف هذا النشاط على أساس جديد يتمثل الأول في تطوير مفهوم نظرية اللغة وعلاقتها بالواقع الحضاري، ودورها في الصياغة الجدلية للعقل العربي، ويتمثل الثاني في الاعتماد على المنهج التجريبي العلمي في بناء الوقائع واستخلاص النتائج. وفي ذلك أكدنا أن النحو جزء أساس من فكرة الأسلوب، وعميق متمكن في النفس العربية، ولا ينفصل في الإحساس العام عن المتوارث عن إدراكنا وانفعالنا.

وأشرنا في لمحة عابرة إلى أن القرون الأربعة الأولى من الهجرة شكلت قمة في النشاط العلمي بظهور مجالات التخصص، وكان ذلك رحمة للعلم، لكن إلى جانب ذلك عرفت هذه القرون ميلا وانحرافا بذلك ما أفقد النحو ميزته وجعل الناس يزهدون فيه. واستمر الوضع كذلك إلى أن جاء القرن الخامس الهجري، فتصدى الشيخ عبد القاهر الجرجاني للأمر وأخرج كتابه «دلائل الإعجاز»، أكد فيه أن البلاغة ليست شيئا مستقلا عن النحو، وأن البلاغة تساعد اللغة على أداء وظيفتها البلاغية.

ابن الأثير ضياء الدين، إذن، كان أحد الذين أفردوا النحو بحديث طويل امتد على طول المثل السائر بشكل واضح تارة وغير واضح تارة أخرى، فقامت عنده المقارنة أساسا بين علم النحو وعلم البيان، معتبرا في جوابه عن السؤال: هل علم البيان من الفصاحة والبلاغة جار مجرى النحو أو لا؟ أن الفرق بينهما واضح من حيث إن أقسام النحو أخذت من واضعها بالتقليد، أما علم الفصاحة والبلاغة فليس كذلك وحاصل هذه المقارنة أن النحو موضوع وضعه واضع، وقد أخذت أقسام النحو من واضعها بالتقليد. أما علم البيان فغير ذلك تماما لأنه استبط بالنظر وقضية العقل.

وهكذا خلصنا إلى أن ابن الأثير أقر بأن علم البيان ليس له أصل منهجي، ولكن له أصل مبدئي، ذلك أن معرفة القاعدة النحوية أو البلاغية لا تتيح إمكان النقد ما لم تكن هذه القاعدة موجهة ومدعومة بإحساس جمالي، خاصة أن النص في أصله وغايته نظام ذو وظيفة تأثيرية. وهدف ابن الأثير من خلال كل ذلك إلى إبراز القدرات الذوقية عند الناقد التي لا تكتسب إلا بالدربة والتعلم على حساب المعرفة بقواعد النحو.

اعتبارا بما سبق، يمكن أن نجزم بأن ابن الأثير يضع النحو في مرتبة ثانوية جدا، فهو عنده جملة من القواعد الجافة التي لا علاقة لها بالبلاغة أو بفصاحة الأسلوب، بل الغرض منها فقط عدم الوقوع في اللحن. وذلك ما كشفنا عنه من خلال قوله «وإذا نظرنا إلى ضرورته وأقسامه المدونة وجدنا أكثرها غير محتاج إليه في إفهام المعاني، ألا ترى أنك لو أمرت رجلا بالقيام فقلت له: «قوم» بإثبات الواو ولم تجزم لما اختل من فهم ذلك شيء»(٤٩). وهو نص يدل دلالة واضحة على استهزاء ابن الأثير بالنحو، وهوانه عنده، واستصغاره لشأنه، حتى إنه قد قصر النحو على حركات الإعراب فقط. وحاولنا أن نبرز الرأي المخالف لابن الأثير فاستشهدنا بابن جني والصفدي، هذا الأخير الذي أثارته آراء ابن الأثير فرد عليها بل ذهب إلى أن الدعاء لا يقبله الله تعالى ما لم يكن معربا، إمعانا في إبراز أهمية النحو ومحوريته في نظرية الأسلوب العربي(١٠).

وبفعل الموقف السلبي لابن الأثير ذهبنا إلى أنه لم ينتفع بالدراسات الجادة الأصيلة لعبد القاهر الجرجاني في الموضوع الذي خصصنا له حيزا مهما باعتباره أحد الذين أغنوا الدراسات النحوية وأبرزوا فضلها وما يمكن أن يقال بشأنها.

ولأن الشيء بضده يتضح فقد أكدنا أن الخلاف بين ضياء الدين بن الأثير واللغويين راجع إلى الزاوية التي ينظر كل واحد من الطرفين إلى العبارة، فهو ينظر إليها من منظار فني يغلّب كفة الحسن والجمال على كفة الصحة والخطأ بينما كان ديدن اللغويين ومقياسهم القياس والسماع وإن كان عبدالقاهر الجرجاني أهم الذين وسعوا القواعد النحوية لتشمل النواحي الجمالية.

وختمنا حديثنا عن النحو بالحديث عن بعض الانتقادات التي وجهها ابن الأثير لبعض اللغويين العالمين بالنحو، كاعتراضه على أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب وابن جني، هذا الأخير الذي وجه له ضياء الدين نقدا لاذعا، علما أنه أخذ عنه أشياء كثيرة لم يشر إليها. ولم تكن ثورته مقصورة على اللغويين فقط، بل تعدى الأمر ذلك إلى الأصوليين والفقهاء، كأبي حامد الغزالي عند حديثه عن أقسام المجاز مثلا.

عالم الفكر
العدد 1 المجلد 37 يوليو - سبتمبر 2008

الإبداع وبنية القصيدة في شعر عبدالله البردوني

د. علي قاسم محمد الخرابشة (*)

ملخص

لقد تبين من دراسة الإبداع وبنية القصيدة في شعر عبدالله البردوني، أن البردوني يمثل مرحلة تاريخية من حياة الشعب اليمني، ومجمل الظروف التي عاش فيها أهل اليمن، وأثرت تأثيرا مباشرا في صقل شخصية الشاعر. وقد جاء البحث في جزأين:

الأول: مراحل شاعرية البردوني، وهي مراحل لا تنفصل فيها الناحية الفنية عن التاريخية؛ إذ كانت تمثل مرحلة تاريخية تجلت فيها عناصر الإبداع الفني عند الشّاعر البردوني، وتمثلت في أربع مراحل:

الأولى: مرحلة قصائده الأولى بين عامي ١٩٤٦ و١٩٦١.

الثانية: وهي مرحلة امتلاك الشّاعر ناصية الشّعر، حيث كانت خليطا من الأحلام الرومانسية والتّصورات الواقعية.

الثالثة: وهي المرحلة التي بدت فيها التّحولات والتّغيرات واضحة في حياة أهل اليمن.

الرابعة: وهي المرحلة التي امتلك فيها البردوني ناصية الإبداع.

لكن هذا لا يعني أنّ هذه المراحل منفصلة بعضها عن بعض من ناحية المضمون، بل إن التطور شمل عناصر الإبداع الفني في القصيدة، والتعامل مع مختلف العناصر التي شكلت الصورة الشعرية في شعره.

(*) جامعة اليرموك - المملكة الأردنية الهاشمية.

الثاني: الإطار العام لعملية الإبداع الفنيّ الشعري عند البردوني، وأهم جوانب هذا الإطار.

وقد ظهر من خلال دراسة دواوين الشّاعر، أنه تأثر ببعض الشعراء العرب المعاصرين أمثال، البارودي، الرصافي، الزهاوي وعلي محمود طه. أما الفترة التي ظهرت فيها بوادر الحداثة جلية في شعر البردوني فكانت مع إصدار مجموعته «وجوه دخانية في مرايا الليل».

أما الإطار العام للإبداع الفنيّ عند البردوني، فتمثل في طفولته والتفاوت الطبقي، والمسائل المحلية والقومية.

وتبين من دراسة شعر البردوني أنّ هذا الشّعر يتمتع بمجموعة من الأبنية، وهي البناء السّردي، والتّضاد، والتّكرار.

(١)

يمثل شعر عبدالله البردوني ظاهرة فنية متميزة بخصائصه الأسلوبية التي جمعت بين القديم والحديث في الرؤية الشّعريّة. فهو أحد الأصوات الشّعريّة العربية البارزة في حركة الشّعر المعاصر، وصاحب رسالة شعريّة جمع فيها مختلف فنون الشّعر ومجالات الحياة المختلفة، السّياسيّة، والاقتصاديّة، والاجتماعيّة، والثّقافيّة.

وقد استطاع البردوني بما أوتي من فنيّة عالية في التعبير الشّعري أن يجسد الاستجابتين الانفعالية والعقلية في مختلف ظروف العملية الشّعريّة من إيقاع، وحركة وخيال، وإحساس. بمختلف نوعية الشّعور، واللاشعور، وأن يبرز قدرة عالية على الانحراف الأسلوبي من خلال قدرته على جمع وتوحيد مختلف المتنافرات في العملية الشّعريّة، وإن كانت مختلفة في تعبيراتها وموضوعاتها، وعلاقاتها مع بقية عناصر النّص البنائية. وعلى الرّغم من محافظته على شكل القصيدة العربية الشّطرية، استطاع أنْ يوظف أكبر قدر من عناصر الصّورة الشّعريّة في تشكيل شعره، التي امتاحها من مفردات اللغة عبر تشكيلات كثيرة تختلف باختلاف مناطق الإحساس الصّادرة عنها واختلاف القصد منها.

وفي الأربعينيات من القرن العشرين بدأ البردوني يشق طريقه الشّعري ويرسم أولى تخطيطاته الشّعريّة في ظل هذا الزّمن المأساة، من خلال مجموعة من الظّروف الحاكمة، منها الجوع والفقر، وزمن سقوط فلسطين، ووقوع كثير من الهزائم العسكريّة والسياسيّة. فقد كانت مدينة «ذمار» أولى محطات الحياة الشّعريّة والأدبيّة في حياة البردوني، وفيها مال إلى الأدب وبدأ يقرض الشّعر وأكثر هذا الشّعر شكوى من الزمن وتأوه من ضيق الحال والحياة الصّعبة. وكانت السّمة الفنيّة البارزة فيه التّشاؤم والمرارة [1].

وعلى الرُّغم من أنّ البردوني قد تعثر كثيرا في حياته المدرسية، فإنه استطاع أنْ يشيد لنفسه ثقافة واسعة، راح يجوب في أرجائها ليوظفها في مقاومة الواقع المرير. وقد شكُلت هذه الثّقافة من عدة مكونات، منها أنّه كان مولعا باللغة العربيّة وآدابها وتراثها، ودراسة فلسفة أعلامها، كابن رشد، والغزالي، والمعري، كما اطلع على تراث بعض الشعوب والحضارات

البائدة القديمة وعلى تراث اليونان والرومان وفارس، ويبدو إلمامه الواسع بتعاليم بعض المذاهب والاتجاهات، كالكلاسيكية والرومانسية والرّمزية والواقعيّة، والقضايا الوجوديّة والغيبيّة المتمثلة بالحياة والموت والوطن والإنسان والثّورة وقضايا التّحرر الوطنيّة والقوميّة. كما يبدو إلمامه الواسع بتعاليم الشّريعة الإسلامية ومبادئها، وبما تنطوي عليه من معاملات وفلسفات وأخلاق، وأحاديث عن الجنة والنار والموت والحياة والمصير، فحفظ من هذه الفلسفات أشياء جعلته من أبرز مثقفي عصره في وقت قلّ فيه عدد المدارس والدارسين.

وأنا أقدمه في هذا البحث، شاعرا، ومنظرا له حضوره في ساحات الأدب والفكر والنّقد، استطاع أن يهضم بعض الثّقافات ويقف عند بعض النّظريات التي شرب من معينها وأن يتمثلها وينظّر فيها.

ولنأخذ دليلا على ذلك وقوفه كغيره من شعراء ونقاد عصره عند مفهوم الشّعر والشّاعر والسّاحة الشّعريّة والأصوات الشّعريّة في هذا العصر.

عرّف البردوني الشّعر بقوله: «الشّعر هو ما أشعرك،أي ما حرّك في قارئه ملاكات القول، وهزّ فيه غافيات الأحلام، سواء أقلت شعرا أم لم تقل. فإن الشّعر هو ما شعر بوجوده قارئه. الشّعر ينقلك إلى عالمه، ولا يكفي أنْ ينقلك إلى عالمه، بل يهز فيك عالمك الدّاخلي حتى تتجاوب وتتناغم مع عالم الشّعر، فليس الشّعر مجرد صوت وليس الشّعر مجرّد لغة جميلة، إنّما الشّعر تحريك شعور من شعور تحرّك سلفا لكي يحرك شعور المتلقي»[٢].

ولا يختلف البردوني في تعريفه لمفهوم الشّعر عن معاصريه من الشّعراء والنقاد أمثال العقاد، وعبد الرحمن شكري، والمازني. فقد ألح مثلهما على العناصر بعينها من مقومات العملية الشّعريّة حين عمد إلى تأكيد دور الشعور، والخيال، والمتلقي والمجاز، والصّدق في صناعة الشّعر.

فالشّعر عنده تعبير عن الشّعور والشّاعر يلعب دورا أساسيا فينقل إحساساته وعواطفه، حيث يخلطها بإحساسات وعواطف المتلقي، وذلك «لأن شق المتلقي في نفس منتج النّص الأدبيّ يشارك مشاركة فعالة في إنتاج هذا النّص»[٣].

من هذا المنطلق، فإن الإحساس والشّعور يؤديان دورا واضحا في العملية الشّعريّة في قصيدة البردوني، ويدلك ذلك على تداخل المعاني العميقة، والدّلالات اللغويّة في كثير من الأحيان، وعمق تجربة الشّاعر النفسيّة، وسيطرته الكاملة على وسائله الفنيّة، كما تخلق لدى المتلقي مناخا شعوريا مشابها للحالة الشّعوريّة التي كان عليها الشّاعر في أثناء نظم القصيدة، إضافة إلى تآزر العناصر الفنية في القصيدة تآزرا إيجابيا.

ولتحقيق الأثر المنشود من الشّعر، يرى البردوني من خلال تعريفه لمفهوم الشّعر أن الشّاعر «لابدّ أن يتمتع بأساليب شعريّة تفوق المألوف، لتنقل الأثر المقصود وإحداثه عن طريق الشّعر

بقوة الإحساس والتّصوير الشّعري. وهذا يتطلب من الشّاعر أن يكون مستوعبا للموضوع أو الموقف أو الحال التي يود تناولها إلى جانب تحديده الأثر الذي يريد إحداثه في متلقيه حتى يتمكن من تناول موضوعه بدقة وقوة لتحقيق التكثيف الشّعوري وقوة الاتّحاد لصوره الشّعريّة ولأي موضوع يختاره» (٤).

يبدو أنه كان لاكتشاف علم النّفس اللاشعور الفردي والجماعي أثره في تعريفات النّقاد لمفهوم الشّعر، واكتشاف إبداعات الشّعور، وخصائص إنتاجهم الفنّي. يقول البردوني متابعا تعريفه للشعر: «الشّعر سرٌّ خفي تشي به اللغة وتوحي إليه الرّموز والأساطير، ويبدعها الشّاعر لكي يخلق عالما جديدا، ولكي يكون العالم بعد القصيدة مغايرا للعالم قبل القصيدة» (٥).

فإن الشّعر ما هو إلاّ «تصوير الكنه النّفسي كما هو تصوير العالم الدّاخلي بكليته. هذا ما توضحه الكلمات التي هي واسطته.إنّ الكلمات هي بالتأكيد التّجلي الخارجي لهذا العالم الدّاخلي من القوى» (٦).

لقد كانت نظرة البردوني إلى الشّعر باعتباره الوسيلة لنقل الإحساسات الشّعوريّة للشّاعر إلى عالم المتلقي، لذلك رأى في الشّعر عالما موضوعيا معبرا عن مشاعر وحالات نفسية إنسانية وأفكار عامة تختفي وراءها شخصية الشّاعر.

ويبدو، من خلال وقوفه عند الشّاعر، ومن هو الشّاعر؟ أنّ شاعريته قد ارتبطت بالمجتمع ارتباطا وثيقا، وأنها عالجت الكثير من قضاياه الاجتماعية وعلى رأسها الحرية الاجتماعيّة والسياسيّة والثّقافيّة. وما يتعلق بها من الجهل والطيش وسفه بعض النّاس، كما أسهم في التّعبير عن المجتمع الذي يحتاج إلى العدالة، ليستطيع أن يشارك العالم والمجتمعات الأخرى في إبداع الحضارة الإنسانية. فالحقل الإنساني هو الحقل الوحيد الذي انفعل معه البردوني، وهو الموضوع الأثير الذي ظلّ مخلصا له إلى آخر أيامه. فالمرأة، والطفل والرّجل، والطبيعة، والموت، والنّفس هي عناوين تمثل موضوعات اجتماعية وإنسانية هادفة في شعره. يقول: «والشّاعر هو ذلك الفرد الذي يصدر عن المجموع، وهو ذلك الواحد من النّاس الذي يفوق كلّ النّاس» (٧).

وفي تسمية الشّعراء وشاعرية كل واحد منهم، لا يختلف في ذلك عن نظرة القدماء وتصنيفهم، فإذا قسم القدماء الشّعراء إلى شاعر، وشويعر، وشعرور، فإن البردوني قد قسم الشّعراء إلى، شعراء من كل الوجوه، وهو الشّاعر، وشعراء من بعض الوجوه، وهو الشويعر، وشعراء بلا وجوه، وبلا مقياس شعري، وهو الشّعرور. فالشّاعر الذي يراه البردوني ليس كغيره من أفراد الجماعة، لأنه «يتميز بحساسية وذكاء شديدين، وانفعال متوتر عميق» (٨).

ويقول «وفي كل فترة من الفترات ظهر مئات الشّعراء، لكن يظل الشّعراء الحقيقيون أصابع اليد في كل فترة من فترات التّاريخ، فليس كل من قال قصيدة يعد شاعرا، وليس كل من أصدر

مجموعة يعتبر شاعرا. الشّاعر الحقيقي هو الذي يستوعب عصره ويستوعب من خلال عصره العصور المقبلة والعصور الماضية، وهذا نوع قليل من الشّعراء المعاصرين في العالم العربيّ، والعالم كلّه، ويمكنك أنْ ترجع إلى الأدب الفرنسيّ في عصر الثّورة أو بعد الثّورة، لتجد أن الشّعراء الذين حققوا مستوى راقيا واستوعبوا عصرهم، ومن خلال عصرهم استوعبوا العصور، لا يتجاوزون الخمسة أو السّتة أو العشرة، كذلك في الشّعر العربي في كل فترة ثلاثة او أربعة أو عشرة، وإذا أخذنا عصرنا فسوف نعد خمسة أو ستة أسماء ونقول: أدونيس، السياب، محمود درويش، خليل حاوي...»[٩].

وعلى الرغم من عدم ظهور لمحات نقدية واضحة في كتابات البردوني فإنّ بعض النّقاد قد أظهروا هذه اللمحات من خلال قراءة أشعاره ومؤلفاته الفكرية التي تعددت بين السياسة والأدب. ومن هذا المنظور، فإن الدّارس لحياة البردوني الأدبيّة وآرائه المتعددة، سواء في الأدب أو الثّقافة، فإنّه لا يلمس مدرسة بردونية لها مناصروها كما نجد مدرسة أدونيس أو محمود درويش أو خليل حاوي أو غيرهم. لكنّ مع كل هذا فإنّ الدّارس لأشعار البردوني يلمس «على الرغم من محافظته على الأسلوب البيتي في القصيدة، وهو المعروف بالعمودي، أنه شاعر مجدد ليس في محتويات قصائده فقط، بل في بناء القصائد القائم على تحطيم العلاقات اللغوية التقليدية وابتكار جمل وصيغ لغوية نامية، صحيح أنّ إيقاعه كلاسيكي محافظ، لكن صوره وتعابيره حديثة تقفز في أكثر من قصيدة، خصوصا في السّنوات الأخيرة، إلى نوع من السّريالية تصبح فيه الصّورة أقرب ما تكون إلى ما يسمى باللامعقول»[١٠].

ولعل صنعاء المدينة العربية العريقة التي كانت لها القدرة على بث الحياة الثّقافيّة والدعائية لشعرائها، مثل البردوني، فقد أسعفته في الانتشار السّريع خارجها وفوق المساحة الممتدة للوطن العربي، وإن كانت أمور أخرى، مهدت الطريق أمام هذا التمدد، تتركز في آراء البردوني المعارضة، وروح التّمرد والثّورة، وللمجتمع اليمني الذي يعاني مآسي الفقر والجوع والظّلم والسّجن والجراح. من هنا لاقت آراء البردوني التي تبناها في أشعاره أو أحاديثه كثيرا من القبول عند النقاد العرب، كما أنّ المتتبع لسيرة حياته، يجد محاولة ترديده لهذه الآراء المبثّة في أشعاره بحماسة وإصرار في مختلف المنتديات الثّقافيّة، سواء في اليمن أو مصر أو الأردن أو السعودية أو غيرها، وشقت طريقها إلى أسماع الكثيرين من مؤيدي الثّورة والتّمرد وقلب الواقع الفقير ومآسيه.

إنّ اللغة التي يتوسل بها البردوني، هي لغة جماعته التي تحمل فكر وتاريخ وعلاقات اليمن، فهي وعاء خبرة الفرد والجماعة، وهي في الوقت نفسه «نظام من رموز صوتية مخزونة في أذهان الجماعة اللغوية»[١١]. يصطلحون فيما بينهم على مدلولاتهم حيث تكتسب سماتها الجمالية والفنية، والإشارية، والرتابة، والتعميم.

لقد أكسب البردوني اللغة دلالات جديدة نابعة من المادة والرّوح والنّفس، ووصفها في تراكيب جديدة بين المألوف وغير المألوف، وفيها انصهرت كثير من الجذور اللغوية من الجاهلية وحتى اليوم، ولم يكتف بمزيج لغوي عربي واحد، بل ضم إلى شعره كلمات مصهورة من ألفاظ العوالم الأخرى، فأصبحت لغته لغة جديدة من حيث شكلها وتركيبها وتركيب الصّورة فيها، ولم تعد النّظرة القديمة مقبولة عنده في التّعامل مع الألفاظ والتّراكيب الشّعريّة القديمة.

ولي أن أزعم أن البردوني يتمتع بقدر كبير من الثقافة والمعرفة، وأنّه كان على جانب عظيم من سعة الاطلاع والأفق الواسع والمعرفة، يدلك على ذلك ما كان يدور بينه وبين غيره في مدن الدول العربيّة، من صنعاء، وعمان، والقاهرة، وغيرها من مساجلات وندوات حادة في الأدب بنوعيه النثر والشّعر، والثّقافة، والتّطور الاجتماعي، كما تدلك على ذلك دراساته الأدبية والنقدية والسياسية، ومنها «رحلة في الشّعر اليمني قديمه وحديثه» و«فنون الأدب الشّعبي في اليمن» و«الثّقافة الشّعبية» و«الثّقافة والثّورة في اليمن» و«قضايا يمنية»، كما أنّه حاول منذ بداياته الشّعريّة أنْ يختط لنفسه خطا يقوم على نقض التّراث وسلوك طريق الحداثة، على الرغم من العقبات التي واجهها في المجتمع وجعلته أحيانا يحوم في شرنقة التّراث واللغة التّراثيّة، يقول:

أنا ضـ[illegible] هذا الركام

أ[illegible]ود إلى شـ[illegible]طئ من شعل

وادري، وادري [illegible]

أخـــوض دمي، والردى والوحل[12]

واتسمت شخصية البردوني بالاغتراب، والتشكيك، والتّناقض، والغموض وانعكس ذلك في نتاجه الشّعري، وإذا أردنا أنْ نقف على الأبعاد النّفسية لشخصيّة البردوني وعمليته الإبداعيّة، فإنّ علينا أنْ نتعقبه في أشعاره. لقد بدا الاغتراب في كل الأشكال في حياته، في الشكل واللون والمكان والزّمان والنّفس منقسمة لا تدري أين هي. يقول:

الألـوانُ الشـــتّى امـــتَـــزَجَـتْ

شـــيـــئـــا يَهْـدي، مـــا ألـوانـي؟

مـــا شـكـلـــي الآن ؟وكـــــالاتُ

مـن فـــوقـي، يـلبَـــسْنَ كـــيـانـي

مــــن أيـن أتــيـــت؟ وأيـــن أنـــا؟

أأتــيـت؟ أتـى غـــــيـــرُ مـــكَـانـي.

مـــاذا؟ مـــا اســـمـي؟ أهُـنـا داري؟

أم ســـجـنـي وأنـا ســـجْـــانـي

جلـدي مـنْ (لـنـدن) مـنْ (رومــــــا)
وقـــوامــي (كـــورٌ جـــهـــراني) [١٣]

(٢)

ومنذ أخذ البردوني يعي محيطيه الاجتماعي والسّياسي، وإرثه العقدي، أحسّ بثقل كبير على كاهله، فقد اهتم بالإنسان اهتماما كبيرا، بحيث أبرز شعورا إنسانيا عارما، وفاجأ الناس بقصائد شعريّة طويلة تحمل الهم الإنسانيّ، والعمق الاجتماعيّ والإحساس الصادق المرهف، وأسسَ مفاهيم جديدة للعلاقة بين الشّاعر والفئات الاجتماعيّة التي تناضل من أجل لقمة العيش، والمعذبة بالفقر والقهر والتسلط والتّميز الاجتماعي.

لقد كان البردوني وليد مرحلة تاريخية معينة في اليمن، يستمد منها واقعه وإبداعه الحقيقي الذي يوصف بأنه معين لا ينضب، وجاء إبداعه من العالم والواقع اللذين مثّلا المادة الأساسية في العملية الشّعريّة الإبداعيّة عنده بجميع جوانبها، من حوادث قومية أو تجارب مريرة أو علاقات سعيدة إذ التقط هذا المواد وشكل شعره وعملياته الفنية منها، بإيمان قوي البنيان والأركان، ومن خلال رؤيته أنّ الفنّ الشّعري يعكس ما في الحياة من واقع، ويكشف للناس خبايا أشياء لا يعرفونها . وكان للتّجارب التي سبقته أثرها في شعره وصقل موهبته، يقول عبدالعزيز المقالح حول هذا الشأن: «صحيح أنّ أصوات الزبيري والموشكي والأرياني والعزب كانت قد مهدت الطريق أمام جيل جديد من الشعراء، وفتحت للشعر بابا تاريخيا جديدا يتجاوز معه الشّاعر أسباب العقدة، وتصبح الكلمة فيه وسيلة للتّعبير عما يجيش في صدور الملايين، وسلاحا كفاحيا على طريق الثّورة وتحقيق أحلام الجماهير في العدل والحرية والمساواة ومن أهم مظاهر الانقلاب، الذي حدث في الشّعر بعد ظهور هؤلاء الشّعراء، محاولة الانفصال عن أشكال التعبير الموروثة، وبروز أسماء جديدة ربما كان في مقدمتها الشّاعر عبدالله البردوني» [١٤].

لذلك كان تأثر البردوني واضحا بالشّعراء السّابقين، الذين ناهضوا الواقع وحياة الذلّ والهوان في مختلف المجالات السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة.

وكان لمجمل الظروف الاجتماعية التي مرت بها البلاد أثر واضح في نمو شخصية البردوني، وأبعادها الفكريّة القائمة على العدالة والحريّة والمساواة، وإرساء قواعد المجتمع الديموقراطي الجديد. وربما كان الخصب في أبعاد هذه الشّخصية في مدى اندغام مواقفه الذاتيّة من نفسه أولا ومن مجتمعه ثانيا . ولقد كان هذا الاندغام في ألوان من الرومانسية، سواء بشعوره بقومه وتلمس جوانب الحياة الاجتماعـــية الحديثة بـــمقاومة النّفاق والاستـــغلال والزّيف والظـلم، أو بمقاومة المستعمر والطائفيّة التي كادت تخنق أنفاس النّاس في مجتمعه، وتسير به في طرق الظلم المهيمن، وسلب الكرامة والحريات أو برؤيته لجوهر الإنسان من حيث إنسانيته. يقول:

عيدُ الجلوسِ أعِرْ بلادكَ مسمعا
تسألك أينَ هناؤها هلْ يُوجدُ؟
تمضي وتأتي والبلادُ وأهلُها
في ناظريكَ كما عهدتَ وتعهدُ
يا عيدُ حدِّثْ شعبَكَ الظّامي متى
يروى؟ وهل يروى وأينَ الموردُ؟
فيمَ السُّكوتُ ونصفُ شعبِكَ ها هنا
يشقى ونصفٌ في الشّعوبِ مشرَّدُ؟
يا عيدُ هذا الشّعبُ ذلَّ نبوغُه
وطوى نوابغَه السُّكونُ الأسودُ
ضاعت رجالُ الفكرِ فيه كأنّها
حُلُمٌ يبعثره الدُّجى ويُبدِّدُ
للشعبِ يومٌ تستثيرُ جراحُه
فيه ويقذفُ بالرقودِ المرقدُ
ولقدْ تراه فوق السكينةِ إنّه
خلف السكينة غضبةٌ وتمرُّدُ
تحتَ الرمادِ شرارةٌ مشبوبةٌ
ومنَ الشّرارةِ شعلةٌ وتوقّدُ
لا. لم ينم شعبٌ يحرّقُ صدرَه
جُرحٌ على لهبِ العذابِ مسهَّدُ [15]

فقد مثلت هذه القصيدة نموذجا من النّماذج الحيّة التي وقف فيها البردوني يقاوم الذل والهوان، ويطالب بالحياة الكريمة والحريّة والسيادة الوطنيّة.

ومرت شاعرية البردوني بمجموعة من المراحل:

(٣)

- المرحلة الأولى: وهي مرحلة قصائده الأولى التي نظمها بين عامي ١٩٤٦ و١٩٦١، وأصدرها في ديوانه الأول «من أرض بلقيس عام ١٩٦١، حيث ضمت هذه المجموعة في ثناياها مختلف أغراض الشّعر التي تناولها من مدح ورثاء ووصف وغزل وهجاء، إضافة إلى إبراز المعاناة اليومية لأبناء الشّعب اليمني» [16].

- المرحلة الثانية: وهي مرحلة «في طريق الفجر» وفيه امتلك الشّاعر ناصية الشّعر، حيث كانت خليطا من الأحلام الرومانسيّة، والتّصورات الواقعيّة، يقول عنها «فقد كنت

فيها شاعر نفسي ومن نفسي، ولكن كان الواقع أكبر مني، وأعلى صوتا، وممكن أبعد رئينا، وهذا ما يعيب هذه المجموعة، وما يزيد من محاسنها، لأنّ الإفصاح عن الواقع كان يتطلب شعرا وكان مطلوبا جماهيريا، وكنت مع الواقع وفيه، وكان متناهيا في مقدار ما كنت متعاملا معه وبه»(١٧).

إنّ هذه المرحلة كانت مرحلة البدايات الجادة للشّاعر البردوني، حيث يلمس المتلقي في شعر هذه المرحلة بدايات الاقتراب من الوعي الدّرامي والخروج من الدائرة المغلقة التي مثلت أشعاره في مرحلتها الأولى، دائرة الأنا، والفكاك من أسرها.

لقد مثلت هذه المرحلة اهتمام الشّاعر ببعض الخواص الأسلوبيّة في القصيدة الحديثة ومنها فنيّة الحوار، والعناية بالحكاية، والاقتراب من استخدام بعض الوسائل الدرامية مثل الفصل الدرامي، والتّضاد، والتّساؤلات. وفي هذه المرحلة يبدو تأثر الشّاعر بالشّعراء اليمنيين واضحا، إذ نجد في هذه المرحلة روح الشّاعر الزبيري وتوقيعاته النّفسية.

ويلمس المتابع لشعر هذه المرحلة أنّ الشّاعر قدّم فيها طاقات شعر وإمكانات فنيّة سخية، التزم فيها قضية بلاده، ودافع عنها بلا هوادة. ويستشف قارئ الدّيوان موجة التّشاؤم الحزينة التي تسيطر على كثير من قصائده، كما يرى محاولاته المتكررة لهجرة شعريّة على بحار الضّياع والشّرود، وتمثّل هذه الظاهرة في شعره قبل الثورة وبعدها(١٨).

- **المرحلة الثالثة**: وهي المرحلة التي امتلك فيها البردوني ناصية اللغة الشّعريّة، حيث يبدو فيها أثر التّحولات والتّغيرات التي وقعت في اليمن بعد ثورة السّادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢، وتنوعت مضامين هذه المجموعة بين الحزن والمناجاة والذكريات والحكايات، مناجاة القرية والأهل والأيام والمدينة الضائعة والنّجوم والرّياح. ويحلم فيها بوطن جميل يحقق فيه أحلامه وأحلام شعبه. على الرّغم من الضّياع والعذاب والمعاناة، وبمدينة الغد صنعاء التي يريدها أبهى المدن وأجمل العرائس كي يحتفل بميلادها الموعود ميلاد الحريّة والحياة(١٩).

وينطوي تحت ظلّ هذه المرحلة مجموعة من دواوينه الشّعريّة، وهي «مدينة الغد» و«لعيني أم بلقيس» و«السّفر إلى الأيام الخضر».

يقول في إحدى قصائد هذه المجموعة التي يصف فيها ما آلت إليه الأوضاع في اليمن من سوء ودمار، يتحدث فيها عن الخطايا والجنايات والمسلوبين، والجياع. يقول:

من اين ابتدئ الحكاية؟
واضيعُ في مدَى النّهايَه
واعي نهاية دورهَا
فتعودُ منْ بدءِ البدايَةْ

تصلُ الخطيئـــــةَ بالخطيئـــة
والجنـايـــةَ بـالجنـايـةْ
منْ عـــهـــدِ مَنْ ولدُوا بلا
ســـببٍ ومـاتوا دونَ غـايةْ
المســـبلين على الذئاب
البـيـضِ أجنحـةَ الرُّعـايةْ
النـاســجـيـنَ عـروقـهـم
لـمواكـبِ الطـاعـونِ رايةْ
منْ حـولوا المستنقعـات
الجـائـعـاتِ إلى النفـايةْ
ووجُـوهُهمْ كـاللافـتـات
على مـواخيرِ الغـوايةْ
كـانوا ملوكـاً تظلهم
حرمٌ ورقيتُهم حمايةْ
فلخُـيومِنا الخيبرُ ولهم
... رعى وأعـ... قـايةْ
ويـسادُ تـعـجـلـهـم
حـبَّاتِ أعيننا جبايةْ (٢١)

- **المرحلة الرابعة**: وهي المرحلة التي امتلك فيها البردوني ناصية الإبداع بكلّ جوانبها، حيث يبدو أثر اللغة واضحا في الرّمز والتّكرار، والتّضاد، ومستويات الانحراف الأسلوبي من تشخيص، وحوّار، وخطاب. وأبرز مجموعات هذه المرحلة «وجوه دخانية في مرايا الليل» و«زمان بلا نوعية» و«ترجمة رملية لأعراس الغبار» و«جواب العصور».

عملية الإبداع الشّعري عند البردوني

يعتبر الوعي الفردي والجماعي أبرز جوانب العملية الإبداعية عند الشّاعر حيث تأتي متضافرة ومتفاعلة لتشكّل في النّهاية أسلوب الشّاعر.

لقد اتفق كثير من الباحثين على أنّ لكلّ أديب أو فنان أسلوبه الخاص الذي يعني طريقة تعبيره، وصورة من صورها من حيث كونه إنسانا له خصائص معينة، تميزه عن غيره من النّاس. لهذا عدّ بعض النّقاد أن الأسلوب هو الرّجل نفسه. وتتضافر أساليب الأفراد في مجموعهم في النّهاية لتشكل أسلوب الأمّة. فلكلّ أمّة من الأمم قديما وحديثا أسلوبها في الكتابة بنوعيها الشّعر والنّثر، مشكلة بذلك خصائصها التي تميزها عن بقية الأمم، إذا علمنا

أنّ التّاريخ الأدبيّ وثيق الصلة بجميع الظّواهر الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة لكلّ أمة، بل إنّ هذه الظّواهر كلّ منها يتفاعل مع الآخر ومؤثر فيه بشكل من الأشكال.

وأفاد البردوني من صور كثير من الشّعراء إفادة، لم تجعله يقلد صور هذا الشّاعر أو ذاك، لكنه خلق وتطوير جديدان جعلاه قادرا على التّعبير عن كثير من مواقفه ومشاعره اتجاه مشكلات الحياة التي يعيش فيها. وصلته بالموروث الشّعري كانت صلة تمثل وتفاعل وفهم عميق لما تاثر به، مما ساعده على إبداع الصّورة الشّعريّة الجديدة، والاطلاع على تراث الشّعراء وأشعارهم مكّنه من اكتشاف مختلف العلاقات القائمة بينها، مما جعله دائب البحث عن اكتشاف علاقات جديدة. ولعل هذا هو الذي دفع البردوني إلى قراءة التّراث والوقوف عند بعض الشّعراء الجاهليين والإسلاميين، والعباسيين والمعاصرين. لكن أبرز الذين قلدهم تقليدا حرفيا «بشار بن برد، أبوالعلاء المعري، أبوتمام الطائي، وأحمد بن الحسين المتنبي»، وربما قلد في شعره شعراء النهضة أمثال: «محمود سامي البارودي، ومعروف الرصافي، والزهاوي، وإبراهيم طوقان»، وفي فترة الخمسينيات تاثر بالشّاعر علي محمود طه، وبشارة الخوري، ولا تخلو قصائده من مؤثرات شعراء الأندلس وشعراء المهجر أيضا (الأوائل: في الوصفيات والاغتراب و الثواني في التأمليات، والشعور بمرارات الغربة).

أما في ما يتعلق بالمؤثرات الأجنبية في شعره، فقد قرأ مترجمات عن مؤلفات بودلير «زهور الشّر» وبعض قصائد جون كيتس ولورد بايرون، وقصائد الموت نحو «الأرض الخراب» و«الرّحيل المخادع».

وفي ضوء ذلك يمكن القول، إنّ البردوني كان ينظر إلى التراث الشّعري القديم من خلال كونه نهرا خالدا «هائلا يروي الحياة كلها، لذلك يجب على الشّاعر الا يسدّ مجرى هذا النهر الكبير، بل لابدّ له أنْ يحيا مرة ثانية» (٢١).

إنّ عودة البردوني إلى القيم الشّعريّة القديمة ليست رجعة أو انكفاءة إلى الماضي، بل هي إحياء لكلّ ما أثر عن الماضي من معطيات إيجابية تطور فنّ الشّعر، كما أنّها إضاءة وتعميق لرؤية الشّاعر وإحساسه بالاستمرار والتّواصل الفنيّ، فالشّاعر عندما يتوجه إلى معطيات موروثه الأدبي، فإنّه لا يهدف إلى الإفادة الجامدة التي تدخل في باب التّكرار أو التقليد، بل يهدف إلى إعادة صوغ تلك المعطيات بما يثري علمه الجديد، ويجعله صالحا للتعبير عن قضاياه المعاصرة (٢٢).

ويستشف الدارس لأشعار البردوني أنّ الإبداع الفنيّ لا يصدر إلاّ بعد أنّ يمتلك الشّاعر ناصية التّراث والمعاصرة. كما أنّ «الموهبة الفردية لا يمكن أنّ تزدهر بعيدا عن التراث، فالموهبة تعبر عن نفسها من خلال لغة واللغة هي نظام من العلاقات خلفته أجيال كثيرة،

وتعاقبت عليه مواهب شتى فأصبح يحمل عطر هذه المواهب جميعها ولا يمكن أن يكون أصيلا... أي ذاتيا، وإن كانت هذه المعرفة لا تكفي ليسمى أصيلا بل يسمى أصيلا حين يضيف إلى الذخيرة التي تلقاها عن سابقيه شيئا من عطره هو، وشيئا يختلف عن القديم ويلتئم معه في الوقت نفسه»(٣٣).

وعلى الرّغم من محافظة البردوني على أسلوب القصيدة الشّطرية القديمة، فإنه شاعر مجدد، ليس في شكل القصيدة أو مضمونها، بل في محاولة تحطيم العلاقات القائمة عليها القصيدة القديمة، وابتكار علاقات ذات صورة تعبيرية حديثة. إضافة إلى قراءته للشعر الحديث، بأنواع قصائده، التفعيلية، والنثرية «يفيد من صوره الجديدة ومن تحرره في استخدام المفردات والتّراكيب الشّعريّة الحديثة، وقد اكتسب شعره - على محافظته - أهمية كبيرة في السنوات الأخيرة لمضامينه الجماهيرية الواضحة»(٣٤).

أمّا انفتاحه على المذاهب الشعرية العالمية فقد بدا في المرحلة الثالثة من مراحله الشّعريّة، وفيها يضع عبدالعزيز المقالح، البردوني على رأس المدرسة الرومانسية يقول: «... وعندما وصلت إلى البردوني وضعته على رأس المدرسة الرومانسية. وكنت أعني بالمصطلح الرومانسي نفس ما يعنيه معظم النقاد الذين ترجموا هذا المصطلح إلى الإبداعي مقابل المصطلح الكلاسيكي الاتباعي، فالبردوني في طليعة مدرسته كان إبداعيا مجددا في اللفظة، وفي الصّورة، وفي الموضوع أيضا وهو قد حلق وحل مع هموم بلاده، ومع همومه الذاتية التي هي جزء من هموم بلاده في أكثر من أفق، وقد قلت وقتها: إنّ الرومانسية ليست عيبا وليست المرادف لخيالية أو تهميمية أو ذاتية، كما أنّ الواقعية أو الحديثة ليست المرادف لاجتماعية، أو نقدية اجتماعية. إنّ هذا المفهوم - في رأيي - لا يأتي إلا من خلال «التزام الشّاعر بموقف معين إزاء قضايا عصره ومجتمعه، ومن خلال رؤية واعية ومحددة لرسالته في الحياة، سواء كان هذا الشّاعر كلاسيكيا أو رومانسيا أو حديثا، وباختصار شديد، فالأشكال الفنيّة الخارجية هي وحدها التي تقبل التأطير أما المضامين فلا تؤطر»(٣٥).

لقد حاول البردوني أنّ يوظف أكبر قدر من الاتجاهات والمذاهب الأدبية في شعره؛ لأنّ هذا الشّعر كان ثمرة تجارب متعددة ومتشابكة وذا أبعاد متشعبة الأطراف لما امتازت به من تشابك الموضوعات وتعددها، ولما امتازت به شخصيته من مظاهر القلق والخوف والاضطراب، مما انعكس بصورة مباشرة على موضوعات شعره التي كانت صدى لما يجول في نفسه وخاطره من معان وأفكار ومشاعر نفسية. وعلى ظهور الصّورة الشّعريّة من خلال أبعادها المختلفة، البلاغية، والفنية، والنفسية القائمة على مجموعة من الظواهر الأسلوبية،منها التشخيص، والتّكرار، والتّضاد والتجسيد والحوار، محاولا تحقيق أكبر قدر من التكامل في البناء الشّعري.

أما صلة البردوني بالحداثة الشّعريّة في مراحلها المتعددة التي شهدها الوطن العربي، سواء من خلال المرحلة التي برزت فيها تجربة الشّعراء في أواخر الأربعينيات أو الخمسينيات، أو المرحلة الرؤيوية التي اتضحت فيها آراء الشعراء بشكل واضح في الستينيات مع ظهور بعض المجلات الأدبية التي تبنت آراء الشعراء والنقاد العرب الحداثيين كمجلة شعر والآداب، والأديب أو مرحلة ما بعد الستينيات وتستمر حتى اليوم.

أما تحقق هذه المراحل في أشعار البردوني، فقد كشفت أشعاره في الأربعينيات والخمسينيات والستينيات أنّ الشّاعر ينطلق في نزعته الحداثية من زاوية عقلانية تقوم على تحقيق نوع من التلاؤم والتفاعل مع الواقع عن طريق المواجهة والنضال ضد مظاهر التّخلف والطائفية، والإيمان بالدور الفاعل للممارسة الشّعريّة في تحقيق التغير الاجتماعي والسياسي والثقافي مع الالتزام بعدم الخروج عن كثير من معطيات التراث الشعري العربي، سواء من ناحية اللفظ أو الأسلوب أو استخدام بعض الصور القديمة، فبقدر ما كان البردوني حداثيا في أسلوب القصيدة كان يحب التراث ويميل إليه، لأن اللغة التي يكتب بها قصيدة هي التي كتب بها كثير من الشعراء العرب الذين تأثر بهم وخاطبهم من خلالها.

ومما حققه البردوني في هذه الفترة من الحداثة، أنه رفض كل ما هو جامد ومختلف في تجارب الشّعراء وإطلاق قوى الابتكار والتّجديد، ومحاولة إعادة خلق اللغة الشّعريّة وجعلها قريبة من لغة الحياة اليومية، وهجر كل ما هو غريب وما يحفل به الشّعر العربيّ القديم من مفردات وتراكيب.

أما المرحلة التي ظهرت فيها بوادر الحداثة جلية في شعر البردوني فكانت مع إصدار مجموعته الشّعريّة «وجوه دخانية في مرايا الليل» و«زمان بلا نوعية» و«ترجمة رملية لأعراس الغبار».

لقد برز في هذه المرحلة تحقيق الوعي الذاتي عند الشّاعر بمعزل عن وعي الآخرين. كان وعيا لذات الشّاعر نفسها، وهذا ما جعل البردوني يتحرر من كثير من النزعات العاطفية، والعقلانية، ويخوض تجربة الوعي الذاتي المتحرر من وعي الآخرين. بحيث بدا لنا في كثير من مواقفه يعاني وضعا نفسيا واجتماعيا وثقافيا غاية في التعقيد، إذ دفعه إلى رفض المجتمع بعاداته وتقاليده، كما كان يعاني حالات إحباط قاسية، ومحاصرة قوى الظّلم والظالمين وبالتالي التّغني بالذات الأنا أو الآخر.

وللبردوني وجهة نظر حول صلة الحداثة بالتّراث عندما سئل عن رأيه في شعر التفعيلة، حيث رأى أنّ المسألة ليست مسألة أشكال بقدر ما هي مسألة نظريات معنوية. فقد نجد في الشعر القديم أشكالا رديئة، كما نجد في الشّعر الحديث كذلك. كما أنّ الشّعر الجديد يتحمل وزر الجدة، فقد تكون الجدّة محسوبة للشعر الجديد، وعدم الجدة محسوبة عليه أيضا. وقد يكون للشّعر الجديد قيمة أهم من فنه، ذلك لأنّه شكّل التّجاوز وطمح إلى تجارب جديدة

فرافق التغيرات الاجتماعية التي لم تكن جذرية، فكان التغير في الشّكل الأدبي غير جذري كالحركات التي همّت بالتّحرك ولم تصل[٢٦].

(٤)

الإطار العام للإبداع الفني عند البردوني

لقد رأى كثير من النقاد أنّ علم التّحليل النّفسي يخدم بشكل واضح الأدب، فاتخذ بعضهم من هذا العلم وسيلة ينفذ من خلالها إلى دراسة ما تتحلى به كثير من التشخيصات الفنيّة من ملامح نفسية ميزتهم عن غيرهم من الناس، وإنّ هذه الملامح تكشف عن مكامن الشّعور واللاشعور النّفسية للشّاعر أو الأدب، وتوصل المتلقي إلى حقائق وأشياء لم يعرفها من قبل، فكانت دراسة النفس الإنسانية وسلوكها ودوافعها من خلال الأعمال الشّعريّة قاعدة هؤلاء المتأثرين بالتحليل النفسي، وذلك عن طريق معرفة الأفكار الكامنة وراء المضمون الظاهر للعمل الفني، وتوضح الأفكار والمشاعر التي اكتنفت حياة الشّاعر من ضياع وفقدان وتشرد وغيره.

ويلمس الدارس لنفسية البردوني من خلال مجموعات الأشعار التي مثلت حياته وسلوكه فيها، آثار ما هي عليه، والتي مارس وخالف فيها بعض العادات والتقاليد الاجتماعية والفنية.

أما أولى المحطات التي يستطيع الدارس أن يستشفها عندما يقف على أشعار البردوني، فهي طفولته البائسة وحياة الضنك وذل الحياة التي عاشها إلى جانب ما ورثه من عادات وتقاليد لا تتوافق مع معطيات العقل، وكان لها انعكاسات واضحة في مجاميعه الشّعريّة كلها. يقول:

هذي البــــيــــوت الجــــاثـمـات إزائي
لـيـلٌ مـنَ الحــرمــــــانِ والإدجــــــاء
من لـلـبـيـــوتِ الـهـــادمـــاتِ كــأنّـهــا
فـــوقَ الحـــيـــاةِ مـقـــابرُ الأحـيـــاء
تغـــفـــو على حُلم الرّغــيـفِ ولم تَجِــدْ
إلا خــــيـــالا منه في الإغْـــفــاء
وتضمُ أشـــبـــاحَ الجـــيـــاعِ كــأنّهـــا
ســـجنٌ يضمُ جَـــوانحَ السُّـــجنَاء
وتَغــيـبُ في الصُّـمتِ الكئــيـبِ كــأنَّهـا
كـــهـفٌ وراءَ طبـــائعِ الأشـــيـــاءِ[٢٧]

وتنعكس هذه الحياة في شعر البردوني حيث يقول:

يا لـيلُ من جـــيـــرانِ كُــوخي؟ مَن هُم
مَـــرضَى الشّـقــا وفـــريـسةُ الأرزاء

الجائعون الصابرون على الطوى
صبر الربا للريح والأنواء
الآكلون قلوبهم حقدا على ترف
القصور وثروة البخلاء
الصامتون وفي معاني صمتهم
دنيا من الضجات والضوضاء
واحسهم في سد روحي في دمي
في نبض أعصابي وفي أعضائي
فكأن جيراني جراح تحتسي
ري الأسى من أدمعي ودمائي
ما كان أشقاهم وأشقاني بهم
واحسنني بشقائهم وشقائي (٢٨)

أمّا الإطار الثاني في عملية الإبداع الشعري عند البردوني فتمثل في معالجة جوانب الحياة الاجتماعية من ظلم واقع على الطبقات المسحوقة، وشجب الإقطاع والإقطاعيين والمناداة بتحقيق العدالة الاجتماعية، فإنه يرسم لنا صورة لحياة الفاقة التي يعيشها أبناء طبقته، منطلقا من المعاناة التي حملها مع هذه الطبقة، ومن تجربة ذاتية متجذرة وأصبحت رسالته محاربة هذه الأوضاع السائدة في مجتمعه الذي يعاني التّخلف والظلم السياسي والاجتماعي(٢٩).

ولعل أبرز ما يمثل ظاهرة التفاوت الطبقي في شعره، اللجوء إلى ظاهرة المفارقة بين الأنا والآخر، إذ يلجأ الشّاعر إلى الحديث عن الأنا باعتبارها عنصرا يمثل الآخر. يقول:

انت ترثي كل مخزون ولم
تلق من يرثيك في الخطب الألد
وأنا يا قلب أبكي إن بكت
مقلة كانت بقربي او ببعدي
وإن أكدي الورى عيشا على
أنني أبكي لبلوى كل مكد
حين يشقى الناس أشقى معهم
وانا أشقى كما يشقون وحدي
وأنا أخلو بنفسي والورى
كلهم عندي ومالي أي عندي (٣٠)

وفي صورة أخرى من صور التّفاوت الطّبقي التي يعيشها أبناء الشّعب اليمني يصور حالة الفقر والأحلام المعلقة عند كثير من الشّباب في صورة أخرى من صور المفارقة بين الأنا والآخر. وفي هذه الصّور يبدو ضمنيا أنّ الذّات الشّاعرة تبدو محاصرة بهذا التّفاوت حتى أصبح يلوح لها الموت في خضم ما تعانيه وما يعانيه الشّعب بمختلف فئاته من فقر وظلم. يقول:

في ذلك الليلِ المخيفُ مضى فتى
قلِقَ الثيابِ مروّعَ الخطواتِ
يَمشي وينظُرُ خلفَه وأمامَه
نظرَ الجبانِ إلى المغيرِ العاتي

****

ويرى الحتوفَ إذا تلفّت أو رنا
ويحسُّ أصداءً بلا أصواتِ
بينَ القصورِ وبينَه مستطيلٌ وما
أدنى المكانَ وأبعدَ الرحَماتِ!
فيه العجُوزُ وبنتُها وغلامُها
يتذكرونَ موارِدَ الأقواتِ
والأغنياءَ، وهل ترقُّ قلوبهم؟
لا، إنها أقسى من الصّخراتِ
وتغلغلوا في الصّمتِ فانتبهوا على
شبحٍ ينادي الصّمتَ بالأنّاتِ (٣١)

أما الإطار العام الثالث للإبداع الشّعري في شعر البردوني، فهو حديثه عن المسائل الوطنية المحلية والقومية العربية، إذ جاء شعره إعلانات سياسية لتوجهاته القومية والوطنية.

لقد انعكست الأحداث السّياسية التي شهدتها المنطقة العربية وقضايا اليمن في أشعار البردوني وكانت مصدرا غنيا من مصادر الصّورة الشّعريّة في شعره. حتى أخذ يوظف الأحداث التّاريخية التي يلتقي فيها ومضمون تجربته، وما فيها من شخصيات تاريخية أو سياسيّة، وغالبا ما تقترن هذه الشخصيات بالأحداث. وهو في توظيفه لهذه الأحداث إنما أراد تصوير بعد من أبعاد المأساة التي يمر بها قومه. فقد صاغ في ذلك نشيد المقاومة والثورة العربية صياغة فنية ذات سمات أسلوبية تميزها عن تجارب غيره من الشعراء المعاصرين.

كرس البردوني شعره السيّاسي للتّغني بالمشاعر العربيّة تجاه الثّورة والتّحرير والقضاء على الاستعباد والاستعمار، ورأى أنّ تحرير البلاد العربية فلسفة لا جدال فيها وخاصة

فلسطين. لقد كانت العلاقة بين الشّاعر وأرضه علاقة جدليّة قائمة على تحرير الأرض من طغمة المستعمر، فدعا أبناء وطنه إلى الوعي للوقوف في وجه المطامع المحدقة به من ظلم وجهل وفقر.

ولعل أكثر ما يقلق البردوني في حياته هموم الوطن ومعاناته من المستعمر فتحدث عن الوطن والمستعمر في قصائد دعا فيها إلى الوحدة وبكلّ إيمان وحزم وعزم بها وبأهدافها النبيلة العليا. لقد كان يرى أنّ مهمة الجيل هي بناء الوحدة والقضاء على الطائفية والنزاعات الإقليمية والقطرية والقبلية. فالمقاومة والدعوة إلى الحرية والثورة والقتال في سبيل الوطن، أصبحت عنوانا كرس من خلاله الشّاعر حتمية الموت والمقاومة وجدليته وأهميته المصيرية باعتبارها المعادل الصحيح للحياة الصحيحة.

إنّ روح التمرّد والصراع والثورة لدى هذا الشّاعر عنيفة عارمة وهي تنعكس بكل مشروعيته، وتبرز في أدب الصراع والمقاومة في الشعر اليمني المعاصر. كما أنّه استلهم روح التّمرد والثورة والمقاومة وحاول تعبئة الجماهير اليمنية، وهو لا يفرق بين العرق والدين، فهو يرى أنّ وحدة الشّعب اليمني يجب أنْ تبنى على أساس العقيدة لأنّ غضب هذا الجيل الذي يخاطبه ويدعو إلى مؤازرته هو في الحقيقة جيل الأجداد والأوائل. يقول:

لنْ يستكينَ ولنْ يستسلمَ الوطنُ
توثّبَ الروحُ فيهِ والتحى البدنُ
أما ترى كيفَ أعلا رأسَه ومضى
يدوسُ أصنامَه البَلهَا ويمتَهنُ
وهبَّ كالمارد الغضبانِ متّشحا
بالنّارِ يجتذبُ العَليا ويحتضنُ
فزعزعتْ معقلَ الطغيانِ ضربتُه
حتّى هوى وتساوى التاجُ والكفنُ

****

يا صرعةَ الظُلم شقَّ الشّعب مرقَدَه
واشعَلتْ دمَه الثاراتُ والضغَنُ
ها نحنُ ثرنَا على إذعانِنا وعلى
نفوسِنَا واستثارتْ أمنَا اليمنُ
لا البدرُ لا الحسنُ السجّانُ يحكُمنَا
الحُكمُ للشّعبِ لا بدرٌ ولا حسنُ

اليــومُ للشَّــعبِ والأمسِ المجــيــدِ لهُ
لــه غــــدُوّ لهُ التَّـــــاريخُ والزمــنُ
فليَخــــســا الظلمُ ولتذهبْ حكومــتُــه
ملعـــونة، وليُــولي عـــهـــدها النتنُ [٣٢]

والبردوني في موضوعاته الوطنية والسياسيّة شاعر ملتزم ومجدد، يعبر عن خلجات نفسه المضطربة أحيانا بالثورة والتّحريض عليها، وأحيانا في النداءات إلى طغاة الاستعمار وعملائهم، وحيث اعتنى بمشاغل وطنه التي آمن بها منذ فجر شبابه، نشر قصائد ملتزمة في مختلف جوانبه، حيث استطاع بهذا اللون من الإنتاج الأدبي أنْ يغذي نفوس الجماهير المتعطشة إلى الحريّة، والقلقة في الوقت نفسه، وأن يدفعها إلى التّضحية والبذل. وما فتئ يوقظها ويحثها على الثّورة والكفاح والتّمرد. يقول:

هــــدّدونا بالقــــــيــدِ أو بالسِّلاحِ
واهــدُروا بــالــزّئــيــرِ أو بــالــنــبــاحِ
وكُلوا جــــوعنا وسيـــروا على أشـ
لائنا الحُــمرِ، كالخـيــولِ الجِمــاحِ
واقــرعُــوا فــوقنا الطّبــولَ وغطُّوا
خــزيَكم بالتّــصنعِ الفــضّاحِ
هددونا لن ينثني الزّحفُ حتى
يزحفَ الفــجرُ من جمــيعِ النّواحي

****

أيُّهــا العــابثونَ بالشّــعبِ زيدُوا
لــيــلــنَــا وامــلأوُه بــالأشـــبــاحِ
لــغَــمــــوا دربنَــا؛ ومــدُّوا دُجَــانا
واطفــئــوا الشُّــهبَ وانتظارَ الصّــبــاحِ
ســـوفَ نمْشي على الجــراحَــاتِ حــتى
نشــعلُ الفــجــرَ من لهــيبِ الجِراحِ [٣٣]

إنّ البردوني لم يخرج في أشعاره عن دائرة التأثر بالأحداث المباشرة التي يمر فيها اليمن من شماله إلى جنوبه، وكان أشدّ سياسة بالواقع، ولمح حركته السياسية الأمر الذي جعله أقدر في إعطاء صوره واضحة عن الواقع اليمني وأثر الأحداث وتأثيره عليه يقول:

زمــــجـــــري بالنارِ يا أرضَ الجنوبِ
والهــبي بالحــقدِ حبــاتِ القلوبْ

واقــذفي الحقــدَ دخــانا ولهــيبْ
زمــجــري للثـــأرِ يا أرضَ الجنوبْ
واملئــي الروعَ دمـــاءً وجِــراحْ
إنَّمـــا المجـــدُ نضـــالٌ وســلاحْ (٣٤)

أما من الناحيّة الاجتماعيّة فقد عرض في كثير من قصائده أوجاع أهل اليمن وشقاءهم وفقر كثير من الفئات فيه. ففي ديوانه «لعيني أم بلقيس» يعرض في كثير من قصائده لآلام وطنه، ومآسيه وأحزانه، وحالة البلاد والمتاهات التي يعيشها الناس. ومن هذه القصائد «انسي أن أموت» و«صنعاء والموت والميلاد» و«من منفى إلى منفى».

التي يقول فيها:

بــلادي مـــن يـــدي طـــاغٍ
إلـى أطـغـى إلـى أجـــــفـى
ومنْ سـجـنٍ إلـى سـجـنٍ
ومـن مـنـفـى إلـى مـنـفـى
ومن مــســتـعـمـرٍ بـادٍ
إلى مــسـتـعـمـرٍ أخـفـى (٣٥)

(٥)

ومن أبرز أبنية القصيدة البردونية، البناء السردي، والبناء المركزي، والبناء المتكرر المركزي، حيث تضافرت هذه الأبنية لتشكل وحدة القصيدة البردونية.

١- البناء السردي

يقوم البناء السردي في القصيدة على بنية القص والسّرد، أو الأمثلة أو الحكاية أو الحوار، وفيه يجري تغليب أسلوب المباشرة والوعظية لتصوير الموقف الذي يريد أنْ يطرحه الشّاعر. وفي هذا البناء يهتم الشّاعر بتحقيق بعض العناصر الدرامية أو القصصية، كالمكان والزمان والشّخوص، وتوظيف عناصر أخرى كالتّشويق والمفاجأة والتّكثيف والتّنوير.

وتعتمد بنية السّرد في أشعار البردوني على استخدام الزّمن بأنواعه المختلفة الماضي والمضارع والأمر، فيعمد إلى بنية السرد في الماضي باعتبار أنْ الشّاعر يناقش أحداث ماضية، وإنْ كان زمن الحكي يقترن بزمن الحاضر.

إنّ المتتبع لأشعار البردوني يلمس أنْ ظاهرة الحوار الدّرامي في شعره بدأت مع مطلع السبعينيات ومع صدور ديوانه «لعيني أم بلقيس» مما أعطى القصيدة نوعا من الحيوية والحركة والحوار. كما عبر من خلال الحوار عما يشوب حياته وحياة المجتمع من وهن يأس.

وقد عرفت القصيدة البردونية الحوار بنوعيه، الخارجي، والداخلي، إلى جانب ما يستخدمه من أدوات تعزز لغة الحوار، مثل «هذا، هذه، تلك، أولئك، لو، لولا، كيف، لم، لماذا... إلخ»، فقد كان سمة عامة وطابعا أساسيا يقول:

تقولينَ: ماذا أتنوي يا هواجسي
أتنوينَ شيئا؟ فارقيني وناضِلي
أمَا فيكِ مَا لمْ يحترقْ بَعدُ؟ كلُّ مَا
أعي، أنَّني فنيتُ حتى تفاعُلِي
أجبْ غيرَ هذا أعشبتْ فيكِ جمرةً
وهذا اختلاجي فيكِ أزهَى ولائلي
دمي صارَ ماءَ رمدتني وحوله
قميصي، أتخشَى أنْ تفيقَ شَواعِلي؟
تصيحُ إلى شيءٍ يجادلُ هجعتِي
ومنْ أي ذراتي يُنادي مجاولِي؟ (٣٦)

فقد تجسدت من خلال الحوار مأساة الذّات التي شارفت على الاحتراق، ويهدئ نفسه اللاهثة، وهو يوجه الحوار إليها قائلا: ماذا أتنوي يا هواجسي، لكنه لا يأخذها باللين واللطف، بل بالقوة والعنف والقوة «فارقيني وناضِلي»، حيث تشكل صراعا بين الذات الأنا والآخر، وهذا جاء على شكل حوار ناضج بين الشّاعر والنفس. فمن أمثلة الحوار الخارجي يقول:

قيل انقضى عشرون عامًا على
تمزيقهم.. قيل انقضتْ أشهرُ
وقالَ وادٍ: أصبحُوا عندهُ
وقالَ سفحٌ: فوقَهُ عَسكَروا
وقالَ نجمٌ: تحتَ عينَي سرَوْا
والفَجْرُ في أهدابِهم يَسْهَرُ
وقيلَ: هبوا صحْوَةً وانثنوا
كمَا يتيهُ العَاصفُ الأغبرُ
وقالَ بعضٌ: شاهدوا دفنَهُم
وقالَ بعضُ البعضِ: لمْ يُقبَروا (٣٧)

إنّ احتفاء الشّاعر بالحوار قد أفسح المجال أمام مظاهر الطّبيعة الجامدة كي تتكلم وتعبر عن رأيها أيضا (قال نجم. قال سفح . قال واد). وقد جاء الحوار هنا ليبرز ملامح الصّورة التي يريد الشّاعر أنْ يرسمها من خلال مجموعة الصّورة الاستعارية التي رسمها للوادي، والنّجم، والسّفح.

وفي قصيدة «السلطان والثائر» يدع الشّاعر صوتين يتكلمان هما، صوت السلطان، وصوت الثائر الذي يرمز إلى حالة من الخلاص والعطاء والثورة في وجه الظّلم والجدب المتمثلة بـ«السلطان». لقد كان الحوار هنا عنصرا ضروريا من عناصر بنية القصيدة، وأدى وجود صوتين إلى إبراز حالة من الاحتدام والصراع بين صوت السلطان وصوت الشهيد. ويكون الفيصل الذي يتدخل في الأحداث.

لقد كان في القصيدة صوتان متباينان كلّ منهما يحمل صفة تميزه عن صوت الآخر، فصوت السلطان يحمل سموم الحقد، واليأس في مقاومة ثورة الأبطال وثورات الشّعوب التي تنادي بالتحرر، إنّه صوت الظلم. أما صوت الشّهيد فهو صوت الحقّ والخير.

والحوار عند البردوني أداة من أدوات تعميق الصّورة الشّعريّة، وإبراز دلالاتها وإيحاءاتها يقول:

هاهُنا الأطلالُ تَصبُو مثلَما
يلتَقي بَعدَ النّوى ثغرٌ وخدٌّ
يذكُرُ القبرُ صِبا أيامه
وتعي الأنقاضُ مَن شادُوا وهدّوا
تهجسُ الأوراقُ ردوا عفّتي
ملمسي يا باعةَ الأشكالِ رُدّوا
تسألُ التابوتُ: ماذا يرتدي
وإلى أيّ النّوادي سوفَ يَندو
للثواني لغةٌ عشبيّةٌ
للأسى أجنحةٌ تزقُو وتَعدُو
تنمحي الساعاتُ، يأتي القَبلُ من
آخرِ البُعدِ، وما للآنِ بعدُ
ماتَ وقتُ الوقتِ لا يغفُو الدّجى
لا الضّحى يرنُو، ولا للعِندِ عِندُ[٣٨]

ينقل البردوني للمتلقي من خلال الحوار مسؤولياته إعادة تشكيل الكون وتقديمه في أبهى صورة. لذا عجز الشّاعر عن فهمه، وراح ينقله لنا وهو مشوش ومضطرب، فالأطلال تصبو، والقبر هو الباقي وهو الشاهد. كما أنّ الأنقاض هي التي تعي مَنْ هدم ومَنْ بنى. ثم إنّ الأوراق تصرخ وتهجس بعد أنْ صمت الإنسان طويلا على الظّلم. والثّواني لها لغتها العشبية التي لا معنى لها. والأسى يرفق بأجنحته، والساعات تفقد مصداقيتها.

ومن أمثلة الحوار الداخلي في شعر البردوني قصيدته «أم يعرب» (أغسطس١٩٦٤) التي تشكلت بنيتها الحوارية عبر رؤى الشاعر من خلال بنية العبارة التشخيصية. يقول:

حيثُ الغبارُ الأهوجُ
على الريحِ ينشجُ
وحيثُ تشمخُ الدُّمى
ويستطيلُ العوسَجُ
هناكَ حيثُ يُدعَى
علَى القشورِ البهرَجُ
جزيرةٌ تطفُو علَى
صحوِ الرُّبَى وتدلِجُ
مطلةٌ كأنَّها
نعشٌ أشمُّ أبلجُ
تجثُو كذاهلٍ إلى
ما لا يرَى يحدجُ[٣٩]

ويطالعنا البردوني، في قصيدة «أم في رحلة»، باستخدامه شكل الحوار الدرامي، يقول:

هلْ هذا طفلكِ؟ واقتربتْ
كالطفلِ تناغِي، وتنادي
طفلي، هل أعجبَ سيدتي
حُلو كهدايا الأعيادِ
وكأولِ إحساسِ الأنثى
يرنو المعجبُ والصادي
ما اسمُ المحروسِ؟ أجبْ يا بُنَي
(نعمانَ) كجدِّ الأجدادِ
أهلا (نعمانَ) فيستحيِي
ويرفُّ كالوردِ النَّادي[٤٠]

ومن خلال الحوار يعطي البردوني الأشياء الجامدة حركة وحيوية، بل يعطيها بعدا داخليا.إذ يعطيها لغة خاصة بها، ويعيد ترتيبها وفق جدول خاص كما يراه ويغير أمكنتها يقول:

(نُقَمْ) يرنُو بعيدا، سَيدي
هل ترَى في ضائعِ الأرقامِ رَقَمي؟

طحنت وجهي - لأني جبلٌ ... خيلُ كسرى، عجنتهُ خيلُ نظمي

اعتشيتُ أرمدةُ الأزمانِ فيْ ... مقلتيَّ، جلمدتْ شمسي ونجمي

تذهبُ الريحُ، وتأتي وأرى ... جبهتي فيها وهذا حدُّ علمي

منْ هُنا أسألُه منْ ذا هُنا ... غيرَ ثوبٍ، فيه ما أدعوهُ جسْمي[41]

فجبل نقم يتحرك، ويتحدث، ويتذكر، ويشهد على أحداث التاريخ الذي وطئت فيه خيل الفرس والترك أرض العرب وترابهم. المهم أنّ الشّاعر أعطى الجبل حركة بحيث يحاور ويرنو ويتأسف ويتأسى ويحدد علاقته بالريح. وهو الوجه الثاني للشّاعر.

إن الحركة في القصيدة السّابقة «هي عصب الدراما واستعانة البردوني بها من دون احتواء الأطر الكاملة للحركة الدراميّة من توفير الصّراع المحتد، وتكثيف وتعميق اللقطات الدرامية، وغنى الشخوص، وتنامي تطورها، واحتدام صراعها، دليل على قدرة الشّاعر الكلاسيكي الذي يستوعب من حركة الشّعر الحديث أحد أهم أدواتها الحركة والحدث. فقد خلع على الطبيعة ألوان الحركة ورسم بها الأشياء والجمادات فتحقق له شيئا من النبض الدرامي ينبع من الارتقاء بالأدوات التي بدأ يستعيرها من تجاربه وقراءاته، ومن قدرته على التعامل مع الجديد»[42].

٢ - بناء التّضاد

تعدّ ظاهرة التّضاد من أبرز الظّواهر الأسلوبيّة التي تكشف عن نفسيّة الكاتب أو الشّاعر خلال ما تؤديه الكلمة من دلالات إيحائية ناشئة عن علاقة التّضاد الواردة بين الكلمات.

وتأتي أهمية التّضاد في أنّه «يحمل رؤية الشّاعر لواقعه المتناقض والمضطرب ويحمل رؤيته المتشائمة وهذا التّناقض يخلق حركة مفاجئة داخل الصّورة التي تلفت المتلقي إلى شيئين متضادين» [43]. كما أنّ له القدرة في الكشف عن «تلك الحركة التي تموج بها المعاني داخل النّص كلّه عندما يصبح التّقابل مرتكزا بنائيا يتكئ عليه النّص في مكوناته وعلاقاته» [44].

من جانب آخر فإن التّضاد في الصّورة الشّعريّة «قد لا يفضي إلى انتصار حال على أخرى، وإنّما قد ينتهي بالتّوافق والانسجام، لأنّ السّياق الشّعريّ إنّما ارتكز إلى التّضاد وركن إليه بوصفه وسيلة تعبيريه، وهذا هو الجانب الآخر للتّضاد» [45].

وللتّضاد دور أساسي في تشكيل الصّورة الشّعريّة عند الشّاعر، فالمعاني الشّعريّة تنجم عن مجموعة من العلاقات المتشابكة بين الكلمات المختلفة في معانيها، كم يضيف عنصرا جماليا في النّص من خلال قضية التأثير بين الشّاعر والمتلقي لما فيه من حسّ لفظيّ إيحائي، وكلمات

معبّرة، واتساع في الأجواء، وإثارة في التّحليق فإذا بالمتلقي أمام صور شعريّة نابعة بالكثير من المعاني في أطرافها ومتعالية في انطلاقتها.

كانت الحياة التي عاشها البردوني في مجتمعه قد جمعت الكثير من التّناقضات التي كانت سببا مهما في إبراز ظاهرة التّضاد في شعره، وهو أمر طبيعي يرتبط بشخصيّة الشّاعر التي يتجاذبها تياران: أحدهما يرتبط بالحريّة الفرديّة التي يريد أن يمارسها والآخر مقيد بالعادات والتّقاليد الاجتماعيّة التي تفرض نفسها على ممارسته اليومية، وتحاول الحدّ من خروجه على هذه العادات والتّقاليد. وهو في داخله موزع بين إحساس الألم والإحباط الذي يعانيه في واقعه ومعاملاته مع النّاس، وإحساس الفرح والتّفاؤل الذي يشعر به أحيانا. وإلى جانب ذلك فهو يرفض القيود الاجتماعيّة والأوضاع الاقتصاديّة والدّينيّة ويتعامل معها وفق أسلوب خاص يناقض المألوف ويخرج على ما اتفق عليه النّاس.

ويعكس التّضاد في شعر البردوني كثيرا من مواقفه الاجتماعيّة والسّياسيّة والدّينيّة والشّعور بالألم والحيرة ورؤيته إلى واقع أفضل، كما ويعكس إحساس الشّاعر بالزّمن والحياة والموت والمكان والحريّة، وما هو موجود وواقعي، وما ينبغي أنْ يوجد. لقد أراد البردوني أنْ يوجد من التّضاد سعادته الضّائقة، لذلك يرفض من خلاله كلّ أشكال التّبعية والمعاناة. وهو يسعى إلى خلق عالم شعريّ يتحرر فيه من التّقليد والجمود فالتّضاد يخرج الشّاعر عن المألوف ويقف من خلاله في وجه جميع أنواع الفئات التي أدت إلى القمع والكبت أكان دينيا أم اجتماعيا.

لقد أدى التّضاد في شعر البردوني دورا خطيرا في وصف حالة التّحول بين زمنين، زمن الماضي الذي عاش فيه الأجداد في اليمن، وزمن الحاضر الذي أصبح يرزح فيه تحت وطأة الظلام والسّواد والموت، كما يلفتنا ما يعكسه التّضاد في شعره من أحاسيس على الحياة والزمن إذ لونهما برؤاه الداخلية والنفسية، وأعاد تشكيله وفق ما يحس به من مشاعر وأحوال نفسه، لا كما هو في الواقع الذي ينعم به الآخرون.

إنّ التّضاد في شعر البردوني لا يعني التّناقض «إنما يولد فينا حركة جديدة كانت لها أصداؤها في الشّعر العربيّ على طول تاريخه، ولكن البردوني توسع في الظّاهرة وعدها جزءا من تكنيك القصيدة عنده وأداة من أدوات التفجير الدّرامي التي ترسم دائرة للحركة، حركة الحياة وسرها الدّافق»[46].

وتمثل قصيدة «تحت السكاكين» نموذجا لبناء التّضاد حيث يبني الشّاعر قصيدته على الصور المتقابلة ليخرج في النّهاية بتشكيل جمالي يبرز التّوحد بين المعنيين المتقابلين حيث تظل الذات نهبا مقسمة بين واقعين. يقول:

بعـــــينيـــــه حُلمُ الصّبـــــايا، وفـي
حناياهُ مــــقـبـــرةٌ مـــســتــريحَـهْ

لنيسانَ يشدُو، وفي صدرِه
شتاءٌ عنيفٌ، طيورٌ جريحَهْ
بلادٌ، تَهُمُّ بميلادِها
بلادٌ تموتُ، وتمشي ذبيحَهْ
بلادان، داخلَهُ هذه
جنينٌ، وهذي عجوزٌ طريحَهْ
وآتٍ إلى مَهدِهِ يشرئبُّ
وماضٍ يئنُّ، كثكلى كسيحَهْ
زمانانِ، داخلَهُ يقتلي
دجى كالأفاعي،وتندى صبيحَهْ
ورغمَ صريرِ السّكاكينِ فيه
يُغنّي يغنّي، وينسَى النّصيحَهْ
فتخضرُّ عافيةُ الفنِّ فيه
وأوجاعُهُ وحدهُنَّ الصّحيحَهْ
أيا شمعةَ العمرِ ذوبي، يُلحُّ
فتبدو وتومي، (أتبدو شحيحَهْ؟
فيولَدُ في قلبِهِ كلَّ يوم
ويحملُ في شفتيهِ ضريحَهْ

****

يوالي، فيرفُضُ نصفَ الولاءِ
ويُبدي العداواتِ، جلوى صريحَهْ
لهُ وجهُهُ الفردُ،لا يرتدي
وجوها، تُغطّي الوجوهَ القبيحَهْ
يُعرّي فضائحَ هذا الزّمانِ
ويعرَى، فيبدُو كأنقى فضيحَهْ
ترَى وجهَها الشّمسُ فيه كما
ترَى وجهَها، في المرايا المليحَهْ (٤٧)

لقد كشف التّضاد منذ بداية النّص عن ذات مضطربة، غير مستقرة تبدو في حالة قلق ومعاناة، وقد اختلط كثير من الأمور أمامها وفقدت القدرة على التّماسك والتّحكم في أمرها حتى بدأت تعري الواقع بما فيه من سوءات. وبالتّالي حاجة الذات إلى من يشاركها همومها

ويخرجها من أزمتها. ولذلك فهي تتجه بالخطاب إلى الخارج أو إلى شخص آخر بعينه مما يخرج بالخطاب إلى دائرة أوسع على الإنسان عامة.

كما كشف التّضاد منذ بداية القصيدة عنده تأزم العلاقة بين الشّاعر والآخر ضمن بنية استعارية تنافرية قائمة على المقابلة بين واقعية تعيش فيها الذّات، سواء الأنا «الشّاعر» أو «الآخر»، وبذلك يفصح البيت الأول من القصيدة عن بؤرة النّص ويمنح المتلقي مهمته كشف مفاتيحه ويحدد له منذ البداية مسار التّجربة الشّعورية التي يعانيها الشّاعر ويشير إلى أنّ الواقع الذي يعيشه الإنسان واقع محفوف بالمخاطر، وليست العلاقة بين حلم الصّبايا، والقبر إلا لما تواجه الذّات من مخاطر تكاد تعصف بها.

ولأنّ الفكرة الأساسية التي تتمحور حولها القصيدة هي معاناة الذات، فإن الشّاعر يعتمد اعتمادا كليا على سمة التّضاد أو «المقابلة» حيث يقابل بين مكانين متمثلين بصورة البلاد وهي تهم، وتموت وتمشي ذبيحة (وزمنين، زمن الحاضر الذي يريد أنْ تشرئب منه الحياة، وزمن الماضي المريض الذي يئن كثكلى كسيحة). وما تكاد ترد صورة الحاضر إلى نفسه ومخيلته حتى يهرع إلى عالم الماضي، فيستحضر صورته المليئة بالحزن كصورة عجوز تئن من المرض بسبب وفاة زوجها.

لقد تنوعت أنماط التّضاد في القصيدة بين الاسم والفعل، ولم يقتصر التّضاد على رصد مواقف متضادة بل ساهم في تعميق التّجربة التي يعاني فيها الشّاعر، وكشف الصّراع المحتدم في نفسه وذاته.

كما يؤدي الجناس في البيتين الأخيرين دورا إضافيا حين أظهر التّناقص في الزّمن الواحد زمن تقلب الحياة في البلاد كما تشير دلالة الفعلين «يعرى ويطرى» إلى فاعلية الذات في مقاومة الحصار وعدم استسلامها للواقع واستمرارها في المقاومة حتى ينجلي الأمر ويظهر وجه الشمس النّقي في إشارة دالة على اقتراب كشف الحقائق أمامها.

أبرز التّضاد في القصيدة أنّ الذات تبدو محاصرة بالظّلام والوحشة، حيث اشتبكت في صراع مع الواقع، وكما توهمت أنها خرجت من هذا الحصار، تكشف لها الواقع عن ظنون كاذبة. لقد جاء البيتان السابع والثامن في القصيدة يكشفان عن واقع الصراع المحتدم بين ذات الشّاعر الطامحة إلى الآمال والخروج من واقع الظّلم الكثيف إلى حياة يرى الفن فيها نور الحياة، وينسى الشّاعر من خلالها أوجاعه. ويرى بصيصا من الضوء رغم هيئة السّواد.

ويعمد البردوني إلى التّضاد باعتباره يشكل بنية محورية من محاور القصيدة في شعره، ولا يقف عند مجرد إظهار المعنى وضده أو المقارنة بين زمنين متضادين ولكنه يلعب دورا بارزا في تعميق وتكثيف التّجربة الذاتية يقول:

لكي يستهلّ الصبحُ، ثم آخرِ السُّرى
يحنّ إلى الأسنى، ويعمى لكيْ يَرى

لكي لا يفيقَ الميتون، ليظفروا
بموتٍ جديدٍ.. يُبدعُ الصّحوَ أغبَرا
لكي ينبتُ الأشجارَ، يمتدُّ تربة
لكي يصبحَ الأشجارَ والخصبَ والثّرى
لأنّ بهِ كالنّهرِ أشواقَ باذلٍ
يُغاني غناءَ النّهرِ، يَجري كما جَرى
يروي سواهُ، وهوَ أظمَى من اللظى
ويَهوي، لكيْ ترقى السّفوحُ إلى الذُرى
لكي لا يعودَ القبرُ ميلادَ ميتٍ
لكي لا يوالي قصرُ، عهدَ قيصرا (١٨)

إنّ الشّاعر في الأبيات السابقة يجمع بين الصّورة المبهجة والصّورة المحزنة في البيت الواحد أو البيتين المتجاورين، فهذه التّراكيب تحمل نظامها الجمالي المتكامل الذي يشكل معجم البردوني وفلسفته الجمالية الشّعريّة على أكمل وجه في مجازية الكلمة الشّعريّة وقوتها من خلال ارتباطها بغيرها، فيتجاوز المعنى المركزي إلى معان هامشية أكثر خصبا وشعريّة (٤٩). لقد كانت حركة الصّورة المبهجة تعادل حركة الحياة نفسها، وهي لا تبعث الحياة في القلب الميت فقط، بل ترتبط بالخصب والانتشاء، والبهجة وتجدد الأمل، في حين أنّ الصّورة المحزنة قد تحولت من خلالها دلالات البهجة إلى النقيض، وتتأثر الذات وحدها بذلك التّحول السّلبي الذي أحدثته الحياة.

ويأتي التّضاد في شعر البردوني ليبرز صراعا نفسيا، وهو صراع يختلف عن الصّراع البدني الذي يخوض الإنسان فيه الحياة من أجل لقمة العيش. إنّه الصّراع ضد الهموم الذاتية أو هموم النّفس التي تتكالب عليه فتهاجمه بضراوة وشراسة حتى يكاد يفقد القدرة على مقاومتها يقول:

ورحنا نسقّي الرّملَ أمواهَ عمرِنا
فيظمَى، ويَرويه، إلى أنْ ترنّحا
كطاحونةٍ تمضي وتأتي كمنحنًى
يشدُّ إلى رجليهِ تلاً مجنّحا
فيها ذكرياتُ التّيهِ منْ جرُّ قبلنَا
خطاه، وأمسَى مثلُنا حيثُ أصبَحا
ركضنَا إلى الميلادِ قرنا وليلة
ولدنا فكانَ المهدُ، قبرا تفتّحا

ومـــتنا كـــمَـــا يبـدو، رجـعـنا اجنّةً
لنخـــتـــار مـــيلادا، اشقّ وانجــحـــا(٥٠)

لقد حقق التّضاد في الأبيات السابقة دورا فنيّا جديدا في وصف الحالة الشّعورية للشّاعر، حيث تنعكس عليها آلام الوجود والغياب في صورها المختلفة. وقد جاءت دلالات التّضاد من «تمضي، وتأتي» و«أمسى، وأصبح» تؤكد تجذر المعاني ومدلولاتها، مما يتوافق مع طول معاناة الذات من آلام الحياة. فقد خلع الشّاعر أحاسيسه على الزمن من دلالات الأفعال المضارعة والظّروف الزّمانية، فلونه برؤاه الداخلية وأعاد تشكيله وفق مشاعره وأحوال نفسه يقول:

لم يعُـــدْ للقـــتلِ وقعُ.. أربّمـــا
لمْ تعـــدْ للشّـــارعِ الدّاوي رهَافـــهْ
لا فـــضـــولٌ يرتـــني.. لا خيـــرٌ
خـــيـفـــةٌ كـــالأمنِ.. أمنٌ كـــالمخَـــافـــه
مـــا الذي ؟.. مـــوتٌ بموتٍ يلتَـــقـــي
فـــوقَ مـــوتـى.. منْ رأى في ذا طَرافـــه
نـــهـــضَ المـوتـى.. هـوى مَـن لـم يمـتْ
كـــالنّعـــاسِ الموتُ؟ لا شيء خُـــرافـــهْ(٥١)

لقد انطلق الشّاعر من خلال بنية التّضاد في الأبيات السّابقة من تطور جديد في مفهوم النّظرة إلى الحياة والموت، محققا بذلك نوعا من التّشكيل الدرامي الذي بحث عنه حتى وجده في بنية التّضاد. فها هو الأمن خيفة، والخيفة أمن، وهي صور دالة على متاعب الذات وتجسيد لواقع الانكسار الذي تعيشه، فتنبث الصّور وألفاظ التّضاد المعبرة عن هذا الواقع مثل القتل، والموت.

وساهمت حروف النفي مثل «لم، لا» بدور أساسي في تشكيل الصورة من خلال بنية التّضاد التي حققت تماسك العبارة الشّعريّة وربط المعنى بما سبقه.

٣ - بنية التّكرار

لقد لفتت ظاهرة التّكرار الكثير من نقاد العربيّة وأدبائها، ونماذجها مشهورة في الشّعر العربي القديم، والقرآن الكريم، وأحاديث الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)، وأقوال العرب وخطبهم، ولكنّها لم تتّخذ صورتها كظاهرة فنيّة لها أثرها في بناء القصيدة إلا في العصر الحديث مع بروز الدّراسات الأسلوبيّة والحديث عن الصّور الشّعريّة في الشّعر.

وظاهرة التّكرار ليست جديدة على الشّعر العربي، وهي «من أهم خصائص الشّعر العربي قديما وحديثا، وهو سمة لا تكاد تفارق عنصرا من عناصره، فأوزان الشّعر وأنغامه قائمة على عنصر تكرار التّفاعيل والأبحر وحتى الزّحافات والعلل يلزم بعضا منها التّكرارُ ويلازمه.

والقافية تستتبع التّكرار وتتردد في نهاية الأبيات طوال القصيدة.. وبهذا يكون التّكرار صفة ملازمة لأهم مقومات الشّعر، الوزن، القافيّة، لكنّ الجديد في التّكرار أنْ يشمل بهذا الشّكل والوفرة التي نلاحظها في محاولة إيجاد نوع من الضّوابط لها حتى لا يتحول الأسلوب إلى وسيلة لهدم الشّعر أو لغته بدلا من أنّ يكون عنصر ثراء وغنى» [٥٢].

وتبدو أهمية التّكرار في تسليطه «الضوء على نقطة حساسة في العبارة، ويكشف عن اهتمام المتكلم بها، وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسيّة قيمة تفسد النّاقد الأدبيّ الذي يدرس الأثر ويحلل نفسيّة كاتبه» [٥٣].

كما أنّ التّكرار يعتبر «جوهر الخطاب ويكون على مستوى الأصوات وعلى مستوى الوزن والقافية وعلى مستوى التركيب النّحوي وفي المعنى، وإذا كان التّكرار في الخطاب العلمي يعتبر حشوا لا قيمة له فإنّه في الخطاب الشّعري ليس كذلك، لأنّ الشّعر عبارة عن إطناب معنويّ ناتج عنه ويقصد الشّاعر إلى ذلك قصدا» [٥٤].

والشّاعر العربيّ المعاصر حريص كلّ الحرص على أنْ يجعل من لغته لغة إيحائية معبرة سواء عن طريق التّكرار أو الرّمز أو الأسطورة، وهو «عندما يدخل في سياق النّص الشّعري يكتسب دون شك طاقات إيحائية من تلك الطّاقات التي تحملها اللغة الشّعريّة نفسها. فلغة الشّعر غنية بطاقاتها ودلالاتها، لأنّ استخدام اللغة في الشّعر يختلف عنه في النّثر» [٥٥] والكلمة الشّعريّة ليس لها بديل أو عوض وليست علامة قصاصية لا قيمة لها، بل هي «لغة انفعالية تتوجه إلى القلب وتعتمد بشكل رئيسي على اللغة الموسيقيّة التي يمكنها هي الأخرى أنْ تثير انفعالات وإحساسات لا تحصى» [٥٦].

من ناحيّة أخرى تبدو أهمية ظاهرة التّكرار في الشّعر «قادرة على تبيان قضية أساسية من قضايا الأسلوب الأدبيّ، وهي أنّ الأسلوب بحدّ ذاته قائم على عملية الانتقاء والاختيار، ولذلك يصادف المرء في كتابات بعض النّقاد عبارة تتردد كأن يقول النّاقد أو المحلل، لو أنّ الشّاعر قال هكذا بدلا من هذا لتغير المعنى عن جوهره، إنّ الأمر يتعلق تعلقا مباشرا بالكلمات واختيارها، وإنّ اختيار الشّاعر لتكرار كلمة ما داخل في صميم موقفه» [٥٧].

إنّ الشّاعر من خلال تكرار بعض الكلمات والحروف والمقاطع والجمل، يمدّ روابطه الأسلوبيّة لتضمّ جميع عناصر العمل الأدبيّ الذي يقدمه، ليصل ذروته في ذلك إلى ربط المتضادات فيه ربطا موحيا منطلقا من الجانب الشّعوريّ، ومجسدا في الوقت نفسه الحالة النّفسيّة التي هو عليها، والتّكرار يحقق للنّص جانبين، الأول: ويتمثل في الحالة الشّعورية النّفسيّة التي يضع من خلالها الشّاعر نفسه المتلقي في جوّ مماثل لما هو عليه، والثّاني: الفائدة الموسيقية، بحيث يحقق التّكرار إيقاعا موسيقيا جميلا، ويجعل العبارة قابلة للنّمو والتّطبيق، وبهذا يحقق التّكرار وظيفته كإحدى الأدوات الجماليّة التي تساعد

الشّاعر على تشكيل موقفه وتصويره، لأنّ الصّورة الشّعريّة، على أهميتها، ليست العامل الوحيد في هذا التّشكيل[58].

والتّكرار ظاهرة تتعلق بتشكيل مفردات اللغة التي يستخدمها الشّاعر. والقصيدة «من حيث هي عمل فنيّ ليست إلا تشكيلا خاصا لمجموعة من ألفاظ اللغة. وهو تشكيل خاص، لأنّ كلّ عبارة لغوية، سواء أكانت شعريّة أم غير شعريّة، تعد تشكيلا لمجموعة من الألفاظ. لكنّ خصوصية التّشكيل هي التي تجعل للتّعبير الشّعري طابعه المتميز»[59]، وهي ظاهرة لم تقع عبثا، بل كانت مصدرا من مصادر الصّورة التي تزيدها خصبا وغنى في إتقانها وإحكامها عندما يقع التّكرار.

إنّ «صور التّكرار تمتلك، فضلا عن إمتاع الأذن، قيمة عمليّة تتمثل في تأكيد الأفكار، وإثارة التّفكير، كما يحدث مثلا في إبراز البنية المتماثلة أو المتضادة»[60].

وكون النّص الشّعري يقوم على مجموعة من العلاقات المتشابكة التي تشكل بنيته فإنّ التّكرار «يستطيع أنّ يعين في الكشف عن القصد الذي يريد الشّاعر أنّ يصل إليه. فالكلمات المكررة ربما لا تكون عاملا مساهما في إضفاء جوّ الرّتابة على العمل الأدبيّ ولا يمكن أنّ تكون دليلا على ضعف الشّاعريّة عند الشّاعر، بل إنها أداة من الأدوات التي يستخدمها الشّاعر لتعين في إضاءة التّجربة وإثرائها وتقديمها للقارئ الذي يحاول الشّاعر بكل الوسائل أنّ يحرك فيه هاجس التّفاعل مع تجربته، إنّ حرص الشّاعر على إحياء تجربته في نفوس المتلقين يجعله يتحرز في اختيار الأسلوب الأكثر ملاءمة»[61]، لهذا تشترط نازك الملائكة في اللفظ المكرر أنْ يرتبط بالسّياق الشّعري وأنْ يلقى ما بعده عناية الشّاعر[62].

ومحاور التّكرار عند البردوني كثيرة ومتنوعة ودلالاتها غنيّة، لكنّها في بعض الأحيان متداخلة بعضها مع بعض، كتداخل بعض الحروف مع الأسماء، والأفعال مع الأسماء، ومن أنواع التّكرار عنده، تكرار الاسم والفعل والجملة والحرف والضّمير.

أولا: تكرار الاسم

يشكل تكرار الاسم في شعر البردوني محورا أساسيا من محاور الصّورة الشّعريّة لكثرة استحضاره الأسماء العربيّة والأجنبية، بجوانبها المتعددة، الإيجابيّة والسّلبيّة وهو «لا يَردُ دون أنْ يكون ذا فائدة، فبالإضافة إلى أنّه يحدث ما لدى السّامع الذي يجد نفسه في موقف يجعله يتساءل عن سرّ هذا التّكرار، فإنّ هذا التّكرار يخلق رابطا بين الأبيات يجعلها تشكل بناء متكاملا»[63] يقول:

سَلوَى ويهمسُ في نِدائي
أملٌ كأغنيَةِ الضُياء
سَلوَى ويرتدُّ الصّدَى
بجوابِها: يا لانتِشائي

أيُ المنَى تحضرُ في
جدبي وتزهرُ بالهَناء
وتعيدُ "تموزا" وتَغزلُ
مِن أشعتِه ردائي
مَنْ ذا إزائي ؟أهَلْ هُنا
سَلوى ؟ فنيسانٌ إزائي
يشدُو أمامِي بالشَّذى
ويُزنبقُ الذِكرى ورائي
سَلوى، وأصْغي، واسمُها
بفمي ربيعٌ مِنْ غِناء
ابْكي على سُلوَى أناجِيها
اغنيها....بكائي [٦٤]

يكرر الشّاعر في القصيدة السّابقة اسم سلوى، وهي إحدى النّساء اللواتي وقف عندهنّ، لينشئ في كلّ بيت صورة شعريّة مرتبطة بعلاقة عضويّة مع الصّورة في البيت الذي يليها، ومع كلّ كلمة فيه، وربما يكون هذا التّكرار هو تعبير الشّاعر عن نفسه وهو يخاطب سلوى، لأنّ المتلقي يشعر من خلاله زفرات قلب عذبه البعد والفراق والتهاب عاطفة لم تتحمل البعاد، وتتجمل بالصّبر، فتحركت مشاعره وثارت خواطره على هذا النّحو، «ثم أنّ التّكرار بهذه الطريقة أقدر على تصوير هول الفاجعة وأدق في التّعبير عنها، كما يحدث للمصاب حينما يردد ألفاظا مكررة أو متشابهة من شدة هول المصيبة التي حلت به وفظاعتها وأثقلها على قلبه، حتى لا يعني من الأمر إلا أوله فقط، وينجذب في دهشة مأخوذا لا يدرك ما يقول، أو لا يعي ما يصدر منه أو لا يتحكم في ما يريد، فينطلق بلفظ واحد، ويردد حتى ينقطع نفسه وتخور قواه»[٦٥].

ورأينا أنّ كلمة «سلوى» تكررت في الأبيات السّابقة خمس مرات، وهي لا تظهر دورها هنا من مجرد التّكرار العددي للاسم، لكنها تقوم بدور مقابل للحالة الشّعورية المسيطرة، وأنّ تكرارها بهذه الصّور قد ولد في نفس المتلقي شعورا وإحساسا مماثلا لما في نفس الشّاعر، ولما هي عليه، وهذه من ميزات الاسم المكرر.

لقد استطاع البردوني من خلال التّكرار أنْ يجمع بين عناصر القصيدة الواحدة وأنّ يزاوج بين معانيها في صورة شعرية متناسقة يقول:

عيدَ الجلُوسِ أعِرْ بلادَكَ مسمعا
تسألْك أينَ هناؤها ؟ هلْ يُوجَد ؟

تَمضي وتأتي والبلادُ وأهلُها
في ناظريكَ كما عهدتَ وتعهدُ
يا عيدُ حدِّثْ شعبَكَ الظَّامي متَى
يُروى ؟ وهلْ يُروَى وأينَ المَوردُ ؟
يا عيدُ هذا الشّعبُ ذلُّ نبوغِهِ
وطوَى نوابغَهُ السُّكونُ الأسودُ
عيدُ الجلوسِ وهلْ نصتّ لشاعرٍ
هناكَ وهوَ عنِ المسرَّةِ مُبعدُ ؟ (٦٦)

ففي هذه القصيدة التي يقف الشّاعر فيها عند ذكرى عيد الجلوس، نلمح دور الكلمة المكررة في بنية وانتظام السياق العام للقصيدة، والصّورة الشّعريّة فيها، حيث جاءت كلمة «عيد» لينشئ من خلالها صورا شعريّة جديدة، وهذا يعكس ما يصول ويجول في خاطره من معان ودلالات تجاه الحياة التي يحياها أبناء الشّعب اليمني والتي يمثل العيد فيها جانبا مهما، لكونه اليوم الذي يتربع فيه ملك على عرش اليمن وهذا التربع لم يأت لهم إلا بحياة الذلّ والقتل والدّمار.

من جانب آخر فقد عكس الشّاعر من خلال التّكرار صراعا متشائما، شاكا بكل شيء حوله، فبدأت متشائمة وانتهت متشائمة وحزينة.

ويجسد التّكرار في شعر البردوني صورة من صور التّرابط في القصيدة، إذ يظهرها على أنّها بناء متلاحم ومتواشج تجلت فيه رؤية الشّاعر التي ينطلق منها معبرا عن نفسه، ومعتمدا على مكونات اللفظة المكررة، وما يمكن أنْ تؤديه من إيحاء التّعبير، وتلك مهمة المتلقي في اكتشاف المعنى الدّفين خلفها يقول:

فليخنّي الزمانُ والشّعب إنّي
شَعبُ شَعبي، أنا زمانُ الزّمانِ
يتلاقَى الزّمانُ والشّعب في رُوحِي
شَجيينِ يعزفانِ كِياني (٦٧)

يشير التّكرار الذي استخدمه الشّاعر من خلال «الزمان» و«الشّعب» إلى علاقة تضاد يبرز في الأولى منها صورة الانفصال وعدم التّواصل مع الزمان والشّعب، وفي الثانية، صورة تضاد تمثل التّواصل والتّوحد والاندماج مع هذا المجتمع والشّعب.

ثانيا: تكرار الفعل

الفعل من العناصر الأساسيّة التي قامت عليها الصّورة الشّعريّة في شعر البردوني، حيث نجد الشّاعر مع كل صيغة من صيغ الأفعال وأسمائها يبدع صورة جديدة تعكس الهدف الذي يسعى إليه من الحياة.

ففي قصيدة «أغنيات في انتظار المغني» يكرر الشّاعر فعل الأمر (نغني) لينطلق من خلاله إلى تشكيل قصيدته بالصّور الشّعريّة التي تنقل تجربته الشّعوريّة وصراعه مع الحياة يقول:

لأزهى غـرام، لأعلى طِمـاعْ
نغنّي، نروعُ قِوى الارتيـاعْ
لنُفرقَ بين الندى والسرابِ
وبينَ الحقيقي، وبين الخِداعْ
لنشعرَ أنْ لدَينا وجوها
أماميّةً ترفض الارتجاعْ

****

نُغَني لنخترقَ المفزعاتِ
لنجتثَّ من دَمِنا الانهلاعْ
نُغَني لنخترعَ المستحيلَ
لتخلقنا شهوةُ الاختراعْ (٦٨)

لقد كشف الفعل المضارع «نغني» عن الفكرة الرئيسة التي تتمحور حولها فكرة القصيدة من صراع الإنسان اليمني للوصول إلى هدفه لإثبات كفاءته وقدرته على مواجهة العقبات التي تضعها الحكومات المحلية أو الاستعمارية الطامعة. ومن ثمّ فإنّ تكرار الفعل «نغني» يكشف عن قدرة الإنسان في ذلك البلد على التّحدي ومحاولة الانتصار على الظروف الخارجية.

فالغناء أداة استخدمها الشّاعر لاختراق الخوف وقوى الارتياع والخداع، ويفرق بين الحقيقي والسّراب، وبين الحقيقي، وبين الخداع، ليشعر الإنسان بأنه ليس هناك وجه أمامه يرفض التراجع من أجل استقرار الحياة والتشبث بالمستقبل.

فالفعل «نغني» يكرره الشّاعر ليخلق من خلاله صورا شعريّة مع كل تكرار ويبرز في مادة سعادته الضائعة، وانطلاقته نحو الحياة والحريّة وما شابهما من قلق نتيجة إحساسه بالزّمن الذي رأى فيه معرقلا لحياة المجتمع التي يسعى إليها. كما أنّ استخدام الشّاعر للفعل بصيغة المضارع ناتج عن الصّراع الذي يدور في نفسه وبين الحياة التي يعيشها النّاس في تلك الفترة، فهو يريد أنّ يخرج ويتحرر من الأطر والمفاهيم السائدة والتّقاليد العامّة التي درج عليها النّاس وحافظ الشّعراء على قيمها.

ثالثا: تكرار الحرف

وقد استخدم البردوني ظاهرة تكرار الحرف في شعره كثيرا، مثل حرف النداء والاستفهام للتعبير عن خلجات نفسه والتّنازع أمام هذا الواقع الذي اختلت موازينه وانتشر فيه الظّلم والفساد والدّمار والشّر باسم القانون والعدالة، ولتكراره علاقة وثيقة بالسّياق والإطار العام

للقصيدة، وما يميزه عن تكرار الكلمات أنه «يحدث نغمة وموسيقية لافتة للنّظر، لكن وقعها في النّفس لا يكون كوقع تكرار الكلمات، وأنصاف الأبيات أو الأبيات عامة، وعلى الرغم من ذلك فإن تكرار الصّوت يسهم في تهيئة السامع للدّخول في أعماق الكلمة الشّعريّة»[٦٩] يقول:

لماذا يبرقُ الأدجى ؟
لماذا يخمد الأنصَعُ؟
لماذا أعشبَ المُبكى؟
لماذا أجدبَ المرتَعُ
لماذا الدرُّ في الأعناق
والأحجارُ في المقلَعْ؟
وهلْ هذا سِوى هَذا؟
منَ المخدوعُ والأخدَعُ؟
لماذا أرتَجيّ أمرا
ويأتي عكسُهُ أسرعْ؟[٧٠]

لقد أشار الاستفهام بـ «لماذا» إلى تضاعف الإحساس بالألم، وخاصة أنّ الشّاعر يريد أنْ يستفهم عن شيء سبب له الحيرة والاضطراب وجعله يتخبط في كثير من الأسئلة التي أبرزت بعض تناقضات العبارة المنسجمة مع الحالة النفسية التي يعيشها الشّاعر.

إنّ استفهام الشّاعر عن إعشاب المبكى يدل على المعاناة الكثيرة التي شغلت باله وأذهلته، كما أنّ إجداب المرعى يدل على القحط والهلاك.

أمّا تكرار الاستفهام في البيت الثالث، فقد أبرز من خلاله الشّاعر علاقة غير متكافئة يعتورها الخلل وتخضع لقانون السيد والمسود، لذلك فهو يقدم صورة الدّر في الأعناق على نحو يعكس صورة الحجارة في المقالع التي لا يعمل فيها سوى المتعبين في الحياة. إنّ الاستفهام بـ «لماذا» يعكس الرّغبة في إزاحة الكابوس الذي يثقل كاهل الشّاعر.

ويكثر الاستفهام بـ «أين» ليعكس ما انتاب حياة الشّاعر من قلق وخلل واضطراب يقول:

إلى أينَ ؟ هذا بذلكَ اشتبه
ومِنْ أينَ يا آخرَ التّجرِبَهْ
إلى أينَ؟ أضنَى الرصيفَ المسيرُ
وأتعبتْ الراكبَ المركَبَهْ
وعَن كلِّ وجهٍ ينوبُ القناعُ
تَرنو المرايا كمُستغربَهْ

إلى أينَ، مـن أيـنَ ؟ يَـدنـي المتـــــاهُ
بعــيْـدا، ويســتــبــعــدُ المقــربَــهْ [٧١]

وتكرار حرف الاستفهام أين ،على هذه الشاكلة يثير في النفس تساؤلات على المستوى الانفعالي، كما أنّ زخمه ينبئ عن الموقف الذي يقفه الشّاعر، كما أنّه يشكل بناء متماسكا يستطيع أن يعكس ترابط الأبيات بصورة واضحة. فهذه التساؤلات وتكرارها ما هي إلا انعكاس لما يدور في خلو الشّاعر من أمور تتعلق بحقيقة الموت والحياة أو الفناء والبقاء» [٧٢].

يكشف تكرار الاستفهام (أين) عن صورة وجهه متجهم الملامح والحياة، يلفه كثير من المتاعب والمعاناة، كما أشعرت المتلقي إحساس ذات الآخر بالحزن والغصّة، لذلك جاءت تجربته تعبيرا عن إحساسه بمأساة الإنسان وعجزه. لقد عكس التّكرار توتر الذات وصراعها لتأكيد ذاتها.

عالم الفكر
العدد 1 المجلد 37 يوليو - سبتمبر 2008

ذكاء البكتيريا... حقيقة أم خيال؟

د. فؤاد دبوسي (*)

مقدمة

إذا نظرنا إلى الصراع الدائر بين الإنسان وأعدائه لوجدنا أن البكتيريا تحتل المرتبة الأولى والمتواصلة في هذا الصراع. صحيح أن البكتيريا لم تُكتشف إلا في منتصف القرن السادس عشر، لكن كثيرا من الأمراض الميكروبية قد وُصفت وصفا دقيقا من قبل كثيرين من القدامى، كالفراعنة وأبقراط والأطباء العرب القدامى وغيرهم، مما يدل على أن هذا الصراع يرجع إلى آلاف السنين ومازال قائما إلى يومنا هذا، رغم التقدم العلمي الباهر الذي وصل إلى أدق التفاصيل في حياة البكتيريا.

وإذا نظرنا إلى ذلك العدو القديم المتجدد لوجدنا أنه كائن حي صغير لا يرى بالعين المجردة، إذ لا يزيد طول البكتيريا عن بضعة ميكرومترات، ولا يتجاوز قطرها ميكرومترين (الميلليمتر يساوي ١٠٠٠ ميكرومتر).

إننا نستطيع أن نفهم كيف أن هذه الجراثيم قد فتكت بالملايين من البشر في القدم قبل التطور العلمي، أي قبل اكتشاف المضادات الحيوية عام ١٩٢٨، على يد العالم الألماني فليمنج، وقبل إمكان عزل هذه الجراثيم في المختبرات على بيئات معينة، وإمكان دراستها والتعرف عليها، وقبل دراسة شفرتها الوراثية ودراسة جيناتها وخصائصها المرضية، لكن من الصعب علينا - بعد تطور هذه العلوم - أن نفهم كيف أن هذا العدو الشرس مازال يفتك بالإنسان

(*) مسؤول قسم الميكروبيولوجيا والـ DNA - مستشفى الحنان طرابلس - الجمهورية اللبنانية.

وما زال يحتال على الإنسانية، وما زالت ميزانيات ضخمة للدول تخصص لمقاومة ومحاربة هذا العدو. حتى أن الآمال التي عقدت على المضادات الحيوية، والتي جعلت العلماء يعتقدون بقرب الانتهاء من الأمراض الجرثومية، هذه الآمال تبددت أمام المقاومة الشرسة والمنظمة وغير المتوقعة لأدوية المضادات الحيوية، التي فقدت بريقها وبات عصرها الذهبي وراءنا. كل هذه الأمور تدفعنا إلى القول إنه حتى الآن ما زالت البكتيريا هي المنتصرة في المعركة، لا بل إنه ليست هناك أي بوادر عن أي تغير في مسار المعركة نحو انتصار الإنسان، بل على العكس فإن كثيرا من العلماء المعاصرين يرون أن نهاية الإنسانية على وجه الأرض قد تكون بسبب الأمراض الميكروبية. فالبكتيريا «جبهة لا نهائية»، كما يسميها العالم إرنست ماير (Ernst Mayr) في كتابه «هذا هو علم البيولوجيا» (This is biology)[1]، فها هو مرض السل ومرض الكوليرا ومرض الجذام ومرض السفلس، وغير ذلك من الأمراض التاريخية الضاربة في القدم، ما زالت تفتك بالإنسان حتى يومنا هذا[2]، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على «ذكاء» هذا العدو وعلى شراسته، وسنبين هذا الذكاء ونوعيته في سياق هذا البحث.

قد يفهم من هذه المقدمة أن البكتيريا بقدراتها الضخمة ليس لها إلا وجه سلبي، وهذا غير صحيح؛ لأن البكتيريا الممرضة التي نتحدث عنها لا تشكل إلا نسبة ضئيلة جدا من مجموع البكتيريا التي تسكن الأرض منذ ملايين السنين، لكن السمعة السيئة للبكتيريا إنما تعود إلى حجم الكوارث الإنسانية التي سببتها على مدار العصور والأزمنة. لكننا نريد أن نؤكد - كما سنفصل في هذا البحث - الناحية الإيجابية للبكتيريا في دورة الحياة على وجه الأرض؛ إذ لولا البكتيريا لما كانت هناك حياة على وجه الأرض، وأول ظهور للأكسجين على وجه الأرض كان بواسطة بكتيريا اسمها سيانوبكتيريا (Cyanobacteria)، منذ ملياري سنة تقريبا. والبكتيريا موجودة في كل مكان على سطح الأرض، حتى في المناخات والأماكن القاسية، وهذا يدل على القدرة العالية لهذه الجراثيم على التأقلم مهما كانت الظروف، فالبكتيريا موجودة في المياه الحارة وفي الثلوج وفي المياه الكبريتية وفي أعماق الأرض على عمق عشرة آلاف متر، حيث الضغط الهائل، وتستطيع بعض جراثيمها تحمل إشعاعات «جاما»، وتحمل نسبة ملوحة تزيد بعشرة أضعاف على ملوحة البحر. هذه البكتيريات التي تعيش في ظروف صعبة تعرف بـ «الأركيابكتيريا»، ومن المعلوم أنه فوق حرارة ١٦٠ درجة تصبح كل مظاهر الحياة جرثومية. ومما لا شك فيه أن البكتيريا، ذلك الكائن الحي الذي صمد على وجه الأرض منذ ما يقارب أربعة مليارات سنة حتى يومنا هذا، تتمتع بقدرات عالية من التأقلم و«الذكاء».

وكما في الطبيعة، كذلك البكتيريا موجودة أيضا في جسم الإنسان بأعداد هائلة، إذ يتجاوز عدد البكتيريا الموجودة في جسم الإنسان عدد خلاياه مجتمعة بعشرة أضعاف، وهي تعرف باسم الفلورا الطبيعية (Normal human flora)، وهذه الفلورا تؤدي دورا مهما في

عملية هضم الأطعمة، وفي إنتاج بعض الفيتامينات في الجسم كالفيتامين K المهم في عملية تخثر الدم وفي الدفاع ضد الجراثيم الممرضة الخارجية، ذلك أنه عندما يخسر الإنسان الفلورا الجرثومية الطبيعية لسبب أو لآخر يصبح عرضة لكثير من الأمراض، وخاصة الالتهابات الفطرية[٢،٣،٤].

وللبكتيريا أيضا دور معاصر في تطور علوم الهندسة الجينية، إذ استطاع الإنسان استغلال هذه الكائنات الحية كمصانع لإنتاج الأدوية كالأنسولين (Insulin)، الإنترفيرون (Interferon)، الهرمونات (Hormones)، الفيتامينات (Vitamins)، اللقاحات (Vaccines)، وفي المحاربة البيولوجية للتلوث (Bioremediation)، أيا كان هذا التلوث، وفي الصناعات الغذائية كالأجبان والألبان. وللأسف جاء هذا الاستغلال أيضا في سبيل الشر، كاستخدام البكتيريا وسمومها في الحروب البيولوجية (Biological warfare).

هنا يطرح السؤال نفسه: كيف يكون للبكتيريا - هذا الكائن البدائي الصغير الحجم - هذا الشأن الكبير، السلبي - من جهة - لناحية انتصارها على الإنسان صاحب العقل والذكاء والتطور العلمي، والإيجابي من جهة أخرى، لناحية القدرة الهائلة على التأقلم، ولدورها في وجود الحياة على وجه الأرض؟

سنجيب عن هذه التساؤلات في سياق هذا البحث، وسنرى كيف أودع الله عز وجل هذا الكائنات الحية صفات معقدة مثل حب البقاء، والصراع ضد الموت حتى الرمق الأخير، والتأقلم، والاقتصاد، والتوفير، والتنظيم، حتى ليخيل إلينا أننا لا نتكلم عن ميكروب مجهري، بل عن كائن حي بالغ التعقيد.

اكتشاف البكتيريا

البكتيريا هي أول الكائنات الحية التي سكنت الأرض وعايشت مغامراتها منذ بدايتها قبل حوالي ٤ مليارات سنة[١]. البكتيريا كائن حي مجهري لا يرى بالعين المجردة، وهي مؤلفة من خلية واحدة بسيطة التكوين، وتحتوي على الشفرة الوراثية الخاصة بها (DNA)، التي تعتبر مصدر عظمتها. ولا يوجد في البكتيريا نواة حقيقية، أي أن الكروموزوم ليس محاطا بغشاء كما في خلايا الإنسان (الشكل ١). وما يميز هذه الكائنات الحية هو استقلاليتها، أي أنها تتكاثر بمفردها على عكس الفيروسات التي تحتاج إلى أن تكون داخل الخلايا الحية كي تتكاثر.

لم تكتشف البكتيريا إلا في عام ١٦٧٦ بواسطة الهولندي فان لوين هوك (Antonie Van Leeuwenhoek)، الذي كان خياط أعلام، وهو أول من طور المجهر ليستعمله لرؤية الخيوط والتدقيق في جودتها؛ فإذا به يرى كائنات حية مجهرية فرسمها، لكنه لم يكن يدري أنه كان يرسم البكتيريا. ثم تتالت الأبحاث على يد علماء يعتبرون من رواد علم

الميكروبات مثل باستور (Pasteur 1864)، الذي اكتشف وطور اللقاحات ضد عدد من الأمراض مثل داء الكلب، وارتبط اسم باستور بعملية البسترة لقتل الكائنات الحية المجهرية، التي يمكن أن توجد بالسوائل خاصة الحليب. ثم طرح سؤالا كبيرا عن علاقة البكتيريا بالأمراض، وهل هذه الكائنات الحية موجودة في الطبيعة وداخل الإنسان من دون أن تسبب الأمراض. أجاب روبرت كوخ (Robert Koch) في العام ١٨٧٦ عن هذه الاسئلة من خلال تجاربه على بكتيريا الجمرة الخبيثة (Bacillus anthracis)، وأثبت بطريقة علمية ومنهجية علاقة البكتيريا بالأمراض... وحتى الآن مازالت طريقته تستعمل لإثبات علاقة بكتيريا معينة بمرض معين، وأطلق على طريقته مسلمات كوخ (Koch's postulates). ويمكن تلخيص هذه المسلمات في الطريقة التالية:

أولا: يجب أن تكون البكتيريا التي نفتش عن علاقتها بمرض معين موجودة في جسم كل شخص لديه هذا المرض.

ثانيا: يجب عزل هذه البكتيريا المسببة للمرض في المختبر على بيئة اصطناعية.

ثالثا: يجب عند تعريض حيوانات المختبر لهذه البكتيريا المعزولة أن يتطور لديهم المرض نفسه والعوارض نفسها الموجودة عند الإنسان.

رابعا: تجب إعادة عزل البكتيريا نفسها مرة أخرى من الحيوان على بيئة اصطناعية.

بهذه المسلمات استطاع كوخ إيجاد علاقة بين كثير من الأمراض وبين البكتيريا، وأطلقت عندها كلمة الأمراض الجرثومية (Infectious disease)، بعد أن كان كثير من الأمراض يُعد أمراضا عضوية (Organic disease).

تصنيف البكتيريا: هل البكتيريا حيوان أم نبات؟

عند اكتشاف البكتيريا احتار علماء التصنيف في ماهيتها، إذ إنه لم يكن يوجد إلا مملكتان في عالم الكائنات الحية: مملكة الحيوان ومملكة النبات، لكنهم وجدوا أن البكتيريا لا يمكن اعتبارها نباتا، إذ إن جدارها الخلوي يختلف اختلافا جذريا عن النبات، وكذلك لا يوجد عند البكتيريا غلاف للنواة، والأغلبية الساحقة من البكتيريا ليس لديها عملية البناء الضوئي (Photosynthesis)، الذي يعتبر مصدر الطاقة عند النبات. كما أنه لا يمكن ضم البكتيريا إلى مملكة الحيوان لاختلافها اختلافا جذريا عن الحيوانات، فاضطر العلماء إلى إيجاد مملكة ثالثة أطلقوا عليها اسم بروتيستا (Protista)، تضم الميكروبات أو الكائنات المجهرية، بما في ذلك البكتيريا. هذا التصنيف لم يعتمد أسسا علمية، بل جاء حلا لمشكلة طرأت عند اكتشاف البكتيريا، وعرف هذا التصنيف تحت اسم الممالك الثلاث (Three kingdoms)، أي الحيوان والنبات والبروتيستا، وجاءت البكتيريا جزءا بسيطا من المملكة الثالثة.

ثم جاء تصنيف Wittacher العام ١٩٦٩، الذي فصل الفطريات عن النبات واعتبرها مملكة قائمة بحد ذاتها، ثم فصل البكتيريا عن مملكة البروتيستا ووضعها في مملكة أخرى اسمها مونيرا (Monera)، وبالتالي أصبح التصنيف الجديد معروفا تحت اسم الممالك الخمس: مملكة الحيوان، مملكة النبات، مملكة الفطريات، مملكة البروتيستا التي بقيت فيها الحيوانات الأحادية الخلية (Protozoa)، ومملكة المونيرا، التي تضم البكتيريات.

ظل تصنيف البكتيريا على هذا النحو إلى أن اكتشف العالم المعاصر كارل ويز (Carl Woese) البكتيريات التي تعيش في ظروف غاية في الصعوبة، كحرارة عالية تفوق المائة درجة، أو درجة حموضة عالية أو منخفضة، أو تحمل نسبة عالية من الضغط، كالبكتيريا التي تعيش في أعماق المحيطات أو في عمق ٩٠٠٠ قدم تحت الأرض، أو البكتيريا التي تستمد طاقتها من خلال إنتاج غاز الميثان (Methane). أطلق كارل ويز على هذه البكتريات اسم أركيابكتيريا (Archeabacteria). وتمتاز الأركيابكتيريا بتأقلمها على المناخات غير الاعتيادية، التي تشبه الأرض البدائية، من حرارة ودرجة حموضة ومتطلبات غذائية، مما دفع بالعلماء إلى الاعتقاد المنطقي بوجود حياة خارج الأرض[٩،٨،٧].

بعد هذا الاكتشاف، أعاد العالم كارل ويز (في عام ١٩٨٠) عملية تصنيف جميع الكائنات الحية على أساس علمي ومنطقي، ويقوم هذا المعيار على مقارنة تسلسل قواعد الشفرة الوراثية لمورثة موجودة عند كل الكائنات الحية، وتتمتع هذه المورثة بوظيفة مهمة وهي انتاج الـ «ر. ن. أ» الريبوزومي (Ribosomal RNA[١١] (s) . إذ إنه من المعروف أن الجينات التي لها وظائف مهمة أو حياتية للخلايا لا يطرأ عليها كثير من التغيرات خلال التطور، مثل الجينات التي تنتج الـ «ر.ن.أ» الريبوزومي التي تكوّن الريبوزومات، لما لها من دور كبير في عملية إنتاج البروتينات، وأي خلل في الريبوزومات هو خلل مميت للخلية لا محالة[١٠]. لذلك استعمل كارل ويز (Carl Woese) هذه الجينات في عملية التصنيف كساعات زمنية بيولوجية لقياس التطور بين الكائنات الحية مجتمعة، بما في ذلك الحيوان والنبات والميكروبات التي تضم البكتيريا والفطريات والطفيليات [١١]. جاءت النتيجة مفاجئة للجميع، ومغايرة لكل التصنيفات الماضية، إذ أظهرت أن البكتيريا التي لم تكن في التصنيفات الماضية إلا جزءا من مملكة البروتيستا، إلى جانب مملكة النبات والحيوان، باتت تشكل ثلثي الكائنات الحية، وأظهر تصنيف ويز توزع الكائنات الحية مجتمعة إلى ثلاث مملكات، لكن اللافت أن مملكتين من الثلاث تتكون من البكتيريا، أما بقية الكائنات الحية - بما في ذلك النبات والإنسان والحيوان والفطريات والطفيليات - فكلها موجودة في المملكة الثالثة. باختصار، أظهرت عملية التصنيف المعتمدة على معايير علمية لا غبار عليها أن البكتيريا وحدها تشكل ثلثي الكائنات الحية، وبقية الكائنات الحية مجتمعة تشكل الثلث الآخر. وفي التفاصيل أن التصنيف الجديد أظهر وجود ثلاث مملكات هي:

- **المملكة الأولى**: تتضمن ما يسمى بالبكتيريا الحقيقية (Eubacteria)، وهي البكتيريات التي تعيش في ظروف طبيعية، وتضم أيضا البكتيريا المرضة للإنسان.
- **المملكة الثانية**: تتضمن البكتيريا التي تعيش من دون أي مشكلة في ظروف ومناخات صعبة للغاية، وهي الأركيابكتيريا (Archeabacteria).
- **المملكة الثالثة**: تسمى إيوكاريا (Eucarya)، وتتضمن بقية الكائنات الحية من حيوان ونبات وفطريات وطحالب وطفيليات[٩]. (الشكل ٢)

مراحل النمو (Growth) عند البكتيريا: البكتيريا تعمل للبقاء

عندما نتحدث عن النمو بشكل عام عند الكائنات الحية، كالإنسان أو الحيوان أو النبات، فهو زيادة في الوزن، فعندما نقول عن طفل ولد ووزنه ثلاثة كيلوجرامات ثم أصبح عشرين كيلوجراما في عمر الرابعة، فمن السهل علينا هنا فهم معنى النمو. لكن مصطلح النمو يستخدم في علم البكتيريا ليدل على تغيرات في المحصول الكلي للخلايا، أكثر من أن يدل على تغيرات في الخلية الواحدة. ولا تحدث الزيادة في العدد (التكاثر) إلا بعد أن يحصل تضاعف لمحتوى الخلية الواحدة، التي تتهيأ للانقسام بزيادة محتواها. وبالتالي تحدث زيادة أو تضاعف في عددها. فالنمو عند البكتيريا - إذن - هو زيادة في أعدادها. وتتكاثر البكتيريا بطريقة لا جنسية من دون التحام بكتيريا ذكر ببكتيريا أنثى، وهذه الطريقة تسمى الانشطار الثنائي (binary fission)، حيث تنقسم الخلية الأم بعد أن تكون قد ضاعفت شفرتها الوراثية إلى خليتين، ثم كل خلية تنقسم بدورها إلى قسمين، فيصبح المجموع أربع بكتيريات. فيحدث النمو ضمن تتابع عددي ١، ٢، ٤، ٨، ١٦، ٣٢، ٦٤، ١٢٨، ٢٥٦... إلخ. هذه الأرقام ترمز إلى أعداد البكتيريا بعد كل عملية انقسام. إن المعدل الوسطي للوقت بين الانقسام والآخر هو عشرون دقيقة، وهذا يدل على سرعة النمو لدى البكتيريا في حال توافرت لها البيئة المناسبة[١٢،٢٣].

من المعلوم أنه في حال وُجدت البكتيريا في بيئة جديدة، فإن نموها (أي زيادة عددها كما فسرنا آنفا) سيمر بعدة مراحل (الشكل ٣):

المرحلة الأولى: وهي التأخر عن بداية النمو والتكاثر (Latency phase, Lag phase)، أي أن مستوى نمو البكتيريا صفر. وهذه الفترة هي فترة تأقلم البكتيريا مع بيئتها الجديدة، وخلال هذه الفترة تعمل البكتيريا على استكشاف هذه البيئة ومحتوياتها لتتأقلم عليها، أي أنها تمثل عملية تحضيرية للانطلاق في النمو بأقصى معدل. وبالمعنى العلمي تُترجَم في هذه المرحلة مجموعة الجينات التي تمكِّن البكتيريا من العيش والتكاثر في هذه البيئة: فمثلا في حال وجود سكر اللاكتوز تنتج البكتيريا الإنزيم لهضمه. والجدير ذكره أن البكتيريا لا تمر بهذه المرحلة - وهي مرحلة الانتظار - إذا نقلت إلى بيئة جديدة تكون بنفس مواصفات البيئة

القديمة، إذ تكون كل الأجهزة لدى البكتيريا جاهزة وليست في حاجة إلى تغييرها، ففي هذه الحالة تتابع البكتيريا نموها من دون أي تأخير.

المرحلة الثانية: مرحلة النمو التصاعدي (Exponential phase)، بعد أن تكون البكتيريا قد استكشفت البيئة الموجودة فيها، وجهّزت العدة اللازمة لاستغلال هذه البيئة للنمو والتكاثر، تبدأ عملية النمو التصاعدية، هنا يكون مستوى النمو في أقصى معدل له، ولا شيء يعيقه، وخلال كل عملية انقسام يتضاعف عدد البكتيريا. في هذه المرحلة من النمو تكون البكتيريا في أحسن أحوالها، فمصادر الغذاء متوافرة، وليس هناك أي عامل ضغط عليها.

المرحلة الثالثة: مرحلة الثبات (Stationary phase)، هنا بدأ الغذاء ينفد، وبدأت الفضلات الناتجة عن نمو البكتيريا تتراكم، وهذان العاملان يشكلان ضغطا على البكتيريا، فتبطئ عملية النمو، ويصبح عدد البكتيريا التي تنقسم يساوي عدد البكتيريا التي تموت، وبالتالي يكون مستوى النمو في هذه المرحلة صفرا، إذ إن هناك توازنا بين عدد الخلايا التي تتوالد والخلايا التي تموت. ولكن في هذه المرحلة تبدأ المنافسة بين البكتيريا وتبدأ عملية الإبداع تدفعها غريزة حب البقاء. في هذه المرحلة تبدع البكتيريا بكل معنى الكلمة؛ فتجدها تبذل مجهودا كبيرا للحفاظ على حياتها وسط الضغط المتمثل في نقص الغذاء وتراكم الفضلات، لعلّ هذا المجهود يخلصها مما هي فيه. فبعض أنواع البكتيريا تنتج مضادات حيوية قاتلة للتخلص من رفيقاتها لعل المنافسة على الغذاء تقل، ومن هنا اكتُشفت المضادات الحيوية (Antibiotics) التي استعملها الإنسان في علاج الأمراض الجرثومية، إذ إن المصدر الأول لهذه الأدوية هو الميكروبات نفسها، لكن العجب أن هذه المضادات لا تظهر إلا في هذه المرحلة الصعبة من حياة البكتيريا، وهذا نموذج عن الاقتصاد والتأقلم والذكاء عند هذه الكائنات الحية المجهرية [١٤ و١٥]. تعتبر هذه المرحلة من حياة البكتيريا مرحلة مهمة استغلها العلماء في علم التقنية الحيوية (Biotechnology)، إذ في هذه المرحلة من الضغط تنتج البكتيريا مواد كيميائية أو ما يعرف بالأيضات الثانوية (Secondary metabolites)، لم تكن تنتجها في الحالة الطبيعية، والمثال على ذلك المضادات الحيوية، وسنأتي إلى تفصيل موضوع المضادات الحيوية في سياق هذا البحث. ونجد بكتيريا أخرى وسط هذه الأزمة تتحول إلى شكل ساكن يسمى الأبواغ (Spores)، يستطيع تحمل كمية عالية من الظروف القاسية كالحرارة العالية والبرودة القاسية والجفاف ونقص الغذاء والماء، وهذه الأشكال المقاومة تضمن للبكتيريا العودة إلى الحياة مجددا فور تحسن الظروف المحيطة بها [١٦ و١٧]. ولقد سجل العلماء أرقاما قياسية لبقاء هذه الأبواغ (الأشكال الساكنة للبكتيريا) على قيد الحياة وعودتها مباشرة إلى الحياة فور تحسن الظروف، حتى انه اكتُشفت أبواغ لبكتيريا

تسمى Bacillus في تجمعات ملحية كريستالية مدفونة تحت الأرض بعمق حوالي ٦٠٩ أمتار في مدينة نيومكسيكو تعود إلى ٢٥٠ مليون سنة، وعادت هذه البكتيريا إلى الحياة مباشرة عند وضعها في بيئة ملائمة. ولكن الجدير ذكره أن عددا قليلا من البكتيريات لديها خاصية التحول إلى شكل نائم[١٨]. (الشكل ٤)

وباختصار يمكننا القول إنه في هذه المرحلة من حياة البكتيريا يكون البقاء للأقوى.

المرحلة الرابعة: الصراع ضد الموت (Death phase)

في هذه المرحلة نفد الغذاء كليا وتراكمت الفضلات، وبدأت البكتيريا تموت، لكن هذه المرحلة قد تطول (كما يبين الشكل ٣) إذ إن البكتيريا لا تموت كلها في الوقت نفسه، إذ نشهد في هذه المرحلة صراع البكتيريا ضد الموت، إنه صراع بكل ما تعنيه الكلمة من معنى. هنا تبدأ بعض البكتيريات في التحلل، فإذا بالبكتيريات الأخرى - التي ما زالت على قيد الحياة - تستعمل المواد الناتجة عن التحلل مصدرا للغذاء والطاقة، وهكذا فالبكتيريا تأكل بعضها بعضا، فالتي تموت أولا تستعمل كغذاء للتي مازالت حية. أما أواخر البكتيريات الحية فهي تدخل في خطة توفيرية اقتصادية كبرى فنراها قد توقفت عن الانقسام، فالجدير في هذه المرحلة العصيبة أن تفعل ذلك، إذ إن الخلية الأم لا تجد مصادر للغذاء، فلماذا الانقسام إلى خليتين في ظل هذه المعاناة؟! فكأني بالبكتيريا تنظم نسلها. وتهضم البكتيريات في آخر عمرها - أيضا - بعض الأجهزة والمكونات لديها التي يمكن أن تستغني عنها ظنا منها أنها عندما تتحسن الظروف ستنتج غيرها، كهضم بعض البروتينات والريبوزومات والرنا، وذلك كله لإنتاج الطاقة غير المتوافرة في البيئة الخارجية للبكتيريا. وإذا نظرنا إلى هذا السيناريو فإن أقل ما يمكننا أن نقول فيه إنه صراع أليم ضد الموت، وقدرة هائلة على التأقلم في هذه الظروف الصعبة أودعها الله في هذه الكائنات المجهرية البسيطة.

الاقتصاد عند البكتيريا

قد يستغرب كثيرون عندما نتحدث عن التوفير والاقتصاد عند البكتيريا، لكن هذه الكائنات الحية - كما الإنسان - عندها هذه الخاصية (خاصية التوفير) والمقصود هنا أن البكتيريا تحاول قدر المستطاع توفير الطاقة وعدم استنفادها للحفاظ على مخزون من الطاقة يساعدها على البقاء على قيد الحياة، كما أن لدى البكتيريا أجهزة تساعدها في عملية التوفير. أفضل مثال على ذلك هو عملية هضم السكريات لدى بكتيريا الإشريشيا القولونية (Escherichia coli) هذه البكتيريا لديها إنزيمات أو ما يعرف بالخمائر لهضم سكر الجلوكوز وسكر اللاكتوز، وهذه الإنزيمات - كما كل البروتينات في الخلية - مصدرها جينات موجودة على كروموزوم البكتيريا، وتُقرأ هذه الجينات

بواسطة الريبوزومات لتصبح في النهاية إنزيمات. لكن عملية قراءة الجينات - في أي خلية كانت - تحتاج إلى طاقة كبيرة على شكل مركب فوسفاتي (ATP). إذ يجب أولا نسخ «ر.ن.أ» مرسال (Messenger RNA) من الجين المؤلف من «د.ن.أ» (DNA) لتتم قراءة أو ترجمة الرنا المرسال داخل الريبوزومات (Ribosomes) إلى بروتينات وإنزيمات (الشكل ٥). وفكرة الاقتصاد عند بكتيريا الإشريشيا القولونية تتمثل في أن ترجمة جين معين لا تتم إلا عند الحاجة إلى الإنزيم الذي يعطيه هذا الجين، أي بمعنى آخر أن عملية ترجمة الجينات لدى البكتيريا إلى إنزيمات وبروتينات لا تتم لكل الجينات في الوقت نفسه. إنما كل جين قد يترجم أو لا يترجم وفق حاجة البكتيريا إليه. أما التجربة التي برهنت على ذلك فهي أنه عندما وضعت بكتيريا الإشريشيا القولونية - التي كما ذكرنا عندها جينات خاصة لهضم سكر الجلوكوز وسكر اللاكتوز - عندما وضعت هذه البكتيريا في بيئة تحتوي فقط على سكر الجلوكوز لم تكن البكتيريا تترجم الجين الخاص بهضم سكر اللاكتوز. وعندما نقلت هذه البكتيريا إلى بيئة تحتوي على سكر اللاكتوز، عندها فقط بدأت البكتيريا بترجمة الجين الخاص بهضم سكر اللاكتوز. وهنا مبدأ التوفير والاقتصاد عند هذه البكتيريا فكأنها تقول: لماذا استنزاف الطاقة في غير محلها؟ ولماذا ترجمة الجين الخاص بهضم اللاكتوز وهذا الأخير غير موجود؟ وعندما أصبح موجودا في البيئة الثانية ترجمت البكتيريا الجين الذي يعطي الإنزيم الخاص لسكر اللاكتوز. وهنا يطرح السؤال نفسه: كيف علمت البكتيريا أن اللاكتوز في البيئة الأولى غير موجود، وأنه بات موجودا في البيئة الثانية؟ إنه نظام معقد مؤلف من عدة جينات خاصة لهضم سكر اللاكتوز تسمى أوبرون لاكتوز (Operon lactose). هذه الجينات لم تكن تعمل في البيئة الأولى الخالية من اللاكتوز بسبب وجود بروتين ملتصق بالدنا يمنع عملية تحويل الدنا إلى رنا مرسال. أما في البيئة الثانية فإن اللاكتوز التصق بهذا البروتين المانع وغيَّر من شكله مما أفقده قدرة الالتصاق بالدنا، مما أتم عملية تحويل الدنا إلى رنا مرسال، وبالتالي ترجمته إلى الإنزيم الهاضم للاكتوز (الشكل ٦). وهناك بعض النظريات التي تفسر هذا التصرف للبكتيريا على أنه يرجع إلى الحجم الدقيق لهذا الكائن، حيث لا تستوعب مساحة الخلية الواحدة وجود هذا الكم الهائل من جزيئات الإنزيمات المحللة للمواد المختلفة، وعلى ذلك فالبكتيريا توجد داخلها بصورة دائمة مجموعة الإنزيمات المحللة للمواد المعتادة، والمنتشرة في البيئات المختلفة. أما المركبات غير التقليدية (وقليلة الانتشار) فإن الجينات المسؤولة عن إنتاج الإنزيمات الخاصة بتحللها تعمل فقط عندما تُوجد هذه البيئات بالكيفية المذكورة سابقا، وقد تستغرق بعض الوقت لإنتاجها.

هذا مثال عن عملية التوفير لدى البكتيريا، إذ إنها لا تنتج الإنزيم إلا عند توافر المادة الخاصة بهذا الإنزيم (substrate)[١٦]، وهناك أمثلة أخرى عديدة عن فكرة التوفير والاقتصاد لدى البكتيريا، مثل عملية فرز المضادات الحيوية من قبل البكتيريا، التي لا تتم إلا في حالات معينة غير مؤاتية بالنسبة إلى البكتيريا، كما سنبين لاحقا في هذه البحث.

اكتشاف أدوية المضادات الحيوية

بدأت قصة اكتشاف المضادات الحيوية إثر سلسلة من التجارب أجراها طبيب إنجليزي يدعى ألكسندر فليمنج (Alexander Fleming) عام ١٩٢٨، زرع فليمنج جرثومة تسمى ستافيلوكوكوس (Staphylococcus aureus) وذهب في عطلة لمدة أسبوعين، وعند عودته لاحظ وجود فطر (عفن) ينمو في الطبق الذي زرع فيه الجراثيم. وكانت المصادفة وحدها هي التي دفعت فليمنج إلى عدم ترك العينة في حافظة دافئة، وكانت لندن آنذاك تعرضت لموجة برد شديدة مما أتاح الفرصة للعفن لكي ينمو. ولفت نظر فليمنج أن المستعمرات الجرثومية المحيطة بالفطريات قد توقف نموها وماتت (الشكل ٧). أخذ فليمنج يبحث عن تفسير لتلك الملاحظات حتى تأكد أخيرا أن هذا العفن يفرز مادة تبيد الجراثيم، فاتجهت محاولاته إلى فصل تلك المادة، وفعلا استطاع الحصول على المادة وأطلق عليها اسم «البنسيلين» (Penicillin) نسبة إلى نوع الفطر الذي أفرزها، المعروف باسم بنسيليوم (Penicillium)، ولأن فليمنج لم يكن كيميائيا فلم يستطع استخلاص البنسيلين بشكل نقي، ولم تستفد البشرية من البنسيلين إلا بعد ١١ عاما، ففي عام ١٩٣٩ وصلت عينة من اكتشاف عفن فليمنج إلى يد فريق من العلماء في جامعة أكسفورد تحت قيادة فلوري (Florey)، وهو عالم وظائف حيوية من أصل أسترالي، كان فريقه بارعا ودقيقا في عمله، خصوصا كيميائيا شابا اسمه تشاين (Chain)، وكان من أبرز العلماء في هذا الفريق، الذي كرس جهده لتحليل وعزل المواد المختلفة من العفن من أجل قتل البكتيريا. وبعد عدة محاولات تمكن الفريق من عزل مادة البنسيلين من العفن بكميات كافية للقيام بتجربة لم يجرها فليمنج ونجحوا في حقن المادة في فأر بكميات قاتلة للبكتيريا. وخلال عام نشرت نتائج أبحاث الفريق في عدة دوريات علمية. ومع انتشار الفكرة حول العالم بدأ علماء آخرون يقومون بتجارب لحقن المرضى بمادة البنسيلين، مما أدى إلى نتائج رائعة تمثلت في شفائهم. أما أول اختبار للبنسيلين على الإنسان فكان عام ١٩٤١، حينما حقن شرطي كان مصابا بالالتهاب وفي حالة احتضار، فتحسنت حالته بشكل ملحوظ، لكنه عاد ومرض ومات بسبب انقطاع البنسيلين، إذ كان العلماء وقتها يعيدون استخراج البنسيلين من بول المريض لإعادة اعطائه وفي كل مرة كانت تقل نسبة البنسيلين. بعدها أخذت صناعة البنسيلين تنتشر على نطاق واسع مما أدى إلى إنقاذ حياة مئات الآلاف من الجرحى خلال الحرب العالمية الثانية.

هل كانت المصادفة وراء اكتشاف فليمنج المضادات الحيوية؟

صحيح أن الفطر أو العفن الذي نما على الطبق الذي زرع فيه فليمنج الجراثيم، والذي كان باردا، مما ساعد العفن على النمو، إذ من المعروف أن العفن يفضل النمو في مناخ بارد ورطب، وهنا لاحظ فليمنج أن المنطقة المحيطة بالعفن قد ماتت فيها الجراثيم، لكن لولا أن عقل فليمنج كان مهيأ لتعليل ما شاهد، واستخلاص النتائج من ذلك، لما استطاع الوصول إلى ما وصل إليه. وهناك قول مأثور للعالم الفرنسي باستور «Chance favors the prepared mind»، أي أن الحظ يفضل العقل المحضر. ونورد هنا - على سبيل المثال - ما حصل مع العالم نيوتن عندما كان جالسا تحت شجرة تفاح ووقعت تفاحة على رأسه واكتشف عندها قانون الجاذبية. فكم وكم وقع التفاح والليمون على رؤوس أناس قبله، من دون أن يلفت نظرهم شيء، لكن لأن نيوتن كان عالما فيزيائيا يمضي أوقاته في البحث والتفكير في قانون الجاذبية، وكان عقله مهيأ، فقد استطاع من خلال هذه الحادثة البسيطة - المصادفة - أن يستخلص منها ما وصل إليه.

العصر الذهبي للمضادات الحيوية

يمكننا تعريف المضادات الحيوية بأنها مواد كيميائية تفرزها كائنات حية مجهرية (Microbes)، وهذه المواد لديها فعالية قتل البكتيريا، لكن من دون التأثير في خلايا الإنسان، وهذا ما يميزها عن المواد المعقمة، التي لا تميز بين البكتيريا وبين خلايانا، مثل ماء الجافيل (Eau de Javel)، لذلك نستطيع استعمال المعقمات خارج جسم الإنسان وليست كعلاج. ويعود السبب إلى أن المضادات الحيوية تتمتع بهذه الانتقائية (Selectivity)، أي أن تأثيرها هو فقط في البكتيريا، وأن هذه المضادات هي مواد وأجهزة موجودة فقط عند البكتيريا وغير موجودة في الخلايا البشرية، مثل الجدار الخلوي (bacterial wall) الذي يحمي البكتيريا من التحلل، وهنا توجد مجموعة كبيرة من المضادات الحيوية تقتل البكتيريا بواسطة تفكيك جدارها، مثل مجموعة اللاكتامين (lactamines)، وبما أن الخلايا البشرية ليس لديها على الإطلاق جدار خلوي فإن خلايا الإنسان تبقى بمنأى عن تأثير أدوية المضادات الحيوية في حال استعملت كعلاج. وبما أن تركيبة البكتيريا تختلف اختلافا جذريا عن تركيبة خلية الإنسان، لذلك فإنه توجد أهداف كثيرة للمضادات الحيوية في البكتيريا، وتلك الأهداف غير موجودة في خلايا الإنسان. لكن هذا لا يعني أن المضادات الحيوية ليس لديها أي تأثير جانبي داخل جسم الإنسان، إذ إن هذه المضادات هي في النهاية مواد كيميائية غريبة على جسم الإنسان، والبعض منها له أضرار على بعض وظائف الجسم، خصوصا إذا استعملت بكميات أكبر من تلك المتعارف عليها [٢٠].

بعد أن اكتشف فليمنج أول مضاد حيوي استُخرج من فطر البنسيليوم، انصبت جهود العلماء على تجربة أنواع أخرى من الفطر، وعلى إذا ما كانت تفرز مضادات حيوية. ثم توسعت التجارب لتشمل البكتيريا نفسها. كل ذلك كان بهدف إيجاد أنواع أخرى من المضادات الحيوية غير البنسيلين. ونتيجة لهذه التجارب فقد استطاع العلماء إيجاد مجموعات جديدة من المضادات الحيوية عن طريق الفطريات والبكتيريات. ووجدوا أن أعدادا كبيرة من الميكروبات تفرز المضادات الحيوية، وذلك بهدف الدفاع عن نفسها، خصوصا في ظل وجود منافسة بين هذه الميكروبات على الغذاء أو المكان. واللافت للنظر أن عملية إفراز مضاد حيوي من قبل بكتيريا لا تتم في الأوقات الطبيعية، التي تكون فيها البكتيريا من دون ضغط تنافسي، ويكون الغذاء متوافرا والحرارة طبيعية، لكن تُنتَج هذه المضادات من قبل البكتيريا فقط في حال وجود ظروف غير طبيعية بالنسبة إلى البكتيريا، كنقص في الغذاء أو الحرارة أو وجود منافسة مع بكتيريا أخرى، وهذا يدل على أن عملية إنتاج المضادات الحيوية من قبل البكتيريا تخضع لعملية تنظيم منها. وهذا يدخل ضمن مفهوم الاقتصاد والتوفير عند البكتيريا كما بينا سابقا[8]. لهذا السبب عندما يجرب العلماء في المختبر بكتيريا معينة لمعرفة ما إذا كانت تفرز مضادا حيويا أم لا، فإنهم يضعونها في ظروف غير مواتية تحت الضغط (under stress)، ذلك أن الجينات الخاصة لإنتاج المضادات الحيوية لدى البكتيريا لا يتم التعبير عنها إلا تحت الضغط الذي تعتبره البكتيريا أنه جاء نتيجة منافسة مع بكتيريا أخرى، فكأن البكتيريا تقول لماذا استنزاف الطاقة في إنتاج مضادات حيوية من دون وجود بكتيريا منافسة؟[19، 21].

وبهذه التجارب التي أجراها العلماء استطاعوا إيجاد أكثر من مائتي نوع من المضادات الحيوية، تختلف من حيث التركيبة الكيميائية ومن حيث فعاليتها، أي من حيث مستوى تأثيرها في البكتيريا، ومن حيث الطيف، أي نوعية البكتيريات التي تؤثر فيها (Spectrum). فهناك أنواع من المضادات الحيوية تكون فعالة بشكل رئيسي على البكتيريا الإيجابية لصبغة جرام (Gram positive bacteria) [*]، ومنها ما يكون فعالا ضد البكتيريا السالبة لصبغة جرام (Gram negative bacteria)، والبعض الآخر يكون فعالا ضد النوعين. ومنها مايقتل البكتيريا (Bactericidal)، ومنها ما يمنع نموها (Bacteriostatic).

ومن أشهر مجموعات المضادات الحيوية ما يلي:

- البنسيلين ومشتقاته (Penicillin)، وتعد هذه الأدوية من أهم مجموعات المضادات الحيوية ومن أقدمها.

(*) جرام (Gram)، هو عالم بكتيريا طور طريقة لصبغ البكتيريا، ولاحظ أن البكتيريا تنقسم إلى قسمين: قسم يأخذ اللون، وتسمى بكتيريا موجبة لصبغة جرام (Gram positive bacteria)، والقسم الثاني لا يأخذ صبغة جرام، وتسمى بكتيريا سالبة لصبغة جرام (Gram negative bacteria)، يختلف هذان النوعان من البكتيريا في تركيبة جداريهما.

- السيفالوسبورينات (Cephalosporin).
- التتراسيكلينات (Tetracyclin).
- السلفوناميدات (sulfonamides).
- الماكروليدات (Macrolides).
- أمينوجلايكوسيدات (aminoglycosides).
- كلورامفينيكول (Chloramphenicol).
- الكينولون (Quinolones).
- ستربتومايسين (Streptomycin).

تجدر الاشارة إلى أن بعض هذه المركبات المفرَزة طبيعيا من بعض الكائنات الدقيقة تُصنَّع كيميائيا لتقليل التكلفة عن تلك المنتَجة طبيعيا.

هل فقدت المضادات الحيوية بريقها؟ وهل بات عصرها الذهبي وراءنا؟

«الدواء المعجزة»، هكذا وصف العلماء المضادات الحيوية منذ أكثر من خمسين عاما، إثر شفاء الآلاف من المرضى، خصوصا خلال الحرب العالمية الثانية. لكن بعد فترة وجيزة من بداية استعمال المضادات الحيوية في علاج الأمراض الجرثومية بدأ ظهور بكتيريا مقاومة لهذه الأدوية، أي أن هذه المضادات لا تؤثر فيها. هذه المقاومة فاجأت الجميع إذ إنه لم تكن في الحسبان - حتى بالنسبة إلى العلماء الذين اكتشفوا هذه المضادات - هذه المقاومة، وأن أيا من هؤلاء العلماء، مثل فليمنج وفلوري وتشاين، لم يأت على ذكر هذا الاحتمال. والسبب في ذلك يعود إلى عدم معرفة كل التفاعلات والتبادلات الوراثية الممكنة عند البكتيريا آنذاك. إذ إن علم الوراثة المتعلق بالبكتيريا (Bacterial genetics) كان في بدايته عند اكتشاف المضادات الحيوية، وهذا العلم هو الذي يقف وراء فهمنا لكيفية اكتساب البكتيريا المقاومة للمضادات الحيوية كما سنبين في الفقرة التالية.

إن أقل ما يمكننا قوله عن مقاومة البكتيريا للمضادات الحيوية هو أنها مقاومة شرسة، سريعة الظهور، إذ إن اكتشاف مضاد حيوي وتجربته ودراسته والتأكد من عدم خطورته، كل ذلك يحتاج إلى سنوات من العمل والبحث، ونجد أنه بعد سنة واحدة من بداية استعمال المضاد الحيوي الجديد - كعلاج - تستطيع البكتيريا أن تقاوم هذه الدواء كما هو مبين في الجدول التالي:

تاريخ ظهور المضاد الحيوي وبداية استعماله	تاريخ أول ظهور لبكتيريا مقاومة لهذا المضاد الحيوي
بانزيل - بنسيلين (Benzyl-penicillin) ١٩٤٢	ستافياوكوكس أوريس مقاومة للبنسيلين (Staphylococcus aureus) ١٩٤٣
ميتيسيللين (Methicillin) ١٩٦٠	ستافياوكوكس أوريس مقاومة للميتيسيللين (Staphylococcus aureus) ١٩٦١
إمبسيللين (Ampicillin) ١٩٦٢	عصيات سالبة لصبغة جرام مقاومة للإمبسيللين (Gram negative rods) ١٩٦٤
السيفلوسبورين الجيل الثالث (Third generation cephalosporin) ١٩٨٠	عصيات سالبة لصبغة جرام مقاومة للسيفالوسبورين (Gram negative rods) ١٩٨١
إميبنيم (Imipenem) ١٩٨٥	بسودوموناس أريجينوزا مقاومة للإميبنيم (Pseudomonas aeruginosa) ١٩٨٦

وبات العلماء يخشون من الوصول إلى سوبر بكتيريا مقاومة لكل أدوية الالتهابات، ذلك أن البكتيريا تتطور بسرعة فائقة [٢٢]. وهذا الخوف في محله، إذ إننا لسنا بعيدين أبدا عن الوصول إلى هذه الحالة، خصوصا أن الإحصاءات السنوية التي تقوم بها المؤسسات الصحية في العالم تشير إلى تصاعد مستمر وغير رجعي (continuous and irreversible resistance) في نسب البكتيريا المقاومة للمضادات الحيوية، ذلك أنه متى اكتسبت البكتيريا مناعة ضد المضاد الحيوي فإن هذه المناعة تنتقل إلى أجيالها وتصبح هي الطاغية، خصوصا في ظل تواصل استعمال المضاد الحيوي [٢٣، ٢٤، ٢٥].

الحوار والتواصل الجيني بين البكتيريا هما سبب مقاومة المضادات الحيوية

من المعلوم أن الطريقة التي تتكاثر بها البكتيريا هي طريقة لا جنسية، أي أنه لا توجد هناك بكتيريا أنثى وبكتيريا ذكر، وليس هناك تزاوج بين البكتيريات. إذ إن البكتيريا تتكاثر بواسطة الانشطار الثنائي (Binary fission)، وهذه الطريقة تعني أن البكتيريا الأم تنقسم لتعطي بكتيريتين متطابقتين تماما للبكتيريا الأم وهكذا. وبمعنى آخر فإن هذه الطريقة في التكاثر عند البكتيريا تعني أنه من المفترض أن البكتيريا التي كانت موجودة منذ ملايين السنين هي نفسها الموجودة في يومنا هذا، ولديها الصفات نفسها. إن المتأمل لهذا الكلام لا يستطيع أن يفسر إذن كيف تتطور البكتيريا وكيف تكتسب صفات جديدة لم تكن لديها من قبل، مثل مقاومة المضادات الحيوية.

إن تفسير هذه الأمور جاء نتيجة لتطور علم الوراثة الجرثومي (Bacterial genetics)، الذي أوضح أن البكتيريا ليست نظاما مغلقا (closed system) وأنها لا تعيش بمفردها بل أن هناك عملية تفاعل بين البكتيريات، وهناك عملية تبادل في الجينات بين بكتيريا وأخرى، وأن البكتيريا خلال حياتها يمكنها أن تكتسب صفات جديدة من خلال اكتسابها جينا أو مورثا من بكتيريا ثانية [٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩]. هذا الجين قد يفيدها ويعطيها قدرة على مقاومة المضادات الحيوية كما سنبين لاحقا. وبهذا الاتصال الجيني بين البكتيريات يمكن أن تظهر بكتيريا جديدة تسبب مرضا جديدا، وهذا ما يفسر - مثلا - ظهور مرض الليجيونللوز (Legionellosis)، وهو عبارة عن التهاب رئوي تسببه بكتيريا جديدة اسمها Legionella pneumophila لم تكن معروفة قبل العام ١٩٧٧ [٣٠].

تستطيع البكتيريا الحصول على مورث جديد بثلاث طرق مختلفة (الشكل ٨):

- إما أن تقوم البكتيريا وخاصة عندما تكون تحت الضغط (Under stress) بعمل ثغرات في جدارها، وتقوم بتمرير قطع من الـ «د ن.أ» الحرة (Free DNA) من الخارج إلى الداخل وهذا الـ «د ن.أ» يكون موجودا في البيئة المحيطة بالبكتيريا نتيجة تحلل البكتيريات الأخرى، تسمى هذه الطريقة «تحول البكتيريا» (Bacterial transformation).
- الطريقة الثانية لاكتساب البكتيريا لمورثات جديدة هي من خلال عملية «اتصال مباشر» بين بكتيريتين، وهنا يمتد جسر أو قناة بين هاتين البكتيريتين، ومن ثم يمر الـ «د ن.أ» من بكتيريا إلى أخرى، وهذه العملية تسمى الاقتران (conjugation). الجدير ذكره أنه رغم وجود هذه العملية في عالم البكتيريا لكننا لا نستطيع إطلاق كلمة تزاوج عند البكتيريا. إذ إن عملية الاقتران عملية سريعة ولا يتم تبادل كل الكروموزومات الموجودة عند البكتيريا. لكن يمكننا اعتبار عملية الاقتران التي تحصل عند البكتيريا هي أقرب ما تكون إلى عملية التزاوج الجنسية (الشكل ٩).

- الطريقة الثالثة هي عملية تبادل غير مباشرة بين البكتيريات، وتتم هذه العملية عن طريق ناقل أو حامل للشفرة الوراثية من بكتيريا إلى أخرى، وهذا الناقل هو فيروس البكتيريا (Bacteriophage)، يهجم الفيروس على البكتيريا، وخلال عملية الهجوم من الممكن أن يحمل الفيروس قطعة من الشفرة الوراثية الخاصة بالبكتيريا وينقلها إلى بكتيريا ثانية خلال هجوم آخر، وهكذا يكون قد حصلت عملية تبادل غير مباشرة بين البكتيريتين عن طريق الفيروس[٢٨] (الشكل ١٠).

إن هذه العمليات الثلاث التي تحصل في عالم البكتيريا، والتي يُتبَادل خلالها في الشفرة الوراثية بين البكتيريا، التي يمكننا أن نطلق عليها اسم الاتصال الجرثومي (Bacterial communication)، تفسر لنا كيف أنه من الممكن أن تكتسب البكتيريا صفات جديدة مثل تأقلمها على بيئة جديدة أو مقاومة المضادات الحيوية، أو تغير في التفاعلات الكيميائية لديها، أو اكتسابها قدرة مرضية. فالبكتيريا تتعاون في ما بينها، وكل خلية تعطي أفضل ما لديها من مورثات من أجل بقاء وصمود مجموع الخلايا البكتيرية[٣١،٣٢،٣٣،٣٤،٣٥].

إن للمضاد الحيوي أهدافا داخل البكتيريا يستطيع مهاجمتها، فيكون سببا إما في قتل البكتيريا وإما في منعها من مواصلة النمو والتكاثر، ومن أهم هذه الأهداف:

- **الجدار الخلوي** (Bacterial wall): وهنا تخسر البكتريا البنية الخارجية التي تحميها فتتعرض للتحلل والموت.

- **الريبوزومات** (Ribosomes): من المعلوم أن وظيفة الريبوزوم هي ترجمة الرنا المرسال إلى بروتينات، ومن خلال مهاجمته ومنعه من ممارسة وظيفته تخسر البكتيريا عملية إنتاج البروتينات.

- **الشفرة الوراثية** (DNA): هنا يهاجم المضاد الحيوي الإنزيمات المسؤولة عن الحفاظ على بنية الـ «د ن.أ»، والدنا هو العنصر الأساس والأهم في كل خلية حية وليس فقط في البكتيريا.

- **الغشاء الخارجي** (outer membrane): بعض المضادات الحيوية تؤثر في الغشاء الخارجي، الموجود فقط عند البكتيريا السالبة لصبغة جرام، مما يجعل فعالية هذه المضادات محصورة في هذه البكتيريات (Gram negative bacilli).

وبالتالي كي ينجح المضاد الحيوي في قتل البكتيريا، يجب عليه أن يخترقها أولا، وأن يصل إلى هدفه المحدد ثانيا، وألا يتعرض المضاد الحيوي لأي تكسير أو تغيير ثالثا. لذلك تعتمد البكتيريا في مقاومتها المضاد الحيوي على ثلاث طرق:

- إما أن تمنع دخول المضاد الحيوي لديها، وذلك عن طريق إفراز غشاء جديد من البروتينات الخارجية تحول دون دخول المضاد الحيوي.

- وإما أن تدع البكتيريا المضاد الحيوي يدخل، لكن تشن عليه هجوما كيميائيا بواسطة إفراز إنزيمات خاصة تحدث تكسرا أو تغيرا في المضاد الحيوي، مما يؤدي إلى عدم فاعليته.

وهذه الإنزيمات التي تستخدمها البكتيريا لتفكيك المضاد تكتسبها من بكتيريات أخرى عن طريق التبادلات الجينية بينها. والعجيب في الأمر أن البكتيريا استطاعت أن تطور إنزيمات خاصة لكل نوع من أنواع المضادات الحيوية.

- أخيرا قد تفضل بعض البكتيريات مقاومة المضادات الحيوية بطريقة ذكية أخرى وهي التمويه، وهنا تحدث البكتيريا تغييرا طفيفا في عضو معين من أعضائها، الذي يكون هو هدف المضاد الحيوي، فعندها لا يستطيع المضاد الحيوي التعرف على هدفه فتبقى البكتيريا بمنأى عن تأثيره من دون اللجوء إلى منعه من الدخول أو من تكسيره [٣٦].

كل هذه الخدع التي تقوم بها البكتيريا إنما اكتسبتها بواسطة المورثات التي أخذتها من البكتيريات المحيطة بها، كما بينا في الفقرة السابقة.

تجدر الإشارة هنا إلى البلازميدات التي هي تركيبات وراثية غير كروموزومية، عبارة عن جزيئات صغيرة من الحمض النووي دنا (DNA)، تتضاعف أو تنسخ مستقلة عن الكروموزوم، وهي تحمل صفات غير أساسية، منها عوامل المقاومة (Resistance factor)، وهي المورثات الخاصة بمقاومة المضادات الحيوية (على سبيل المثال)، ويمكن أن تنتقل إلى خلية أخرى تكسبها الصفة نفسها.

زيادة مقاومة البكتيريا للمضادات الحيوية هي نتيجة سوء تصرف الإنسانية بكل أفرادها.

صحيح أن بعض البكتيريا تتمتع بمقاومة فطرية لبعض المضادات الحيوية (Natural resistance)، لكن المستوى الخطر والمنذر للمناعة التي اكتسبتها البكتيريا ضد المضادات الحيوية هو بلا أدنى شك نتيجة سوء تقدير هذه المضادات من قبل العالم أجمع، ابتداء من الإنسان العادي (المريض)، وصولا إلى الطبيب المعالج، ومرورا بشركات الأغذية ومربي الماشية والمستشفيات والمؤسسات الصحية وبائعي وموزعي الدواء، مما أدى إلى أخطاء جسيمة في استعمال وإدارة المضادات الحيوية.

أما المريض فهو يتحمل المسؤولية بسبب الاستهلاك المفرط للمضادات الحيوية أو عدم الالتزام بمدة العلاج المطلوبة اللازمة للتخلص الكامل من البكتيريا المسببة للمرض، والطبيب يتحمل جزءا كبيرا من المسؤولية نتيجة وصفه المضاد الحيوي في حالات لا تحتاج إلى معالجة بل تشفى ذاتيا. وتدل الإحصاءات أن من ٥٠ إلى ٧٥ في المئة من العلاج بالمضادات الحيوية تكون في غير محلها. لذلك يجب أن يعلم الطبيب أنه ليس مضطرا إلى وصف المضادات الحيوية لكل مريض لكي يشعر الطرفان بالراحة النفسية.

أما الصيدلاني فكذلك يتحمل مسؤولية بيعه المضاد الحيوي من دون وصفة طبية، وقد تكون الأزمة الاقتصادية هي السبب في عدم زيارة الطبيب، لكن هذه لا تبرر ذلك التصرف إذ إننا أمام مشكلة عالمية ضخمة.

والمستشفيات عنصر أساسي لمنع انتشار البكتيريا المقاومة للمضادات الحيوية. إذ إن المستشفى هي المكان الذي تستعمل فيه المضادات الحيوية القوية الواسعة الطيف (broad spectrum) بكميات كبيرة، ونتيجة لذلك تعتبر البكتيريات الموجودة في بيئة المستشفى بكتيريا خطرة لناحية مقاومتها المضادات، وبالتالي يجب على كل فريق المستشفى التعاون لمنع انتشار التهابات المستشفيات (nosocomial infection)، أي الالتهابات التي يلتقطها المريض بعد دخوله إلى المستشفى لسبب معين [٣٧]. وعلى المستشفى أيضا تأسيس لجان خاصة لمكافحة عدوى المستشفيات والسيطرة على البكتيريا داخل المستشفى نفسه.

وأخيرا قد يستغرب البعض دور مصانع الغذاء ومربي الماشية في ظهور مقاومة البكتيريا المضادات الحيوية، لكنهم لجهل وسوء تقدير منهم باتوا يلجأون إلى حقن الحيوانات بخليط من هرمونات النمو والمضادات الحيوية بشكل روتيني: لكي يسرعوا من نمو الحيوانات؛ ولكي لا تتعرض للأمراض، فبتنا - شئنا أم لم نشأ - نستهلك المضادات الحيوية مع الطعام الذي نأكله وباتت البكتيريا في جسمنا (Normal flora) تتعرف على المضاد الحيوي من دون أي داع لذلك، فيقتل هذا المضاد بعض البكتيريا وتبقى البكتيريا القوية لتصبح هي الأكثر عددا وانتشارا، وهنا يأتي دور مؤسسات الرقابة على سلامة الغذاء، خصوصا اللحوم، في مراقبة الأغذية والحد من هذه الظاهرة.

ولا بد من الإشارة إلى أنه عند كل مرة يتدخل فيها الإنسان لتغيير مسار الطبيعة وسنن الله في الأرض، ظنا منه أنه يطور الأمور، فإذا به يكتشف في ما بعد جسامة خطئه في هذه التدخلات. فها هو أيضا حاول أن يسرّع نمو الحيوانات بإطعامها بروتينات حيوانية مطحونة، بدل أن تعتمد على الأعشاب كما خلقها الله، فإذا بمرض جنون البقر ينتشر وتتكبد الدول خسارة بملايين الدولارات نتيجة هذه التصرفات الرعناء.

والآن بدأت المؤسسات الصحية العالمية تنتبه إلى ظاهرة مقاومة البكتيريا للمضادات الحيوية، ومحاولة إيجاد طرق واستراتيجيات دولية للحد من هذه الظاهرة، لكن للأسف فإن ما اكتسبته البكتيريا من مقاومة ومناعة ضد المضادات الحيوية غير قابل للعودة، وما خسره العالم من قيمة وفعالية المضادات الحيوية تجاه بعض البكتيريا قد خسره إلى الأبد. ولا بد الآن من التفكير جديا والبحث مليا عن بدائل للمضادات الحيوية للتخلص من الأمراض الجرثومية.

البكتيريا... مصانع كيميائية متميزة للمستقبل

حتى العام ١٩٥٠ كان علم البكتيريا يهتم فقط بدراسة البكتيريا الممرضة، لكن في ما بعد تطور هذا العلم ليشمل كل نواحي البكتيريا وخصائصها، وأصبحت البكتيريا النموذج الأمثل لدراسة وتطور كثير من العلوم كعلم الوراثة (Genetics) وعلم الكيمياء الحيوية (Biochemistry) وعلم البيولوجيا الجزيئية (Molecular biology)، وذلك لسهولة زرع البكتيريا وسرعة تكاثرها وسهولة دراسة

التغيرات الطارئة عليها. وتوج استغلال البكتيريا أخيرا في علم الهندسة الوراثية (Genetic engineering)، وذلك من خلال استعمال الخلايا البكتيرية كمصانع بيولوجية، وذلك بإدخال جينات معينة إلى داخل البكتيريا حيث تترجمها إلى بروتينات وهرمونات وغير ذلك، لقد كان معلوما أنه بإمكان البكتيريا أن تكتسب مورثات أو جينات من بكتيريا أخرى كما بيّنا آنفا، لكن برهنت البكتيريا على تفوق كبير، حيث وصل الأمر إلى إعطائها مورثات مختارة ومحددة، ليس فقط من بكتيريا أو من «ميكروبة» مماثلة، ولكن حتى من خلايا الإنسان، وهذا الاتصال الجيني بين البكتيريا والإنسان هو اتصال بين أبعد الكائنات الحية بعضها عن بعض، إذ إنه اتصال بين كائن حي مؤلف من خلية واحدة بدائية وبين الإنسان وخليته المعقدة.

هذا الاتصال الجيني بين البكتيريا والإنسان إن دل على شيء فإنما يدل على فقدان حدود الاتصال الجيني بين الكائنات الحية مجتمعة، إذ بات بالإمكان إدخال مورثة من نبات معين أو من خلية بشرية أو من أي خلية أخرى إلى خلية بكتيرية، حيث ستقوم بترجمة المورث إلى البروتين المناسب، ومن هنا جاءت تسمية البكتيريا بمصانع المستقبل (الشكل ١١).

لقد بدأ تطبيق هذه الأفكار بمحاولة إنتاج الأنسولين من البكتيريا، وذلك بإدخال جين الأنسولين البشري الموجود في كل خلية من خلايانا إلى بكتيريا الإشريشيا القولونية (Escherichia coli)، وبالفعل بدأت البكتيريا تنتج هرمون الأنسولين وبكميات ضخمة، وذلك لسرعة نمو البكتيريا، إذ إن خلية واحدة لديها جين الأنسولين البشري ستصبح ملايين البكتيريات بعد ساعات فقط، وتصبح كلها منتجة للأنسولين. وبعد أن كان الأنسولين يُستَخلص من أنسجة البنكرياس الحيوانية بكميات ضئيلة وبطرق معقدة بات الآن ينتج من البكتيريا بطريقة سهلة وبكميات كبيرة وبسرعة قصوى، ما ساهم في انخفاض سعر الأنسولين انخفاضا بالغا.

لقد فتح هذا الإنجاز الباب واسعا أمام تجارب واستعمالات للبكتيريا لإنتاج مواد كيميائية بشرية غريبة عن البكتيريا، بواسطة إدخال جينات هذه المواد إلى داخل البكتيريا، وكأمثلة عن هذه المواد نذكر الإنترفيرون (Interferon) وهرمون النمو (Growth Hormone)، وكثيرا من الفيتامينات كالغلوتامات (Mono sodium glutamate).

وكذلك استُعملت البكتيريا لإنتاج كثير من اللقاحات (vaccine)، إذ بات بالإمكان أخذ الجين المسؤول عن إنتاج البروتين الذي يثير جهاز المناعة (Antigen) في فيروس معين، وإعطاء هذا الجين إلى البكتيريا لتنتجه بكمية ونوعية عالية بدل استعمال اللقاحات التقليدية، التي كانت تقتضي إعطاء فيروس حي مخفف (living attenuated) أو فيروس ميت بواسطة مواد كيميائية (dead inactivated)، حيث كانت لهذه اللقاحات أضرار جانبية من حيث عودة الفيروس الحي المخفف إلى وتيرته الطبيعية المرضة، أو أن تكون عملية قتل الفيروس غير

مكتملة حيث يسبب اللقاح حدوث المرض. هذا وقد بيّنا سابقا دور البكتيريا في إنتاج كثير من المضادات الحيوية، خصوصا عندما تتعرض لضغط معين.

لقد بات من المؤكد أنه سيصعب على الكيميائيين إنتاج هذه المواد الكيميائية والطبية بتكلفة اقتصادية منافسة لتكلفة إنتاجها عن طريق البكتيريا.

وكذلك يمكن استغلال البكتيريا في تصنيع مركبات لا تنتجها في الحالة الطبيعية، أي لا تنتجها عندما تكون في بيئة مناسبة، من حيث الغذاء ومصادر الطاقة والنمو والحرارة ونسبة الحموضة، لكن إذا وضعناها تحت ضغط معين (under stress)، مثل وجود بكتيريا أخرى تنافسها على الغذاء، أو وجودها في بيئة فقيرة، فهنا ستبدع البكتيريا وسنراها تنتج كثيرا من المواد المفيدة للبشر، التي لم تكن تنتجها في الحالة الطبيعية [21,28,39]. يمكننا القول إنه إذا أردنا الإبداع من البكتيريا فيجب وضعها تحت الضغط إذ إنها في هذه الحالة ستستنفد كل طاقتها وكل ما عندها من قدرات كيميائية وجينية لتحافظ على نفسها، وهذا يدخل ضمن خاصية حب البقاء عند البكتيريا، كما بيّنا سابقا.

ولا يقتصر استعمال البكتيريا على إنتاج هذه المواد الطبية، بل تستعمل هذه الجراثيم حاليا في محاربة التلوث (Bioremediation)، مثل التلوث الذي ينتج عند حدوث تلوث نفطي نتيجة غرق أو تحطم حاملة نفط، مع ما يستتبع ذلك من خطر على البيئة. أو تلوث بمادة كيميائية صناعية نظرا إلى انتشار هذا القطاع الصناعي، إذ كانت الطرق التقليدية للقضاء على هذا التلوث طرقا ميكانيكية بحتة، تقتضي محاولة جمع المادة الملوثة ومنع انتشارها في اليابسة أو البحر، وهذه الطرق البشرية غير مجدية، خصوصا عند تلوث البحر بالنفط ومشتقاته، إذ لا يستطيع أحد السيطرة على تمدد المادة الملوثة في العمق وعلى الشواطئ، والتاريخ الحديث حافل بمثل هذه الكوارث، وما سببته من مشكلات بيئية ضخمة لكثير من الدول. وهنا يأتي دور البكتيريا، التي باستطاعتها هضم كثير من المواد الملوثة، كالنفط ومشتقاته، من دون أي عناء منها، إذ إن كثيرا من المواد الملوثة تشكل - وبكل بساطة - مصدرا للطاقة والغذاء بالنسبة إلى البكتيريا مثل الفيول والبنزين وغيرهما، ومن المعلوم أن البكتيريا تحتوي على ٢٠٠٠ من التفاعلات الكيميائية، مما يمكنها من هضم وتحليل مجموعة ضخمة من المواد الكيميائية العضوية [40,41]. وبالتالي تكفي اضافة البكتيريا الخاصة إلى موقع التلوث، بعد تحديد نوع المادة الملوثة، وعندها ستقوم البكتيريا باستعمال المادة الملوثة كمصدر للطاقة، وتبدأ في النمو والتكاثر حتى التحلل الكامل للمادة الكيميائية الملوثة. إنه بكل بساطة استغلال إيجابي رائع للبكتيريا [41].

ونورد هنا أمثلة عن بعض المواد الكيميائية الملوثة التي يمكن للبكتيريا أن تحللها: وقود الديزل (Diesel fuels)، البنزين (Benzene)، زيوت المكابح (Brake fluids)، النفتلين (Naphtalene)، الكلوروفورم (Chloroform)، النفط الخام (Crude oils)، الزيوت الجارحة

(cutting oils)، الغازولين (Gazoline)، زيوت التدفئة (Heating oils)، الوقود النفاذ (Jet fuels)، زيوت المحركات (Motors oils)، مبيدات الاعشاب العضوية (Organic herbicides)، مبيدات الحشرات العضوية (Organic pesticides)، الزيوت النباتية (Vegetable oils)، المتفجرات (TNT)، مواد مشعة كالبلوتونيوم (Plutonium).

الاستغلال السلبي للبكتيريا: الإرهاب البيولوجي (Bioterrorism)

قنبلة الفقراء النووية (The poor man's atomic bomb)، هكذا سمى العلماء السلاح البيولوجي الذي يستخدم البكتيريا، رغم أن لا علاقة له بالأسلحة النووية. ولكن هذه التسمية جاءت لكون السلاح البيولوجي هو سلاح دمار شامل (Weapons of Mass Destruction) كما الأسلحة النووية[٤٢]. فالسلاح البيولوجي يتضمن الاستعمال المتعمد، بغية قتل الناس لمسببات المرض كالبكتيريا والفطريات والفيروسات والسموم الطبيعية التي تفرزها هذه الجراثيم. وتكمن الخطورة في القنابل البكتيرية بشكل خاص أنها في متناول الجميع، ولا يتطلب صنع هذه الأسلحة البكتيرية إلا مختبرا بسيطا ومعلومات يمتلكها اي شخص تعلم علم الجراثيم، ومن الصعب تخيل درجة الخطورة الناتجة عن استعمال السلاح البيولوجي. فالسلاح البيولوجي خطير جدا بسبب فاعليته المذهلة، التي تتمثل في بساطة تحضيره وثمنه الزهيد، ويكفي وزن كمية قليلة من البكتيريا أو الفيروسات أو السموم (Toxin) في قنبلة رخيصة الثمن، فعلى سبيل المثال ٢٢٥ جراما من سم بكتيريا بيتيولينيم (Clostridium botulinum) كافية لقتل جميع سكان المعمورة[٥٩،٤٤].

الجدير ذكره أن فكرة السلاح البيولوجي ليست حديثة، فمثلا استعمل الصليبيون جثث المصابين بالطاعون لمحاربة الأعداء، كما استعمل الطريقة نفسها جنكيز خان وقذف بالجثث المصابة بالطاعون على أسوار المدن التي حاصرها في أوروبا، وأدى ذلك إلى انتشار الطاعون بسبب هرب السكان في شرق البلاد وغربها، وتم القضاء على ٢٥ مليون شخص، أي ثلث سكان القارة الأوروبية في ذلك الزمان[٤٥،٢٦].

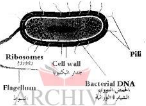
هناك خطورة كبيرة على البشرية جمعاء من الأسلحة البيولوجية المتوافرة في العديد من الدول، ذلك أنها تنتج من منشآت صغيرة، ويمكن إخفاؤها، كما أن تكلفتها المادية غير باهظة. والخوف هو إنتاج مواد بيولوجية أشد خطورة، فيمكن مثلا إنتاج مواد بيولوجية بحيث تؤثر في جنس من البشر دون الآخر. ولقد تغير مسار السلاح البيولوجي خلال السنوات العشرين الماضية بسبب تطور علم الجراثيم وعلم البيولوجيا الجزيئية، مما ينبئ بتزايد خطورة هذا السلاح وخروجه عن المسار التقليدي، خصوصا إذا لم تلتزم جميع الدول بالمعاهدات والاتفاقيات الموقعة عليها، وهذا ما هو حاصل في كثير من الدول. ومن أهم المعاهدات التي عقدت للبحث في موضوع السلاح البيولوجي معاهدة العاشر من أبريل ١٩٧٢ التي وقعت

عليها ١٥٨ دولة، والتي تمنع تطوير أو شراء أو تخزين ميكروبات من دون أي هدف طبي أو علاجي أو وقائي، لكن المشكلة - كما ذكرنا آنفا - تكمن في عدم الالتزام بهذه المعاهدة من قبل كثير من الدول (٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠).

خلاصة

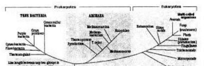
إن المتأمل في العناوين الواردة في هذا البحث قد يتفاجأ أو يستغرب لضخامتها بالنسبة إلى بحث يتناول كائنا حيا مجهريا هو البكتيريا، مثل الاقتصاد والإبداع والصراع ضد الموت ومقاومة المضادات الحيوية والبكتيريا مصانع متميزة، وغير ذلك من الموضوعات التي تعرضنا إليها، لكن قد يزول هذا الاستغراب عند القارئ نفسه عندما يدخل في تفاصيل البحث.

الجدير ذكره أنه لو نظرنا إلى الوراء - على مدى تاريخ العلم - لوجدنا أن هناك إهمالا في دراسة العديد من الكائنات الحية، مثل البكتيريا، لمجرد أنها لم تكن حيوانات راقية أو نباتات راقية، وهذا خطأ كبير، بعد أن رأينا القدرات الهائلة السلبية والإيجابية الموجودة في هذه الكائنات الحية. لذلك نرى أنه تجب إعادة النظر في إلقاء بعض التعابير على البكتيريا، كوصفها بالخلايا البدائية أو الخلايا الدنيا أو الأولية أو الكائنات غير الراقية، على أساس أنها ليست لديها نواة حقيقية، واعتبار أن الخلايا التي لديها نواة حقيقية - أي أن الكروموزومات عندها محاطة بغشاء - هي الخلايا العلوية والمتطورة. فليس وجود هذا الغشاء أو عدمه، في نظرنا، هو معيار التطور والرقي والتعقيد في الخلية، وما قدمناه في هذا البحث يثبت التعقيد الهائل الموجود عند البكتيريا. أليس تأقلم البكتيريا في المناخات القاسية وصراعها ضد الموت، وقدرتها العالية على هضم مواد ملوثة، وتحاورها في ما بينها بواسطة تبادل الجينات، ومقاومتها الشرسة للمضادات الحيوية (تلك المعركة التي لن نربحها أبد) واستمرار فتكها بالإنسان، وتميزها بالاقتصاد والتوفير من حيث تصنيعها للمواد عند الحاجة، أليس أقل ما يمكن أن يقال عن كائن حي مجهري، يتمتع بكل هذه الصفات، أنه ذكي؟



الشكل (١): هذا رسم للبكتيريا ويظهر المواد التي تتألف منها:

- السوط المسؤول عن حركة البكتيريا
- جدار البكتيريا ووظيفته حماية البكتيريا وإعطاؤها الشكل المناسب
- الريبوزومات ووظيفتها ترجمة الشفرة الوراثية (DNA) إلى بروتينات
- الشعيرات الموجودة على سطح البكتيريا (Pili) ولها وظيفتان: الوظيفة الأولى هي التصاق البكتيريا على الأنسجة في جسم الإنسان، والوظيفة الثانية هي تبادل المورثات بين البكتيريات.



الشكل (٢): يظهر هذا الرسم شجرة الحياة. كل الكائنات الحية موجودة في هذه الشجرة، صممها العالم كارل ويز Carl Woese على أساس علمي، وهو دراسة التتابع للمورثة S rRNA ١٦، ويظهر جليا أن الكائنات الحية مجتمعة تنقسم إلى ثلاثة أقسام، وأن اثنين من هذه الأقسام هما للبكتيريا وحدها وبقية الكائنات الحية كلها في مجموعة أخرى:

١- البكتيريا الحقيقية (True Bacteria, Eubacteria).
٢- الأركيابكتيريا (Archaea)، وهي البكتيريا التي تعيش في ظروف قاسية.
٣- الأيوكريا، وتضم هذه المجموعة بقية الكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات وفطريات وطحالب وطفيليات.



بيان نمو البكتيريا (زيادة عدد البكتيريا) مع الوقت

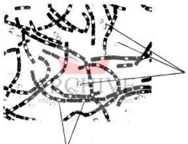
الشكل ٣. يظهر هذا الرسم المراحل الأربعة التي تمر بها البكتيريا

(١) مرحلة التأخر (Lag phase): وهي مرحلة التأقلم والتحضير.

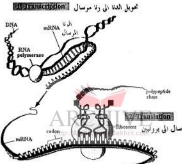
(٢) مرحلة النمو التصاعدي (Exponential growth phase): هي مرحلة التكاثر القصوى، حيث كل الظروف الغذائية مؤاتية، خصوصا بعد أن أنتجت البكتيريا ما يلزمها للتكاثر خلال مرحلة التأقلم.

(٣) مرحلة النمو الثابتة (Stationary growth phase): هنا يبدأ الغذاء ينقص والفضلات تتراكم. لكن في هذه المرحلة تبدأ البكتيريا في الإبداع واستغلال أقصى ما عندها.

(٤) مرحلة الموت (Death phase): هذه مرحلة الصراع ضد الموت.



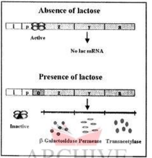
الشكل (٤): هذه الصورة تظهر بكتيريا تسمى بسيللوس إنتراسيس (Bacillus anthracis) المسؤولة عن مرض الجمرة الخبيثة. وهذه البكتيريا تستطيع أن تتحول إلى أشكال مقاومة تسمى الأبواغ (Spores)، التي تستطيع أن تبقى لملايين السنين. وتتحول البكتيريا إلى أبواغ في ظروف بيئية صعبة فقط.



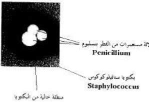
Protein synthesis

انتاج البروتينات داخل البكتريا

الشكل (٥): هذه الصورة توضح عملية إنتاج البروتينات داخل البكتيريا. المرحلة الأولى تسمى Transcription، تبدأ هذه العملية بتحويل الشفرة الموجودة على الدنا إلى شفرة أخرى موجودة على الرنا المرسال (messengerRNA, mRNA)، الذي يعتبر وسيطا أو رسولا بين الشفرة الوراثية الأم والريبوزومات (Ribosomes)، وهي الأجهزة التي تترجم الرنا المرسال إلى بروتينات (Translation).

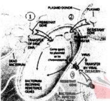


الشكل (٦) Operon lactose: هذا الرسم يوضح عملية الاقتصاد عند البكتيريا، والمثال هنا هو لإنتاج الإنزيمات التي تهضم سكر اللاكتوز. حيث إنه في حال عدم وجود اللاكتوز (أعلى الصورة) لا تنتج البكتيريا هذه الإنزيمات، أما عند وجود اللاكتوز (أسفل الصورة) فإن البكتيريا تنتج الإنزيمات اللازمة لهضمه.



الشكل (٧): هذا الرسم يبين كيفية اكتشاف فليمنج (Fleming) للمضادات الحيوية. تظهر هذه الصورة البيئة التي تنمو فيها البكتيريا، وفي وسط البيئة نرى نمو مستعمرات الفطر المعروف باسم بنسليوم

(Penicillium)، ونرى أيضا كيف أن مستعمرات البكتيريا قد نمت فقط بعيدا عن الفطر، حيث إن الفطر أفرز المضاد الحيوي وقتل البكتيريا المحيطة به، مما أوجد هذه الدائرة الخالية من البكتيريا المحيطة بالفطر، وتسمى منطقة التثبيط (Inhibition zone).



الشكل (8): هذا الرسم يوضح الطرق الثلاث للتحاور الجيني بين البكتيريا:

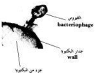
- الطريقة الأولى تسمى transformation، وهي عندما تلتقط البكتيريا الحية، التي في وسط الرسم، قطعا من الشفرة الوراثية من بكتيريا أخرى ميتة.

- الطريقة الثانية تسمى conjugation، حيث تتصل خليتان بكتيريتان إحداهما بالأخرى مباشرة عن طريق قناة تعبر من خلالها الشفرة الوراثية من بكتيريا إلى أخرى.

- الطريقة الثالثة تسمى transduction، حيث تتواصل البكتيريات بواسطة فيروس وسيط يسمى bacteriophage، وينقل بعض الجينات من بكتيريا إلى أخرى.



الشكل (9): هذه الصورة الحقيقية الملتقطة بواسطة الميكروسكوب الإلكتروني تظهر بشكل رائع عملية التحاور أو التبادل الجيني بين البكتيريا، وتظهر بوضوح كيف أن البكتيريا (التي في أسفل الصورة) قد مدت قناة طويلة لتلصقها على بكتيريا أخرى (في أعلى الصورة) لتعبر الشفرة الوراثية عبر هذه القناة من بكتيريا إلى أخرى. وهذا التحاور الجيني هو سبب تغير البكتيريا من حيث تأقلمها السريع، ومن حيث اكتسابها صفات جديدة كمقاومة المضادات الحيوية.



الشكل (١٠): هذه الصورة تظهر الفيروس آكل البكتيريا (Bacteriophage) لحظة التصاقه بها، وهذا الفيروس ينقل الشفرة الوراثية بين البكتيريات.



الشكل (١١): هذا الرسم يوضح كيفية استعمال البكتيريا كمصانع، حيث تنتج البكتيريا مواد كيميائية بشرية مثل الهرمونات والإنزيمات وغيرها. وتقتضي هذه الطريقة استئصال الجين أو المورث - الذي نريد ترجمته - من أي خلية بشرية ثم إدخاله إلى داخل البكتيريا بواسطة البلازميدات. فتترجمه البكتيريا وتنتجه بطريقة نقية وبكمية كبيرة.

عالم الفكر
العدد 1 المجلد 37 يوليو - سبتمبر 2008

الديكور والأزياء بين عناصر السينوجرافيا المسرحية

د. جمال أحمد عبدالرحمن عجوز (*)

مقدمة

فن المسرح هو فن مركب يقوم على تضافر العديد من الفنون الأخرى، مثل الإخراج والتمثيل والموسيقى والغناء والفنون التشكيلية، بحيث يصبح من الصعوبة بمكان - عند الحديث عن أي فن منها - أن نفصل الحديث عن بقية الفنون الأخرى، فعلى الرغم من أن كلا منها يحمل أهميته الخاصة بالنظر إلى ما يقدمه من إسهامات ومقدرات فنية وتعبيرية مميزة.

إلا أنه يسهم في إكمال الصورة النهائية للعمل المسرحي ككل. فعلى خشبة المسرح يرتبط الأداء التمثيلي بالعناصر البصرية مثل الديكور والملابس ومكملاتهما في تناغم، وترتبط تلك العناصر بالإضاءة لخلق التأثير البصري النهائي الذي يدور فيه العمل.

ومنذ أن نشأ فن المسرح كانت عملية تصميم المناظر تحمل أهمية قصوى بين عناصره، على الرغم من أنها لم تكن تعتبر فنا له مقوماته ومعاييره واتجاهاته بمثل ما هي عليه الآن، فالفن المسرحي قد «اعتمد في بدايته على إبداع المؤلف والممثل، وخلال مراحل تطوره أضيفت إليه إبداعات أخرى، كإبداع المخرج وفنان السينوجرافيا»[1]، ذلك الفنان الذي كان في محاولات بحث دائمة عن أشكال جديدة أساسها العلاقة بين الممثل والمتفرج، بهدف تأكيد روح الوحدة. ومما لاشك فيه أن هناك ثورة تكنولوجية قد لحقت بآلية المسرح، ويعد ذلك من أبرز معالم الإبداع المسرحي في القرن العشرين، التي يرى البعض أنها من أهم الدوافع وراء

(*) أستاذ مساعد ورئيس شعبة الفنون التعبيرية بقسم الديكور - كلية الفنون الجميلة - جامعة المنيا - مصر.

ظهور وترسخ مفاهيم فن السينوجرافيا المسرحية، والتي طورها فنانون من أمثال مصمم المناظر التشيكي جوزيف سفوبودا Josef Suvoboda [2].

ويمثل كل من الديكور والأزياء، من بين عناصر فن السينوجرافيا، العنصرين الأساسيين في عملية التصميم البصري على خشبة المسرح، تلك العملية التي يرى البعض أنها «تمثل أحد أضلاع مثلث يحتل كل من فن التمثيل وفن الإضاءة المسرحية ضلعيه الآخرين، بينما يحتل الممثل النقطة المحورية التي يدور حولها ذلك المثلث» [3]، ومن هنا يأتي موضوع الدراسة.

مشكلة البحث

تنصب معظم الدراسات المرتبطة بفن المسرح على الجوانب الأدبية، وبعض الجوانب الفنية مثل التمثيل والإخراج، من دون تناول غيرها من عناصر الصورة البصرية - ومنها الديكور والأزياء - بما لها من أهمية في العمل المسرحي تتضاعف في ظل توجه المسرح المعاصر إلى إقلال الاعتماد على الحوار واللغة المكتوبة، لتصبح العناصر البصرية هي العامل الرئيسي في عروض تلك الاتجاهات.

أهداف البحث

١ - إلقاء الضوء على دور كل من الديكور والأزياء، بما يشملانه من عناصر أخرى في العمل المسرحي.

٢ - الوقوف على ما وصلت إليه أساليب واتجاهات المسرح المعاصر في مجال توظيف الديكور والأزياء في الصورة البصرية للعرض المسرحي.

٣ - دراسة العلاقة بين كل من الديكور والأزياء وبقية العناصر البصرية وغير البصرية كالتمثيل والإخراج.

٤ - تأكيد أهمية اللغة البصرية المسرحية التي يضطلع بها الديكور والأزياء في تفسير روح النص وخلق الحالة النفسية المناسبة لدى الجمهور.

٥ - تأكيد وحدة عناصر العمل المسرحي.

حدود البحث

يركز الباحث على دور الديكور والأزياء في الصورة المسرحية منذ بداية ظهور فن السينوجرافيا كفن له أصوله في النصف الأول من القرن العشرين، مسترشدا بكل أنواع العروض المسرحية، مثل عروض الأوبرا والباليه وعروض المسرح التقليدية والمسرح الأسود، وغيرها من العروض التي شهدها النصف الثاني من القرن الماضي.

منهج البحث

يتبع الباحث منهجا تسجيليا وتحليليا ينحو إلى المقارنة أحيانا، داعما ما توصل إليه بالصورة الموضحة، ومصادره في ذلك تنوعت ما بين المؤلفات والتراجم والدوريات والمعاجم وبعض المواقع على شبكة الإنترنت.

دور الديكور في الصورة المسرحية

يعتبر كثيرون من المسرحيين أن الديكور هو أهم العناصر البصرية في المسرح إلى حد التأثير المباشر في العناصر الأخرى، فيقول البعض إن الديكور المسرحي «قد شهد ثورة كبيرة أدت إلى تغيير كامل وإصلاح شامل في عملية الإخراج في المسرح، فكما هي الحال بالنسبة إلى الملابس والموسيقى والأصوات، فإن عناصر الديكور تعتبر إشارات ورموزا حافلة بالمعاني ثرية بالدلالات، أسوة بالعناصر اللغوية» [٤].

والديكور المسرحي - كما يشير إليه البعض - «هو الحيز التشكيلي الذي يحيا فيه النص الدرامي، والذي يساعد الممثل على التعايش مع العمل في الجو المناسب» [٥]. ويضيف جاك روشيه Jacques Rouch إلى ذلك «أن دور الديكور المسرحي لا يتوقف عند مجرد كونه إطارا للقصة، إنما يجب أن يتعدى ذلك ليكون عنصرا من عناصر التمثيل وجزءا مكملا له، وعلى نسق الفعل المسرحي الذي من شأن الديكور أن يبرزه ويصوره» [٦].

ويحمل الديكور المسرحي أهمية خاصة من الناحيتين الوظيفية والجمالية، فهو المشير مباشرة إلى المكان والزمان، والمترجم للحالة النفسية التي يجري عليها الموقف والحدث، وينسحب ذلك على جميع أشكال العروض المسرحية، سواء كانت عروضا للمأساة أو للملهاة أو للرقص، وأيا كانت نوعية الخشبة الحاضنة للعرض، يضاف إلى ذلك أنه المحدد لأبعاد الفراغ المادي والموحي بالفراغ الوهمي غير المادي اللذين تجري فيهما الأحداث. ويذهب البعض إلى حد اعتبار أن غياب الديكور في بعض العروض هو أيضا كوجـــوده تماما، غياب له مغزاه. غير أن أدق تعريف لوظائف الديكور في المسرح الحديث، قد ذكرها وولتر رينـــيه فورســت W. R. FUERST [٧] وحددها في النقاط التالية:

١ - خلق المجال الملائم للأشخاص والأحداث زمانيا ومكانيا.

٢ - خلق الجو النفسي، أي تفسير روح الحدث بصريا عن طريق العلاقات الخطية واللونية، وبالتعاون مع عنصر الإضاءة.

٣ - خلق الوحدة المسرحية بين الممثل والمجال المحيط به، أي ربط الممثل بمجموع العناصر المسرحية المحيطة به.

الديكور... والمكان والزمان

وفي ما يتعلق بالنقطة الأولى، وبالنظر إلى الشكل «١»، كما في كثير من الأشكال في هذه الدراسة، فإن الديكور يحدد ماهية المكان وطبيعته، وينقلنا في الزمان مباشرة إلى



الشكل (١): بالإضافة إلى أن الديكور يشير إلى ماهية المكان والزمان اللذين يدور فيهما الحدث، ويخلق البيئة الملائمة حول الممثل في هذا النموذج، فهو يحدد أبعادا مادية محسوسة بالنسبة إلى المتفرج. والمشهد من أوبرا تيتوس Titus، لفولفجانج موتسارت W. Mozart، والمناظر للمصمم هينريش فيندل H. Wendel.

العصر الذي يجري فيه الحدث. ففي ما يتعلق بالمكان، وكما يلاحظ فإن الديكور إلى جانب تحديده لماهية المكان، فإنه يحدد أيضا أبعادا مادية محسوسة للفراغ الذي تجري فيه الأحداث، غير أنه في بعض العروض المسرحية قد تجري الأحداث خارج نطاق المكان والزمان، ككثير من عروض المسرح التقليدية (الشكل ٢)، أو عروض المسرح الأسود، كما في الشكل «٣»، أو في كثير من الأشكال التجريبية المعاصرة. فهنا تظهر وظيفة الديكور - إلى جانب الإضاءة - في تحديد الفراغ بأبعاده الوهمية التي تتخلق في ذهن المتفرج وتثير انفعالاته خلال عرض المسرحية، ويحدونا ذلك إلى التعرض لمفهوم الفراغ في المسرح لبيان دور الديكور في تحديده.

فمفهوم الفراغ في المسرح بشكل عام غير محدد، حيث يمكن أن يعني محتوى البناء، أو منطقة التمثيل، أو الفراغ الظاهر للجمهور، أو ذلك الذي يخطر بذهن الجمهور خلال اللحظات المختلفة من العرض، غير أن البعض يشير إليه في أشكال ثلاثة يوجزها الباحث في ما يلي:



الشكل (٢): الديكور ينقلنا خارج نطاق المكان والزمان عندما ينأى العمل عن الواقعية بخلق أبعاد افتراضية أمام المتفرج، لا علاقة لها بالأبعاد الحقيقية لفراغ خشبة المسرح، والمشهد من أوبرا «غسق الآلهة»، والمناظر للمصمم جونتر شنايدر G. Schneider، سالزبورغ ١٩٧٠.

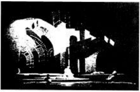
- **أولها**: الفراغ المسرحي، وهو ظاهر ومحسوس أمام الجمهور، ويشمل فراغ الخشبة بأبعاده الحقيقية، بما عليها من ممثلين وديكور وعناصر العرض الأخرى.

- **وثانيها**: الفراغ التمثيلي، وهو الفراغ الذي يشغله الممثلون بحركاتهم في أثناء المسرحية، وللديكور دور أساسي في تحديد أبعاده، وكثيرا ما يتداخل هذا النوع مع النوع الأول عندما تشغل حركة الممثلين كل أرجاء فراغ الخشبة (الشكل ٤).

- **وثالثها**: الفراغ الدرامي، وهو فراغ افتراضي - وهمي - من صنع الذهن، لا صلة له بالفراغ المادي الفعلي للخشبة أو بأبعاد الديكور الحقيقية، إنما هو نوع من الإيهام يضطلع به كل من الديكور والإضاءة [٨]، كما في الشكل «٥» وكثير من أشكال الدراسة.



الشكل (٣): مثال آخر للعمل خارج نطاق المكان والزمان. الفراغ المسرحي في عروض المسرح الأسود يعتمد على الإيهام بفراغ ممتد لا نهائي. والمشهد من عرض The Best of Image من المسرح الأسود، لمصمم المناظر لاديسلاف فيكوديل L. Vykodil، ١٩٩٧.



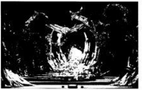
الشكل (٤): الفراغ التمثيلي كثيرا ما يختلط بالفراغ المسرحي، فمنطقة التمثيل في هذا النموذج غير محددة الأبعاد، بل من الممكن أن تمتد لتشمل المنصة بأكملها، والمشهد من أوبرا «تتويج بوبيه» لكلوديو مونتفيردي C. Monteverdi، والمناظر للمصمم هينريش فيندل H. Wendel.



الشكل (٥): الفراغ الدرامي هو نوع من الإيهام الذهني بفراغ لا صلة له بأبعاد فراغ الخشبة، وقد يكون إيهاما بفراغ أكبر أو أقل من الفراغ الحقيقي للخشبة، وفي هذا النموذج، ككثير من النماذج، في هذه الدراسة، فإن التضافر بين الديكور والإضاءة هو المسؤول الأول عن الإيهام بهذا النوع من الفراغ، والمشهد من أوبرا «غسق الآلهة» للمصمم جونتر شنايدر G. Schneider، سالزبورج ١٩٧٠.



الشكل (٦): العمل خارج نطاق الزمان أيضا من المهمات التي يضطلع بها الديكور في بعض الأعمال ذات الطابع الخيالي، والمشهد من عرض آخر لأوبرا غسق الآلهة للمصمم فيلاند فاجنر W. Wagner، بايرويت، ١٩٦٥.



الشكل (٧): على الرغم من أن الديكور يحدد أبعادا للمكان يمكن إدراكها، لكن العمل يبقى خارج نطاق الزمان في هذا الجو ذي الصبغة الميتافيزيقية، والمشهد من أوبرا «امرأة بلا ظل»، والتصميم لروبرت أوهيرن R.Oheam، نيويورك، ١٩٦٦.

الديكور كقيمة تشكيلية

أما في ما يتعلق بالوظيفة الثانية، فإنها من الممكن أن تجعل من الديكور أداة في يد المخرج ليستخدمها في العمل المسرحي، فإذا كان الديكور جزءا من الموقف أو الحدث، فإن له دورا فاعلا في عملية الإخراج بحد ذاتها، وبتمثله عنصرا من عناصر اللغة المسرحية لها دلالاتها في تفسير الكلمات تفسيرا بصريا محسوسا، فإن بإمكان المخرج أن يستخدم خطوطه وألوانه في توجيه أنظار الجمهور إلى ما يسمى في اللغة المسرحية بالتركيز البؤري (انظر الأشكال ٨ و ٩ و١٠). والتكوين البصري المسرحي ليس ساكنا، بل هو ترتيب متغير دائما للأشكال يتميز بمركز متحرك باستمرار لبؤرة الاهتمام، والديكور بما فيه من خطوط وألوان من العناصر التي يمكن للمخرج أن يستخدمها لتوجيه أنظار المشاهدين إلى ما يريد.

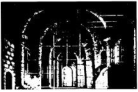
والمعنى المرتبط بالأشكال في التكوين البصري على خشبة المسرح هو في نهاية الأمر تفسير بصري لأفكار النص التي يوردها الكاتب [٩]، لذا فإن لغة الديكور دائما أكثر شمولية من



الشكل (٨): اللون في الديكور - وباستخدام الإضاءة - يمكن استخدامه لتوجيه بؤرة اهتمام الجمهور. والمشهد من أوبرا المرأة بلا ظل لريتشارد شتراوس، والمناظر للمصمم جونتر شنايدر، سالزبورغ، ١٩٧٤.



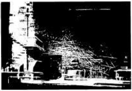
الشكل (٩): وخطوط الديكور أيضا يمكن أن تخلق مركزا للاهتمام حول الممثل - أو غيره من عناصر - كما أنها تخلق حركة بصرية داخل التكوين. والمشهد من مسرحية إفيجينيا وتوريس.



الشكل (١٠): مثال آخر لاستخدام خطوط الديكور في توجيه أنظار الجمهور. إن تكرارية الخطوط والأشكال المتماثلة تخلق حركة وهمية توجه النظر إلى منطقة منتصف الخلفية. والمشهد من أوبرا «دون كارلوس» للمصمم والمخرج جان بير بونيل J. P. Ponnelle، ميلانو، ١٩٦٨.



الشكل (١١): خطوط التكوين البصري هي تفسير لرؤية الكاتب. والخطوط الرأسية المسيطرة في هذا الشكل توحي بالقوة والمشقة. والمشهد من أوبرا «بارسيفال» Parsifal للمصمم والمخرج ريتشارد فاجنر R. Wagner.



الشكل (١٢): المشهد تسيطر عليه الخطوط الحادة المتصادمة. والمشهد من مسرحية «الجسر» لآرثر ميللر A.Miller، والمصمم لاديسلاف فيكوديل L. Vychodil.

الكلام. والمصمم المسرحي في تعبيره الدرامي يستخدم الديكور - ضمن بقية العناصر الأخرى - لتحقيق غايته في الوصول إلى هدف فني محدد، ويستخدم في عملية التصميم تلك، وبشكل تلقائي، قواعد فنية متأصلة ومبادئ أساسية للتصميم، هي ذاتها المستخدمة في كل الفنون البصرية (انظر الشكلين ١١و١٢)، تلك المبادئ التي تشكل القواعد الأساسية البناءة لشكل التصميم النهائي. فملاءمة الشكل البصري للتصميم للوظيفة المحددة له داخل فراغ المسرح، تأتي من فهم للعلاقات المتبادلة بين عناصر التصميم وقواعد التكوين نفسها التي يستخدمها الرسام أو المصور، غير أنها في المسرح عملية تنظيم لتلك العناصر داخل فراغ ثلاثي الأبعاد في شكل موحد له دلالته. فالخطوط في التكوين تخلق إحساسا بالاتجاهية، وفي هذه الحالة تصبح جزءا من الحركة المتولدة داخل التكوين، غير أن ترتيبا ما لأشكال خطية عديدة في التكوين لا تخلق اتجاهية فقط، بل إنها أيضا تخلق حالة من التفاعل تجاه بعضها البعض، سواء بالتعارض (الصدام) أو بالانسجام، ومن ثم فإنها تخلق الحالة النفسية والجو العام اللذين يهدف إليهما النص. ويمكننا أن نلاحظ في الشكلين «٩» و«١٠» مثلا ترتيبا بصريا يتسم بالانسجام، على الرغم من اختلاف نوعيات الخطوط الداخلة في التكوين لكل منها، بعكس الترتيب الموضح بالشكلين «١٠» و«١٢»، الذي يتسم بحالة من الصدام تخلقه مجموعة من الخطوط الحادة المتشابكة.



الشكل (١٣): إلى جانب مقدرة اللون على خلق وتأكيد حالة نفسية، فإن له القدرة على تأكيد صفة ثلاثية الأبعاد للفراغ، والإيهام بفراغ افتراضي غير مادي. والمشهد من أوبرا امرأة بلا ظل والمناظر للينهوف Lenehoff، ستوكهولم، ١٩٧٥.

واللون في الديكور من شأنه - بصريا - أن يتدخل في أبعاد الشكل، كذلك في أبعاد المساحات الفاصلة بين الأشكال، وأن يعكس ويعدل اتجاه الخط، ومن ثم اتجاهية الحركة، لذا فإن للون القدرة على خلق حركة بصرية داخل التكوين، وتأكيد وتعديل مقاييس الفراغ ثلاثي البعاد. وللألوان القدرة على خلقها وتأكيد الحالة النفسية والجو العام للموضوع، وتوجيه اهتمام المتفرج إلى مناطق محددة وفق ما يريد المخرج (الشكل ١٣).

«والثراء في المناخ التشكيلي للعرض المسرحي، في القرن الماضي، نتج في الأساس من ارتباط الصورة المرئية بالاتجاهات التشكيلية الحديثة والمعاصرة، كالوحشية والتكعيبية

والتعبيرية والسيريالية وغيرها»[١٠]، وعروض الباليه خير مثال على ذلك، «ففيها ارتفعت أهمية الفنون التشكيلية في الفراغ المسرحي حتى أصبحت تعادل في أهميتها الموسيقى والأداء الحركي نفسه، حين استطاع ذلك الفن أن يجتذب كبار الفنانين التشكيليين العالميين، من أمثال مارك شاجال M. Shagal وسلفادور دالي S. Dali وجوان ميرو J. Miro ودي كيريكو G. de Chirico وبابلو بيكاسو P. Picasso وآندريه ديران A. Derain وفرنان ليجيه F. Leger وغيرهم، بأساليبهم الفنية المستحدثة في القرن الماضي، حيث اعتمد فن الباليه آنذاك على المناظر والخلفيات التي صممها هؤلاء المصورون»[١١] (انظر الشكلين ١٤ و ١٥). وقد خضعت الملابس أيضا لذلك التوجه «فكان هؤلاء ينظرون إلى جسم الراقص بملابس الشخصيات المقدمة على أنه شكل يتحرك في الفراغ (الشكل ١٦)، يتناغم مع الملامح العامة للمناظر، وفي تلك العروض يتلاحم كل من الديكور والملابس والأداء الحركي لتشكل معا نسيجا دراميا متماسكا»[١٢] (الشكل ١٧).



الشكل (١٤): خلفية لباليه من عمل المصور الروسي مارك شاجال، ويلاحظ أسلوبه الفني المميز، والمشهد من باليه «طائر النار» Firebird لفرقة باليه نيويورك، عام ١٩٤٩.



الشكل (١٥): الطابع السيريالي يسيطر على هذا المنظر من عمل المصور إسباني سلفادور دالي، والمشهد من باليه «تريستان المجنون» Tristan Fou الذي عرض في نيويورك عام ١٩٤٤.

وإذا كانت المذاهب الفنية التشكيلية الحديثة قد أكدت على لغة الشكل إلى جانب المضمون، فقد تأكد ذلك في الفراغ المسرحي الذي لعبت القيم التشكيلية دورا كبيرا في صياغته.

وقد حرص هؤلاء الفنانون على أن ينسجم المذهب التشكيلي مع اتجاه الكاتب في النص المسرحي وأسلوب الإخراج، بما يشكل وحدة فنية متكاملة شكلا ومضمونا. وعلى ذلك فقد أصبح من مقومات نجاح العمل أن يتماشى الديكور مع جميع عناصر التعبير والتشكيل المصاحبة، من إضاءة وملابس وموسيقى وأداء، بحيث يخرج العرض مفسرا لروح النص.

الديكور والممثل

وفي ما يتعلق بالوظيفة الثالثة، وكما يتضح من الشكل «١٨»، سوف نجد أن عناصر الديكور، بتعاون وثيق مع الإضاءة، قد أوجدت ما يسمى بالوحدة (Unity) بين الممثلين والعناصر المسرحية الأخرى في «بيئة» مسرحية ملائمة بصريا للجو الدرامي للمشهد، وذلك بخلق عمق فراغي حقيقي حول مجموع الممثلين.



الشكل (١٦): خضعت الأزياء للرؤية نفسها في المعالجة البصرية لخلفيات الباليه والصورة، إذ تخضع لمفهوم التكعيبية من باليه «الاستعراضي» من تصميم المصور الإسباني بابلو بيكاسو، عام ١٩١٧.



الشكل (١٧): الراقصون والخلفية يمتزجون في كلٍّ عضوي واحد. في عمل للمصمم الروسي سيمون فرسالاجي S.Virsaladze، والمشهد من باليه الزهرة الحجرية The Stone Flower، الذي عرضته فرقة البولشوي الروسية في موسكو عام ١٩٥٩.

والديكور المسرحي شديد الارتباط بالإضاءة، بسبب دورها المؤثر في صياغة التأثير البصري النهائي للصورة المسرحية. غير أن ارتباط الديكور بالإضاءة لا يتوقف عند تلك العلاقة فقط، بل يتعداها إلى ما هو أعمق، فالتجديدات الجوهرية التي أنجزها فن المسرح المعاصر، وبراعته في استعمال الإضاءة والإظلام، إلى جانب أنها أبرزت الحضور المادي للممثل على المنصة، «فإنها قلبت المفاهيم المتعلقة بالديكور والملابس وفن التنكر (الماكياج)، بل وفن الممثل، بما يشمله من حركات وإيماءات»[٢٣].



الشكل (١٨): الديكور يخلق البيئة المسرحية الملائمة للممثل. وكما في الشكل السابق، فإن عناصر المشهد تمتزج معا لتخلق ما يسمى بالوحدة Unity، والمشهد من أوبرا فيديليو «Fidelio» لبيتهوفن، والمناظر لربيرت Rennert، سالزبورج، عام ١٩٧٤.

فإلي جانب الوظائف التقليدية للإضاءة فإنها من الممكن أن تكون جزءا من الديكور، أو أن تكون هي الديكور نفسه، فالضوء على المنصة من الممكن أن يكون جزءا من التكوين في الصورة الدرامية، ويظهر ذلك بقوة في أعمال التشيكي سفوبودا Suvoboda (الشكل ١٩)، الذي كان أول من أخذ ذلك التوجه، وبالإضافة إلى ذلك فإن بعض فناني المسرح يلجأون إلى استخدام تقنية العرض الضوئي Lighting Projection، أو ما يسميه البعض «المنظر المعروض ضوئيا Projected Scenery»[٢٤] لبناء المناظر المسرحية، في شكل ديكور معروض ضوئيا بكامله أو أجزاء منه (الشكلان ٢٠ و٢١)، وهي تقنية ساهمت في تطوير فن بناء المناظر، لتصبح وسيلة من وسائل التعبير الأولى في العروض المسرحية.



الشكل (١٩): الضوء جزء من التكوين البصري في عمل لمصمم المناظر التشيكي جوزيف سفوبودا، من عرض لنوع من الدراما يقوم على الفولكلور التشيكي، وقد عرض بالمسرح القومي ببراج عام ١٩٦٩، ويرى فيض الأضواء المتتالية على مستويات الديكور.

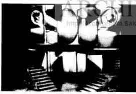
دور الأزياء في الصورة المسرحية

للأزياء دور بالغ الأهمية دائما في المسرح، منذ نشأته وحتى اليوم، ويرجع ذلك بالتأكيد إلى أنها العنصر البصري الأول في التعبير عن الشخصية في العمل الدرامي، لا يضارعها في ذلك عنصر آخر. فهي كما يراها البعض «ليست نوعا من الزخرفة الإضافية للعمل، بل هي جزء من الديكور بوصفها عناصر حية لها دلالتها في دعم أداء الممثل في أثناء تقمصه الشخصية»[١٥].



الشكل (٢٠): تقنية الشاشات المتعددة للعرض الضوئي التي يعتمد عليها الديكور بالكامل في عمل للفنان التشيكي جوزيف سفوبودا من مسرحية «الرحلة» The Journey، التي عرضت عام ١٩٧١، وكل شاشة منها لها جهاز خاص لعرض الشرائح.

«وإذا كان للفنان المصور أو الشاعر أو الموسيقي كامل الحرية في التعبير عن موضوع اللوحة أو القصيدة فإن الأمر يختلف بالنسبة إلى مصمم الأزياء، لأن الممثل عندما يقدم شخصية ما على خشبة المسرح، فإن عناصر مثل الأزياء والماكياج، لا يمكن إلا أن تدعم مظهره وهيئته وصوته وحركته»[١٦]. فالزي هو أول ما يشير إلى هوية الشخصية ثم إلى مركزها ومرتبتها بين بقية الشخصيات، كما أن من شأنه أن ينقلنا عبر الزمان، ويتجلى ذلك بقوة في الأعمال التاريخية، ذلك أن تحديد الفترة التاريخية التي يتناولها العمل المسرحي يبنى عليه تحديد نوع وطراز ملابس تلك الفترة تحديدا دقيقا، لتضفي على العمل صفة المصداقية وتضيف إليه الجو المناسب، وإلى جانب ذلك فإن الملابس تحمل جانبا بصريا مهما يدخل في التركيبة التشكيلية للعمل ككل، مهما اختلفت نوعية العرض واتجاه المخرج (انظر الشكل ٢٢).



الشكل (٢١): العرض الضوئي المكمل للديكور في مسرحية «أنا والبرت» I & Albert التي عرضت على مسرح بيكاديللي بلندن عام ١٩٧٤، والمنظر من تصميم لوشيانا أريدجي L. Arrighi.

وتؤدي الملابس دورا مهما في التعبير عن الحدث والموقف، فهي «تسهم في خلق الشخصية، التي تبدأ في التشكل والتعبير عن نفسها بمجرد ظهورها على المنصة، وحتى قبل أن تتحرك أو تتحدث، وذلك عن طريق وجودها المادي، وما ترتدي من ملابس» (الشكل ٢٣) [١٧]. فعندما يخطو الممثل فوق خشبة المسرح لأول وهلة، يكتسب المشاهد انطباعا أوليا عن الشخصية التي يمثلها، حتى قبل أن ينطق بكلمة واحدة، وذلك من الطريقة التي يرتدي بها ثيابه التي يبدو عليها مظهره، ومن الأهمية أن يكون ذلك الانطباع الأولي هو الانطباع الصحيح الذي يريد المصمم أن ينقله إلى المتفرج، فالزي يجب أن ينقل إليه المعلومات الكافية عن الشخصية التي يؤديها الممثل، كالفترة الزمنية التي تعيش فيها وسنها ومهنتها ومركزها الاجتماعي، وكذلك عن الجو العام الذي تجري فيه الأحداث.





الشكل (٢٣): تطورت الأزياء مع تطور الاتجاهات الفنية المسرحية، وخضعت للرؤى والمعالجات نفسها كبقية العناصر البصرية.
أعلى: نموذجان من الملابس المسرحية من القرن السابع عشر.
أسفل: مشهد من عرض Fancy وهو من عروض المسرح الأسود، وتصميم الأزياء لإيفا أستروفا E.Asterova وسونا بينسوفا S.Benesova وعرض عام ١٩٩٢.

فعن الشخصية المسرحية يقول المخرج النرويجي هنريك إبسن H.Ibsen إن كل شيء في الوجود له أبعاد ثلاثة، إلا أن الكائنات البشرية لها أبعاد إضافية أخرى هي: كيانها الفسيولوجي (المادي أو العضوي)، وكيانها السوسيولوجي (الاجتماعي)، وكيانها السيكولوجي (النفسي) [١٨]. والزي المسرحي هو أول ما يعبر عن تلك الأبعاد.

والأزياء بوصفها أحد العناصر البصرية - شأنها شأن الديكور - فقد خضعت للتطوير وفقا لتطور اتجاهات المسرح، ونالها ما نال الديكور من تطور في الأساليب والمعالجات. لهذا

كان لزاما أن يعمل مصمم الأزياء في المسرح الحديث جنبا إلى جنب مع كل من مصمم الديكور والمخرج. فعمل مصمم الأزياء هو أيضا عمل تفسيري وتوضيحي للفكرة التي يقوم عليها موضوع المسرحية، ولا يمكنه إلى جانب ذلك أن يغفل صفات الممثل الجثمانية والنفسية في أثناء تصميم الزي، «فكما أن الممثل يصبح بين يدي المخرج كالصلصال بين يدي المثال، فإنه كذلك أيضا بين يدي مصمم الأزياء، الذي يمكن أن يحوره ويبدل فيه ويجعل منه مخلوقا له خياله، وليس مجرد دمية لعرض الزي» (١٩). ذلك أهم ما يميز مهمة مصمم الزي للدراما.



الشكل (٢٣): الزي هو أول ما يعبر عن الشخصية على المسرح بخطوطه وألوانه وطرازه، والنموذج أعلاه لشخصية الملك في إنتاج لمسرحية هاملت لوليم شكسبير.

والزي المسرحي سوف ينتمي إلى واحد من أشكال ثلاثة يمكن إيجازها في ما يلي:

- **أولا أزياء خاصة**: حيث يكون للمصمم فيها قدر كبير من الحرية، فلا قيود من الناحية العملية تحد من خياله، وتفرضها بعض الأعمال المسرحية الخاصة كالاستعراضات الراقصة (الشكل ٢٤) والأعمال التعبيرية وعروض المسرح الأسود. غير أن تلك النوعيات - شأن الأزياء المسرحية عموما - يلتزم فيها المصمم بأسلوب المخرج.

- **ثانيا أزياء حديثة أومعاصرة**: تضم كل ما يمكن أن يرتديه الممثلون في مسرحية واقعية تجري أحداثها في وقتنا الحالي.

- **ثالثا أزياء تاريخية**: تلتزم بكل ما يميز الفترة التاريخية التي تدور فيها الأحداث من خطوط عامة وألوان وخامات مميزة للطراز (راجع الشكل ٢٣).



الشكل (٢٤): الأزياء في العروض الراقصة تحتاج إلى مجموعات الألوان المشرقة والزاهية بعكس أزياء عروض الدراما، خصوصا عروض المأساة، كما تتيح للمصمم قدرا كبيرا من حرية الإبداع.

وترتبط الأزياء أيضا بالإضاءة في التأثير البصري النهائي للمنظر المسرحي، لما للإضاءة من تأثير مباشر في الخطوط والألوان، لذلك «كان لزاما

للحصول على التأثيرات المطلوبة في المظهر النهائي للملابس تحت الأضواء الملونة توخي الدقة في اختيار تلك الألوان، سواء للملابس أو للإضاءة أيضا، وفق ما يقتضي المشهد، ولذلك يفترض على كل من مصمم الأزياء ومصمم الإضاءة وضع الخريطة اللونية الملائمة للمشهد، التي يجب أن تتسم بأكبر قدر من الفعالية والتأثير[٢٠] (الشكل ٢٥). غير أن علاقة الأزياء



الشكل (٢٥): تستغل العلاقة بين الإضاءة وألوان الملابس في العروض الراقصة وكثير من العروض الدرامية لرسم تكوينات مرئية، وفي غياب الديكور تكون الملابس هي العنصر الأساسي فيها، والمشهد من باليه «بريق الجاز» لفرقة الباليه الملكية البريطانية، ١٩٨٥.

بالإضاءة لاتتوقف عند ذلك الحد، بل تتعداه إلى أبعاد فنية أخرى، حين يلجأ المخرج إلى استخدام مؤثرات ضوئية خاصة، كالأضواء فوق البنفسجية مثلا للحصول على تأثيرات معينة في الملابس. أو باستخدام أصباغ لونية على الملابس لتعطي تأثيرات معينة، وتتأكد أهمية الملابس كعنصر حيوي من عناصر التصميم المسرحي في الأعمال التي تحتاج إلى درجة عالية من الحركة الدرامية والتشكيلية، والتي تأخذ الأزياء فيها مكان الصدارة في الصورة المرئية، كتلك العروض التي تقام على أشكال غير تقليدية من المسارح، كمسرح الحلبة والساحة التي يندر فيها استخدام المناظر، ويكون التركيز فيها على الأزياء فقط، بألوانها وخطوطها وما لها من دلالات.



الشكل (٢٦): تطور المعالجات والرؤى التشكيلية في العروض المسرحية الحديثة جعل استخدام الماكياج لايقتصر على وجه الممثل، ففي الصورة نرى أصباغ الماكياج قد شملت أجساد الممثلين بالكامل، ويرجع ذلك بالطبع إلى رؤية المصمم. والمشهد من باليه «شعائر الربيع» Rite of Spring لفرقة الباليه الملكية البريطانية، ١٩٨٧.

الماكياج والأقنعة

الزي المسرحي مركب من عناصر أخرى لها - في حد ذاتها - دورها ودلالاتها كالماكياج والأقنعة، وتلك الملحقات تعتبر من أقدم العناصر الأساسية في فن الدراما، بل إنها - كما يرى البعض - تؤلف العرض بأسره، عندما نرجعها إلى المحافل البدائية التي تمثل نواة فن الدراما الحالي. على أن ما لحق بالفن المسرحي الحديث والمعاصر من تطور في الرؤى التشكيلية قد جعل استخدامهما لا يقف عند حدود وجه الممثل، بل تعدى ذلك إلى ما هو أبعد (انظر الشكل ٢٦).

والماكياج والتمثيل والإضاءة تكوّن في ما بينها ثلاثيا بصريا يتعايش في تكافل، وإذا كان الماكياج يعتمد على الإضاءة في تحقيق وجود الشخصية التي يعبر عنها، فإنهما معا يعتمدان على الممثل في تحقيق وجودهما الفني (الشكل ٢٧)، وهما مرتبطان ارتباطا وثيقا من الناحيتين التقنية والفنية، فكلاهما معا يسعيان إلى جعل الشخصية تبدو ظاهرة بأبعادها[٢١]. وفي ذلك تأكيد على ما بين عناصر التركيبة المسرحية من تآلف.



الشكل (٢٧): الأقنعة والملابس تخلق إيقاعا بصريا لهذه المجموعة من الممثلين، في واحد من مظاهر الدراما الكلاسيكية اليونانية القديمة، والمشهد من مسرحية The Oresteia لأسخيلوس، التي عرضت على المسرح القومي بلندن عام ١٩٨١.

وتظهر القيمة التشكيلية لكل من الماكياج والقناع في أقوى تعبيراتها في العروض المسرحية، التي تعتمد كليا على خطوط وألوان وتكوينات الصورة البصرية، كتلك التي تظهر في الشكل «٢٧»، وعروض المسرح الأسود، وبعض عروض التمثيل الصامت والأعمال التجريبية، التي تعتمد على التكوينات الحركية في المقام الأول.

«والقناع الذي يعد أحد الجذور التأسيسية في الفن المسرحي، هو بطبيعته فن يجمع بين فن التصوير وفن النحت... والقناع والملبس يعايشان الممثل ويلتصقان به، وكلما جاء تشكيلهما بارعا، ذاب كيانهما في عملية إبداع ذلك الكائن الجديد وهو الشخصية، لذلك فإن الأقنعة والملابس هي أقدم العناصر التشكيلية في فن المسرح، وأسبق بكثير من المكان المسرحي المخصص»[٢٢]. وقد كان لاتخاذ القناع في فن المسرح دورا أكبر، إلى حد أن تكونت فرق مسرحية تعتمد في عروضها عليه، مثل فرقة مسرح الأقنعة البريطانية، التي تعتمد على التمثيل الصامت، وتقدم - باستخدام الأقنعة - أنماطا إنسانية متنوعة، وليست مجرد أقنعة خرافية.

إن مسرح اليوم الذي يسعى إلى الاعتماد على التعبير الجسدي واللغة البصرية وبناء الصورة المرئية واختزال اللغة الكلامية، يعطي العناصر البصرية - من ديكور وأزياء وإضاءة، بما تحمله من قيم تشكيلية - مكان الصدارة في عروضه.

أهم نتائج الدراسة

من أهم ما تخلص إليه الدراسة هو ما يمكن إيجازه في ما يلي:

١ - تتلخص وظيفة الديكور المسرحي في مهمات ثلاث تتلخص في: خلق المجال الملائم للعمل المسرحي مكانيا وزمانيا وخلق الحالة النفسية لدى المشاهد، وتفسير روح النص تفسيرا بصريا، وخلق الوحدة بين الممثل والمجال المحيط به.

٢ - الفراغ على خشبة المسرح يحدده الديكور بأبعاده المادية، ويوحي إليه بالتعاون مع العناصر البصرية الأخرى في شكله غير المادي.

٣ - للديكور دور أساسي في تحديد مفهوم الفراغ على خشبة المسرح، الذي يتنوع ما بين ثلاثة أشكال: **أولها** الفراغ المسرحي، وهو مادي محسوس يشمل كل أرجاء الخشبة. **وثانيها** الفراغ التمثيلي، ويشمل منطقة التمثيل، وتحدده الأبعاد المادية للديكور. **وثالثها** الفراغ الدرامي، وهو فراغ وهمي ينطبع في ذهن المتفرج، وتوحي به كل العناصر البصرية وغير البصرية مجتمعة.

٤ - الأزياء هي المعبر الأول عن أبعاد الشخصية في العمل المسرحي.

٥ - الديكور والأزياء هما أقوى العناصر المسرحية في الإشارة إلى المكان والزمان.

٦ - الديكور والأزياء هما العنصران الأساسيان بين عناصر التفسير البصري للعرض المسرحي.

٧ - المسرح هو أكثر الفنون الدرامية البصرية ارتباطا بالفنون التشكيلية.

٨ - الديكور والأزياء وملحقاتهما أصبح لها دور أكبر في صياغة العمل المسرحي بعد أن قل الاعتماد على الحوار في بعض الأعمال التجريبية.

٩ - التأثير البصري النهائي للصورة المسرحية يعتمد في النهاية على تضافر كل العناصر البصرية مجتمعة، من ديكور وملابس وإضاءة.